ما تيسر وتحصل من دروس القرآن

في حزب المفصل

ألقاها

معالي الشيخ الدكتور

صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

في جامع الأمير متعب بن عبد العزيز آل سعود

في الرياض

اعتنى به وأشرف على طبعه

د/ سليمان بن جابر عثمان المجليهم السويلم

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

الجزء الأول

مكتبة دار الحجاز

للنشر والتوزيع

ما تيسر وتحصل من دروس القرآن

في حزب المفصل

(١)

دار الكتب والوثائق القومية
الشئون الفنية
إدارة الإيداع القانوني

عنوان المصنف: ما تيسر وتحصل من دروس القرآن في حزب المفصل
تحقيق: د. سلمان بن جابر عثمان المجلهم السويلم
رقم الإيداع: ٢٠١٣/٢٣١١٠
الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٥٢٣٢-٥٠-٢

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٥هـ

مكتبة دار الحجاز
للنشر والتوزيع

الإدارة والمبيعات جوال - ٠٠٩٦٦٥٦٧٣٣٣٤١٧ - ٠٠٢٠١١١٦٨٩٩١٠٠ - ٠٠٢٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣
الإسكندرية - ١٧٥ش طيبة سبورتنج بجوار مسجد الصديق هاتف: ٠٣/٥٤٦١٥٨٣ - جوال: ٠١١١٦٨٣٣٥٥١
القاهرة - ٦ش الدريسة متفرع من ش البيطار - خلف الجامع الأزهر الشريف - هاتف: ٠٢/٢٥١٠٧٤٧٢
جوال: ٠١١١٦٨٣٣٥٥٠ - فاكس: ٠٠٢/٠٢٢٦٦٣٣٦٧٨
البريد الإلكتروني: dar_alhijaz@hotmail.com

ما تيسر وتحصل من دروس القرآن

في حزب المفصل

ألقاها
معالي الشيخ الدكتور
صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

في جامع الأمير متعب بن عبد العزيز آل سعود
في الرياض

اعتنى به وأشرف على طبعه
د/ سلمان بن جابر عثمان المجلهم السويلم
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

الجزء الأول

مكتبة دار الحجاز
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

إذن بالطباعة

قد أذنت للشيخ [illegible] صاحب مكتبة المجلس العلمي بطباعة
كتابي: (ما تيسر وتحصل من دروس القرآن من حزب المفصل)
مع توصيتي بالإتقان مع العمل بالتعديلات التي أجريتها على الكتاب
أثناء مراجعته. والله ولي التوفيق. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى
آله وصحبه

كتبه

صالح بن فوزان الفوزان مؤلف الكتاب

[توقيع]

في ٢٥/١١/١٤٢٤هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةُ النَّاشِرِ

الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله تعالى، والصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه، وعلى صحابته، وأزواجه، وذريته، وأهل بيته، وعلى من والاه، وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد:

فقد أنجز الله ما وعد به رسوله ﷺ، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، وقد وفق الله من شاء من خلقه لخدمة كتابه الكريم، فتنوعت جهود العلماء في تفسيره، وكشف أسراره، وبيان عجائبه، واستنباط أحكامه، واستفادة العلوم والفنون منه، والنهل من خيره الذي لا ينقضي مما بشر به النبي الأمي ﷺ بقوله: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»، وسور القرآن العظيم تختلف طولا وقصرا، وذكر أهل العلم أقسام القرآن حسب طول السور وقصرها إلى أقسام:

السور الطوال: وهي سبع: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، وقيل: السورة السابعة الأنفال والتوبة معا، وقيل: سورة يونس.

والسور المئون: وهي كل سورة تزيد آياتها عن مائة.

والسور المثاني: وهي ما كان عدد آياتها أقل من مائة؛ ذلك أنها تثنى وتكرر.

وسور المفصل: وهي أواخر القرآن من سورة (ق)، أو (الحجرات)، إلى سورة (الناس).

وممن كتب الله له نصيبا من الخيرية شيخنا، ووالدنا الكريم صاحب الفضيلة، الشيخ العلامة/ **صالح بن فوزان الفوزان** - وفقه الله -، نحسبه والله حسيبه ولا نزكي على الله أحدا، فقد فسَر شيخنا أثابه الله ﷻ سور المفصل في دروس متعددة مما قرأنا عليه في المسجد في مدينة الرياض العامرة، ومما ينبه إليه أن طباعة هذا التفسير بأموال وقفية تبرع بها العم مساعد بن علي الشايجي؛ طلبا للثواب له، ولوالديه، ولزوجه، ولذريته، فنسأل الله أن يعم الجميع بالقبول والرحمة والمغفرة والعافية، بدءًا بشيخنا المؤلف العلامة صالح الفوزان، ومرورًا بالمعتني الذي أشرف على طباعة الكتاب وإخراجه، وختامًا بالمتبرع الكريم، ثبتنا الله بالقول الثابت في الدنيا والبرزخ والآخرة، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله على نبينا ورسولنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وسلم تسليمًا كثيرًا عظيمًا مزيدًا.

✎ **كتبه**

د. سلمان بن جابر عثمان المجلهم السويلم

غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ولمشايخه

الدرس الأول

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ
بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ
عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ٣
إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٤ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ
تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ
فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ
ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ
وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨﴾ [الحجرات: ١- ٨].

هذه السورة تسمى سورة الحجرات، والمراد بالحجرات: منازل النبي ﷺ التي فيها نساؤه، جمع حجرة، وذلك أن النبي ﷺ لما قدم المدينة مهاجرًا أول ما بدأ به بناء مسجده الشريف، فلما فرغ منه بنى حوله الحجرات، من جهة الجنوب، ومن جهة الشرق، وأسكن فيها

نساءه - رضي الله عنهن-، فلما وُسع المسجد بعد وفاة الرسول ﷺ لكثرة المسلمين، وسعه عثمان بن عفان رضي الله عنه من جهة الجنوب، ومن جهة الغرب، ومن جهة الشمال، وتركوا جهة الشرق؛ لأن فيها حجرة عائشة رضي الله عنها، وكان ﷺ قد دُفن فيها هو وصاحباه: أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فكانوا لا يوسعون المسجد من الجهة الشرقية، فكانت حجرة عائشة رضي الله عنها باقية على وضعها، فيها قبر رسول الله ﷺ، وقبرا صاحبيه رضي الله عنهما، فلما جاء وقت الوليد بن عبد الملك وسع المسجد من جهة الشرق، وأدخل حجرة عائشة رضي الله عنها محافظة على قبره الشريف وقبري صاحبيه رضي الله عنهما من الغلو فيهما، فهو ﷺ دُفن في حجرته التي مات فيها؛ لئلا يحصل الغلو عند قبره لو أبرز ودُفن في البقيع مع أصحابه؛ كما قالت عائشة رضي الله عنها: «**لَوْلاَ ذَلِكَ**» يعني: لولا الغلو «**أُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا**»(١).

وفي أولها قال ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ خطاب للمؤمنين؛ لأن المؤمنين هم الذين يمتثلون الخطاب؛ ولأجل تشريفهم بذلك حيث ناداهم الله باسم الإيمان تشريفًا لهم.

والإيمان: قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وهو أخص من الإسلام؛ لأن الدين على ثلاث مراتب: الإسلام والإيمان والإحسان؛ كما في حديث جبريل حينما سأل النبي ﷺ عن الإسلام، وعن الإيمان، وعن الإحسان، ثم

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥، ٤٣٦، ١٣٣٠، ١٣٩٠، ٣٤٥٣، ٤٤٤١، ٥٨١٥)، ومسلم (٥٣١).

قال النبي ﷺ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»[١]، وليس الإيمان مجرد التصديق كما تقول الأشاعرة، ولامجرد القول باللسان كما تقول الكرامية ولا مجرد القول والاعتقاد كما تقول الحنفية، ولا مجرد المعرفة كما تقوله الجهمية، وهذه الفرق تسمى بالمرجئة؛ لأنهم أخروا الأعمال عن مسمى الإيمان. والأرجاء هو التأخير.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يعني اتصفوا بالإيمان الصادق، ظاهرًا وباطنًا.

قال ﷻ: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ هذه السورة فيها الأدب مع الله، والأدب مع الرسول ﷺ، والأدب فيما بين المسلمين بعضهم مع بعض، أما الأدب مع الله ورسوله ففي أول آية ﴿لَا تُقَدِّمُواْ﴾ مجزوم بلا الناهية، وأصله (تقدمون)؛ لأنه من الأفعال الخمسة التي تُرفع بثبوت النون، وتُنصب وتُجزم بحذفها؛ ولذلك حُذفت النون؛ لأجل الجزم، ومعنى ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: لاتسبقوا الله ورسوله بحكم من الأحكام بأن تحكموا على الأشياء بأنها حلال أو حرام قبل أن ينزل فيها وحي من الله ﷻ؛ لأن التحليل والتحريم لله ﷻ، فلا يجوز لأحد أن يسبق نزول الوحي في الأحكام الشرعية ويُبدي رأيه، بل ينتظر؛ ولهذا كان النبي ﷺ إذا سُئل عن الشيء ولم ينزل عليه فيه وحي فإنه ينتظر حتى ينزل عليه الوحي من الله ﷻ، فيجب التأدب مع الله ﷻ، ومع الرسول ﷺ فإذا لم يكن عندك دليل على الحكم من كتاب الله، أو من سنة رسول الله ﷺ فإنك تسكت، ولا تتدخل في التحليل والتحريم إلا على ضوء الكتاب والسنة، هذا هو الأدب الذي أدب الله به

---

(١) أخرجه مسلم (٨).

أهل الإيمان، ويُروى في سبب نزول الآية أنها نزلت في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لأن الرسول ﷺ أراد أن يولي رجلًا على ولاية، فشاورهما فأبو بكر رضي الله عنه أشار برجل، وعمر رضي الله عنه أشار برجل آخر، فلذلك قال: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، فيجب التأدب مع الله[1]، ومن التأدب مع الله التأدب مع كتاب الله سبحانه وتعالى، ومع سنة الرسول ﷺ التأدب، وهي الأحاديث الصحيحة الثابتة عنه ﷺ.

قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ لما نهاهم عن التقدم بين يدي الله ورسوله قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، والتقوى كلمة جامعة لفعل الأوامر وترك النواهي، سميت تقوى؛ لأنها تقي من عذاب الله عز وجل.

قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ختم الآية بهذين الاسمين العظيمين ﴿سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم، ﴿عَلِيمٌ﴾، بأفعالكم وبنياتكم ومقاصدكم، وفي هذا تحذير من الله سبحانه وتعالى من التقدم بين يدي الله ورسوله، فإن الله (سميع) يسمع أقوالكم، و(عليم) يعلم نياتكم ومقاصدكم فاتقوه سبحانه وتعالى، ويؤخذ من هذين الاسمين إثبات صفتين لله سبحانه وتعالى: وهما السمع لله، وإثبات العلم لله سبحانه وتعالى، وهما من صفات كماله سبحانه وتعالى، وقال: ﴿سَمِيعٌ﴾، ﴿عَلِيمٌ﴾، جاءا بصيغة المبالغة؛ لأن سمعه سبحانه وتعالى يسمع كل شيء، وعلمه لا يخفى عليه شيء سبحانه وتعالى، خلاف المخلوق، فإنه وإن كان يسمع ويعلم إلا أنه لا يسمع كل شيء ولا يعلم كل شيء، أما الله عز وجل فإنه يسمع كل شيء في الأرض وفي السماء، ويعلم كل

(١) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٣٤٢)، وزاد المسير (٤/ ١٤٣)، والقرطبي (١٦/ ٢٠٠)، وابن كثير (٧/ ٣٦٥).

شيء في الأرض وفي السماء، ويعلم السر وأخفى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ففي هذا أن العبد يتقي ربه ولا يعمل شيئًا أو يقول شيئًا أو ينوي شيئًا بقلبه يغضب الله عَزَّ وَجَلَّ، فإن الله عَزَّ وَجَلَّ محيط به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢﴾، هذا من الأدب مع الرسول ﷺ أن الإنسان لا يرفع صوته عنده، بل يخفض صوته تأدبًا مع الرسول وإجلالًا له ﷺ، حيًا وميتًا، حيًا في مجالسه ﷺ، فلا يرفع صوته عند سؤال الرسول أو الكلام مع الرسول؛ بل يجعل صوته أخفض من صوت الرسول ﷺ، وبعد موته إذا زار قبره ﷺ للسلام عليه، فإنه لا يسيء الأدب، فإن حرمته ﷺ ميتًا كحرمته حيًا، فيتأدب عند السلام على الرسول ﷺ ويسلم عليه بصوت منخفض، ولا يفعل عند قبره ما نهاه الرسول ﷺ عنه، من الشرك والاستغاثة بالرسول، ودعاء الرسول، وطلب الحوائج منه؛ لأن هذا نهى عنه الرسول ﷺ، فأنت حينما تفعل هذه الأشياء تكون قد عصيت الرسول ﷺ وأسأت الأدب فسلم عليه؛ كما تسلم عليه لو كان حيًا: بأن السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، وبصوت منخفض.

قال العلماء: وإن زاد فقال: أشهد أنك قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة وجاهدت في الله حق جهاده، فجزاك الله عن أمتك خير ما يجزي نبيًا عن أمته، فلا بأس بذلك؛ لأن هذا من أوصافه ﷺ، وليس فيه غلو، ولو اقتصر على لفظ السلام كفى وحصل المقصود.

﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ هذا تأكيد، فإذا خاطبت الرسول ﷺ فلا تجهر

احترامًا له ﷺ، ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ فالرسول ﷺ هو أشرف الخلق، أعظم الخلق قدرًا عند الله سبحانه، وعند المؤمنين، وفي الجهر له بالقول إساءة أدب معه ﷺ، وقد جاء في سبب نزول الآية أن جماعة من الأعراب من بني حنيفة، وعندهم شيء من الجفاء والجهل، جاءوا إلى الرسول ﷺ وكان ﷺ في داخل حجراته مستريحًا، فجعلوا يقولون: يا محمد أخرج إلينا، ويرفعون أصواتهم، فأنزل الله هذه الآيات، فقال فيها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ④﴾[1].

وقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾؛ هذا كما قال ﷻ في الآية الأخرى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، وهذا من باب احترامه وتوقيره ﷺ، والتأدب معه حيًا وميتًا، فإن الرسول ﷺ ليس كواحد منكم؛ بل هو ﷺ أرفع الخلق قدرًا وشرفًا ومنزلة عند الله ﷻ، وعند عباده المؤمنين.

ثم قال: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ حذرهم من أن هذا الفعل يسبب حبوط الأعمال، وبطلان الأعمال، لسوء الأدب مع الرسول ﷺ ورفع الصوت عنده، والجهر عليه بالقول، وهذا خطر عظيم، فيجب التأدب عند مخاطبة الرسول ﷺ حيًا وميتًا، وأن لا يُجهر بالقول، وأشد من ذلك إذا طلب من الرسول ﷺ ما نهاه عنه من الاستغاثة به فيما لا يقدر عليه، ودعائه من دون الله، وغير ذلك من الشرك، هذا أشد من الجهر له بالقول، ﴿أَن

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٣٣٨)، وزاد المسير (٤/ ١٤٥)، والقرطبي (١٦/ ٣٠٩)، وابن كثير (٧/ ٣٤٤).

﴿تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي: خشية أن تبطل أعمالكم، وأصل الحبوط في اللغة: الانتفاخ، يُقال: حبطت الناقة إذا انتفخ بطنها ثم ماتت[١]، والمراد به هنا بطلان الحسنات والأعمال الصالحة، فسوء الأدب مع الرسول ﷺ يسبب بطلان الحسنات، وهذا خطر عظيم، ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ فدل على أن الإنسان قد يحبط عمله وهو لم يتعمد ولم يدرِ، أي انتم لا تدرون ببطلانها، بسبب الجهل، والواجب على المسلم أن يتعلم ولا يبقى على جهله، فهؤلاء الأعراب وقعوا فيما وقعوا فيه بسبب جهلهم.

ثم إنه ذكر ما حصل من الأعراب، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ﴾ أي يقولون: يا محمد اخرج إلينا ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ عندهم خفة عقل وعدم رزانة؛ ولذلك لم يتأدبوا مع الرسول ﷺ، فدل على أن سوء الأدب من خفة العقل، ولم يقل: لا يعقلون كلهم؛ لأنهم ليسوا على حد سواء، ففيهم من يعقل، والله ﷻ لا يظلم أحدًا، ولا يعمم الحكم، ويدخل البريء مع غيره، فهو - سبحانه - الحكم العدل، فدل على أنه لا يجوز التعميم في الأحكام، بل يخص الذين حصل منهم الخطأ، ولا يعمم هذا على غيرهم، وصح في الحديث عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، أَنَّهُ قَالَ: «**لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، جَلَسَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بنِ شماسٍ رضي الله عنه فِي بَيْتِهِ، وَقَالَ: أَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَاحْتَبَسَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَسَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَمْرٍو، مَا شَأْنُ ثَابِتٍ؟ اشْتَكَى؟ قَالَ سَعْدٌ: إِنَّهُ لَجَارِي، وَمَا عَلِمْتُ لَهُ بِشَكْوَى، قَالَ: فَأَتَاهُ سَعْدٌ،**

---

(١) انظر مادة (حبط) في: لسان العرب (٧/ ٢٧٠)، وتهذيب اللغة (٤/ ٢٢٨)، ومقاييس اللغة (٢/ ١٢٩)، والنهاية في غريب الحديث (١/ ٣٣١).

فَذَكَرَ لَهُ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ ثَابِتٌ: أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي مِنْ أَرْفَعِكُمْ صَوْتًا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَذَكَرَ ذَلِكَ سَعْدٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»(١)، فشهد له ﷺ بالجنة، فهو من المشهود لهم بالجنة، وقد استشهد رضي الله عنه في واقعة اليمامة في حرب مسيلمة، فوقع ما أخبر به ﷺ من نهاية حياة هذا الصحابي الجليل بالشهادة في سبيل الله سبحانه وتعالى(٢)، فالمؤمن يكون عنده حساسية حينما يسمع الوعيد، فإنه يحذر ويحاسب نفسه؛ لئلا يقع في هذا الوعيد، مع أن ثابت بن قيس رضي الله عنه لم يقصد رفع الصوت عند الرسول ﷺ، وإنما هذا شيء طبيعي منه، ولكن هذا من شدة خوفه وحذره.

ثم قال عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ أي: الأعراب، الذين ينادونك من وراء الحجرات ﴿صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ ففي هذا تأديب من الله سبحانه وتعالى لعباده عندما يستأذنون على الرسول ﷺ، أو على عالم من العلماء، أو على مسلم من المسلمين أن يستعملوا الأدب عند الاستئذان، وأن يصبروا إذا لم يبادر صاحب البيت بإجابتهم والخروج إليهم، والاستئذان ثلاث، قال ﷺ: **«الِاسْتِئْذَانُ ثَلَاثٌ، فَإِنْ أُذِنَ لَكَ، وَإِلَّا فَارْجِعْ»**(٣)، فأنت تصبر وتستأذن ثلاث مرات فإن أُذن لك وإلا فارجع، لكن إذا كان هذا في حق الرسول ﷺ فهو أشد، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من رفع الصوت.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٣، ٤٨٤٦)، ومسلم (١١٩) واللفظ له.

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه أحمد في مسنده (١٩/ ٣١٩)، وابن أبي شيبة (٤/ ٢٠٥، ٦/ ٥٤٦). وانظر: تاريخ الطبري (٣/ ٢٩٠)، والمنتظم (٤/ ٨٩)، والبداية والنهاية (٦/ ٣٥٧)، والكامل (٢/ ٢١٧).

(٣) أخرجه مسلم (٢١٥٣).

قال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بشرهم الله ﷻ في أنه سيغفر لهم ويرحمهم لئلا ييأسوا من رحمة الله، وهذا من تلطفه بعباده ﷻ وفتح باب الرغبة إليه والأمل في رحمته، وأن الإنسان لا يقنط، ولو وقع منه شيئ فيه مخالفة فإنه لا يقنط من رحمة الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣]، لكن عليه الاستغفار والتوبة.

ثم قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾ هذا من الأدب مع المسلمين، لما ذكر الأدب مع الله، ومع رسول الله، ذكر الأدب مع المسلمين فيما بينهم فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾، وانظر كيف كرر هذا النداء، عدة مرات في هذه السورة العظيمة؛ من أجل أهمية ما ذكر الله فيها من الآداب العظيمة؛ ولأجل تشريف المؤمنين وبتكرار ندائهم ثم قال: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ﴾.

والفاسق: اسم فاعل من فسق الشيء إذا خرج، ويُقال: فسقت الحبة إذا خرج النبات منها.

فالفسوق في اللغة: هو الخروج من الشيء، قال ﷻ: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠]، يعني خرج عن طاعة الله ﷻ، ومنه سميت الفأرة بالفويسقة؛ لأنها خرجت عن عادة الحشرات في أنها تؤذي، هذا من حيث اللغة[١].

---

(١) انظر مادة (فسق) في: لسان العرب (١٠/ ٣٠٨)، وتهذيب اللغة (٨/ ٣١٥)، ومقاييس اللغة (٤/ ٥٠٢)، والنهاية في غريب الحديث (٣/ ٤٤٦).

قال ﷺ: «**خَمْسٌ فَوَاسِقُ، يُقْتَلْنَ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ**»(١) مع أن هذه الفواسق لسن مكلفات، ولكن المراد أنهن خرجن عن العادة في أمثالهن من عدم الأذى، فصرن مؤذيات فخرجن عن عادة مثلهن، سميت بالفاسقات، هذا هو الفسق في اللغة.

والفاسق عند أهل السنة والجماعة: هو الذي يرتكب كبيرة من كبائر الذنوب وهي دون الشرك، فهذا يسمى فاسقًا بمعصيته، مؤمنًا بإيمانه(٢).

والفسق على نوعين(٣):

* فسق أكبر، يُخرج من الملة، مثل فسق إبليس لعنه الله، قال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ١٠٨]، والمراد الفسق الأكبر المخرج من الملة.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣١٤)، ومسلم (١١٩٨).
(٢) انظر: العقيدة الواسطية مع شرحها للمؤلف - حفظه الله- (ص ؟؟؟).
(٣) قال ابن القيم رحمه الله في مدارج السالكين (١/ ٣٥٩ - ٣٦٢): (وأما الفسوق فهو في كتاب الله نوعان: مفرد مطلق، ومقرون بالعصيان، والمفرد نوعان أيضًا: فسوق كفر يخرج عن الإسلام، وفسوق لا يخرج عن الإسلام...) إلى أن قال: (والفسوق الذي تجب التوبة منه أعم من الفسوق الذي تُرد به الرواية والشهادة، وكلامنا الآن فيما تجب التوبة منه وهو قسمان: فسق من جهة العمل، وفسق من جهة الاعتقاد، ففسق العمل نوعان: مقرون بالعصيان، ومفرد... وفسق الاعتقاد كفسق أهل البدع الذين يؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر، ويحرمون ما حرم الله، ويوجبون ما أوجب الله، ولكن ينفون كثيرًا مما أثبت الله ورسوله جهلًا وتأويلًا وتقليدًا للشيوخ، ويثبتون ما لم يثبته الله ورسوله كذلك، وهؤلاء كالخوارج المارقة، وكثير من الروافض والقدرية والمعتزلة، وكثير من الجهمية الذين ليسوا غلاة في التجهم، وأما غالية الجهمية فكغلاة الرافضة ليس للطائفتين في الإسلام نصيب) ا.هـ.

* وفسق أصغر لا يخرج من الملة وهو فسق أصحاب الكبائر التي دون الشرك.

﴿بِنَبَإٍ﴾ والنبأ: هو الخبر، وسبب نزول الآية أن الرسول ﷺ أرسل رجلًا إلى قبيلة من المسلمين لجباية زكاتهم، وكان بينه وبين هذه القبيلة عداوة في الجاهلية، فخشي أنهم يقتلونه إذا قدم عليهم، فرجع من الطريق، وقال للرسول ﷺ: إنهم منعوا الزكاة، وأبوا أن يدفعوها إليَّ، فهمَّ النبي ﷺ أن يجهز لهم غزوًا ليغزوهم، فأنزل الله هذه الآية يُبرئ هذه القبيلة، ويُكذب هذا المخبر، ويصف صاحبه بالفسق، أي فإذا سمعت خبراً عن أحد من المسلمين، أو عن أحد مطلقًا، فأنت لا تستعجل بالتصديق، إذا كان هذا المخبر ليس ثقة، فتثبت، أما لو جاء العدل الصادق فهذا يُقبل، فالمخبرون على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الصادق المعروف بالصدق، فهذا يُقبل خبره وروايته وشهادته.

النوع الثاني: معروف بالكذب، فهذا لا يُقبل خبره؛ لأنه كذاب.

الثالث: المشتبه المجهول، الذي لا يُدرى هل هو صادق أو كاذب؟ فهذا يتوقف فيه حتى يتبين الأمر، ولا يُستعجل، ومن هنا فالمحدثون لا يقبلون رواية مجهول الحال، بينما يقبلون رواية الصادق المتثبت في روايته، ويردون خبر الكذاب،

وقد لا يكون هذا المخبر متعمدًا للكذب، ولكن من طبيعته العجلة، فيُخبر وهو لم يتثبت؛ فلهذا حذر الله من قبول مثل هذا، فدل على أن العدل

تُقبل روايته وخبره، وإنما يتوقف في رواية الفاسق؛ وكذلك مجهول الحال.

قال: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾أي تثبتوا؛ كما في قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ [النساء: ٩٤]، أي: تثبتوا ممن تلاقونهم لا تبادروهم بالقتال حتى تتثبتوا من شأنهم، ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فالتثبت مطلوب، ومن هنا يجب على المسلمين عمومًا، وعلى طلبة العلم خصوصًا وفي هذا الزمان أخص التثبت عند الشائعات أوقعت العداوة بين الناس وخصوصًا بين طلبة العلم، وبين طلبة العلم والمشايخ، وبين المشايخ بعضهم مع بعض، بسبب الشائعات، وأخبار الفساق أو أخبار الذين لا يتثبتون، فوقعت مفاسد الآن - خصوصًا بين الشباب وطلبة العلم- وهذا أمر لا يجوز، فيجب التثبت في الأمور، ومن ذلك لو أن عالمًا أو طالب علم حصل منه خطأ فلا يُشاع خطؤه، ولا يُذكر في المجالس، وإنما يُتصل به ويُناصح سرًا، ويُقال له: إنك يُذكر عنك، أو حصل منك كذا وكذا، وهذا غلط، وهذا كذا، ويبين له، فهذا هو طريق النصيحة، أما التشهير في المجالس هذا يعتبر من الغيبة، وسيأتي في هذه السورة التحذير من الغيبة.

لماذا يتبينون؟ ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ يعني خشية، أو احذروا أن تصيبوا قومًا بجهالة، وهم لا يستحقون العقوبة، وأنتم تهجمون عليهم وتعاقبونهم أو تتكلمون فيهم، أو تحذرون منهم بدون تثبت وبدون روية، فيكون هذا من إصابة البريء، حتى ولو لم تتعمدوا هذا، فأنتم مخطئون؛ لأنكم لم تتثبتوا، ولهذا قال: ﴿فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ هذه العاقبة للتعجل، فلو أنك تعجلت وصدقت خبر الفاسق أو المجهول الحال وأوقعت في المخبر عنه ما

يكره من الوقيعة في عرضه، أو من العقوبة في بدنه أو غير ذلك، ثم تبين أنه بريء، ماذا تكون حالك حينئذٍ؟!! ﴿فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ ولا ينفع الندم بعد وقوع المكروه، وقد يحصل مفاسد لا يمكن الخروج منها، مهما حاولت، فتصبحوا على ﴿مَا فَعَلْتُمْ﴾ من إصابة البريء، ﴿نَٰدِمِينَ﴾ على فعلكم، ولو أنكم من الأول استدركتم هذا ولم تتعجلوا حتى يتبين لكم الأمر لسلمتم من هذه الغائلة والورطة التي وقعتم فيها، فهذا تأديب للمؤمنين، التثبت في الأخبار خصوصًا إذا فشا الكذب والأهواء والشائعات، فالمسلم يكون ثابتًا لا يطير مع الشائعات، ومع الأقاويل ويتكلم بما لا يتحقق منه، وكم حصل بسبب هذا من النتائج الوخيمة!

ثم قال ﷻ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ الواجب الرجوع إلى رسول الله ﷺ، إذا حدثت حادثة فإنه يُرجع فيها إلى الرسول ﷺ في حياته، وبعد مماته يُرجع إلى سنته ﷺ، وإلى أهل العلم الذين هم ورثة الأنبياء[1]، قال ﷻ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ [النساء: ٨٣]، وهنا يقول ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ أي يعيش بين أظهركم، فكان هو المرجع، فلماذا تتقدمون عليه ولا ترجعون إليه، فلو رجعتم إليه لانتهت المشاكل، والرجوع إليه حيًا ﷺ، إنهاء الأمر إليه وسؤاله وأما بعد مماته فالرجوع إلى سنته، وإلى أهل العلم الذين هم ورثة النبي ﷺ، فالأمور لها

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣).

مواضع توضع فيها، ولا يتدخل فيها كل أحد، إنما تُرد إلى أهل الرأي والخبرة والعلم والعقل والرزانة في الأمور العامة التي تهم المسلمين، وقوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ يعني فعظموه ووقروه واحترموه وارجعوا إليه فيما أشكل عليكم، ارجعوا إليه حيًا بذاته، وبعد وفاته ارجعوا إلى سنته؛ ولهذا قال ﷺ لما طلبوا منه الوصية حينما وعظهم موعظة بليغة، قالوا: **«كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فأوصنا قَالَ: أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ تَأَمَّر عليكم عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ»**(١) فأوصى ﷺ بعد وفاته أن يُرجع إلى سنته، وإلى سنة خلفائه الراشدين ﷺ، فيما أشكل وفيما نزل، وفيها الهداية وبيان الصواب.

ثم قال: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾ أي فلو أن الرسول أطاعكم وتمشى معكم ﴿لَعَنِتُّمۡ﴾ يعني تعبتم من العنت وهو التعب؛ ولهذا قال ﷻ: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ [المؤمنون: ٧١]، فلو أن الرسول طاوعهم على أهوائهم، وعلى رغباتهم، وعلى أفكارهم، لحصل التعب للأمة، ولكن الرسول ﷺ لا ينطق عن الهوى ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤]، فهو المعصوم ﷺ، أما آراء الناس واجتهادات الناس فإنها عرضة للخطأ.

ثم قال ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢، ٤٣، ٤٤)، والدارمي (٩٥)، وأحمد (٤/ ١٢٦)، والطبراني في الكبير (٦٢٣)، وابن حبان (١/ ١٧٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٧٦)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١١٤).

﴿وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ المؤمن ليس هناك شيء أحب إليه من الإيمان، إذا وجد حلاوته وخالط بشاشة قلبه، فليس هناك شيء ألذ عنده من الإيمان؛ ولهذا قال ﷺ: «**ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بعد إذ أنقذه اللهُ منه؛ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**»(١)؛ ولهذا إذا خالط الإيمان القلب ووجد العبد حلاوته ثبت ولم يرتد عنه، ولو قُطِّع، ولو عُذِّب، ولو حُرِّق، فإنه لا يرجع عن الإيمان، إنما يرتد من لم يتمكن الإيمان من قلبه، ولم يجد طعم الإيمان، هذا عرضة للردة والانتكاس، أما الذي وصل الإيمان إلى قلبه وخالط بشاشته، فهذا يثبت ثبات الجبال الرواسي، ولا تزعزعه الأحداث والمتغيرات والمغريات والتهديدات، بل يثبت على الإيمان مهما كلفه الثمن، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ فلا شيء أحب عند المؤمنين من الإيمان، ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ حيث تجدون حلاوته وزينته في القلوب وبشاشته، ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ الكفر ضد الإيمان، الله كرهه إلى المؤمنين؛ ولذلك تركوا الكفر وعادوا أهله وتبرأوا منهم وقاتلوهم، ولو كانوا أقرب الناس إليهم، لأن المعاصي على ثلاثة أقسام:

* كُفر يُخرج من الملة.

* أو فسوق لا يُخرج من الملة، ولكنه ينقص الإيمان مثل الكبائر التي دون الشرك، هذه فسوق.

---

(١) أخرجه البخاري (١٦، ٢١)، ومسلم (٤٣).

* والعصيان سائر المحرمات التي لم تصل إلى حد الكبيرة.

والله كره هذه الأقسام الثلاثة إلى المؤمنين الإيمان الصادق، كره إليهم الكفر؛ ولذلك ثبتوا على إيمانهم، وكره إليهم الفسوق؛ ولذلك لا يقعون في الكبائر من شرب الخمر والزنا والسرقة إلى آخره، وكره إليهم العصيان، ولذلك لا يخالفون المناهي الثابتة عن الرسول ﷺ، إذا بلغهم أن هذا نهى عنه الرسول تجنبوه ولا يقارفونه أبدًا؛ لأنهم يكرهونه، حيث جعل الله في قلوبهم كراهية ذلك.

ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: المتصفون بهذه الصفات ﴿هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ الرشد ضد الغي، فمن اتصف بهذه الصفات فهو راشد، قال ﷻ: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال ﷻ: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦].

ثم قال: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ أي هذا الذي حصل لهم، إنما هو تفضل من الله، لا بحولهم ولا بقوتهم، وإنما الله هو الذي وفقهم لذلك، وهذا فيه أن الإنسان لا يغتر بما هو عليه من الدين والعلم والعبادة، بل يشكر الله على نعمته، ويعترف أن هذا فضل من الله ﷻ عليه.

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يصلح لهذا الفضل والنعمة ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأمور في مواضعها، فلا يضع هذا الفضل والنعمة فيمن لا يستحقها، وإنما يضعها فيمن يستحقونها.

الدرس الثاني

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ٩- ١٢].

لا تزال الآيات الكريمات تتواصل في تربية المسلمين، وتهذيب أخلاقهم لما في ذلك من وسائل الألفة والمحبة بين المسلمين.

قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ ذكر في هذه الآية والآيات التي بعدها بيان الأسباب التي تفرق بين المسلمين، وذكر علاجها، وبهذا يحصل الوئام والألفة والمحبة واجتماع الكلمة بين الراعي والرعية، وبين المسلمين بعضهم مع بعض.

قوله ﷻ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ﴾ **تثنية طائفة والطائفة**: هي الجماعة أو الفرقة، وقد تُطلق الطائفة ويُراد بها الواحد، ولكن المراد هنا الفرقة والجماعة[(١)].

فقوله ﷻ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ اقتتلوا فيما بينهم بالسلاح، وحمل بعضهم على بعض السلاح، فهذا أمر محرم والعلاج في هذه القضية ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ بأن يُبادر بالإصلاح بينهما، والإصلاح: هو تسوية النزاع بين المختلفين على طريق التراضي بينهم، فإذا تراضوا ورضوا بالصلح فالحمد لله فقد انتهت المشكلة، والإصلاح ضد الإفساد، فدل على أن تقاتلهما إفساد، وأن تسوية النزاع ومنع الاقتتال بين المسلمين إصلاح، ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ هذا خطاب لولاة الأمور، وللعلماء، ولأفراد المسلمين وللعقلاء من المسلمين وأصحاب الرأي والمشورة، كل يسعى بالإصلاح حتى بين الاثنين، إذا حصل بينهما خصام فيُشرع الإصلاح بينهما، فكيف إذا كان الخصام بين جماعتين، من المؤمنين، فإن الأمر يتأكد.

والإصلاح له فوائده عظيمة، وأجره عظيم، قال ﷻ: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء: ١١٤]، قال ﷻ: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨]، قال النبي ﷺ: «**الصُّلحُ جائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا صُلحًا أَحَل حَرَامًا أَوْ حَرَّمَ حَلالا**»[(٢)].

---

(١) انظر: لسان العرب (٩/ ٢٢٦)، والكليات (ص٥٨٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٥٩٤)، والترمذي (١٣٥٢)، وابن ماجه (٢٣٥٣)، وأحمد (١٤/ ٣٨٩)، وابن حبان (١١/ ٤٤٨)، والبيهقي في الصغرى (٢/ ٣٠٢)، وفي الكبرى (٦/ ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧)، والدارقطني (٣/ ٤٢٦، ٥/ ٣٦٩).

وقوله: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾ هذا أمر للوجوب، ولا نقف متفرجين على ما يقع بين المسلمين من خصام وقتال وسوء تفاهم؛ بل يجب أن نتدخل؛ لأجل تدارك الخطر الذي ينجم عن الاختلاف، ولهذا لما انشقت طائفة الخوارج[١] في عهد أمير المؤمنين الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وخرجوا عليه وانحازوا وصاروا يهددون المسلمين، أرسل إليهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ابن عمه حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في معسكرهم، فناظرهم رضي الله عنه واستعرض شبهاتهم ورد عليها برد مقنع، فرجع منهم أربعة آلاف، وبقي أكثرهم على ضلاله، عند ذلك قاتلهم أمير المؤمنين عملًا بهذه الآية[٢].

فيتخذ معهم خطوات:

الخطوة الأولى: الإصلاح.

الخطوة الثانية: القتال إذا لم يجدِ الإصلاح.

---

(١) هم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه حين جرى أمر المحكمين، واجتمعوا بحروراء من ناحية الكوفة، وفيهم قال النبي ﷺ: «**يَحْقِرُ أحدكم صَلَاتَهُ مع صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مع صِيَامِهِمْ يَمْرُقُونَ من الدِّينِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ من الرَّمِيَّةِ**». أخرجه البخاري (٢٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وكل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجيًا، سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان والأئمة في كل زمان. انظر: مقالات الإسلاميين (ص ٤، ٨٦)، والفرق بين الفرق (ص٥٤)، والملل والنحل (١/ ١١٤).

(٢) انظر: المنتظم (٥/ ١٢٥)، وتاريخ الإسلام (٣/ ٥٩١)، والبداية والنهاية (٦/ ٢١٦، ٧/ ٢٨١)، ومنهاج السنة النبوية (٤/ ٤٩٧، ٥/ ٢٤١)، ومجموع الفتاوى (٣/ ٢٤٠، ٤/ ٥٠٠، ١١/ ٦٨٥، ١٣/ ٢٠٨).

قال: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾، ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ﴾ هذا خطاب لولي الأمر وللمسلمين معه أن يُقاتلوا الفئة الباغية كفًا لشرها عن المسلمين.

وقوله ﷻ: ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ﴾ أي ترجع إلى الصواب، إلى الكتاب والسنة، فإذا فائت ورجعت فلا حاجة إلى القتال؛ لأن القتال هنا بقدر الحاجة، فإذا انتهت المهمة يُكَفُّ عن قتالهم، و ﷺ إذا قوتلوا فلا يُجهز على جريحهم، ولا تُغنم أموالهم، ولا تُسبى نساؤهم، ولا يُطلب هاربهم؛ لأن هؤلاء مسلمون وإنما قاتلناهم لعرض عارض، فإذا زال العارض انتهى القتال،

قال ﷻ: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ أي إذا ترتب على القتال الذي دار بين الفئة العادلة، والفئة الباغية، أضرار فإنه تُصلح آثار القتال المترتبة عليه، تُصلح بالعدل بين الطائفتين، فدل على أن الصلح لابد أن يكون بالعدل، لا يكون معه حيف، إذًا فالصلح يشترط فيه شرطان:

* **أولًا**: أن يكون بالعدل دون انحياز إلى فئةٍ دون فئة.

* **ثانيًا**: أن يكون بالتراضي بين الطرفين.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْ﴾ تأكيد لقوله: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ فهذا من باب التأكيد بأن يكون الصلح عادلًا دون تحيز مع بعض الفئتين، أما القَسطُ فمعناه الجور والظلم، من الفعل الثلاثي (قسط) يعني: جار وظلم، قال ﷻ ﴿وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ١٥﴾ [الجن: ١٥]، وأما الإقساط الرباعي المزيد فإن معناه العدل، «**إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ**»[(١)]؛ كما جاء في الحديث، وفي رواية: «**الْمُقْسِطُونَ فِي الدُّنْيَا عَلَى مَنَابِرَ مِنْ لُؤْلُؤٍ يَوْمَ**

(١) أخرجه مسلم (١٨٢٧).

الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ بِمَا أَقْسَطُوا فِي الدُّنْيَا»[١]، فالمقسطون لهم أجر عظيم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ هذا فيه وصف الله ﷻ بأنه يحب أهل الطاعات، وأهل الإنصاف والعدل، وفي مفهوم ذلك أن الله يبغض غير المقسطين وهم الظلمة، الجائرون، ودلت الآية الكريمة على مسألة عظيمة وهي أن مرتكب الكبيرة من المؤمنين التي دون الشرك بالله أنه لا يكفر، وقتل النفس لاشك أنه كبيرة من كبائر الذنوب، بل هو كبيرة غليظة، ومع هذا لم يحكم على هؤلاء بالكفر، بل قال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ﴾ حكم أنهما من المؤمنين وليسوا من الكافرين، فدل على أن قتل المؤمن بغير حق، وإن كان جريمة كبيرة غليظة إلا أنه لا يُخرج صاحبه من الملة، لكنه ينقص إيمانه، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة، ودلت الآية على وجوب العدل في الحكم بين الناس، والإصلاح بينهم، وعدم التحيز، وعدم المحاباة لأحد الخصمين، وأن يكون الدافع للمصلح هو تسوية النزاع، فدل على وجوب العدل، ودل على وصف الله ﷻ بأنه يحب وأنه يبغض وأنه يكره وأنه يغضب وأنه يسخط، أفعال من أفعال الله ﷻ تليق بجلاله، وليست كصفات المخلوقين؛ كما هو معلوم.

ودلت الآية الكريمة على الاهتمام بشؤون المسلمين وأنه يجب على المسلمين أن يصلحوا بين المتنازعين والمتقاتلين والمختلفين؛ ولهذا جعل الله للغارمين في الإصلاح نصيبًا من الزكاة ولو كانوا أغنياء، فمن مصارف

---

(١) أخرجه أحمد (١١/ ٢٤، ٤٩٩)، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٩)، والحاكم في المستدرك (٤/ ١٠٠)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٦٧).

الزكاة إعطاء الغارمين، فالغارم على قسمين:

القسم الأول: غارم لإصلاح ذات البين، وهو ما يسمى الغارم لغيره، فهذا يُعطى من الزكاة ولو كان غنيًا؛ لئلا تجحف الغرامة بماله، إذا تحمل حمالة لأجل يصلح بين الناس فإنه لا يُترك يتحملها وحده، بل يُعان عليها.

القسم الثاني: الغارم لنفسه وهو المدين المعسر، الذي لا يقدر على السداد، أما إذا كان مدينًا يقدر على السداد، هذا لا يستحق الزكاة.

ثم قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ هذا يدل على ما دلت عليه الآية السابقة أن الكبيرة لا تُخرج المسلم من الإيمان ما دامت دون الشرك والكفر بالله ﷻ، لأنه سماهم إخوة مع كونهم يتقاتلون، وقال ﷻ في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ﴾ [البقرة: ١٧٨]، فسمى القتيل أخًا للقاتل، فإذا عُفي للقاتل عن شيء من دم أخيه ﴿فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ فسماهم إخوة مع كون أحدهم قاتلًا والآخر مقتولًا، فدل على أن الكبيرة التي دون الشرك لا تُخرج المؤمن من الإيمان، لكنها تنقص إيمانه، خلافًا للخوارج والمعتزلة، لكنها تنقص إيمانه خلافًا للمرجئة، الذين يرون أن الكبائر لا تنقص الإيمان، فهذا هو مذهب أهل السنة ولله الحمد، وهو المذهب الوسط بين مذهب الخوارج ومذهب المرجئة.

ثم قال ﷻ: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ﴾ أي بموجب الأخوة أصلحوا بين إخويكم، إذا حصل سوء تفاهم بين الإخوة فاسعوا في الإصلاح، والمؤمنون إخوة سواء كانوا متعاصرين، أو كان بعضهم متأخرًا والأول متقدمًا حتى في أول الخلق، المؤمنون إخوة من أول الدنيا إلى آخرها، وسواء كانوا في بلد

واحد أو في بلدان متفرقة، المؤمنون إخوة؛ كما قال في حق الصحابة ﵃: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الحشر: ١٠].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ اتقوا الله بفعل أوامره، وترك نواهيه، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ يعني رجاء أن تنالوا رحمة الله ﷻ، رحمة الله إنما تُنال بالتقوى، وهي أن تفعل ما أمرك الله به، وأن تترك ما نهاك الله عنه طمعًا في ثوابه، وخوفًا من عقابه، على نور من الله ﷻ، هذه هي التقوى، سميت تقوى لأنها تقي من عذاب الله ومن غضب الله، فدل على وصف الله ﷻ بالرحمة، ومن أسمائه: الرحمن الرحيم وهما يتضمنان صفة من صفات الله ﷻ وهي الرحمة، فدل ذلك على أن رحمة الله إنما تُنال بأسبابها وهي تقوى الله ﷻ.

ثم قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ لما انتهى من ذكر أكبر ما يُفرق بين المسلمين وهو الاقتتال، انتقل إلى نوع آخر من أنواع الأسباب المفرقة بين المسلمين، وهي السخرية بعضهم من بعض فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ ناداهم باسم الإيمان مما يدل على أن المؤمن لا يليق به أن يسخر من أخيه، وإن كان أقل منه مرتبة، أو أقل منه مكانة، أو أقل منه هيئة، أو أفقر منه، فإنه لا يسخر منه؛ لأنه مؤمن، والمؤمن كريم على الله ﷻ، قال ﷺ: «**رُبَّ أَشْعَثَ، مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ**»[1] العبرة ليست بالمظاهر، وإنما العبرة بتقوى الله ﷻ، والسخرية: هي التنقص للمسلمين.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٢) من حديث أبي هريرة ﵁.

ثم قال ﷻ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ لعل أن يكون المسخور منهم خيرًا من الساخرين؛ كما في الحديث السابق، فربما يكون المسخور منه أفضل من الساخر.

قال تعالى: ﴿وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ﴾ دل على أن القوم اسم للرجال ولا تدخل فيه النساء؛ ولهذا يقول الشاعر[1]:

وَمَا أدري لستُ إخالُ أدْرِي أقومٌ آلُ حِصْنٍ أم نِساءُ

أي لا تسخر المرأة من أختها المسلمة، ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾ عسى أن يكن النساء المسخور منهن خير من الساخرات، فليست الأمور بالمظاهر، ولا بنظريات الناس، وإنما الأمور بما في القلوب من خوف الله، وخشيته، ومحبته، وطاعته، هذا المعتبر، قال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**»[2]، وكذلك لا يسخر الرجل من المرأة، ولا تسخر المرأة من الرجل؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ رجالاً ونساءً، هم إخوة في الإسلام.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ اللمز: هو التنقص، ويكون بالقول، أما الهمز فهو بالفعل؛ ولهذا قال ﷻ: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، وهل معناه أن الإنسان يلمز نفسه؟ لا أحد يريد أن يلمز نفسه، فالمراد: لا يلمز بعضكم بعضًا؛ لأن المؤمنين كالنفس الواحدة، فإذا لمزت أخاك

---

(١) من شعر زهير بن أبي سلمة. انظر: ديوانه (ص٧٣)، والعين (٥/ ٢٣١)، وتهذيب اللغة (٩/ ٢٦٦)، ولسان العرب (١٢/ ٥٠٥).

(٢) أخرجه مسلم (٣٤، ٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فقد لمزت نفسك، قال ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**»(١)، وقال: «**الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا**»(٢).

ثم قال ﷻ: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ كل هذه أسباب للنفرة والتفرقة قضى عليها القرآن، واللقب: هو ما أشعر بمدحٍ أو ذم، أي الألقاب السيئة التي يكرهها أخوك، فلا تلمزه بلقب سيئ، أو أن تلمزه بعيب في جسمه، وتتنقصه من أجل ذلك، فإن هذا لا يجوز، وليت طلبة العلم الآن يتنبهون لهذا؛ لأنهم وقع بعضهم في بعض باللمز والتنابز بالألقاب، وتلمس العثرات من بعضهم على بعض، والتحيزات والانقسامات، فهذا مما حذر الله ﷻ منه في هذه الآيات الناس عمومًا، وطلبة العلم خصوصًا، فيجب عليهم أن يتركوا هذه الأمور؛ لأنهم إخوة، ولأن عيب أحدهم عيب للجميع، إذا عبت طالب علم عبت طلبة العلم كلهم، إذا عبت عالمًا من العلماء عبت العلماء كلهم، والمؤمن حتى ولو لم يكن عالمًا يجب احترامه، **وَنَظَرَ ابْنُ عُمَرَ** رضي الله عنهما **يَوْمًا إِلَى الْبَيْتِ أَوْ إِلَى الكَعْبَةِ فَقَالَ: «مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ، وَالْمُؤْمِنُ أَعْظَمُ حُرْمَةً عِنْدَ اللَّهِ مِنْكِ»**(٣)، فيدل هذا على أنه لا يجوز تنقص المسلمين ولمزهم بالألقاب.

ثم قال ﷻ: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾، ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ﴾ وهو التنابز بالألقاب، ﴿ٱلْفُسُوقُ﴾ وهو الخروج عن طاعة الله؛ لأن هذا خروج عن

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) واللفظ لمسلم.

(٢) أخرجه البخاري (٤٨١، ٢٤٤٦، ٦٠٢٦)، ومسلم (٢٥٨٥).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٠٣٢)، وابن حبان (١/ ٤٩).

طاعة الله، الله أمرك باحترام إخوانك خرجت على هذا فنبزتهم بالألقاب التي يكرهونها؛ ولهذا جاء في الحديث: «**سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**»[(١)]، «**سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ**»، فسباب المسلم فسوق؛ كما في هذه الآية وكما في الحديث.

«**وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**» يعني: كفر أصغر وليس الكفر المخرج من الملة.

ثم قال ﷻ: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ من هذه الخصال السيئة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الظالمون لأنفسهم، والظالمون لغيرهم؛ لأن الظلم: هو وضع الشيء في غير موضعه، وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ظلم بين العبد وبين ربه، وهو الشرك، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

الثاني: وظلم العبد لنفسه بالمعاصي والسيئات، فإنه إذا عصى الله فقد ظلم نفسه؛ لأنه عرضها للعقوبة، وإذا أطاع الله فقد أكرم نفسه حيث عرضها للثواب.

والثالث: ظلم العباد بعضهم مع بعض، وهو المراد هنا ظلم العباد ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ من السخرية والتنابز بالألقاب وغير ذلك من أسباب التفرقة بين المسلمين، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، والظلم مرتعه وخيم، ودل على أن من تاب من السخرية والغيبة والنميمة والسب والشتم، فإن الله يتوب عليه فيما بينه وبين الله، لكن حق المخلوق لابد أن يسمح به، فكيف يتوب النمام

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨، ٦٠٤٤، ٧٠٧٦)، ومسلم (٦٤).

والمغتاب واللماز والمتمسخر، كيف يتوب وهو قد ظلم الناس؟ قالوا: يستسمح منهم، يتحلل منهم، يطلب منهم المسامحة لئلا يأخذوا من حسناته يوم القيامة، يتحلل منهم اليوم، أوردوا على هذا إشكالًا وهو أنه لو ذكر لهم ذلك ربما زادهم غضبًا عليه، قالوا: إذا كان يخشى إن إخباره لهم أو أنهم ميتون أيضًا، أو أحياء ولكن إذا أخبرهم تسوء العشرة بينهم، قالوا: لا يخبرهم، ولكن يدعو لهم، ويثني عليهم في المجالس التي اغتابهم أو سخر منهم، أو لمزهم فيها، يثني عليهم ويدعو لهم، ويكون بذلك قد تاب إلى الله ﷻ، فتوبته من حقوقهم:

* إما بأن يستسمح منهم إن أمكن.

* أو بأن يدعو لهم ويثني عليهم في المجالس التي ذمهم فيها، أو تناولهم فيها.

وجاء في الحديث أنه يجب على من حضر المجلس الذي يُغتاب فيه، أو يُنم فيه، أو يتمسخر فيه، أن ينكر ذلك، وفي الحديث: «**مَنْ ذَبَّ عَنْ لَحْمِ أَخِيهِ بِالْغِيبَةِ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُعْتِقَهُ مِنَ النَّارِ**»[(١)]، فيجب على المسلم أنه إذا حضر مجلسًا فيه غيبة أو نميمة وفيه تمسخر بالناس، ونبز بالألقاب وسخرية بطلبة العلم والعلماء أن يرد عن أعراض إخوانه، وأن ينصح هذا الرجل.

ولما تكلم المنافقون في الرسول ﷺ وأصحابه، كما في الحديث: **عَنِ**

---

(١) أخرجه أحمد (٤٥/ ٥٨٣)، والطبراني في الكبير (٢٤/ ١٧٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠/ ١٠٥)، وابن أبي شيبة في مسنده (١/ ٤٤)، وفي المصنف (٥/ ٢٣٠).

ابْنِ عُمَرَ، وَمُحَمَّد بنِ كَعْبٍ، وَزَيْدِ بنِ أَسْلَمَ، وَقَتَادَةَ - دَخَلَ حَدِيثُ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ: «أَنَّهُ قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ أَرْغَبَ بُطُونًا وَلَا أَكْذَبَ أَلْسِنَةً وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ، يَعْنِي: رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ القُرَّاءَ - فَقَالَ لَهُ عَوفُ بنُ مَالِكٍ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ، لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَذَهَبَ عَوفٌ إِلى رَسُولِ اللهِ ﷺ لِيُخْبِرَهُ، فَوَجَدَ القُرْآنَ قَدْ سَبَقَهُ، فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقَدِ ارْتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَتَحَدَّثُ حَدِيثَ الرَّكْبِ، نَقْطَعُ بِهِ عَنَّا الطَّرِيقَ». قَالَ ابْنُ عُمَرَ: «كَأَنِّي أَنْظُر إِليهِ مُتَعَلِّقًا بِنِسْعَةِ[1] نَاقَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَإِنَّ الحِجَارَةَ لَتَنْكُبُ رِجْلَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾، فَيَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ مَا يَلْتَفِتُ إِليهِ، وَمَا يَزِيدُهُ عَلَيْهِ»[2].

فدل على أنه لا يجوز أن يجلس الإنسان ويسمع للغيبة والنميمة وتنقص الناس، والعلماء بالذات أو طلبة العلم ويسكت، بل لابد أن ينكر وينصح ويذب عن أعراض إخوانه؛ لأن أعراض إخوانك مثل عرضك، كما لا ترضى أن عرضك يتناول، كيف ترضى أن يتناول عرض إخوانك وأنت جالس؟

---

(١) قال ابن الأثير في النهاية (٥/ ٤٧): (النِّسعة بالكسر: سَيرٌ مَضفور يُجعل زِمامًا للبعير وغيره، وقد تُنْسَجُ عَريضة تُجعل على صَدر البعير، والجمع: نُسْع ونِسَع وأَنْساع). وانظر لسان العرب (٨/ ٣٥٢).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ١٧٢)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٨٢٩).

ثم قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ هذا سبب آخر، وهو إساءة الظن بالمؤمنين، لأنها تحمل على الفساد، وعلى التفرق، والأصل في المسلم العدالة، ولا يجوز لك أن تسيئ به الظن بمجرد أنك تسمع لكلام فيه، أو تسمع للنمامين والمغتابين، أو أنك حاك في نفسك شيء بالنسبة لأخيك، فلا تعمل بهذا.

والظن: هو احتمال أمرين: أحدهما أرجح من الآخر.

أما الشك: فهو تردد بين أمرين لا مرجح لأحدهما على الآخر[(١)]، فقوله: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ لماذا؟ ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾ انظر: نهى عن الكثير من الظن؛ لأن بعضه إثم، فهذا فيه الاحتياط، أن الإنسان يحتاط لدينه ولعرضه ولحرمات المسلمين، والظن يسبب الإثم من الله ﷻ، فيجتنب الكثير من الظن خشية من الوقوع في القليل منه، فهذا فيه الاحتياط في أمور الدين، وهذا فيه دليل على أن الأصل في المسلم العدالة، والخير، ولا يُساء به الظن ما لم يظهر منه شيء، فإذا ظهر منه شيء فلا تسبه في المجالس أو تتنقصه في المجالس، بل كما سبق أنك تناصحه فيما بينك وبينه، أما الكلام فيه في المجالس فهذا زيادة شر، وتفرقة بين الناس، ولاسيما إساءة الظن بولاة أمور المسلمين، وبالعلماء، وبطلبة العلم، وبأفراد المسلمين، لا تسيئ الظن بهم بل احملهم على الخير، وكونه يحصل منهم بعض الشيء فتلك طبيعة الإنسان، هل أنت سليم؟ فكر في نفسك أنت أنصف من نفسك،

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٩/ ١٥٦)، والمصباح المنير (ص٣٨٦)، والتعريفات (١٤٤، ٢٥٩)، ونهاية السول (١/ ١٣)، وشرح الورقات (ص٨٥).

هل أنت سليم مئة بالمئة حتى تتنقص الآخرين، ابدأ بنفسك[١].

ابْدَأْ بنفْسِكَ فانْهَهَا عن غَيِّها   فإذا انْتَهت عنْهُ فأنْتَ حكِيمُ

فلا تسيئ الظن بإخوانك، المسلمين عمومًا، والخواص منهم وهم ولاة الأمور، والعلماء، وطلبة العلم خصوصًا؛ لأن هذا يحدث مفاسد في المجتمع.

ثم قال ﷻ: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ هذا سبب آخر للإفساد بين الناس، وهو التجسس على الناس، بمعنى تلمس عثراتهم، والبحث عن عثراتهم، لا تبحث يا أخي عن عورات الناس، عليك بنفسك وعورات نفسك؛ ولهذا يقول الإمام الشافعي رحمه الله[٢]:

إذا كنت ترجو أن تعيش سليمًا من الأذى   وحظك موفور وعرضك صين

لسانك لا تذكر به عورة أمرئ   فكلك عورات وللناس ألسن

فاحفظ نفسك ولا تتبع عورات الناس وتبحث عنها وهي مستورة، فالتجسس: هو البحث عن المستور من عورات المسلمين وزلاتهم وسقطاتهم، الناس حسابهم على الله، ولا يمنع هذا إذا عثرت على خطأ أو مخالفة أن تنبه أخاك فيما بينك وبينه للمناصحة، أما أن تتفكه في عرضه في المجالس فهذا جريمة عظيمة.

---

(١) انظر: البيان والتبين (١/ ١١٤)، والعقد الفريد (٢/ ١٧٢)، وجامع بيان العلم وفضله (١/ ١٩٥)، والحماسة المغربية (٢/ ١٢٣٢).

(٢) انظر: ديوان الإمام الشافعي (ص١٠٨)، وشذور الذهب (٣/ ٣٥٠).

لكن التجسس الذي يترتب عليه مصلحة؛ كرجال الحسبة ورجال الأمن، إذا كان هناك عصابات سيئة، وهناك بيوت فساد، وبيوت دعارة، فلابد أنهم يتجسسون على هذه الأماكن، لابد أن يراقبوها؛ لأجل وقاية المسلمين من شرها، فإذا كان التجسس يترتب عليه مصالح أعظم وأكثر فإنه جائز، أما إذا كان التجسس لا يترتب عليه إلا مضار أو مصالح قليلة، فإنه حرام.

قالوا: والفرق بين التجسس والتحسس؟ أن التحسس يكون في الخير، وأما التجسس فيكون في الشر؛ ولهذا قال يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿يَـٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧].

ثم قال: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ هذا سبب آخر من أسباب فساد المجتمع، وهو فشو الغيبة بين الناس، الغيبة ما هي؟ فسرها النبي ﷺ في الحديث الصحيح قال: «**أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ. قِيلَ أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ، فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ**»(١) يعني: كذبت عليه، فأنت لا تخلو إما أن تكون مغتابًا أو كذابًا، لا تخلو من هذا.

إلا أنه يُستثنى من ذلك ذكر مساوئ الشخص من أجل التظلم وطلب الإنصاف منه عند القاضي أو عند الحاكم، فتقول: فلان أكل حقي، فلان ظالم لابأس، **قَالَتْ هِنْدٌ أُمُّ مُعَاوِيَةَ** رضي الله عنهما **لِرَسُولِ اللَّهِ** ﷺ: «**إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ، فَهَلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ أَنْ آخُذَ مِنْ مَالِهِ سِرًّا؟ قَالَ: خُذِي**

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أَنْتِ وَبَنُوكِ مَا يَكْفِيكِ بِالْمَعْرُوفِ»[١]، وهذا وصف ذم، لكن ما قصدها تنقص أبي سفيان، وإنما قصدها الوصول إلى حقها، وبيان السبب لذلك، فإذا كان هذا من باب التظلم عند الحكام والقضاة لأجل الوصول إلى الحق فلا بأس بذلك.

وكذلك عند المشورة، إذا شاورك واحد يريد يزوج شخصًا، أو يريد يسافر معه، أو يريد يشاركه، ما رأيك بفلان؟ إذا كنت تعلم له عيبًا أذكره؛ لأن هذا من النصيحة، ولهذا لما جاءت فاطمة بنت قيس رضي الله عنها إلى رسول الله ﷺ تستشيره؛ لأنه خطبها معاوية وخطبها أبو جهيم، أيهما تتزوج؟ فقال ﷺ: «**أَمَّا أَبُو جَهْمٍ، فَلَا يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ، وَأَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُعْلُوكٌ لَا مَالَ لَهُ**»[٢] قالوا: معناه أنه دائم السفر والغيبة عن زوجته، أو أنه يضرب النساء، فالرسول ذكر عيب الرجلين؛ لأجل المشورة؛ لأن هذا من النصيحة لا من باب التفكه في أعراض الناس، أما إذا كان لغير ذلك فالغيبة كبيرة من كبائر الذنوب.

ثم شبه سبحانه الغيبة بأسوء مثال؛ لأجل التنفير منها، فقال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ فالذي يغتاب أخاه ويقع في عرضه؛ كالذي يأكل لحمه وهو ميت في بشاعة هذا الأمر، النفوس تنفر من هذا، تنفر من أكل الميتات عمومًا، وأكل ميتة الإنسان من باب أولى، الذي يغتاب أخاه؛ كالذي يأكل لحمه ميتًا، فهذا من التنفير عن هذه الجريمة،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢١١، ٥٣٦٤، ٥٣٧٠، ٧١٨٠)، ومسلم (١٧١٤).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٨٠).

فأكل الميتة يكرهه الإنسان طبعًا، يكرهه بطبيعته، فكما كرهه بطبيعته يكرهه شرعًا؛ لأنه كبيرة من كبائر الذنوب.

ثم قال ﷻ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ اتقوا الله بترك هذه الأمور التي مر ذكرها، اتقوا الله بتركها واجتنابها، فدل على أن من وقع في شيء منها فإن تقواه لله إما معدومة وإما قليلة.

ثم قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ انظر ما أيَّس الله هؤلاء الذين وقعوا في هذه الجرائم؛ بل فتح لهم باب التوبة قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ﴾ هذا حث لهم على التوبة، وعدم الاستمرار فيما هم فيه أو اليأس من قبول التوبة، فالله كثير التوبة؛ ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ﴾ كثير التوبة، يقبل التوبة عن عباده، قال ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥]، قال ﷻ: ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠].

الدرس الثالث

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الحجرات: ١٣- ١٨].

في الآيات السابقة من أول السورة إلى هذا الموضع، والله ﷻ ينادي المؤمنين: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ويوجههم إلى ما يصلحهم ويبقي الأخوة بينهم، ويناهم عما يكدر صفو الأخوة من الأمور التي تطرأ، أو يروجها أعداء المسلمين من المنافقين والكفار من الشائعات، والأمور التي قد لا يكون لها أصل وهي مكذوبة، أو يكون لها أصل ولكن يجب سترها، والسعي في إصلاحها، وعدم إفشائها، فليس الإصلاح في أنك

تشيع الأخطاء، هذا ليس إصلاحًا، الإصلاح في أنك تناصح من حصلت منه الأخطاء، وتُبين له خطأه، فإن قبل فالحمد لله، وإن لم يقبل فأنت أديت ما عليك.

وفي هذه الآيات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ نادى الله الناس جميعًا، المؤمنين والكفار، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ والناس هم بنو آدم جميعًا، يقابلهم الجن، قال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فالناس والإنس هم بنو آدم، فعمم ﷻ في النداء؛ لأن الآيات الآتية فيها النهي عن التفاخر بالأحساب والأنساب، وفيها النهي عن تزكية النفس ومدح النفس بما ليس فيها، فهذا هو مضمون الآيات: النهي عن التفاخر بالأنساب والأحساب، والنهي عن تزكية النفوس، ودعوى ما ليس عند الإنسان.

قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ ذكر: هو آدم، وأنثى: هي حواء عليهما السلام هذه بداية الناس من ذكر وأنثى، فمن حيث المبدأ والأصل لا ميزة لأحد على أحد، كلهم بنو آدم، كلهم من آدم وحواء فلا فخر بالنسب؛ لأن نسبهم واحد، يرجعون إلى أب وأم واحدة، كما قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء: ١].

وقوله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ هذه أقسام النسب، الشعوب أكبر من القبائل، الشعوب اولاً ثم القبائل هذا بالنسبة إلى العرب، ينقسمون إلى شعوب، وهي أكبر الطوائف النَسَبية، ثم العمائر، ثم القبائل، ثم الأفخاذ، هذا بالنسبة للعرب.

وقيل: ليس هذا خاصًا للعرب؛ بل الخطاب للناس فيشمل العرب والعجم، فالشعوب للعجم والقبائل للعرب، للعجم: شعب الروم، شعب الفرس، وغير ذلك من الشعوب الكبيرة، وأما القبائل فهي للعرب كما أن الأسباط لبني إسرائيل، الأسباط: هم طوائف بني إسرائيل نسبة إلى الأسباط أولاد يعقوب عليه السلام، وهم اثنا عشر، فالله قطع بني إسرائيل اثنتي عشرة أسباطًا أممًا.

فإذًا الشعوب للعجم، والقبائل للعرب، والأسباط لبني إسرائيل.

وما الغرض من تقسيم الناس إلى شعوب وقبائل؟ ليس الغرض التفاخر، الغرض ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ فقط، فالمقصود من معرفة الأنساب هو التعارف، بأن تعرف أنك من قبيلة كذا، ومن أسرة كذا؛ من أجل التواصل؛ ومن أجل التوارث، وغير ذلك من المصالح، فهذا هو المقصود، أما الاعتزاء إلى الشعوب والقبائل لأجل أن يفخر بعضكم على بعض فلا، لأنكم سواء في الأصل، فهذا فيه دليل على أن معرفة الأنساب أمر محمود إذا كان القصد منه التعارف فإنه محمود، وجاء فيه حديث: «**تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ، فَإِنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ مَحَبَّةٌ فِي الأَهْلِ، مَثْرَاةٌ فِي المَالِ، مَنْسَأَةٌ فِي الأَثَرِ**»[(١)]، فإذا كان المقصود من معرفة الأنساب والقبائل هو التعارف فقط فلا بأس، وأما إن كان المقصود منه التفاخر، فهذا لا يجوز، لأن الفخر ليس بالنسب وإنما الفخر بالتقوى، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٧٩)، وأحمد (١٤/ ٤٥٦)، والطبراني في الأوسط (١٨/ ١٧٢)، والكبير (١٨/ ٩٨)، والحاكم في المستدرك (٤/ ١٧٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٢٣٨).

أي أتقاكم لله ﷻ، والتقوى: هي فعل أوامر الله وترك نواهيه، سميت تقوى؛ لأنها تقي من عذاب الله ومن غضبه ﷻ، وتقي من النار وحرها، فكلما كان الإنسان أتقى لله فهو أكرم عند الله، سواءً كان عربيًا أو عجميًا أو فارسيًا أو أبيض أو أسود، ليس العبرة باللون، وليست العبرة بالقبيلة والنسب، وإنما العبرة عند الله بالتقوى، أما الناس فالأكرم عندهم هو ذو النسب، أو ذو المال، الناس عندهم اعتبارات للأكرمين، ولكن الاعتبار عند الله غير ذلك، الاعتبار عند الله بالتقوى؛ ولهذا فضل الله سادات المهاجرين الذين ليس لهم نسب عربي؛ كبلال بن رباح رضي الله عنه وهو عبد حبشي، وسلمان الفارسي رضي الله عنه وهو من فارس، وصهيب الرومي رضي الله عنه من سبي الروم وقيل إنه عربي، ولكن سمي الرومي للونه؛ لأن لونه أحمر رضي الله عنه، وهؤلاء من سادات المؤمنين والمهاجرين، وصار أبو لهب في أسفل سافلين، مع أنه من أشرف العرب نسبًا هو وأبو جهل، وأبو لهب عم الرسول ﷺ من بني هاشم، ومع هذا أنزل الله فيه قرآنًا يُتلى إلى يوم القيامة، قال ﷻ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾ [المسد: ١-٣]، ما نفعه نسبه، لما لم يكن متقيًا لله ﷻ، ولا ضر بلالًا وعمارًا وسلمان رضي الله عنهم أنهم ليس لهم نسب عربي، وإنما نسبهم التقوى، هذا نسبهم؛ ولهذا يقول أبو بكرة رضي الله عنه- وكان من الموالي-[(١)]:

أَبِـي الْإِسْـلَامُ لَا أَبَ لِـي سِـوَاهُ ... إِذَا افْـتَـخَـرُوا بِـقَـيْـسٍ أَوْ تَمِـيـمِ

(١) ذكر الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في(الأضواء): (٧/ ٦٣٥) أنه ينسب إلى سلمان الفارسي. وانظر: (الكامل) للمبرد: (٣/ ١٧٩)، و(شعر الخوارج) لعبد الرزاق حسين: (ص ٣٥)، وقد نسباه إلى نهار بن توسعة.

إذًا لا يفخر أحد على أحد بنسبه، فربما يكون الذي ليس له نسب عربي أفضل من أقحاح العرب، وأشراف العرب، فالعبرة عند الله ﷻ بالتقوى، ثم هل التقوى بالدعوى؟!! كل يدعي أنه تقي وأنه مؤمن ويتظاهر بذلك؟ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ يعلم التقي من غيره - سبحانه - ويعلم ما في القلوب، حتى ولو تظاهر الإنسان بالدين، وتظاهر بالتقوى، وتظاهر بالورع والزهد، ما دام أنه ليس في قلبه ما يصدق ذلك فإن الله يعلم ما في قلبه ولن ينفعه التظاهر، فالله عليم بأهل التقوى باطنًا وظاهرًا من الذين يتظاهرون بالتقوى دون الباطن فلا يخفى على الله شيء، فهذا فيه سد الطريق للدعاوى الباطلة، والمظاهر التي لا حقيقة لها، إنها لاتنفع عند الله ﷻ، وإن نفعت عند الناس فهذا نفع ينتهي، لكن النفع الباقي والمستمر هو عند الله ﷻ هو تقوى القلوب.

ثم قال ﷻ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ﴾ الأعراب: جمع أعرابي، وهو الذي يسكن البادية، وأما الحضري فهو الذي يسكن الحاضرة[(١)]، والغالب على الأعراب الجفاء، والجهل وعدم الفقه في الدين ورقة الإيمان، والنفاق، لاسيما عند الطمع، قال الله ﷻ: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩٧]، فهم حريون بالجهل، وحريون بالكفر والنفاق، وما أسرع ما يرتدون؛ لأن الإيمان لم يتمكن من قلوبهم، وليس عندهم فقه في دين الله ﷻ، فهذا وصف ذم لكن منهم من يؤمن بالله واليوم الآخر ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ ادّعوا لأنفسهم أنهم مؤمنون، في حين

(١) انظر: تهذيب اللغة (٢/ ٢١٨)، والقاموس المحيط (ص١٤٥)، والمفردات في غريب القرآن (١/ ٣٢٨).

أنهم لم يصلوا إلى هذه الدرجة، وإنما هم في البداية، فهم ادعوا كمال الإيمان، قالوا: آمنا، وإنما يُقال لهم: مسلمون، والإسلام أوسع من الإيمان، الإسلام يدخل فيه المؤمن ضعيف الإيمان، والمؤمن الفاسق، ويدخل فيه المنافق الذي ليس في قلبه إيمان، فالإسلام أوسع، وهؤلاء ليسوا منافقين، لكنهم تسرعوا وادعوا لأنفسهم درجة لم يصلوا إليها، فأنكر الله عليهم، فالإنسان لا يمدح نفسه بما ليس فيها.

قال ﷻ: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ أي: استسلمنا وانقدنا وهذا في البداية، والإيمان ينمو في القلوب ويزداد، ولا يأتي دفعة واحدة، إنما يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، فهذا دليل على الفرق بين الإسلام والإيمان؛ لأن الله أنكر على من ادعى الإيمان، قد أثبت له الإسلام، فدل على الفرق بينهما، فهم مسلمون ومؤمنون، لكنهم ناقصوا الإيمان، فإذا كان الإسلام معه إيمان ولو ضعيفًا فهو إسلام حقيقي، أما إذا كان ليس معه إيمان أصلًا فإنه نفاق خالص والعياذ بالله، فالمسلم الذي إيمانه ضعيف، أو حديث عهد بالإسلام لا يدعي لنفسه الكمال، ويجعل نفسه في مرتبة السابقين الأولين فهو لم يصل إلى هذه الدرجة، فهذا فيه النهي عن تزكية النفس، وفيه الفرق بين الإسلام والإيمان، وأن الإنسان يُقال له: مسلم، ولا يُقال له: مؤمن؛ ولهذا لما قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه للرسول ﷺ حين: «**قَسَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَسْمًا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَعْطِ فُلَانًا فَإِنَّهُ مُؤْمِنٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَوْ مُسْلِمٌ. أَقُولُهَا ثَلَاثًا، وَيُرَدِّدُهَا عَلَيَّ ثَلَاثًا. أَوْ مُسْلِمٌ، ثُمَّ قَالَ: إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ، وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ، مَخَافَةَ أَنْ يَكُبَّهُ**

اللهُ فِي النَّارِ»(١)، فأثبت له الإسلام ولم يثبت له الإيمان؛ لأن الإيمان أعلى من الإسلام؛ ولهذا في حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ لما سأل النبي ﷺ سأله أولًا عن الإسلام فأخبره بحقيقة الإسلام، ثم سأله عن الإيمان فأخبره بحقيقة الإيمان، ثم سأله عن الإحسان فأخبره بحقيقة الإحسان(٢)، فدل على أن الدين والإيمان يتفاوتان: أولًا: الإسلام، ثم الإيمان، ثم الإحسان. وهذا أعلى الدرجات، فالإنسان لا يزكي نفسه، ويدعي لنفسه منزلة من الدين لم يبلغها، بل يعترف بالتقصير ولا يزكي نفسه عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا تأديب من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لعباده.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ يعني لا تقولوا: آمنا والإيمان لم يدخل في قلوبكم فتدعوا شيئًا لم تصلوا إليه وتتسرعوا، وكلمة ﴿وَلَمَّا﴾ فيها رجاء، أنهم سيدخل الإيمان في قلوبهم مستقبلًا، فهذا فيه بشارة لهم وبعد أن نهاهم عن ادعاء ما ليس لهم، لم يقنطهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بل قال: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾، يعني وسيدخل الإيمان فيها، وقد حصل ما وعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فحسن إسلامهم، وجاهدوا في سبيل الله، وتكامل إيمانهم فيما بعد.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ أي لماذا تزكون أنفسكم؟ هل تخافون أن يضيع لكم شيء عند الله؟ لستم في حاجة لتزكية أنفسكم، فعملكم محفوظ لا تخافوا عليه الضياع، ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ تناقدوا لله ولرسوله فإن الله ﴿لَا يَلِتْكُم﴾ يعني لا ينقصكم ﴿مِّنْ

(١) أخرجه البخاري (٢٧، ١٤٧٨)، ومسلم (١٥٠).
(٢) سبق تخريجه (ص ١١).

أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ﴾ بل إنه يضاعفها ﷻ بمنه وفضله، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾ [النساء: ٤٠]، يضاعف الحسنة إلى عشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة لا يعلمها إلا هو ﷻ، قال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وقال ﷻ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، كثيرة بلا حد، هذا فضل من الله ﷻ، إذًا لا تخافوا على حسناتكم ولا على أعمالكم حتى تدّعوا هذه الدعوى، ومعنى ﴿تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ تنقادوا له ظاهرًا وباطنًا فإن الله يحفظ ذلك لكم، بل ويضاعفه لكم من فضله وإحسانه، فهذا تطمين للمؤمن، وفي الآية الأخرى يقول: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فلا تخف على أعمالك الصالحة أبدًا من الضياع فإنها محفوظة؛ وكذلك أعمالك السيئة لا تنسها فإنها محفوظة، قال ﷻ: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٦﴾ [المجادلة: ٦]، أعمالك عند علام الغيوب الذي لا يخفى عليه شيء، فلا تتساهل تنسى السيئات ولا تتوب إلى الله، ولا تخف من ضياع الحسنات أبدًا، فاعمل وكِل حفظها إلى الله ﷻ، ليس هناك حاجة أن تتخذ عندك دفترًا تقيد فيه وتقول صليت اليوم كذا، وتصدقت بكذا، وعملت بكذا، هذا له ديوان عند الله ﷻ، ومعك حفظة من الملائكة الكرام، يكتبون ما يصدر منك من خير أو شر، فأنت اعمل الخير وتجنب الشر، واعلم أن كل شيء محفوظ عند الله ﷻ وإن نسيته أنت، ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ قال ﷻ: ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم﴾.

ثم قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ غفور لسيئاتكم، رحيم بكم، فالله

يحفظ الحسنات وينميها، ويغفر السيئات، وهل يليق بالرحيم - سبحانه - أن يضيع أعمال عباده ويتركها.

ثم قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ لما قالت الأعراب: آمنا، ورد الله عليهم بأنهم لم يؤمنوا وإنما أسلموا، والإنسان يجب عليه أن يقول الحقيقة ويصدق في القول، بيَّن- سبحانه - من هو المؤمن؟ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ صدقوا بقلوبهم ونطقوا بألسنتهم، وعملوا بجوارحهم، هذا هو المؤمن، الإيمان: هو قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح، وآمنوا برسوله، آمنوا بالله ربًا ومعبودًا وبأسمائه وصفاته وأفعاله، وآمنوا بالرسول ﷺ نبيًا مبلغًا عن الله واتبعوه صدقوه وعزروه ونصروه هذا الإيمان بالرسول ﷺ، ثم قال ﷻ: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ لم يحصل عندهم شك أو تردد، بل كانوا صادقين في إيمانهم إيمانًا لا يعتريه شك، ولا تردد في الإيمان بالله، أو الإيمان بالرسول ﷺ، أما الذي يتشكك في الإيمان بالله ويتردد، أو يتشكك في الإيمان بالرسول ﷺ ويتردد فهذا ليس بمؤمن، أما إذا جاءك وسواس من الشيطان هذا لا يضر، وليس هذا شكًا، فلا تنفعل معه، أو تلتفت إليه اتركه، إنما الشك هو التردد.

قال ﷻ: ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ هذا برهان على صدقهم جاهدوا في سبيل الله بأموالهم فانفقوها في طاعة الله، وفي إعزاز دين الله، وفي الدعوة إلى الله، وبناء المساجد، وتجهيز الغزاة في سبيل الله، هذا الجهاد بالأموال، ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾ فالجهاد بالمال مقدم على الجهاد بالنفس ومعنى (جاهدو بأنفسهم) باشروا القتال، ودخلوا المعركة؛ لإعلاء كلمة الله ﷻ، أما الذي عنده شك أو ريب فإنه يتأخر عن المعركة ويتردد، أما كونه أقدم

إلى المعركة ودخل، هذا دليل على صدق إيمانه حيث قدم نفسه لله ﷻ، غيرة لدين الله، وقوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بهذا القيد سُئل النبي ﷺ عن الرجل يُقاتل شجاعة، ويُقاتل حمية، ويُقاتل من أجل المغنم، أي ذلك في سبيل الله؟ قال ﷺ: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﷻ»[1] إن كان هذا هو القصد لإعلاء كلمة الله فهو الذي في سبيل الله، ليس كل من قاتل أو بذل المال يكون مجاهدًا في سبيل الله، قد يكون له أغراض: إما رياء، وإما سمعة، وإما عصبية، أغراض الناس كثيرة وتختلف، ولكن الغرض الصحيح من الجهاد هو إعلاء كلمة الله ﷻ.

ثم قال ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ في إيمانهم، فالإيمان؛ كما يقول الحسن البصري رحمه الله: «**لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّحَلِّي وَلَا بِالتَّمَنِّي، وَلَكِنْ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ وَصَدَّقَتْهُ الْأَعْمَالُ**»[2] هذا هو الإيمان، «**لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّحَلِّي**»، والمظاهر، «**وَلَا بِالتَّمَنِّي**» بأن يتمنى الإنسان أنه يكون كذا وأن يكون كذا، «**وَلَكِنْ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ**» يعني ثبت ولم يحصل فيه ريب، «**وَصَدَّقَتْهُ الْأَعْمَالُ**» الظاهرة: الجهاد في سبيل الله، الصلوات، وفي الآية الأخرى يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢-٤]،

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٣، ٢٨١٠، ٣١٢٦، ٧٤٥٨)، ومسلم (١٩٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى (٢/ ٨٠٥)، واللالكائي (٤/ ٩٢١)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ١٥٨).

ويقول ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] من هم؟ ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون: ٢- ١١]، فدل على أن الإيمان: قول وعمل واعتقاد؛ لأن الله ذكر هذه الأعمال من حقيقة الإيمان فليس الإيمان باللسان فقط، وليس الإيمان بالقلب فقط، وليس الإيمان بالأعمال الظاهرة فقط، ولكنه بمجموع هذه الأمور: قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، لقوله ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ يزيد بالطاعة، ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يفوضون أمورهم إليه، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ وفي الآية الأخرى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٤].

ثم قال ﷻ: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ فالأعراب لما قالوا: آمنا، كأنهم يعلمون الله ويخبرون الله بدينهم، هل الله يخفى عليه شيء يحتاج إلى من يخبره؟ هذا إنكار من الله ﷻ، عليهم في قولهم: آمنا، إذ لا داعي إلى قولهم: آمنا؛ لأن الله يعلم إن كانوا مؤمنين أو غير مؤمنين، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ محيط علمه بكل شيء ومنه إيمان المؤمن فإنه يعلمه ﷻ، ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ بكل شيء لا يخفى عليه شيء، لا من الإيمان ولا من الكفر، ولا من الطاعة، ولا من المعصية ولا غير ذلك، ولا من الظاهر ولا من الباطن، ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧].

ومن هذه الآية أخذ العلماء أنه لا يجوز النطق بالنية، بأن تقول: نويت أن أصلي، نويت أن أحج، نويت أن أزكي، نويت أن أتصدق، هذا من تعليم الله ﷻ وهو منكر، لأن الله يعلم النيات، ولأن النية محلها القلب، والتلفظ بها بدعة؛ لأنه لم يرد عن النبي ﷺ أنه يتلفظ بها عند الشروع في الأعمال، فهو بدعة: من ناحية أنه غير مشروع، والله لا يحتاج إلى إخبار.

ثم قال: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ﴾ قيل: إنها نزلت في أناس جاءوا إلى الرسول ﷺ، وقالوا: نحن أسلمنا وآمنا بك والعرب قاتلوك، ونحن لم نقاتلك، كأنهم يمنون على الرسول ﷺ، قال: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ﴾ أيها الرسول أن أسلموا، ويقولون: آمنا بك وكذبك الناس، وآمنا بك والناس قاتلوك، فهذا مما أنكره الله ﷻ واعتبره تمننًا على الرسول ﷺ، ﴿لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم﴾ الله ﷻ غني عنكم، أسلمتم أو ما أسلمتم، إن أسلمتم فالمصلحة لكم، وإن لم تسلموا فالمضرة عليكم، والله إنما أمر بطاعته وطاعة رسوله رحمة بنا؛ من أجل مصلحتنا لا من أجل مصلحته هو، فإنه غني عنا، قال ﷻ: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وقال: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]، قوله ﷻ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ المنَّة لله ﷻ، فكون الإنسان يُسلم ويؤمن ويعمل الخير المنَّة لله، وليست المنَّة للعبد على الله، أو على الرسول ﷺ، والمنَّان بعمله هذا عليه وعيد شديد، ثم قال: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان فالمنَّة فيه لله ﷻ، وفي هذا أن الإنسان لا يزكي نفسه أو يقول: أنا صادق، أنا مخلص، لا يزكي نفسه؛ لأن هذا من الاغترار بالنفس، والله ﷻ يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

ثم قال ﷻ خاتمًا هذه السورة العظيمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ يعلم ما غاب، ولم يره الناس، والشهادة ما يشاهده الناس، والله عالم الغيب والشهادة، يعلم الغيب والشهادة أي ما غاب عن الناس وما يشاهدونه، فإن الله يعلمه ﷻ، يستوي في علمه الظاهر والباطن، أما الناس فلا يعلمون إلا ما ظهر لهم، وما غاب في الأرض فإن الله يعلمه، والله ﷻ يقول: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧]، ويقول: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل: ٦٥].

ثم قال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ بصير: يعني يرى ﷻ تحركاتكم، تقلباتكم، فكما أنه يعلم بواطنكم فهو يعلم ظواهركم ﷻ، لا تخفون عليه مهما حاولتم الاختفاء في الظلمات أو في البيوت، أو في الأماكن الخفية فإنكم لا تخفون على الله ﷻ، فعلم الغيب من خصائص الله سبحانه، من ادعى علم الغيب فهو كافر؛ لأنه لا يعلم الغيب إلا الله، أو من اطلعه الله على شيء من الغيب؛ لأجل مصالح الناس كالرسل عليهم الصلاة والسلام، ﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ الله يطلع الرسل على بعض المغيبات؛ لأجل مصالح العباد، وليكون ذلك معجزة، دالة على صدقهم، ولا في المستقبل أو في الما ضي من غير دليل من كتاب الله، أو سنة رسوله، فإنه كافر؛ لأنه يدعي مشاركة الله ﷻ في علم الغيب.

و من هذا طوائف السحرة والكهان والمنجمون ممن يدعون علم الغيب فإنهم كذبة وكفرة ولا يصدقون؛ لأن علم الغيب من خصائص الله ﷻ التي لا يشاركه فيها أحد من خلقه إلا من اطلعه الله من رسله على شيء من

الغيب؛ لأجل مصلحة الدعوة إلى الله، وإثبات الرسالة، وإظهار المعجزة الدالة على صدقهم، ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾.

وبهذا بطل قول الكهان والمنجمين والرمّالين والسحرة والمشعوذين، بطل إخبارهم عن المغيبات، وأن هذا من الكذب، فإذا قال قائل: إنهم يصدقون. يعني في بعض الأمور، هذا دليل على أنهم يطلعون على الغيب بدليل أنهم صدقوا في كذا وكذا، هذا بينه الرسول ﷺ بقوله: «**إِذَا قَضَى اللَّهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خضعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ** ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾، **فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ -وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ فَحَرَّفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ- فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الْكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؛ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ**»(١).

في كل كذبه بسبب الكلمة التي سُمعت، فتنة من باب الفتنة، فهذا هو الذي صدقوا فيه هذا سببه، أنهم يخضعون للشياطين ويعبدون الشياطين، فالشياطين تسترق لهم السمع، إن تمكنت فيكذبون مع ما تسترقه الشياطين كذبًا كثيرًا فيُصدق بالكذب الكثير، مائة كذبة يُصدق فيها بسبب صدق كلمة

(١) أخرجه البخاري (٤٧٠١، ٤٨٠٠، ٧٤٨١).

واحدة سمعت من السماء، هذا من ناحية.

الناحية الثانية: أن الشياطين عالم خفي، وعالم يطير في الهواء، ويسرع في السير فيطلع على ما لا يطلع عليه الناس، ليس من الغيب، ولكن من الشيء البعيد عنا، الشيء البعيد عنا، الشيطان والجن يصلون إليه قبل الإنس، ويخبرون الإنس عما حصل في مصر في القصيم في الجنوب في الشمال، يخبرون، ليس هذا من علم الغيب، هذا شيء موجود، ولكن نحن لا نطلع عليه لبعدنا عنه، والجن تطلع عليه، فتخبر به أولياءها من الإنس فيخبرون بذلك، وليس هذا من علم الغيب، هذا من الشيء الظاهر الذي نحن لا نصل إليه، ووصلت إليه الجن، وإذا كفر الإنسان بربه، وأطاع الجن خدموه بهذه الأمور، يحضرون له المسروق، ويخبرون عن الضالة وأين هي؛ لأنهم يطلعون عليها، هم يسيرون بسرعة ويطيرون ويمسحون الأرض التي حولهم، ويرون الضالة أين هي، والمال المسروق يجدونه في المكان المخفي فيأخذونه ويأتون به، ويقولون: هذه كرامات الأولياء، وهي خوارق الشياطين وليست كرامات الأولياء، وليس هؤلاء بأولياء لله، وإنما هم أولياء للشيطان، وقد ذكر الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه: **(الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان)** ذكر أنواعًا كثيرة من هذا النوع وبينها ووضحها حتى لا يغتر الناس بهذه الأمور، بحكم أنها كرامات، وأن هؤلاء أولياء وينفعون ويضرون أوما أشبه ذلك، فيجب على الإنسان أنه يكون على بصيرة من هذا الأمر، وعلى بينة في عقيدته ولاينخدع بهؤلاء، هذا ونسأل الله ﷻ أن يوفقنا وإياكم لصالح القول والعمل، والعلم النافع والعمل الصالح، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

الدرس الرابع

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ١-٨].

هذه السورة العظيمة تسمى سورة «ق»؛ لأن الله ابتدأها بحرف «ق» -، وهي أول حزب المفصل[(١)]، والمفصل سمي بذلك لكثرة الفواصل فيه بين السور، وقيل: سمي المفصل؛ لأنه لم يدخله نسخ، وكل المفصل في موضوع التوحيد، وإقامة الأدلة على ذلك، وهذه السورة كان النبي ﷺ

---

(١) وهذا على الصحيح، وقيل: أول المفصل من الحجرات، وأما مايقوله العامة من أنه من أول «عَمَّ»، فلا أصل له، ولم يقله أحد من العلماء، والدليل على أن «ق» أول المفصل ما أخرجه ابن ماجه (١٣٤٥)، وأحمد في المسند (١٦١٦٦) واللفظ له من حديث أوس ابن حذيفة رضي الله عنه أنه قال: «سَأَلْتُ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالُوا: نُحَزِّبُهُ ثَلَاثَ سُوَرٍ، وَخَمْسَ سُوَرٍ، وَسَبْعَ سُوَرٍ، وَتِسْعَ سُوَرٍ، وَإِحْدَى عَشْرَةَ سُورَةً، وَثَلَاثَ عَشْرَةَ سُورَةً، وَحِزْبَ الْمُفَصَّلِ مِنْ قَافٍ حَتَّى يُخْتَمَ». انظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٣٦٦).

يقرأ بها، وبـ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾[(١)] [القمر: ١] في صلاة العيد؛ ليذكر بهما الناس المجتمعين؛ لأن صلاة العيد تجمع أكبر عدد ممكن في البلد، وكان أيضًا ﷺ يقرأ منها في خطبة الجمعة.

عَنْ أُمِّ هِشَامٍ رضي الله عنها قَالَتْ: «مَا حَفِظْتُ «ق» إِلَّا مِنْ فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ، يَخْطُبُ بِهَا كُلَّ جُمُعَةٍ»[(٢)].

ومعنى ذلك: أنه يقرأ منها، وليس المراد أنه يقرؤها كاملة كل جمعة على المنبر، بل كان يقرأ منها، فهي رضي الله عنها تلقفتها من الرسول ﷺ في قراءته لها من مجموع خطب حتى تكاملت عندها، وهذا مما يدل على أهمية هذه السورة، وعظمتها، وعناية الرسول ﷺ بقراءتها، وأنه كان يقرأ بها في المجامع الكبيرة، كالعيدين، والجمعة؛ لما فيها من الوعظ، والتذكير.

قوله تعالى: ﴿قٓ﴾ هذا من الحروف المقطعة؛ لأن الحروف التي يُبنى منها كلام العرب ثمانية وعشرون حرفًا، أولها الألف، وآخرها الياء، ومن جملة هذه الحروف حرف «ق».

وما الحكمة في افتتاح السورة بهذه الحروف، لأن كثيرًا من السور افتتحها الله تعالى بالحروف المقطعة، مثل: ﴿قٓ﴾، ﴿صٓ﴾، ﴿نٓ﴾، وقد يكون أكثر من حرف، مثل: ﴿الٓمٓ ①﴾، ﴿الٓمٓرۚ﴾، ﴿الٓرۚ﴾، ﴿كٓهيعٓصٓ ①﴾

---

(١) كما في الحديث الذي رواه الترمذي في سننه (٥٣٤)، وأحمد في مسنده (٢١٨٩٦) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سَأَلَ أَبَا وَاقِدٍ اللَّيْثِيَّ: مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ بِهِ فِي الفِطْرِ وَالأَضْحَى؟ قَالَ: «**كَانَ يَقْرَأُ بِـ**«﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ①﴾»، و«﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ①﴾»».

(٢) أخرجه مسلم(٨٧٣) من حديث أم هشام رضي الله عنها.

﴿حمٓ ۝١﴾، ﴿طه ۝١﴾، ﴿يسٓ ۝١﴾، تارة يبدأ السورة بحرف واحد، وتارة بأكثر من حرف، وقد أكثر المفسرون من الكلام في تفسير هذه الحروف، ولكن لم يستطيعوا تفسيرها والأقوال كلها لا تقوى في النظر، وأقربها -والله أعلم- إما أن يُقال: هذه من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله، مثل كيفية الصفات، وكيفية ما وعد الله في الدار الآخرة، فهي من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله ﷻ، وليست من المتشابه الذي يُرد إلى المحكم؛ لأن المتشابه على قسمين:

الأول: متشابه يعلمه الراسخون في العلم، بأن يردوا المتشابه إلى المحكم، ويفسرونه به.

الثاني: متشابه لا يعلمه إلا الله ﷻ، مثل كيفيات ما أخبر الله عنها في الآخرة، وكيفية الأسماء، والصفات، وكيفية ما في الجنة، وما في النار، وما يكون في الآخرة، فهذه لا يعلم تأويلها إلا الله، وإنما يُعرف تأويلها إذا وقعت، وحصلت، أما قبل ذلك فلا يعلمها إلا الله ﷻ؛ كما قال يوسف عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ﴾ [يوسف: ١٠٠]، قاله بعد مدة، فالرؤيا حدثت في أول عمره، والتأويل إنما حصل في آخر عمره، فقال عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ﴾ أي: تفسيرها، وقال ﷻ: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ﴾ [الأعراف: ٥٣] أي: ما ينتظرون إلا وقوع ما أُخبر به يوم القيامة، ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ [الأعراف: ٥٣]، فهذا التأويل لا يُعرف إلا عند وقوعه، أما قبل وقوعه، فلا يعلمه إلا الله ﷻ.

وهذه الحروف من هذا -على رأي بعضهم- أنها من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله؛ ولهذا يقول كثير من المفسرين: الله أعلم بمراده بها.

القول الثاني: -وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، وجماعة من المحققين، والمفسرين-: أن في هذه الحروف المقطعة دلالة على إعجاز القرآن؛ لأن القرآن كلام عربي مرتب، أو مركب من هذه الحروف التي تنطقون بها، ومع هذا عجزتم عن الإتيان بسورة من مثله، مع أنه مركب من حروف تنطقون بها، ففيه إشارة إلى الإعجاز؛ ولذلك يأتي بعد كل حرف منها ذكر للقرآن، يقول ﷻ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ [البقرة: ١-٢]، وقال ﷻ: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [آل عمران: ١-٣]، وقال ﷻ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود: ١]، وقال: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [السجدة: ١-٢]، وغالبًا يأتي ذكر الكتاب، والقرآن بعد ذكر الحرف، أو الحروف المقطعة إشارة إلى الإعجاز، وهذا القول قريب، وواضح.

ثم قال ﷻ: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ وهذا قسم من الله ﷻ، الواو من حروف القسم؛ لأن حروف القسم ثلاثة: الواو، والباء، والتاء، تالله، بالله، والله، هذه حروف القسم، وهنا جاءت الواو ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾؛ ولهذا صار الاسم مجرورًا بعدها؛ لأن المقسم به يُجر بواو القسم[1]، ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾،

(١) انظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (٣/ ١٢)، وشرح قطر الندى لابن هشام (١/ ٢٥٢-٢٥٣)، وشرح شذور الذهب (١/ ٤١١).

وهذا فيه دليل على أن القرآن كلام الله، وكلامه سبحانه وتعالى صفة من صفاته، فيجوز الإقسام بالقرآن؛ لأنه من كلام الله عز وجل، وكلام الله صفة من صفاته، فهذا دليل على أن القرآن كلام الله، غير مخلوق -كما تقوله الجهمية-؛ لأنه لا يجوز الحلف بالمخلوق، وإن كان الله عز وجل له أن يقسم بما شاء، فأقسم بالمخلوقات في كثير من الآيات، ولكن هذا خاص بالله عز وجل، أما المخلوق فلا يجوز له أن يحلف إلا بالله، أو بصفة من صفاته، قال صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ كَانَ حَالِفًا، فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ**»[(١)].

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، **قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ** صلى الله عليه وسلم: «**لاَ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، وَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ**»[(٢)]، **وعَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ، أَنَّ ابْنَ عُمَرَ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: لَا وَالْكَعْبَةِ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: لَا يُحْلَفُ بِغَيْرِ اللَّهِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ** صلى الله عليه وسلم **يَقُولُ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»**[(٣)] هذا بالنسبة للمخلوق، فلايحلف إلا بالله، أو بصفة من صفاته سبحانه وتعالى، أما الخالق عز وجل فله أن يقسم بما شاء.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾ القرآن: هو الكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، من أسمائه القرآن، ومن أسمائه الفرقان[(٤)]، والذكر[(٥)]، . . . .

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له (٢٦٧٩، ٦٦٤٦) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، ومسلم (١٦٤٦) بلفظ: «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلَا يَحْلِفْ إِلَّا بِاللهِ».

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٠١) واللفظ له، ومسلم (١٦٤٦).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي واللفظ له (١٥٣٥)، وأحمد في المسند (٩/ ٤٢٣).

(٤) إشارة إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

(٥) إشارة إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

والتنزيل[١]، فله أسماء كثيرة[٢].

قال ﷻ: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾، «المجيد»: فعيل من المجد، صيغة مبالغة من المجد، وهو الاتساع في الخير، فالقرآن متسع في الخير، والعلم لا حصر لبركاته، وفقهه، وخيراته، ولكن كلٌ يأخذ منه بقدر ما أتاه الله من الفهم، وإلا ما من أحد يحيط بأسرار القرآن، ومعانيه، وفقهه، ولكن كلٌ يأخذ بقدر ما أعطاه الله ﷻ من الفهم؛ لأن القرآن مجيد، أي: واسع الخيرات، والبركات، فإن أردت الأدلة العقلية فهي موجودة، وإن أردت بيان التوحيد، والعبادة فهو موجود، وإن أردت بيان المعاملات فه موجود أيضًا، وإن أردت اللغة، والبلاغة فهي موجودة، وإن أردت الأخبار الماضية، والمستقبلة فهي موجودة في القرآن العظيم، وإن أردت بيان الأحكام على الأشياء الحادثة فالقرآن يحكم عليها، وحكمها موجود في القرآن، لكن قد يدركه بعض الناس، وقد لا يدركه البعض الآخر، وإن أردت الإعجاز فالقرآن معجز، فكلٌ يأخذ من القرآن بقدر ما وهبه الله، فالفقيه يأخذ منه الفقه، واللغوي يأخذ منه اللغة، والبلاغي يأخذ منه البلاغة، والإخباري يأخذ منه الأخبار الماضية، والمستقبلة، وفيه من علم الغيب الذي ذكره الله في المستقبل، في الدنيا، ومستقبل الآخرة، والجنة، والنار ما لا يوجد إلا في القرآن العظيم فهو مجيد بمعنى: واسع الخير، وواسع البركة، وواسع المعاني.

---

(١) إشارة إلى قوله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٥٨﴾ [آل عمران: ٥٨].

(٢) انظر في هذه المسألة: البرهان في علوم القرآن للزركشي (١/ ٢٧٣ - ٢٧٦)، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي (١/ ٨٨ - ٩٥).

وكل قسم لابد أن يكون له جوابو جواب القسم هنا وهوهنا مضمون السورة فهي كلها هو جواب القسم، وجواب القسم قد يكون مصرحًا به، وقد يكون غير مصرح به، وفي القرآن النوعان -المصرح به[(١)]، والذي لم يصرح به[(٢)]-، لكنه مذكور ضمنًا ومنه هذا.

قال ﷻ: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟﴾ أي: مع بيان القرآن، ووضوحه، ودلالته على الحق، وعلى الرسالة -رسالة محمد ﷺ-، وعلى البعث والنشور، وعلى الجنة والنار، مع وضوحه فإن الكفار لم يؤمنوا به، ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾، وكان الواجب عليهم أن يؤمنوا، لكنهم لم يؤمنوا فـ ﴿بَلْ﴾ حرف الإضراب، أي: أضرب عن الكلام السابق، واستأنف كلامًا جديدًا.

و ﴿عَجِبُوٓا۟﴾ أي: الكفار، والعجب إنما يكون من شيء مستبعد، ومن شيء غريب، أما الشيء الواضح فلا يُتعجب منه.

وهل هذا محل عجب؟ أيعجبون أن الله خلقهم، ورزقهم، وأنهم يجب عليهم عبادة الله وحده، لا شريك له، والإيمان برسوله، هل هذا فيه عجب؟، هذا هو الذي خلق الله الخلق من أجله، فكيف يتعجبون منه، ويستغربونه، إلا لاستحكام كفرهم، وعنادهم -والعياذ بالله-، فبدل أن يؤمنوا عجبوا، واستغربوا.

---

(١) فمثال المصرح به قوله ﷻ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر: ١ - ٢].

(٢) ومثال غير المصرح به قوله ﷻ: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝٤ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ١ - ٥] والتقدير -والله أعلم-: لتبعثن ولتحاسبن بدليل إنكارهم للبعث في قولهم: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ [النازعات: ١٠].

﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ بتقدير من، أي: «عجبوا من أن جاءهم»، فيكون «أن»، وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بتقدير «من»، ﴿أَن جَآءَهُم﴾ أي: عجبوا من أن جاءهم منذر منهم، أو تكون تعليلية، عجبوا لمجيء منذر منهم.

والمنذر هو: محمد ﷺ، وكانوا ينكرون رسالته، ويقولون: لا يمكن أن تكون الرسالة من بشر، قال ﷻ مخبرًا عن قولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ﴾ [الفرقان: ٢١]، بلغ بهم العناد إلى أن يقولوا: نحن ما ننقاد لبشر مثلنا، وإنما لو جاءنا ملك من الملائكة.

وقوله: ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ أي: من جنسهم، فهو عربي ينطق بلغتهم، ويعرفون نسبه، وليس أجنبيًا حتى يقولوا: ما نعرفه، وما ندري هل هو صادق، أو غير صادق؟، هل هو أمين، أو غير أمين؟، فهم يعرفونه، وهو منهم، عاش بينهم، ويعرفون أمانته، ويعرفون نشأته، ويعرفون نسبه ﷺ، ليس بإنسان يجهلونه حتى يتوقفوا عن خبره.

وهذه حكمة الله أنه يبعث رسل إليهم؛ لأجل أن يتفاهم معهم، ويخاطبهم، ويروه، أما الملك فلا يطيقون الاجتماع معه، ولا رؤيته، والملك يُرسل إلى الملائكة من جنسه، والبشر يُرسل إليهم بشر من جنسهم، فهذا من رحمة الله أنه جعل الأنبياء من بني آدم، ويقولون: لماذا خُص من بيننا؟ نحن أولى بالرسالة منه، والله ﷻ يقول: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، هذا من اعتراضاتهم، ﴿أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ [القمر: ٢٤]، وأحيانًا يقولون محمد ما هو بكفء،

إنه يُبعث وهو يتيم، وفقير، لو أنه أرسل إلينا واحدًا من العظماء، ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ الطائف، أو مكة ﴿عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] أما إنه يتيم، وفقير، ويُبعث إلينا فلا نطيعه، هكذا يقولون، وهذه اعتراضاتهم السمجة.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ هل يُعاد التراب، ويكون بشرًا؟ سبحان الله، وفي الأول ألم يكونوا ترابًا، أليس آدم مخلوقًا من تراب؟ ثم أيضًا أنتم من ماذا خُلقتم؟ من ماء مهين، ولم تكونوا موجودين من قبل أصلًا، فكيف تتعجبون من الإعادة، ولا تتعجبون من البداية، قال ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٢٧].

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ أي: تحللت أجسامنا، وصارت ترابًا بدل أن كانت لحمًا، فكيف تُعاد، وهي متحولة إلى تراب؟ وفي الآية الأخرى: ﴿قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]، فلماذا تتعجبون من البعث، ولا تتعجبون من البداية؟ هذا إفحام لهم، وهذا دليل عقلي أن الذي قدر على البداية من لا شيء، قادر على الإعادة من تراب الاجسام من باب أولى، فهو أهون عليه في نظر العقول، ولكن الله لا يعجزه شيء ﷻ، وهذا من باب المناظرة، والمجادلة لهم.

قالوا: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ أي: بعث بعيد وقوعه، ولا يمكن هذا أن يكون فلم يصدقوه، دون نظر إلى البراهين، والأدلة، وإنما استغربوا بعقولهم،

وقاسوا قدرة الله ﷻ على قدرتهم، وتصوراتهم، ولم يقدروا الله حق قدره، ولم يعرفوا عظمته، وأنه ﷻ لا يعجزه شيء، وأنه على كل شيء قدير، فلم يؤمنوا بهذا.

ورد الله عليهم بأن الله ﷻ يعلم هذا التراب المتحلل ويحفظه، ولا يضيع في الأرض، بل هذا التراب محفوظ، ويُعذب، أو يُنعم في القبر، وهو تراب، والله على كل شيء قدير، قال ﷻ: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي: من أجسادهم، وأنها تتحول إلى تراب، هذا يعلمه الله ﷻ، لا يخفى عليه، ولا يضيع، وأيضًا هذا مكتوب في اللوح المحفوظ ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ فاحتج عليهم بأمرين:

الأول: علم الله المحيط بكل شيء الذي لا يضيع عليه شيء.

الثاني: الكتاب الذي حفظ الله به، وكتب فيه كل شيء مما كان، وما يكون.

إذًا فلا يُستغرب أن الله يعيد التراب أجسامًا، ويعيده إلى لحم، وعظام، وعروق، ثم يقوم الإنسان من قبره، قال ﷻ: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال ﷻ: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾ [الكهف: ٤٨]، وقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤]، فيأتي الإنسان كامل الخلقة حتى القلفة التي قُطعت من ذكره تعود، وتكون في مكانها، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾﴾ [القيامة: ٣]، التي تفرقت، ونخرت أيحسب أن الله غير قادر على جمعها؟ ﴿بَلَىٰ﴾ نجمعها، ﴿قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: ٤] نسوي

الأصابع كما كانت، والأنامل كما كانت، ولا ينقص شيء من جسم هذا الإنسان، وهذا ليس بغريب على قدرة الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]، دعوة يدعوها واحدة فيقوم الناس من القبور.

وكتب الله كل شؤونهم، ولا ينسى أحدًا منهم، ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٩٤، ٩٥]، لا يتخلف منهم أحد أبدًا؛ قال ﷻ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ هذا التكذيب الثالث منهم.

الأول: كذبوا ببعثة الرسول ﷺ؛ لأنه منهم، فكيف يصير رسولًا وهو منهم؟ ولماذا لم يرسلنا رسلًا مثله؟ يقول الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، والرسالة لا تحصل بالكسب، أو بالذهن، أو بالحذق، إنما تحصل بالاصطفاء من الله ﷻ، وهو الذي يختار لرسالته من يصلح لها، ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾، وقال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ﴾ [الحج: ٧٥] فهو ﷻ الذي يصطفي، والرسالة ليست مكتسبة، مهما بلغ الإنسان من الحذق، والعلم، وقوة الفهم، والإدراك، فإنه لا يكون رسولًا، إنما هذا باختيار الله، واصطفائه ﷻ، وهو أعلم بمن يصلح للرسالة، ويقوم بها.

الثاني تكذيبهم: بالبعث وقالوا: كيف إذا صرنا ترابًا نُعاد مرة ثانية، ونرجع إلى الحياة؟

الثالث تكذيبهم بالقرآن: ﴿كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾، وهو القرآن العظيم لما جاءهم، وقالوا: هذا القرآن ليس كلام الله أبدًا، وإنما هو أساطير الأولين

كتبها محمد، ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الفرقان: ٥، ٦]، وقالوا: هذا القرآن شعر، وفصحاؤهم، وبلغاؤهم، وشعراؤهم ما استطاعوا أن يأتوا بسورة من مثله، فلو كان شعرًا لسهل عليهم أن يأتوا بمثله، وأيضًا الرسول ﷺ معروف أنه ليس بشاعر، ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ﴾ [يس: ٦٩]، فهو ليس بشاعر ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤] فكان الرسول ﷺ لا يعرف بالشعر، حتى إنه إذا أراد أن يُنشد بعض الأبيات قد لا يضبطها ﷺ؛ لأنه ليس بشاعر[(١)]، فالقرآن ليس شعراً كما يقولون، وقالوا: هذا القرآن سحر، والقرآن ليس بسحر، القرآن حق، والسحر باطل، ولا أصل له، وتدجيل، أما القرآن فهو حق ما أخبر عن شيء، وما أمر بشيء إلا وصار حقًا مثل الشمس، فليس هو مثل السحر الباطل الكذب، والسحر يكون من تعاليم الشياطين والكهان، والشياطين لا تقرب الوحي أبدًا، ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ۝٢٢٢ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ۝٢٢٣﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٣]، فالشياطين لا تتنزل على الأنبياء أبدًا، والشياطين لا تقرب القرآن، ولا تنزل بالقرآن أبدًا، إنما ينزل به جبريل من الله ﷻ، ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ﴾ [النحل: ١٠٢] وهو جبريل عليه السلام فالشياطين لا تقرب الوحي ﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٢]، معزولون عن الوحي، قد يسرق الشيطان كلمة واحدة من

---

(١) انظر في المسألة: تفسير الطبري (٢٠/ ٥٤٩)، وزاد المسير (٣/ ٥٣٠)، وتفسير القرطبي(١/ ٧٣)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٢٢) في تأويل قوله ﷻ: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ﴾ [يس: ٦٩]، وانظر: صحيح مسلم (٢٤٧٣).

الوحي من باب الابتلاء، والامتحان، ويلقيها إلى الكاهن ويكذب معها الكاهن؛ من أجل أن يغري الناس[(١)]، ولكن هذا كذب مفضوح، فالقرآن لا تقربه الشياطين، قال ﷻ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾، وقال ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾، فلا يمكن أن يقرب الشيطان القرآن، أو ينزل به، أو يعلمه لأنه يحرقه، إنما الشيطان يعلم السحرة، والكهان، والمخرفين، والكذبة، أما الأنبياء، والوحي فإن الشيطان لا يقربهما.

ومع هذا كذبوا القرآن العظيم، وقالوا فيه هذه المقالات، وثبت أن القرآن ليس كما يقولون، وإنما هو كلام رب العالمين، وكل من اعترض على القرآن باء بالفشل إلى يوم القيامة، والقرآن ثابت، وراسخ رسوخ الجبال محفوظ، ما أحد يتعدى عليه أبدًا بل هو باق كما أنزل على محمد ﷺ إلى أن يرفعه الله في آخر الزمان[(٢)] لم يُبدل، ولم يُغير، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وصدق الله ﷻ؛ فإن الكفار على كثرتهم، وعنادهم، وبغضهم

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٢١٠، ٣٢٨٨، ٤٧٠١، ٤٨٠٠، ٥٧٦٢، ٦٢١٣، ٧٥٦١)، ومسلم (٢٢٢٨) واللفظ له من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «سَأَلَ أُنَاسٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْكُهَّانِ؟ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَيْسُوا بِشَيْءٍ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ فَإِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ أَحْيَانًا الشَّيْءَ يَكُونُ حَقًّا، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْجِنِّ يَخْطَفُهَا الْجِنِّيُّ، فَيَقُرُّهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ قَرَّ الدَّجَاجَةِ، فَيَخْلِطُونَ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذْبَةٍ».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه ابن ماجه (٤٠٤٩)، والحاكم في مستدركه (٨٤٦٠) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَدْرُسُ الْإِسْلَامُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ، حَتَّى لَا يُدْرَى مَا صِيَامٌ، وَلَا صَلَاةٌ، وَلَا نُسُكٌ، وَلَا صَدَقَةٌ، وَلَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ اللَّهِ ﷻ فِي لَيْلَةٍ، فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ».

لمحمد ﷺ، وللمسلمين البغض الذي لا يعادله بغض ما استطاعوا أن ينالوا القرآن بشيء مع أن القرآن يذمهم، ويلعنهم، ويسبهم سبًا ذريعًا، ويسب آلهتهم وما استطاعوا أن يغيروا القرآن أبدًا، وهذا من آيات الله ﷻ، وهذه المعجزة العظيمة الخالدة، والدلالة على صدق هذا الرسول ﷺ، قال المعترضون أقوالًا، وأرادوا أن يُحاكواالقرآن، كمسيلمة ولكن أين ذهب قولهم؟ ضحك عليهم الناس، وضحك منهم العقلاء، وتلاشى قولهم، ولم يبق منه شيء، وبقي القرآن شامخًا كما أنزله الله على محمد ﷺ، أرادوا أن يحرفوه، وأن يغيروه فلم يستطيعوا تحريف القرآن كما فعلوا بالتوراة، والإنجيل؛ لأن الله حفظه، أما التوراة، والإنجيل فإن الله وكل حفظهما إلى الأحبار، والعلماء، لكنهم لم يحفظوها، ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤]، فلم يحفظوه، بل حرفوه، وبدلوه، وغيروه، أما القرآن فلا أحد استطاع أن يغير منه حرفًا واحدًا - ولله الحمد -، وهو كما أُنزل على محمد ﷺ. ومثل هؤلاء من نفى القرآن كلام الله من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة وأضرابهم وقالوا إنه مخلوق أو أنه عبارة عن كلام الله أو حكاية.

قال ﷻ: ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ لما كذبوا بالحق كان شأنهم؟أن كانوا في أمر مريج، فوقعوا في الاختلاف، وكل يدعي رأيًا، ويقول قولًا، ويظن ظنًا، فاختلفت أقوالهم، فدل على أنهم على باطل؛ لأنهم لو كانوا على الحق لم يختلفوا، فإن الحق لا يُختلف فيه، أما أهل الباطل فهم الذين يختلفون فيما بينهم، وقد تقول: أليس علماء المسلمين يجتهدون، ويحصل بينهم خلاف في المسائل؟ نقول: نعم، يجتهدون، لكن يردون اجتهادهم إلى الكتاب، والسنة، فمن شهد له القرآن، والسنة أنه حق أخذوا به، وتركوا

الرأي الآخر، قال ﷻ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [النساء: ٥٩]، وقال: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ١٠].

أما هؤلاء ﴿فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ﴾ أي: مختلط مختلف، ﴿إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ۝٨ يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ ۝٩﴾ [الذاريات: ٨، ٩]، ولو أنهم آمنوا بالحق لما وقعوا في الاختلاط، ولما وقعوا في الباطل، ولما وقعوا في النزاعات؛ لأن القرآن يهدي للتي هي أقوم، ويُبين القول الحق من القول الباطل، ويفصل بين الناس، ويحكم بينهم فيما اختلفوا فيه، لكن هؤلاء لما كذبوا بالحق ابتلوا بالباطل، ووقعوا في متاهات، و﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، وكل حزب يُكفر الآخر ويضلله؛ لأنهم كلهم ليسوا على حق، وليس لهم مرجع يحكم بينهم، ويُبين الحق من الباطل؛ كما هو عند المسلمين، فالمسلمون وإن اختلفوا فإنهم يرجعون إلى الكتاب، والسنة فيحكم بينهم بالحق، ويُرد على المخالف، وكان اختلافهم عن اجتهاد طلبًا للحق، ولم يوفقوا كتب الله لهم الأجر على اجتهادهم، وتحريهم للحق، أما الكفار فإنهم ليسوا كذلك، ليس لهم مرجع؛ ولذلك كل يركب رأسه، وكل يقول قولًا يخالف القول الآخر، وهكذا كل من ترك الحق فإنه يُبتلى بالباطل، ومن رجع إلى الحق فإنه يُرزق الثبات، أما من أعرض عن الحق فإنه يُبتلى بالاختلاف، والتفرق، ويُبتلى بالباطل - والعياذ بالله -، ولم يستقر لهم قرار، وإنما يتخبطون في أقوالهم، وأهوائهم، وهذا شأنهم إلى أن تقوم الساعة، ما داموا لم يؤمنوا بالحق، ويرجعوا إلى الحق، فإنهم في تخبط، وهذا هو واقع الدول الكافرة اليوم، وواقع الديانات الباطلة، والنحل

المخترعة، هم في خلاف، وفي شجار، وفي خصام، وكلهم على باطل - والعياذ بالله-، ولا يُرجى لهم خير أبدًا ما داموا كذلك.

ثم إنه ﷻ لما ذكر مواقفهم الثلاثة من الرسول ﷺ، ومن البعث، ومن القرآن أتى بالأدلة، والبراهين العقلية القاطعة على صدق ما جاء به هذا الرسول ﷺ، وما جاء به هذا القرآن، وعلى أن البعث حق، قال ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾ هل أحد يكذب بالسماء؟ السماء فوقك ﴿كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا﴾ من الذي بناها سبع طباق؟، قال ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ ۝٤٨﴾ [الذاريات: ٤٧، ٤٨]، وقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة: ٢٢] أي: سقفًا، ولم ينظروا إلى السماء فوقهم، فأين ذهبتَ فالسماء فوقك، هل تذهب لجهة ليس بها سماء؟ هل أحد ذكر أنه خرج عن السماء؟ ما أحد ذكر هذا، السماء لأنها محيطة، وواسعة ﴿فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا﴾، وأيضًا هي فوقهم، والعادة أن الذي يكون فوق، كالسقف يكون على أعمدة، أو على جدران، أما السماء أين جدرانها، وأين أعمدتها؟ قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]، فأين الأعمدة التي عليها السماء، وأين اللوائح والجدران والدعامات؟ إنه الله هو الذي أمسكها ﷻ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١]، فهي ممسكة بقدرة الله ﷻ: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥] ﷻ، هذه السماء الواسعة التي لا تنقطع كيف الله بناها ﷻ؟

قال ﷻ: ﴿وَزَيَّنَّـٰهَا﴾ تزيين هذه السماوات، بالنجوم، والشمس، والقمر قال ﷻ: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦﴾ [الصافات: ٦]، فأنت ترى هذه النجوم المبثوثة على صفحة السماء، وانتظامها، وسيرها في مجاريها،

وأمكنتها ما تتغير، قال ﷻ: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ لا يوجد بها شقوق، وتصدعات، قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ [الملك: ٣، ٤]، لا يوجد بها شقوق، ولا فيها فتحات، بل محكمة البناء، دائمًا مع طول الزمان، وطول الفترة هي لا تزال كما خلقها الله سبحانه وتعالى، ثم ذكر العالم السفلي فقال: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾ للناس فراشًا، ومهادًا للناس يسيرون عليها، ويسكنون فوقها، ويزرعون، ويسافرون فوق الأرض هل وجدت طرف الأرض؟ ما أحد وجد طرفًا للأرض؛ لأن الله مدها، وسطحها سبحانه وتعالى.

قال ﷻ: ﴿وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾، وهي الجبال؛ لأجل أن لا تميد بالناس لأن الأرض مغمورة بالماء، والأرض بالنسبة إلى الماء يقولون: تساوي الربع، ويسمونه: الربع اليابس، والمحيطات، والبحار العظيمة الهائلة تحيط بالأرض، وفيها أمواج، وليس ببعيد عن المسامع الهيجان الذي يحصل بين الحين، والآخر من البحار، فماذا حصل من الأضرار؟، والأرض ما تغيرت، هي هي، ولم تحركها أمواج البحار، ومد البحر؛ لأن الله ثبتها بالجبال أن تميد بكم، فمن آيات الله:

أولًا: أن الله مد الأرض.

ثانيًا: أن الله جعل فيها رواسي.

ثالثًا: أن الله أنبت فيها مختلف النباتات.

قال ﷻ: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ من كل شكل، والزوج المراد به: الشكل، ﴿بَهِيجٖ﴾ حسن المنظر، انظر إلى الرياض وقت الربيع، وإلى الحدائق، وانظر الزهور البهيجة، والثمار المتدلية، والأشجار الخضرة، تبهج العين حينما تنظر إليها، واختلافها هذا أصفر، وهذا أبيض، هذا أحمر، هذا طيب الرائحة، وهذا ليس له رائحة، وهذا قد يكون خبيث الرائحة، هذا مر، وهذا حلو، وهي تنبت في تربة واحدة، وتختلف، قال ﷻ: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ﴾ [الرعد: ٤]، لماذا لا تصير كلها من نوع واحد، وطعمها كله سواء، ولونها كله سواء؟ لأن الله هو الذي فاوت بينها ﷻ، مع أنها متجاورة، هذه بجنب هذه، والتربة واحدة، والماء واحد، فمن الذي شكلها هذا التشكيل، هو القادر ﷻ، هذا الذي تقولون: إنه لا يمكن أن يبعث الناس، ولا يمكن أن يرسل رسولًا، ولا يمكن أن ينزل قرآنًا، هذه آياته ﷻ.

قال ﷻ: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٨﴾ هذه السماوات، وما فيها من الزينة، والأرض، وما فيها من النبات، وما فيها من الفوائد، هذه كلها تبصرة للناس، وتذكير للناس بأن خالقها ﷻ، هو الذي لا يعجزه شيء، وهو المستحق للعبادة ﷻ دونما سواه، وأنتم أيها المشركون تعبدون الأصنام فأين الذي خلقته هذه الأصنام؟ بل الأصنام نفسها مخلوقة، وربما تكون هذه الأصنام أنتم الذين نحتموها بأيديكم، قال ﷻ: ﴿أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥]، حجارة تنحتونها، وتعبدونها بعد ذلك، هل خلقت هذه المعبودات شيئًا من هذه المخلوقات العظيمة؟ هل أحد قال: إن صنمه،

أو إن معبودهغير الله أوجد كذا، وكذا، أوجد جبلًا من الجبال، أو خلق شجرة من الأشجار، أما إنه بذرها، ونبتت فهذا من الله ﷻ.

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾ ولكن لمَنْ؟ للغافل، للكافر، للجاهل؟ لا، ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ أي: راجع إلى الله ﷻ، يرجع من الباطل إلى الحق، ويعترف بآيات الله سبحانه وتعالى، أما الذي يركب رأسه، ويعجب برأيه، ويعاند فهذا لا حيلة فيه إنما هذا التبصر ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾، ليس لكل الناس، أي: رجَّاع إلى الله سبحانه وتعالى.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه.

الدرس الخامس

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق: ٩- ١٥].

لما ذكر الله ﷻ تكذيب المشركين لرسول الله ﷺ، وإنكار رسالته، وإنكار البعث بعد الموت، وتكذيبهم بالحقلما جاءهم وهو القرآن، بعد ما ذكر الله ﷻ ذكر البراهين القاطعة التي ترد عليهم مما يشاهدونه في مخلوقات الله العلوية، والسفلية التي تدل على وحدانيته، وعلى قدرته، وعلى استحقاقه للعبادة، وعلى قدرته على البعث، ومن جملة ذلك: هذا البرهان الذي كل الناس يشاهده، ولا أحد ينكره، وهو إنزال المطر من السماء، وما يترتب عليه من المنافع، التي منها: إحياء الأرض بعد موتها، فقال: ﴿وَنَزَّلْنَا﴾ التنزيل يكون شيئًا فشيئًا؛ لأن المطر لا ينزل دفعة واحدة، فيتضرر منه الناس، وإنما ينزله الله شيئًا فشيئًا، وعلى شكل نقط متفرقة، لا ينصب على مكان واحد، فمَنْ الذي يوزعه هذا التوزيع، ويدبره هذا

التدبير، ومَنْ الذي يصرفه فينزل في مكان دون مكان، وفي زمان دون زمان، من الذي ينزل الغيث؟ هو الله ﷻ، فكيف تستغربون أنه يبعث الأموات، وتنكرون البعث، وكيف تستنكرون أنه يرسل الرسول الذي معه غيث القلوب وهو الوحي، فإن الله ﷻ ينزل غيث الأرض، وهو أيضًا ينزل غيث القلوب الذي به تحيا، وذلك من رحمته بعباده ﷻ، التنزيل على هذه الصفة دليل على قدرة الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

هذه السحب، ساقها ودبرها ﷻ، وهذا من العجائب أن الماء ينزل من السماء، وينزل بقدرة قادر، ولا يتدفق، أو ينصب، إنما ينزل بمقادير محددة، والمراد بالسماء السحاب المسخر بين السماء والأرض.

وقال: ﴿مُّبَٰرَكًا﴾ البركة: ثبوت الخير، فهذا الماء فيه خير، وليس ماءً مسلوب البركة، والمنفعة، وإنما فيه منفعة عظيمة، ومن بركته أنه يغذي الأشجار، ويملأ الآبار، ويشرب منه الناس لأنفسهم، ودوابهم، وزروعهم فهذا من بركة هذا الماء، ويخزنه الله في الأرض لحاجة الناس، فهذا من عظيم قدرة الله ﷻ، وكذلك هذا الماء مبارك من ناحية أثره على الجسم؛ ولهذا كان ﷺ يخرج في أول المطر ويحسر عن رأسه ﷺ ويترك المطر ينزل عليه، ويقول: «إِنَّهُ حَدِيثُ عَهْدٍ بِرَبِّهِ»[1]، فأودع الله فيه من المنافع ما لا يعلمه إلا الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفرقان: ٤٨-٥٠]

---

(١) كما في الحديث الذي رواه مسلم (٨٩٨) من حديث أَنَسٍ ﷺ: «أَصَابَنَا وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَطَرٌ، قَالَ: فَحَسَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَوْبَهُ، حَتَّى أَصَابَهُ مِنَ الْمَطَرِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ لِمَ صَنَعْتَ هَذَا؟ قَالَ: «لِأَنَّهُ حَدِيثُ عَهْدٍ بِرَبِّهِ تَعَالَى».

أي: ينزل على هذا، ويمتنع من هذا بأمر الله ﷻ، ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٥٠﴾.

قوله ﷻ: ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ﴾ لا ينبت النبات بمجرد نزول المطر، إنما نزول المطر سبب للإنبات، وأما المسبب، والمنبت فهو الله ﷻ، فقد ينزل المطر، ولا ينبت شيئاً، وقد ينزل المطر غزيرًا، وكثيرًا، ولا يجعل الله فيه إنباتًا، ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ﴾ بساتين ملتفة خضراء بهية فيها الثمار، وفيها الأنهار، جنات في الدنيا، والجنة: هي الشجر الأخضر الملتف من أثر ذلك المطر، ولم يحدد هذه الجنات بل جنات كثيرة، ومتنوعة.

قال ﷻ: ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾ لماذا خص الحب والثمر؟ لأن هذين هما القوت؛ لأن الناس يقتاتون بالحبوب، والثمار، حبوب البر، والدُخن، والذرة، والأرز، وغير ذلك، وثمر النخل قوت للناس، وأيضًا الفواكه من الخضار، والثمار، والعنب، وغير ذلك، مما يتفكه الناس به، وأما الحبوب، والثمار فهي غذاء أخص من غيرها، فما ينبته الله يكون فيه عدة منافع منها: ما يكون غذاء، ومنها ما يكون فاكهة، ومنها ما يكون دواء، ومنها ما يكون لرعي البهائم، قال ﷻ: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾ [طه: ٥٤] ففيه منافع متعددة؛ ولهذا صار مباركًا، والمبارك: هو كثير البركة، كثير الخير(١) ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾، وهو الذي يُحصد، ويؤخذ من الحنطة، والشعير، والذرة وغير ذلك مما يقتاته الناس، قد تقول: إن ليس كل ما يقتاته الناس من المطر، بل الناس يزرعونه من الآبار. فنقول: من أين جاءت الآبار؟ جاءت

---

(١) انظر: لسان العرب مادة (برك) فصل الراء (٦/ ١٠٠)، وتاج العروس باب (بذر) (١٠/ ١٤٦).

الآبار من المطر، فالله ﷻ سلك المطر ينابيع في الأرض، ينزل على الأرض ثم تخزنه الأرض، ثم الناس يغترفون منها، وينضحون، ويغرسون، ويزرعون، فالماء من المطر، قال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ [الزمر: ٢١]، فالماء من المطر.

قوله: ﴿وَٱلنَّخْلَ﴾ جمع نخلة، وهي شجرة طيبة، وصفها الله بأنها طيبة؛ كما قال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، وهي النخلة، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ هذه النخلة ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٥]، ووصف الزيتون بأنه مبارك، قال: ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ [النور: ٣٥]، أما النخل فوصفه بأنه طيب، ﴿بَاسِقَٰتٍ﴾ أي: مرتفعات، تنبت أول ما تنبت، أو تغرس قصيرة، ثم تنمو، وترتفع، ويعيش عليها أجيال من الناس، ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ قد تعيش النخلة أكثر من مئة سنة، ويتعاقب عليها أجيال يأكلون منها؛ ولهذا جاءت الأحاديث في فضل غرس النخل؛ لكثرة نفعه، وتعاقب من ينتفع به من الناس(١).

---

(١) كما ورد في الحديث عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى أُمِّ مُبَشِّرٍ الْأَنْصَارِيَّةِ فِي نَخْلٍ لَهَا، فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ غَرَسَ هَذَا النَّخْلَ؟ أَمُسْلِمٌ أَمْ كَافِرٌ؟» فَقَالَتْ: بَلْ مُسْلِمٌ، فَقَالَ: «لَا يَغْرِسُ مُسْلِمٌ غَرْسًا، وَلَا يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلَ مِنْهُ إِنْسَانٌ، وَلَا دَابَّةٌ، وَلَا شَيْءٌ، إِلَّا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةٌ». رواه مسلم (١٥٥٢).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنْ قَامَت السَّاعةُ وَفِي يَد أَحَدِكُم فَسِيلَةٌ فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا تَقُومَ حَتى يَغرِسَهَا فَلْيَغرِسْهَا». رواه البخاري في الأدب المفرد (٤٧٩) والفسيلة: النخلة الصغيرة. =

قوله: ﴿لَّهَا طَلۡعٞ﴾، وهو القنوان، ﴿طَلۡعٞ نَّضِيدٞ﴾ أي: متراص بعضه فوق بعض، وذلك في الشماريخ، وهذا من عجائب قدرة الله ﷻ، وتجد العذق يتكون من ثمر كثير، وكل واحدة يأتيها غذاؤها ويتوزع عليها بالعدل، والقسط، ما ينصب الماء على واحدة، ويقل عن الثانية، أو ينقطع، بل هو موزع بالقسط، والعدل، فهذا من عجائب قدرة الله ﷻ، وفي الآية الأخرى: ﴿طَلۡعُهَا هَضِيمٞ﴾ [الشعراء: ١٤٨]، نخل ﴿هَضِيمٞ﴾ أي: لين الملمس قال: ﴿رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ﴾ أي خلقه الله رزقًا للعباد، فأنبت الزرع، وثمر النخل؛ لأجل رزق العباد، من ثمرات المطر أن الله ينبت به جنات، وبساتين، وينبت به الزروع، والنخيل، ومن أعظم بركات المطر إحياء الأرض بعد موتها أيضًا: ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ﴾ تجد الأرض هامدة ميتة، ليس فيها أي عود جرد، ثم يأتي عليها المطر، وبعد أيام وتظهر النبات، وتصبح روضة بهية مختلفة الطعوم، والألوان، والأزهار، كلها جاءت هذه البذورالتي أوجدها الله في الأرض، ساكنة فيها إلى أن يأتي المطر، ثم إنها تنبعث مثل الأموات في الأرض؛ ولذلك قال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾، للأموات الذين يسكنون القبور في الأرض أجسامهم متحللة، وعظامهم متفتتة، ولكن يبقى شيء من الإنسان لا يفنى وهو عجب الذنب منه يُركب خلق الإنسان(١)،

= وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «سَبْعَةٌ يَجْرِي لِلْعَبْدِ أَجْرُهُنَّ وَهُوَ فِي قَبْرِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ: مَنْ عَلَّمَ عِلْمًا، أَوْ كَرَى نَهَرًا، أَوْ حَفَرَ بِئْرًا، أَوْ غَرَسَ نَخْلًا، أَوْ بَنَى مَسْجِدًا، أَوْ وَرَّثَ مُصْحَفًا، أَوْ تَرَكَ وَلَدًا يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ». رواه البيهقي في الشعب (١٣٧٥).

(١) كما في الحديث الذي رواه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الخَلْقُ يَوْمَ القِيَامَةِ».

فالمطر يُحيي الله به الأرض بعد موتها؛ وكذلك الأجسام تحيا بعد موتها من الأرض نفسها، فنبات الأرض شاهد على البعث، فالذي أحيا الأرض بعد موتها يُحيي العظام وهي رميم، ويُحيي الأموات؛ ولذلك قال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ من القبور تنشرون من قبوركم كما ينتشر النبات بعد نزول المطر عليه، من الذي أحياها، وهي ميتة قاحلة جرداء، ليس فيها عود أخضر، ثم تعود إليها الحياة، ويعود إليها البهجة، والمناظر الجميلة، هذه قدرة الله ﷻ، كيف تستبعدون عليه أنه يحيي الأموات، وتقولون: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾ [ق: ٣]، أي: لا يمكن هذا في قدرتكم، أما قدرة الله ﷻ فإن الله لا يعجزه شيء، فالعجب ليس من قدرة الله فقط، العجب من تكذيبكم، وقصور أفهامكم، هذا هو محل العجب، ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ﴾، قال سبحانه وتعالى: ﴿تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ [فصلت: ٣٩]، وفي الآية الأخرى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]، وفي الآية الأخرى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]، فإحياء الأرض بعد موتها من أدلة البعث، كما أن الله يحي الأجسام بعد موتها، هذا موت، وهذا موت، وهذا فناء، وهذا فناء، ثم بعد ذلك يعود، فكيف نستغرب على قدرة الله سبحانه وتعالى أن يبعث الناس، وهو الذي خلقهم أول مرة، وأوجدهم من العدم، هو قادر على أن يعيدهم من باب أولى، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٧﴾ [الروم: ٢٧]، ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ﴾ يُقال: مَيْت لمن قد مات، ويُقال: مَيِّت لمن سيموت قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزمر: ٣٠]، فالذي سيموت يُقال

له: مَيِّت، والذي قد مات بالفعل يقال مَيْت[١].

قال ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ من القبور، فالذي أخرج النبات من الأرض القاحلة قادر على أن يُخرج الأجساد من القبور؛ لأنه لا يعجزه شيء ﷻ، ولكن أين العقول؟، هم يزعمون أنهم عقلاء، ويزعمون أنهم مفكرون، وأنهم حذاق، ومع هذا ينكرون قدرة الله ﷻ.

ثم إنه ﷻ ذكر ما حصل للأمم التي قبل المشركين الذين أنكروا بعثة الرسل ﷺ، ذكر ما صنع بهم فليعتبر هؤلاء، الذين كذبوك أيها الرسول فقد كذب قبلهم أمم، لست الوحيد الذي كُذبت، قال ﷻ: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣]، فإذا كانوا كذبوا محمدًا ﷺ فقد سبقهم أمم كذبوا الرسل فأهلكهم الله ﷻ، وهؤلاء إذا لم يؤمنوا فسيأتيهم نصيبهم من الهلاك، فلا يغتروا بقوتهم، ولا يغتروا بثروتهم، ولا يغتروا بعقولهم، ليسوا هم أذكى الأمم، ولا هم أقوى الأمم، فإن الله أهلك الأمم السابقة، وهو قادر على أن يُهلك هؤلاء، ولكن لحلم الله ﷻ، وعفوه لا يعاجلهم بالعقوبة لعلهم يتوبون، ويرشدون، يمهلهم ﷻ، قال ﷻ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي: قبل قومك أيها الرسول، ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ نوح عليه السلام: هو أول الرسل ﷺ، قد بعثه الله إلى قومه لما غلوا في الصالحين، وعبدوهم من دون الله ﷻ، وأرسل الله إليهم نبيه، ورسوله نوحًا ﷺ، فدعاهم إلى الله فكذبوا، وعاندوا، فأهلكهم الله بالغرق، فجر الله عليهم الأرض، وأنزل عليهم السماء مدرارًا، بأن فتح أبواب السماء بماء منهمر، وفجر الأرض

---

(١) انظر: مادة (موت) في تهذيب اللغة (١٤/ ٢٤٤)، ولسان العرب (٢/ ٩١).

عيونًا فألتقى الماء من الأرض والسماء، وعلا الماء فوق الجبال، صارت الأرض كلها بحرًا غطت الجبال، وصارت أمواجًا كالجبال، وهم يزعمون أنهم عندهم قوة، وعندهم، وعندهم، ما دافعوا عن أنفسهم.

قوله ﷻ: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ وهم أمة يُقال لهم: أصحاب الرس، والرس في اللغة هو: القليب، والبئر رس[1]، فهم أهل بئر، وقليب، كفروا بالله، فبعث الله إليهم نبيًا يدعوهم إلى الله، وجاء في الروايات: أنهم كذبوه، وأخذوه، وألقوه في البئر -والعياذ بالله-، فأهلكهم الله ﷻ.

قوله ﷻ: ﴿وَثَمُودَ﴾ التي كانت تسكن بلاد الحجر، وهم الذين كانوا ينحتون الجبال بيوتًا، ولا تزال بيوتهم خاوية إلى الآن، لم تُسكن من بعدهم عبرة للناس؛ ليتعظوا، ويعتبروا، لا ليفتخروا بهذه البيوت، ويقولوا: هذه حضارة، وهذا دليل على حضارة أهل الجزيرة، لا يُفتخر بهذا، بل يُتعجب منه، ويُعتبر به ويُخاف، فالله أبقاها للتخويف، والإنذار، لم يبقها من أجل الآثار، ومن أجل الافتخار بها، واتخاذها للسياحة، هذا لا يجوز، فالله أبقاها عبرة وتذكرة لمن يعتبر.

قوله ﷻ: ﴿وَعَادٌ﴾ وهم قوم هود، ويسكنون في الأحقاف في الجنوب الشرقي لجزيرة العرب، وكان الله أعطاهم قوة في الأجسام، وزادهم في الخلق بسطة، فاغتروا بقوتهم، وقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ ولما دعاهم نبي الله هود عليه السلام إلى عبادة الله، وترك الشرك، قال ﷻ: ﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ

(١) انظر: مادة (ر س س) مختار الصحاح(١/ ١٢٢)، والقاموس المحيط فصل الراء (١/ ٥٤٩)، وتاج العروس(١٦/ ١٢٢).

﴿أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الشعراء: ١٣٦- ١٣٩]، وقال ﷻ عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥]، فهم غرتهم قوتهم، فجحدوا قدرة الله ﷻ، وزعموا أنه ليس على الأرض أحد أقوى منهم، وقد أهلكهم الله بشيء بسيط، وهو الريح، الريح الرقيقة أرسلها الله عليهم فصارت تنزع الناس من الأرض إلى الجو -والعياذ بالله-، ثم تنكسهم على رؤوسهم، فتندق أعناقهم، قال ﷻ: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠]، فأين قوتهم حيث صارت الريح أقوى منهم؟ مع أن المعروف أن الريح شيء رقيق، وشيء يُقاوم بالجدران، وبالحصون، ولكن هذه ريح عقيم، ليس فيها غذاء، وليس ريح عقيم مهلكة، والريح يجعل الله فيها غذاء للأشجار، وغذاء للناس، لكن هذه ريح عقيم -والعياذ بالله-.

قوله ﷻ: ﴿وَفِرْعَوْنُ﴾ ملك مصر الذي طغى، وتجبر، وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، أهلكه الله ﷻ.

قوله ﷻ: ﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾ أي قوم لوط، وهو ابن أخي إبراهيم -عليهما الصلاة والسلام-، وقومه ارتكبوا جريمة لم يرتكبها، ولا البهائم، وهي إتيان الذكور -والعياذ بالله-، ففعل اللواط لم يسبقهم إليه أحد من العالمين، فلما نهاهم نبيهم لوط ﵇ كذبوه، وردوه ردًا قبيحًا، وقالوا له: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ [الشعراء: ١٦٧]، سيطردونه من البلد، يستمرون على جريمتهم الشنعاء -والعياذ بالله-، تركوا ما خلق الله لهم من أزواجهم، وعدلوا إلى الشذوذ، وإتيان الذكور الذي فيه البلاء، والأمراض

وانقطاع النسل، وذهاب الحياء، وغير ذلك من المضار في اللواط[(١)]، وتركوا الطيب الذي أباحه الله لهم، وفيه النسل، وفيه قضاء الوطر، وفيه الستر، وفيه الحياء، واستبدلوه بالخبيث -والعياذ بالله-، وقوله: ﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾ أي إخوانه من النسب، وليسوا إخوانه في الدين، والله ﷻ يرسل إلى الناس رجلًا منهم، ومن نسبهم، يحمِّله الله الرسالة، ويبلغ هؤلاء، فمنهم من يؤمن، ومنهم من يكفر، فهذا معنى ﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ الأيكة: هي الشجر الملتف، وهذه بلاد مدين، كذبوا شعيبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ تبع: هو ملك اليمن، فمن يملك اليمن يُقال له: تبع، كما أن من يملك مصر يُقال له: فرعون، فتبع، كفر قومه بالله، وعصوا الرسل، فأهلكهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾، ﴿كُلٌّ﴾ أي كل من هذه الأمم كذب الرسل، مع أن كل أمة إنما كذبت رسولها فقط، لكن من كذب رسولًا واحدًا فقد كذب بجميع الرسل؛ لأن الرسل سلسلة واحدة، وكل واحد معه مثل ما مع أخيه الآخر من الرسالة، فهو مرسل من الله، فمن كذب واحداً فإنه مكذب للجميع؛ ولهذا المؤمنون يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ءَامَنَ

---

(١) انظر في أضرار فعل قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ: كتاب «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ (١/ ١٧١).

ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١] فلابد من الإيمان بجميع الرسل، ولابد من الإيمان بجميع الكتب المنزلة من عند الله ﷻ، فمن كفر بكتاب واحد فهو كافر بجميع الكتب، ومن كفر بنبي واحد فهو كافر بجميع الأنبياء.

قال ﷻ: ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أي: وقع بهم الوعيد الذي توعد الله به من كذب الرسل، وهو الهلاك، فأهلكهم الله ﷻ عن آخرهم، فأين قوم نوح، وأين قوم عاد، وأين ثمود، وأين الأمم التي كذبت رسلها، أين هم؟ وهؤلاء الذين كذبوا محمداً سيأتيهم ما أتى على غيرهم، إذا لم يؤمنوا، وقد وقع بهم ذلك، فالله سلط عليهم رسوله، والمؤمنين، فغزوهم، وقاتلوهم حتى نصرهم الله عليهم، وأذلهم الله ﷻ فحق عليهم الوعيد، والعياذ بالله.

ثم قال ﷻ: ﴿أَفَعَيِينَا﴾ أي: عجزنا، ﴿بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ﴾ حتى إنكم تكذبون بالبعث ﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ وهو البعث، هل الله ﷻ عجز عن الخلق الأول، وهو الإيجاد من العدم، حتى يعجز عن الإعادة؟ فالذي قدر على البداءة قادر على الإعادة، ﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ﴾ أي: شك ﴿مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾، ليس للبس داع، ولا الشك، هذا شيء واضح برهان، قاطع أن الذي أوجد الناس من العدم قادر على أن يوجدهم بعد الموت من باب أولى، هذه النتيجة لكل ما سبق فالذي أحيا الأرض بعد موتها، والذي خلق الناس من العدم، والذي أنبت الأشجار، والنباتات، والثمار بعد عدمها

قادر على أن يُحي الموتى من باب أولى.

فهذه الآيات فيها تقرير رسالة محمد ﷺ، وفيها تقرير البعث، وأنه حق، وفيها تقرير القرآن، وأنه من عند الله سبحانه وتعالى لا شك فيه، ففي هذا رد عليهم في هذه الأمور الثلاثة التي ذكرها الله في أول السورة، وهكذا القرآن يشتمل على البراهين العقلية، والقطعية، وفي نفس الأمر هي وحي من الله عز وجل فهو دليل عقلي، ودليل سمعي، برهان قاطع لا أحد يستطيع أن يرده، أو أن يكذبه، فقامت الحجة على الخلق، لكن القرآن يحتاج إلى تدبر، يحتاج إلى تفهم حتى ينتفع الإنسان به، ويستخرج ما فيه من البراهين، والأدلة، ويوضحها، ليس المراد بالقرآن التغني بتلاوته فقط، أو التلذذ بسماعه، وهذا شيء طيب، ولكن هذا وسيلة، والغاية هي الانتفاع بالقرآن، والاهتداء به، والإيمان به، هذا هو المقصود والله أعلم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدرس السادس

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذۡ
يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ﴿١٧﴾ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ﴿١٨﴾
وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ
﴿٢٠﴾ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ﴿٢١﴾ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ
غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ
عَنِيدٖ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ
ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ
وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [ق: ١٦-٢٩].

بعد أن ذكر الله ﷻ موقف المكذبين ببعثة الرسول ﷺ، والمكذبين بالبعث والنشور، والمكذبين للقرآن الكريم، ورد عليهم بالبراهين الواضحة التي تبطل قولهم، ولم يستطيعوا الإجابة عنها، ولن يستطيعوا ذلك، بيَّن ﷻ في هذه الآيات مصير هذا الإنسان الذي هذه مواقفه من الرسل، ومن الكتب، ومن الإيمان بالبعث والنشور، فقال ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ هل أحد يقول: لا، أنت لم تخلقني؟ لا أحد يستطيع هذا، قال ﷻ: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦] فالإنسان مخلوق، ولا يستطيع أن ينكر ذلك، وإذا كان مخلوقًا

فله خالق، وهذا الخالق لن يتركه يعبث، ويتكبر، ويتجبر، ويفسد في الأرض، ولا يليق بعدله -سبحانه- أن يترك هؤلاء العابثين من الملاحدة، والكفار، والمشركين، وأصحاب الأعمال السيئة، والإفساد في الأرض الذين يؤذون العباد، ويفسدون في البلاد، أن يتركهم سدى ﷻ، فقوله ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ اللام هذه موطئة للقسم، فهو خبر مؤكد بالقسم؛ لأن اللام تدل على قسم مقدر، و«قد» حرف تحقيق، فهي مؤكدات مع أنه لا أحد يشك في خلق الإنسان، لكن الغرض من ذلك التوصل إلى ما بعده، فإذا كنتم لا تنكرون أن الله خلقكم، وأوجدكم من عدم، فكيف تتمردون عليه ﷻ، وعلى رسله، وعلى عباده، و﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ المراد به: ابن آدم، وخصه بالذكر مع أن الله خلق كل شيء؛ لأن هذا الإنسان هو المتمرد، وهو المفسد إلا من رحم الله ﷻ، أما بقية المخلوقات فكل آخذ طريقه، وما هيأه الله له إلا هذا الإنسان، فكيف يتجبر على خالقه ﷻ؟ وهو يقر بأنه وُجد بعد أن لم يكن، ومن الذي أوجده؟ فكل حدث لابد له من محدث، وكل خلق لابد له من خالق، هذا ما تقتضيه العقول السليمة، فإذا كان مخلوقًا فكيف يتمرد على الله ﷻ كيف لا يخاف من خالقه ﷻ؟.

ثم ذكر أنه محصٍ عليه جميع أعماله، فليفعل ما يشاء، وليُكذِّب، وليتمرد، وليفسد، وليفسق فإنه يُحصي عليه كل ما صدر منه، ولا يظن إنه مُهمل، وأنه يسرح، ويمرح، ويفعل ما يشاء، ثم يُترك، هو محيط به من كل جانب، فليفعل ما يشاء، إن خيرًا، وإن شرًا، فإن كل شيء محصى عليه، ومسجل، ﴿وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ﴾ الله يعلم ما يتردد في النفس، وما يتلجلج في الضمير، وما يخطر بالقلب قبل أن يتكلم الإنسان به، فكيف

بالذي يظهر الكفر، والفسوق، والمنكرات، إذا كان الله يعلم ما يكون في النفوس، وما في الصدور، وما في القلوب، وما في السرائر، فكيف يليق بهذا الإنسان أن يبارز الله ﷿ بالكفر، والفسوق، والعصيان، وبالكلام القبيح، وبالرد السيء؟

ثم قال ﷻ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ احبل الوريد هو عرق الرقبة فالحبل: معناه العرق، و هل هناك شيء أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد الذي في رقبته؟ ليس هناك شيء، الله أقرب من ذلك، فالله وملائكته أقرب إلى عبده من حبل الوريد، فكيف يجاهر بالمعاصي من هو أقرب إليه من عرقه الذي في رقبته، ويظن أنه لا أحد يدري عنه؟ نعم، إذا لم يدرِ عنك الناس فإن الله ﷿ يعلم ذلك مهما كنت، ومهما اختفيت، ومهما تكتمت، ومهما خططت من المكر السيئ فإن الله محيط بك، وقريب منك أينما كنت، وإذا كان الناس، والملوك، والمخابرات قد تكون بعيدة عنك، أو تختفي عنها، وتعمل الأشياء التي تمنع توصلها إليك، فإن هذا لا يمنعك من الله أبدًا مهما حاولت، فاتق الله ﷿ و«نحن»: ضمير المعظم نفسه وهو الله ﷿، والملائكة التي وكلها الله بهذا الإنسان مع قرب الله منه، وعلمه بما يصدر منه، بل علمه بالشيء الذي في نفسه قبل أن يصدر منه، فالله يعلم، والملائكة تكتب.

وقوله ﷻ: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ أي الملكان يتلقيان من هذا الإنسان ما يصدر منه.

قوله ﷻ: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ﴾ عن يمينك ملك، وعن شمالك ملك،

فالذي عن يمينك يكتب الحسنات، والذي عن شمالك يكتب السيئات، والله لا يسجل عليك السيئات فقط، وإنما يسجل ما لك، وما عليك، فهذا من عدله ﷻ، ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ قعيد: مفرد، والمذكور ملكان عن اليمين، وعن الشمال، قالوا: لأن كلمة قعيد تصلح للمفرد، وتصلح لأكثر من المفرد، أي: قعيدان، وقعيد الإنسان: جليسه الذي يقعد معه وقيل: قعيد يصلح لواحد، والثاني مقدر من جنسه، عن اليمين قعيد، وعن الشمال قعيد، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه؛ اختصارًا، وإيجازًا في الكلام، وهذا من بلاغة القرآن الكريم(١).

قال ﷻ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ ما يلفظ هذا الإنسان من قول سواءً كان قولًا حقًا، أو قولًا باطلًا ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ رقيب من الملائكة، وهم: القعيد عن يمينه، وعن شماله، ﴿عَتِيدٌ﴾ أي: معتد، ومهيأ، قال تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ [الكهف: ٢٩]، أي: هيأنا، وأوجدنا، فالله أوجد، وأعد هذا الرقيب يراقب هذا الإنسان، هذه حالته في الدنيا، وفي حياته في الدنيا، منذ كلفه الله إلى أن يتوفاه الله، وهؤلاء الملائكة معه يسجلون أقواله، وأعماله، وقيل: إنهم أيضًا يسجلون خواطره ونياته التي في قلبه.

كل أعماله تحسب له أو عليه خيرًا، أو شرًا، وليس مهملًا، جلس في بلده ومع المسلمين، أو ذهب للخارج، وفسق، وفسد، وسرح، ومرح، لا يظن أنه يخفى على الله، فهو إن خفي على الناس، وعلى أهل بلده، وعلى أقاربه، فإن الله رقيب عليه، والله معه في أي مكان، والملائكة معه أيضًا

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٤٢٣)، ومعاني القرآن للأخفش (١/ ٢٥٨).

تكتب عليه، فلا يظن أنه إذا سافر للفساد في أوروبا، أو في أمريكا، أو في أي بلد فاسد، يريد أن يسرح، ويمرح، لا يظن أنه مُهمل، ولا أحد يدري عنه، فهو مراقب، وملازم بالليل، والنهار، فليفعل ما يشاء، هو يفعل لنفسه أو عليها فإذا انتهى الأجل، وشارف العمل على الختام، يأتيه الموت، وآن انتهاء الحياة في هذه الدنيا جاءه ملك الموت، ومعه أعوانه من الملائكة؛ لقبض روحه، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ يُصاب بسكرة، أي: بإغماء وبضياع فكر، وبانشغال لا يعلمه إلا الله، وبذهول من شدة الألم، وشدة المطلع، وشدة الهول الذي يراه، ما حسب له حسابًا، ولا جاء على باله حينما سرح، ومرح في هذه الدنيا، ما جاءت على باله هذه الساعة التي تنتظره، ولابد له منها، وما سلم من الموت، قال سبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، أهل الخير، وأهل الشر، الرسل وغيرهم -عليهم الصلاة والسلام-[١]، ما أحد سلم من الموت، ولابد منه، وهو ينتظرك حينما ينتهي أجلك سواءً كان طويلًا، أو قليلًا فإن الموت يأتي، فيحضر ملك الموت، ومعه أعوانه؛ لقبض روحك، واستخراجها من البدن يحصل مع ذلك معاناة شديدة -والعياذ بالله-، وسكرات، وغمرات، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنعام: ٩٣]، غمرات، والنبي ﷺ قاسى منها، وقال وهو يعاني سكرات الموت: «**لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ**

---

(١) كما في الحديث الذي رواه ابن ماجه (١٦٢٩) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: «**لَمَّا وَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ كَرْبِ الْمَوْتِ مَا وَجَدَ، قَالَتْ: فَاطِمَةُ وَا كَرْبَ أَبَتَاهُ، فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «لَا كَرْبَ عَلَى أَبِيكِ بَعْدَ الْيَوْمِ، إِنَّهُ قَدْ حَضَرَ مِنْ أَبِيكِ مَا لَيْسَ بِتَارِكٍ مِنْهُ أَحَدًا، الْمُوَافَاةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

سَكَرَاتٍ»[(١)]، فليتذكر الإنسان هذه الحالة، وهو لا يدري متى تقع، ربما تفاجئك وأنت في أحسن أحوالك، وأنت مسرور، وأنت تسرح، وتمرح يفاجئك الموت، وكم سقط من ميت وهو في أبهى لذاته، وأبهى مظاهره، كم سقط من ميت وهو يؤمل أن يعمل كذا، ويعمل كذا؟ وكم نسمع من مفاجآت الموت، إما المفاجآت الفردية وما يسمونه بـ«السكتة»، أو يسمونه بـ«النزلة القلبية»، وكم سقطت الجماعات التي يحصل لهم نكبات من القتل، أو الحوادث، فيموتون جميعًا في لحظة واحدة، وهم يؤملون، ويبنون القصور، ويجمعون الأموال، لكن الموت يحول بينهم، وبين ما يريدون، وكل آت قريب، قال سبحانه وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]، فالمحتضَر يُعاين الحق الذي كان يُكذب به في الدنيا، أو يتهاون به، أو يتكاسل عنه، فإذا نزل به الموت يشاهد ما كان يُكذب به في الدنيا، أو ما كان ضيعه، وأهمله يشاهده، قال الله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ [ق: ٥]، فعند الموت يعاينون الحق الذي كذبوا به يرونه عيانًا بأبصارهم في وقت لا يستطيعون التخلص مما هم فيه، ولا يستطيعون الاستدراك لما ضيعوا.

قال ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: هذا الذي يحصل عند الموت ﴿مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي: تفر، فالإنسان يفر من الموت، ويكره الموت، قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨]، اهرب إلى ما تشاء، اهرب إلى الجو، إلى أوروبا، إلى أمريكا، إلى البحار، إلى البر، لن تتخلص من الموت أبدًا، ومن العجب أنك تفر منه، وهو أمامك، أنت تفر إلى الموت،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٤٩، ٦٥١٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وفي نظرك أنك تهرب من الموت، وهو أمامك، وأنت ذهبت إليه، فقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي: تهرب في حياتك، وتخاف من الموت، فالذي يتذكر الموت، ويستعد له فهذا موفق.

قال ﷻ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ فالموت هو القيامة الأولى، فمن مات قامت قيامته، وهناك القيامة الكبرى، وهي: قيام الناس من القبور، ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ والصور: هو القرن الذي مع إسرافيل عليه السلام، قرن لا يعلم عظمه إلا الله، وهذا الملك الذي ينفخ فيه لا يعلم عظم خلقته إلا الله سبحانه وتعالى، والنفخ في الصور ثلاث مرات، ذكرها الله في القرآن:

النفخة الأولى: نفخة الفزع، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [النمل: ٨٧]، هذه نفخة الفزع.

النفخة الثانية: نفخة الموت، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ﴾ أي: مات ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨].

النفخة الثالثة: نفخة البعث، قال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ ﴿قِيَامٌ﴾ من قبورهم، أعاد هم الله سبحانه وتعالى فقاموا من قبورهم على هيأتهم في الدنيا، لا ينقص من أجسامهم شيء، وليس عليهم ثياب، غرلًا[1]، أي: غير مختونين، يقومون من قبورهم هكذا.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٣٤٩، ٣٤٤٧، ٤٦٢٥، ٤٧٤٠، ٦٥٢٤، ٦٥٢٥، ٦٥٢٦، ٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩، ٢٨٦٠، ٢٨٦٠).

وجاء في الحديث: «بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ»(١)، أربعون سنة، أربعون ساعة، الله أعلم، ولا يُعلم ما هذه الأربعون، لكن بينهما وقت؛ ولذلك جاء بـ«ثم» التي هي للتراخي، ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾، إذًا تنبت الأجسام قبل هذه النفخة الأخيرة من القبور، وتُبنى، وتتكامل إلا أنها ليس فيها حياة، لكن تقوم على أقدامها من القبور، مثل ما ينبت العشب والأشجار تمامًا، فإذا نفخ إسرافيل في الصور النفخة الثالثة طارت كل روح، وهذا القرن إلى بدنها فدخلت فيه، بأمر الله ﷻ؛ ثم يؤمرون بالسير إلى المحشر، قال ﷻ: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي: من القبور، ﴿سِرَاعًا﴾ يسرعون ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ﴾ أي: إلى عَلَم، ﴿يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣] لا أحد يتخلف، ولا أحد يجلس، ولا أحد يهرب، كلهم يسيرون، فقوله ﷻ: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ نفخة البعث.

ثم قال: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ إذا سُيروا من قبورهم إلى المحشر، وكل إنسان معه سائق، وشهيد من الملائكة، سائق يسوقه إلى المحشر، وشهيد عليه بأعماله، وهما اللذان كانا يكتبان عليه أعماله في الدنيا، فتصور هذا إن كنت تريد لنفسك النجاة، ولا تغامر في الأمور، ولا تنس هذا الموقف، وهذا اليوم، ولا تقل: إنه بعيد، وأمامي فرصة.

فالله ﷻ يذكرنا بهذا المشهد العظيم، فيقول: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ لقد كنت أيها الإنسان في غفلة من هذا، لا تتصور هذا المشهد، وهذه الأحداث العظام التي تنتظرك؛ ولذلك تغامر في حياتك، وتضيع وقتك في

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١٤، ٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

اللهو، واللعب، والغفلة.

قال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ زال عنك هذا الأمل، وزال عنك هذا الاستبعاد الذي كان معك في الدنيا الذي غطى على عقلك، فلم تتذكر هذا الموقف، ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي: حاد، تنظر ببصر حاد، بصر قوي، ترى ما عندك، وما أمامك من الأهوال، أما في الدنيا فعلى بصرك غشاوة، وأما في الآخرة فإن البصر يكون حادًا يرى، هذه الأهوال التي أمامه، تشاهد هذه الأهوال التي نسيتها، وغفلت عنها، فلا تستطيع أن تستدرك.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ الذي كان معه من الملائكة الذي سبق ذكره عن اليمين، وعن الشمال، وهم الملائكة الحفظة الذين كانوا يقارنونه في الدنيا، عن اليمين، وعن الشمال ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أي: ما أعددته على هذا الإنسان، وما كتبته عليه، وقد أحضرته الآن، عتيد، أي: معد، ومثبت، وهذه صحيفته التي ملأها بأفعاله، وأقواله في الدنيا، ها هي، يأتي بها الملك يوم القيامة، وهذه فضيحة أخرى -والعياذ بالله- أن يأتي الملك بهذه الصحائف مكتوبة، ومملوءة عليه، وقد نسيها، ويظن أنها ضاعت مع حياته، ومع الدنيا، قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾ [المجادلة: ٦].

يقول الله ﷻ للسائق، والشهيد اللذين مع هذا الإنسان: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾، ما قال: أدخلا، بل قال: ﴿أَلْقِيَا﴾ وهذا أشد؛ لأنه يُطرح

في النار طرحًا، ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾ كثير الكفر بالله ﷻ، كفار للنعم، كفار بالرسل كفار بالبعث، فالكفَّار: كثير الكفر، ﴿عَنِيدٍ﴾ معاند لأمر الله، ورسوله، وهو يعلمه، أما الإنسان الجاهل الذي لا يعلم فإنه لا يؤاخذ حتى يعلم.

ثم قال تعالى: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ لا يصدر منه خير قط، لا عمل صالح، ولا إنفاق في سبيل الله، ولا أمر بمعروف، ونهي عن منكر، لا جهاد في سبيل الله، لا رحمة، ولا عطف على الفقراء، وكلمة ﴿مَّنَّاعٍ﴾ أي: شديد المنع فلا يصدر منه خير، ﴿مَّنَّاعٍ﴾ يعتدي على الناس، فهو لا يعمل خيرًا، ومع هذا يعتدي على الناس -والعياذ بالله- في أموالهم، وأعراضهم، ودمائهم، فهو لا يصدر منه خير، ولا يسلم الناس من شره، ويظن أنه مُهمَل ﴿مُّرِيبٍ﴾، كثير الشك، والتردد، لا يثق بأخبار الأنبياء، ولا بما جاء في الكتاب، والسنة، وإما أنه يقول: هذا كذب، وهذا خيال، وإما أن يقول: هذا يحتمل أنه صدق، ويحتمل أنه كذب، فعنده شك في أوامر الله ﷻ، وأوامر رسوله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ هذا من صفاته -والعياذ بالله-: أنه جعل مع الله شريكًا، فهو الذي جعل من عنده، أما الله ﷻ فليس معه إله آخر، لكن هو نفسه جعل، وزعم أن مع الله شريكًا، يدعوه، ويرجوه، وهذا يعم كل مشرك بالله ﷻ، وهو الذي يعبد الله، ويعبد معه غيره، أما الذي يجحد وجود الله فهذا الملحد، أما الذي يقر بوجود الله، ويقر بتوحيد الربوبية، ولكن يجعل مع الله إلهًا آخر، فهذا مشرك في الألوهية التي خُلق من أجلها، ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ هذا توكيد للخطاب الأول، ألقيا في جهنم أيها الملكان ﴿فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾، وكلمة «عذاب» تكفي، ولكنه عذاب شديد،

لا يعلم شدته إلا الله ﷻ.

قوله ﷻ: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ من هو هذا القرين؟، هل هو القرين الأول؟ لا، ليس القرين الأول، القرين الأول هو الملك الذي يحفظ أعمال، لكن هذا الشيطان -والعياذ بالله-، ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي: الشيطان؛ لأن من أعرض عن ذكر الله قيض الله له الشيطان، قال ﷻ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٨].

قوله ﷻ: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ هذا مثل قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي الشيطان، ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ فهو الذي ضل، وهو الذي انقاد لي باختياره، وطوعه، وإرادته.

قال الله ﷻ: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾ يخاطب الله الإنسان، والشيطان، فيقول: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾ الإنسان يلقي اللوم على الشيطان، ويقول: هذا هو الذي أغواني والشيطان يقول: لا، أنا ما أجبرتك.

ثم قال ﷻ: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ أنا لن أغير ما قدمته لكم في الدنيا، قدمته، وبينت لكم الجنة، والنار، والعواقب، والبعث، والنشور، كأنكم تشاهدون ذلك، ما يخفى شيء، يفصل لك القرآن كل ما حصل، فالقرآن ما ترك لك عذرًا، وبين لك الله في القرآن طريق الخيروبيَّن لك طريق الشر وحذرك، إذًا هل لك حجة على الله؟ وما لك حجة على الشيطان.

ثم قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فالله لا يُعذب أحدًا بغير فعله، إنما كلٌ يُعذب بعمله، والظلم: هو وضع الشيء في غير موضعه، فالله لا يضع العذاب إلا فيمن يستحقه، ولا يضع النعيم إلا فيمن يستحقه؛ لأنه حكيم ﷻ، حكم عدل، لا يُعذب أحدًا بغير جريمته، وبغير عمله، قال ﷻ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]، ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ وفي الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللهَ**»[١]؛ لأن الله هو الذي وفقه، وهداه، وبيَّن له، وأعانه، فالفضل لله ﷻ، «**وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ**»[٢] غير الخير، وهو الشر، «**فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ**»[٣]؛ لأن هذا عمله بيده، وهذا كسبه، وهذا ما قدمه لنفسه، لو أن الله يعذبك بعمل فلان، أو فلان، يُقال: هذا ظلم، لكنه يعذبك بعمل نفسك، هذا عدل منه ﷻ، ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، فالله لا يضيع أجر المحسنين، ولا يترك الكفرة، والفسقة، والملاحدة يسرحون، ويمرحون في هذه الدنيا، ويؤذون عباد الله، ويقهرون الناس، ويبطشون بهم، الله لا يتركهم يوم القيامة، لابد لهم من موقف، كلٌ يجازيه الله بعمله، فليفعل الإنسان ما يشاء، الآن أنت أمامك الأمور واضحة في هذه الدنيا وضوح الشمس، ولكن سل الله التوفيق، والهداية، فما كل من عرف الحق يعمل به، وما كل من عرف الباطل يتركه إلا بتوفيق الله ﷻ، وهدايته.

---

(١) أخرجه مسلم(٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) تكملة الحديث السابق.

(٣) تكملة الحديث السابق.

الدرس السابع

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٠-٣٧].

﴿يَوْمَ نَقُولُ﴾ أي: يوم القيامة، يقول الله لجهنم يخاطبها، وجهنم: هي النار؛ لأن النار لها أسماء، منها: جهنم(١)، والسعير(٢)، والحريق(٣)، وهو قول حقيقي، فالله يكلمها، وهي تجيبه، والله قادر على كل شيء ﷻ، ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ أي: هل أخذت نصيبك من البشر، ولم يبق فيك مكان للزيادة؛ لأن الله وعدها بأنه سيملأها؛ كما في قوله ﷻ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا

---

(١) هذا هو المشهور من أسمائها.

(٢) إشارة إلى قوله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ [الشورى: ٧].

(٣) إشارة إلى قوله ﷻ: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [الحج: ٢٢].

﴿لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، فهذا وعد من الله ﷻ، وفي الحديث **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه، **عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «تَحَاجَّتِ النَّارُ، وَالْجَنَّةُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ، وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: فَمَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ، وَسَقَطُهُمْ، وَعَجَزُهُمْ، فَقَالَ اللهُ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمْ مِلْؤُهَا»**(١).

فهو سبحانه وتعالى في هذه الآية يشير إلى هذا ﴿هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ تطلب الزيادة، وأنها واسعة -والعياذ بالله-، وجاء في الحديث الصحيح أو في الأحاديث أن النار لا يزال يُلقى فيها، وهي تقول: هل من مزيد، فيضع رب العزة فيها، أو عليها رجله، وفي رواية: قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض، فتقول: قطٍ قطٍ. أي: كفاني، كفاني(٢)، فهذا هو معنى هذه الآية: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، وهذا فيه وعيد شديد لهؤلاء أن يكونوا من حطب جهنم يوم القيامة، ووعيد لكل عاقل أن يتنبه لذلك؛ لئلا يكون ممن يُلقى في جهنم -والعياذ بالله-.

ثم قال ﷻ: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾ أي: قُربت، لما ذكر النار، ذكر الجنة، وهذا الأسلوب متكرر في القرآن الكريم، وهو أن الله حينما يذكر العذاب يذكر

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٠، ٧٤٤٩)، مسلم واللفظ له (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) كما في نفس الحديث السابق وهو قوله ﷺ: «**فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِئُ، فَيَضَعُ قَدَمَهُ عَلَيْهَا، فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ**».

الرحمة، وحينما يذكر النار يذكر الجنة؛ لأجل أن لا يقنط العباد، فلا يذكر الجنة فقط حتى يأمن العباد، ولا يذكر النار فقط حتى يقنط العباد، بل إنه ﷻ بحكمته يذكر الجنة، والنار، والوعد، والوعيد في كثير من الآيات، ومنها هذا الموضع، ومعنى ﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ أي: قربت. ﴿ٱلْجَنَّةُ﴾ والجنة في اللغة اسم للبستان الملتف بالأشجار من الاجتنان وهو الاختفاء[1]، فهي تُجِن من فيها، لما فيها من الأشجار الملتفة، والجنة درجات، والنار -والعياذ بالله- دركات، الجنة درجات بعضها فوق بعض، يدخلها الناس بحسب أعمالهم والنار دركات إلى أسفل بعضها تحت بعض، وكل طبقة من النار فيها صنف من المعذبين -والعياذ بالله-.

﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين كانوا يوعدون بها في الدنيا، لما آمنوا بها في الدنيا، ولم يروها، وعملوا لها، فإن الله - سبحانه - أقر أعينهم برؤيتها في هذا المشهد العظيم، آمنوا بها في الدنيا، وعملوا لها وهم لم يروها، إيمانًا بخبر الله ﷻ، وخبر رسوله ﷺ، فهم آمنوا بالغيب، فالغيب صار شهادة في هذا الموقف.

قوله ﷻ: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: يرونها قريبة منهم، ويشاهدون ما فيها من النعيم، والسرور، والمنازل؛ لأجل أن تقر أعينهم بذلك، ويفرحوا به؛ ثمرة لأعمالهم الصالحة التي قدموها في الدنيا، تعبوا قليلًا في الدنيا، واستراحوا دائمًا في الآخرة، صبروا على طاعة الله في الدنيا، وعن محارم الله، فأنتج لهم ذلك هذه العاقبة الحميدة، ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: أن هذا الوعد آت

---

(١) انظر مادة (جنن) في: مقاييس اللغة (١/ ٤٢١)، وتاج العروس (٣٤/ ٣٧٤).

بلا شك؛ لأن كل آت فهو قريب، فالمستقبل قريب، والماضي بعيد، أي: أن هذا وعد قريب وقوعه، ولا مانع من إرادة المعنين -والله أعلم-، غير بعيد في المكان، وغير بعيد الحصول والوقوع؛ لأن كل ما هو آت فهو قريب.

ثم قال ﷻ للمتقين: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾، هذا مصداق ما وعدناكم في الدنيا، وصدقتم به، وعملتم من أجله، الآن ها هو قريب منكم، تحقق به وعد الله لكم، ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾؛ لأن الله ﷻ لا يخلف وعده، إذا وعد وعدًا فإنه لا يخلفه ﷻ، أما الوعيد فإن الله قد يوقعه، وقد يعفو، ولا يوقعه، أما الوعد فإن الله لا يخلفه، قال ﷻ: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الروم: ٦]، قال الشاعر:

وَإِنِّـي وَإِنْ أَوْعَـدْتُـهُ أَوْ وَعَـدْتُـهُ ... لَمُخْلِفُ إِيعَادِي وَمُنْجِزُ مَوْعِدِي

هذا الفرق بين الوعد، والوعيد، ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ أي: ليس خاصًا لهذه الطائفة التي يخاطبها الله يوم القيامة، بل هذا عام لكل أواب، والأواب: من الأوب وهو الرجوع، يُقال: آب إذا رجع[(١)]، وأواب: أي: رجاع عن الذنوب إلى التوبة، والاستغفار، فالإنسان خطاء؛ كما في الحديث **عَنْ أَنَسٍ ؓ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»**[(٢)]، فليس الغريب أن الإنسان يخطئ؛ لأن هذه طبيعة

---

(١) انظر: مادة (أوب) في مقاييس اللغة (١/ ١٥٣)، ولسان العرب (١/ ٢١٨)، وتاج العروس (٢/ ٣٣ - ٣٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٩٩)، وابن ماجه (٤٢٥١)، وأحمد (١٣٠٤٩) من حديث أنس ؓ.

البشر «كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ»، طبيعة البشر، ولكن الغريب أن الإنسان لا يتوب، هذا هو الغريب، يخطئ، ولا يتوب، أما من أخطأ، وتاب فهذا لا يضره الخطأ، والله يغفر له، قال ﷻ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٢]، وقال: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزمر: ٥٣]، وفي قوله: ﴿أَوَّابٌ﴾ إشارة إلى أن الإنسان كلما يخطئ يتوب، ﴿أَوَّابٌ﴾ كثير التوبة، وكثير الرجوع، فدل على أنه كلما أخطأ، وأذنب يتوب إلى الله ﷻ، ولا يقنط من رحمة الله، ويقول: أنا تبت ثم رجعت، أنا ليس لي توبة؛ لأن هذا من الشيطان، فلا يقل هذا، بل كلما أذنب فإنه يتوب، قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾، ﴿إِذَا فَعَلُوا۟﴾ إذًا يتكرر هذا منهم، ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وقال ﷻ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الزمر: ٥٣] فلا تتعاظم ذنبك، وتظن أن الله لا يغفره، ولا تمتنع من التوبة؛ لأنه تكرر منك فعلها، بل تب إلى الله ﷻ توبة صحيحة، والله يتوب على من تاب، وجاء في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ ﷻ، قَالَ: «أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: «اللهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي»، فَقَالَ تبارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تبارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تبارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ

فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ»(١)، فالله يحب من عباده أن يتوبوا، ولو تكررت ذنوبهم، ولو عظمت ذنوبهم، ولا يقنطوا من رحمة الله ﷻ، فالذين قالوا: إن الله هو المسيح بن مريم، وقالوا: إن الله ثالث ثلاثة، وهذا من أقبح القول، ومع هذا يقول الله ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤] فلو تابوا إلى الله تاب الله عليهم مع أن مقالتهم أشنع المقالات.

قوله ﷻ: ﴿حَفِيظٍ﴾ حفيظ: صيغة مبالغة من الحفظ، أي: كثير الحفظ، بمعنى أنه يحفظ حدود الله فلا يقع فيها، وإذا وقع فيها تاب إلى الله، ﷻ، قال ﷻ: ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢]، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: «يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ»(٢) وفي رواية: «تَجِدْهُ أَمَامَكَ»(٣) فالحفيظ: هو الذي يحفظ حدود الله، وحرمات الله ﷻ، وقيل: الحفيظ هو الذي يحصي ذنوبه، ويتوب منها، ولا ينساها، ويحاسب نفسه، ولا تنافي بين المعنيين، فالحفيظ: يُراد به الذي يحفظ حدود الله، والتائب الذي يتوب من ذنوبه -أيضًا- هو يحفظ حدود الله بالتوبة، يحفظها في الأول لا يقربها، وإذا وقع فيها فإنه يحفظها بالتوبة، والاستغفار.

والحفيظ ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ خاف منه ﷻ، ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: في حال غيبته عن الناس بحيث لا يراه إلا الله ﷻ؛ لأن بعض الناس قد يتظاهر

(١) أخرجه أحمد (٧٥٣) واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٨٧٤٩)، والحاكم في المستدرك (٧٦٠٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (٢٦٦٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه أحمد (٢٨٠٣).

عند الناس بالصلاح، والتوبة، والاستغفار، لكنه إذا خلا ظن أنه لا يراه أحد، فيبارز الله بالمعاصي، هذا لا يخشى الله في الغيب، إنما يتظاهر بخشيته عند الناس، لكن الخشية الحقيقة هي التي تكون في الغيب، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢] أي: في حال غيبتهم عن الناس، وفي الحديث: أن من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم القيامة: «**وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ**»(١) خاليًا عن الناس، ففاضت عيناه من خشية الله ﷻ هذا من السبعة الذين يظلهم الله في ظله، فهذا فيه أن العبد يكون خائفًا من الله، خاشيًا له سواءً كان مع الناس، أو كان خاليًا بنفسه، بحيث لا يراه إلا الله ﷻ، وفي الحديث: «**اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ**»(٢) فهذا الذي دائمًا يراقب الله، ويخشى الله سواءً كان مع الناس، أو خاليًا هذا له مزية على غيره، أما الذي يخشى الله في العلانية كونه مع الناس، فإذا خلا أعطى لنفسه العِنان في المعاصي فهذا لا يخشى الله ﷻ وإنما يخشى الناس، قال ﷻ: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨]، وفي الحديث: «**الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»(٣)، فإن بلغتَ مرتبة اليقين، وصرت كأنك ترى الله، فهذه أعلى

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠، ١٤٢٣، ٦٤٧٩، ٦٨٠٦)، ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي (١٩٨٧)، وأحمد (٦٨٩٠)، والبيهقي في الشعب (٧٦٦٢) من حديث ابي ذر رضي الله عنه.

(٣) جزء من حديث جبريل عليه السلام المشهور الذي أخرجه البخاري (٤٧٧٧)، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

الدرجات، وإن لم تبلغ ذلك، فاعلم أنه يراك، فاتق الله ﷻ، والخشية من أعمال القلوب، ليست الخشية من أعمال الجوارح، والبدن، فالذي يتخاشع بجسمه، وبأعضائه هذا ليس هو محل الخشية، محل الخشية في القلب، الخشية، والخوف، والرغبة، والرهبة، والرجاء هذه من أعمال القلوب، ويُروى أن عمر رضي الله عنه رأى رجلًا، أو شابًا يصلي مطئطئًا رأسه فقال عمر رضي الله عنه: «**أيها الشاب ارفع رأسك فليست الخشية بالرقاب، وإنما الخشية في القلوب**».

قال ﷻ: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ جاء إلى الله ﷻ بقلب راجع إلى الله ﷻ، هذا هو الذي تُقرب له الجنة يوم القيامة، وتقر عينه بما أعد الله فيها من النعيم، والسرور، والحبور، ولكن هذا يحتاج إلى إيمان، عمل صالح، وإلى صبر في هذه الدنيا، ولا يحصل على ذلك إلا من وفقه الله ﷻ، والجنة محفوفة بالمكاره، والنار محفوفة بالشهوات(١)، كثير من الناس يتبعون الشهوات، هذا ابتلاء، وامتحان من الله، والجنة محفوفة بالمكاره؛ لأنها تحتاج إلى جهاد في سبيل الله، تحتاج إلى قيام ليل، تحتاج إلى صيام نهار، تحتاج إلى طاعات، وهذا يشق على البدن، فهي محفوفة بالمكاره، أي: بما تكرهه النفوس من العمل الشاق.

قال: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ أي: ما كنتم توعدون في الدنيا، ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ إذًا الجنة ما تحصل عفوًا بدون

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٨٢٢) من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ».

تعب، ولابد من هذه الأمور.

قال ﷻ: ﴿ٱدۡخُلُوهَا﴾ يقول الله ﷻ للمتقين: ﴿ٱدۡخُلُوهَا﴾ هذا إذن من الله ﷻ، فالجنة داره، ولا يدخلها أحد إلا بإذنه، وفي قوله: ﴿ٱدۡخُلُوهَا﴾ تكريم لهم، ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ ليس عليكم خطر، ولا مزاحمة، ولا أحد يأخذ مكان الثاني مثل ما في الدنيا، أنت آمن، تدخلها آمنًا بسلام، قيل: سلام من الله ﷻ يسلم عليهم؛ كقوله: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]، وقيل: ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ أي: بسلامة من الآفات، ومن الخوف، والمرض، والموت، فهي دار الأمان من كل محذور، ليس فيها خوف أبدًا، لا يُخرج منها، ما يأتي ظالم، ويخرجه منها مثل ما في الدنيا، ما أحد يتعرض له، آمن في الجنة آمن، خلاف الدنيا فهي دار الخوف، ودار البغي، والعدوان، ولو لم يكن فيها إلا الموت، الجنة ليس فيها موت، وليس فيها مرض، وليس فيها هرم، وليس فيها هم، ولا غم، وليس فيها ما يكدر أبدًا، وليس فيها أحد يضايقك، إخوان أهل الجنة إخوان ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾، قال ﷻ: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٤٧﴾ [الحجر: ٤٧] ليس بينهم شحناء، ولا بغضاء، ولا عداوات، ولا ثأرات، بل بينهم المحبة، والأخوة الصافية ليس فيها شحناء، ولا حسد، كل مقتنع بما هو فيه، الدنيا فيها مشاحات، وفيها كل واحد يرى أنه ناقص، ويحتاج إلى زيادة، أما في الجنة كل راض بما فيه، ولا يرى أن أحدًا أفضل منه، فهو قرير العين بما هو فيه، ليس فيها مشاحة، وليس فيها مغالبة، وليس فيها عدوان، وليس فيها ظلم، وليس فيها ما يكدر؛ ولهذا قال: ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ سالمين من كل آفة، وفي الآية الأخرى: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ٤٦﴾ [الحجر: ٤٦]، آمنين من كل مكروه.

ثم قال ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ﴾ إشارة إلى يوم القيامة، وإلى دخول الجنة، ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ﴾ الخلود: يعني البقاء الذي لا زوال له، بخلاف الدنيا، فإنها وإن تزينت لك، وازدهرت لك، وفرحت، فإنها على سبيل الزوال، فالشباب يعقبه الهرم، والصحة يعقبها المرض، والسرور يعقبه الهم، والحزن، لا يستمر شيء في الدنيا، أما الآخرة فما فيها يستمر، أهل الجنة يستمر لهم النعيم، وأهل النار -والعياذ بالله- يستمر لهم العذاب؛ ولهذا تسمى دار القرار، قال ﷻ: ﴿وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩] فهي الاستقرار الذي لا انتقال منه فهي دار الخلود، والخلود: هو البقاء الذي لا فناء له، كما يكون في الدنيا، تشاهد الآن قصور الملوك، والمنعمين، والأمم السابقة ترونها أطلالًا متهدمة، بعد أن كانت مزدهرة، وكانت فيها العزة، وفيها ما يتنعمون به والآن أصبحت خرابًا بلقعًا، هكذا الدنيا، أما الجنة فإنها لا خراب لها، ولا زوال لها، ولا فناء، ولا هَرم، ولا كبر، ولا مرض، فقوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ﴾ هذا تطمين لهم، وزيادة نعيم لهم بحيث يطمئنون أن هذا لايزول أبدًا، ولا يخافون عليه أن يؤخذ، ويُسلب أبدًا، من دخل الجنة لا يخرج منها أبدًا.

ثم قال ﷻ: ﴿لَهُم﴾ أي: لأهل الجنة، والمتقين الذين سبق ذكرهم ﴿مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ نعيم بعد نعيم، وبشارة بعد بشارة، ما يشاءون مما تطلبه نفوسهم يحضر عندهم في الحال، بدون تعب، وبدون مشقة خلاف الدنيا، فأنت إذا أردت شيئًا في الدنيا قد لا تحصل عليه، وإن كنت تتمناه وتريده فلاتحصل عليه، أما في الآخرة في الجنة فكل ما أردته يحصل في الحال.

وقوله: ﴿يَشَآءُونَ﴾ من غير تحديد، اطلب ما تريد في الجنة، وبدون

ثمن، بدون بيع، وشراء؛ لأنهم اشتروه في الدنيا، قال ﷻ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١]، هم قدموا الثمن في الدنيا، ففي الآخرة يأخذون ما يريدون بدون ثمن، ولا يكفي هذا، بل قال: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ لدى الله ﷻ، وعنده مزيد من النعيم، فليس ما في الجنة محصورًا بما يشاهدونه، بل إن الله يزيدهم ﷻ من كل سرور، ومن كل نعيم، فلا يخشون أن هذا السرور ينفد، أو يزول، بل إن الله يزيدهم دائمًا، وأبدًا.

وقيل: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ وهو: التنعم برؤية الله ﷻ؛ لأن أهل الجنة يرون ربهم ﷻ في كل يوم جمعة في الدنيا(١)، أي: كل ما يوافق يوم جمعة في الدنيا يزورون ربهم، ويرونه، ويتجلى لهم ﷻ، فهذا هو المزيد؛ كما في الآية الأخرى في سورة «يونس» ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ﴾ [يونس: ٢٦] هي النظر إلى وجه الله ﷻ(٢)، وهذا أعظم من الجنة، وأعظم مما فيها، ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ مزيد من النعيم، ومزيد وهو رؤية الله ﷻ؛ لأنهم آمنوا به في الدنيا، ولم يروه، بل اعتمدوا على خبر الله، وخبر رسوله، آمنوا به بالغيب، ولم يروه فالله ﷻ يجازيهم، ويتجلى لهم في الآخرة حتى يروه عِيانًا بأبصارهم؛

---

(١) إشارة إلى ما جاء في السنة لعبد الله بن الإمام أحمد (١٢٢٦) من كلام أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) كما في الأثر الذي رواه ابن خزيمة في كتاب التوحيد(٢/ ٤٥٢) عن حذيفة رضي الله عنه، والسنة لعبدالله بن الإمام أحمد (١/ ٢٥٧)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٢٣٠).

كما صحت بذلك الأحاديث عن رسول الله ﷺ(١)، وفي القرآن: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وقد فسرها النبي ﷺ بأنها رؤيتهم لله ﷻ، وقال في الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾ [المطففين: ١٥] فدل على أن المؤمنين لا يحجبون عن الله ﷻ، أما الكفار لما لم يؤمنوا به في الدنيا حجبهم الله عن رؤيته يوم القيامة؛ عقوبة لهم -والعياذ بالله.

ثم قال ﷻ متوعدًا الكفار الذين ذكرهم في أول السورة: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: قبل كفار قريش الذين كفروا برسول الله ﷺ، وكذبوه، وكذبوا بالقرآن، وكذبوا بالبعث، فالله ﷻ لا يهملهم، ولا يتركهم، بل إنه سيوقع بهم ما أوقع بالأمم التي هي أقوى منهم، فعاد، وثمود أقوى من قريش، والأمم السابقة أقوى ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ أي: كفار قريش، ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ والقرن: هو الأمة، والجيل من الناس، ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أشد من قريش، وهل كفار قريش مثل عاد وثمود في القوة، هل هم مثل فرعون في القوة؟ ولا نفعتهم قوتهم أي: الأوائل، والأمم السابقة ساروا في البلاد، قال ﷻ: ﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩]، والتنقيب: هو السفر والسير في الأرض، نقبوا في البلاد ومع هذا لم ينفعهم، لم تنفعهم دنياهم، وقوتهم، وما أوتوه من زهرة الدنيا لم ينفعهم ذلك، فإذا أهلك الله هؤلاء القرون القوية فهو قادر على أن يُهلك هذا القرن الضعيف من باب أولى، وتلك آثارهم باقية إلى الآن، هل أغنتهم؟ هل نفعتهم؟ هل امتنعوا من عذاب الله ﷻ؟ إذًا هؤلاء الكفار لا يأمنون على أنفسهم، والسعيد من وعظ

---

(١) كما في الحديث الذي رواه البخاري (٧٤٣٥) من حديث جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا».

بغيره، قال ﷻ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج: ٤٨]، وقال ﷻ: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾﴾ [محمد: ١٠]، وقال ﷻ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١] فهم ساروا في البلاد شمالًا، وجنوبًا، وغربًا، وشرقًا ما تركوا من الأرض شيئًا، ومع هذا ما أغنى عنهم، هلكوا جميعًا، قال ﷻ: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢]، وقال: ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [القصص: ٥٨]، فهذا وعيد من الله ﷻ لهؤلاء، ولمن جاء بعدهم من الكفرة، وفي العالم الآن يرى الدول القوية العاتية التي اغترت بقوتها أن الله ﷻ يدمرهم بقدرته، ويصبحون أذلة بعد أن كانوا أقوياء، دول معروفة، مثل ألمانيا، والإنجليز، والروس، كلهم أعطاهم الله قوة اغتروا بها، ثم دمرهم الله ﷻ، اليابان، وغيرها، كلها دول اغترت بقوتها، فسلط الله عليهم من هو أقوى منهم من جنده ﷻ، فالله ﷻ يمهل، ولا يهمل.

ثم قال ﷻ: ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾، هل أحد منهم هرب، أفلت من طلب الله له ﷻ، هل أحد منهم منع العقوبة عن نفسه؟ أبدًا، لا يستطيعون، لا يستطيع أحد أن يرد ما أجراه الله ﷻ، وهذا استفهام بمعنى النفي، أي: لا محيص لهم، ولا مفر لهم من الله ﷻ.

ثم قال ﷻ لما ذكر في أول هذه السورةالبراهين، والعبر، قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أي: تذكير، ووعظ من الله ﷻ، ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ هل من أحد ليس له قلب؟ كل الناس لهم قلوب، ولكن المراد القلب

الذي يعقل، أما القلب الذي لا يعقل فهذا لا ينفع صاحبه شيئًا، قال ﷻ: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، لا يبصرون بصر اعتبار، ولا يستمعون استماعًا يفيدهم، وإن كانوا يسمعون، وليسوا صمًا، لكن المقصود السمع الذي ينفع، والقلب الذي يعقل، والأذن التي تسمع سماعًا ينفع صاحبها، أما مجرد الجوارح، والأعضاء، فإنها أدوات فقط حسب ما تُستعمل، إن استعملت في الخير أفادت صاحبها، وإن استعملت في الشر ضرت صاحبها؛ ولهذا قال ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦]، فالعمى ليس عمى البصر، العمى عمى البصيرة -والعياذ بالله-، والقلب الذي يعقل، أما القلب الذي لا يعقل فهذا لا فرق بينه، وبين قلب البهيمة، قال ﷻ: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، فأنت لو قلت لواحد من بني آدم، أو من الملوك: أنت مثل البهيمة، ماذا يصنع فيك؟ والله ﷻ يقول: إنهم أحط من البهائم ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

ثم قال ﷻ: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: استمع لكلام الله، وكلام رسوله، ولم يعرض كما يقولون: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦]، فالواجب على العاقل أن يستمع لما يقال، فإن وجد خيرًا أخذه، وإن وجد شرًا تركه، والقرآن كله خير، والمواعظ كلها خير، والتذكير كله خير، ﴿أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: حاضر القلب، فلا يكفي السماع بدون حضور القلب، فلابد من الاثنين: السماع بالأذن، والحضور بالقلب، حتى تُدرك معنى الكلام وتفقه فيه، أما مجرد سماع الأذن مع إعراض القلب،

وانشغاله، فهذا لا يفيد صاحبه شيئًا، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

هذا وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

الدرس الثامن

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ
﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾
وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ
يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ
تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ
عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق: ٣٨- ٤٥].

قال الله ﷻ في ختام هذه السورة العظيمة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ هذا عطف على ما سبق في الرد على الكفار الذين يستغربون إعادة الخلق بعد موتهم، وينكرون البعث والنشور؛ لأن عقولهم لا تتصور هذا ويقولون ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾ [ق: ٣]، فهم يستبعدون أنهم إذا استحالوا في الأرض، وصاروا ترابًا، أنهم يعودون خلقًا جديدًا، لأنهم لا يقدرون الله حق قدره، ولا يعرفون قدرة الله التي لا يعجزها شيء، فذكرهم الله ﷻ بأنه خلق السموات السبع الطباق بقدرته ﷻ، وخلق الأجرام الكبيرة العلوية بقدرته ﷻ وخلق الأرض السبع الطباق بقدرته، قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ

وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، سبع طباق، وفي الحديث: «**مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا، طَوَّقَهُ اللهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ**»(١)، فالله خلق الأرض بطباقها، وخلق السماوات السبع بطباقها، وخلق ما بين السماوات والأرض من الفضاء الهائل الواسع، والأجواء العظيمة، فالذي قدر على خلق هذه المخلوقات الهائلة قادر من باب أولى على إعادة الإنسان، قال ﷻ: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ [غافر: ٥٧]، فالذي قدر على خلق هذه المخلوقات الهائلة قادر من باب أولى على أن يعيد هذا الإنسان خلقًا جديدًا؛ لأن الذي قدر على خلق السماوات، والأرض قادر على خلق ما دونهن من باب أولى، فهذا من براهين الدالة على البعث، واليهود يقولون: إن الله تعب من خلق السماوات، والأرض، واستراح يوم السبت؛ فرد الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ﴾ أي: من تعب، قال ﷻ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٣٣﴾ [الأحقاف: ٣٣] والعي هو: التعب، واللغوب هو: التعب، فاليهود لا ينكرون البعث، ولكنهم يصفون الله بالتعب، ولذلك يعتبرون يوم السبت عطلة وعبادة بل يوم الجمعة.

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ هي أيام الأسبوع بداية من يوم الأحد، ونهاية بيوم الجمعة؛ سمي يوم الجمعة؛ لأنه اجتمع فيه الخلق، وتكامل فيه، والله قادر على أن يخلق هذه الأشياء بلحظة واحدة، ولكنه خلقها في أيام لحكمة

(١) أخرجه البخاري (٢٤٣٥)، ومسلم واللفظ له (١٦١٠) من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه.

يعلمها ﷻ، وقد اختلفت الأمم الثلاث في اليوم الذي يتفرغون فيه للعبادة، فاختارت اليهود يوم السبت؛ لأنهم يزعمون أن الله استراح فيه، واختارت النصارى يوم الأحد؛ لأنه بداية الأيام التي خلق الله فيها السماوات، والأرض، واختار الله لهذه الأمة المحمدية يوم الجمعة لأنه اليوم الذي تكامل فيه الخلق، وفيه حوادث عظيمة منها: خلق آدم في يوم الجمعة، ومنها: إخراجه من الجنة، ومنها أن الساعة تقوم في يوم الجمعة[1]، فهو يوم عظيم؛ فلذلك اختاره الله لهذه الأمة، وما حسدنا اليهود والنصارى على شيء أعظم مما حسدونا على يوم الجمعة، الذي اختاره الله لنا، وصدهم عنه بكفرهم، وعنادهم، ﴿وَمَا مَسَّنَا﴾ أي: ما أصابنا.

ثم قال ﷻ: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ هذا أمر لنبينا محمد ﷺ بالصبر على ما يقوله له أعداؤه من المشركين، واليهود، والنصارى من تكذيبه، والطعن في رسالته، وإنكار البعث، وإنكار القرآن، كما سبق في أول السورة، أوصاه الله، وأمره بأن يصبر، وأن يستمر في دعوته، ويصبر على ما يناله من أذى الناس، ولا يلتفت إلى ذلك، فهذا من صفات الداعية إلى الله أنه يصبر على ما يلقى من الناس في سبيل الدعوة إلى الله من اللوم، والتهديد، والتوبيخ، والتنقص، فإنه يصبر، ويستمر في الدعوة، وفي الآية الآخرى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: ٣٣]، وفي الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ

---

(١) كما في الحديث الذي رواه مسلم (٨٥٤) من حديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، يَقُولُ: «قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا».

بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٩]، ولا تتأثر بما يقولونه لك، فإن هذا شيء قالوه في الأنبياء من قبلك، ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣].

الشيء الثاني مما أمر ه الله به: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ التسبيح: معناه التنزيه، أي نزه ربك عما لا يليق به، ويُراد أيضًا بالتسبيح: الصلاة، فإن الصلاة تسبيح وتسمى بالسبحة(١)، وهذا هو المراد هنا، ﴿وَسَبِّحْ﴾ أي: صل، ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ أي: صل صلاة الفجر في بداية النهار، وصل صلاة العصر في آخر النهار، مع ذكر الله سبحانه وتعالى في هذين الوقتين، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الإنسان: ٢٥]، وقال: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ [النور: ٣٦]، الغدو: أول النهار، والآصال: آخر النهار، فيُستحب ذكر الله في هذين الوقتين، وتجب صلاة الفجر، وصلاة العصر في أول النهار، وفي آخره، فهذا مما يعينه على تحمل ما يُقال فيه، وهذا مثل قوله: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣]، فالصلاة فيها إعانة على تحمل المشاق، وتفرج الهموم مع ذكر الله عز وجل بالتسبيح، والتهليل، والتكبير، والتحميد في الغدو، والآصال، ثم قال عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي: بعض الليل صل فيه، واذكر الله فيه، والمراد بصلاة الليل: التهجد؛ ولهذا

(١) كما في الحديث الذي رواه البخاري (١١٠٤) من حديث عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ: «أَنَّ أَبَاهُ أَخْبَرَهُ: أَنَّهُ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى السُّبْحَةَ بِاللَّيْلِ فِي السَّفَرِ عَلَى ظَهْرِ رَاحِلَتِهِ حَيْثُ تَوَجَّهَتْ بِهِ».

قال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾ و«من» تبعيضية أي: صل من الليل بعضًا منه، وليس المراد أنك تصلي الليل كله، وإنما تصلي منه، وكان ﷺ يصلي وينام فالمسلم يصلي من الليل، وينام، لا يصلي الليل كله، ولا ينام الليل كله، وإنما يصلي منه، وينام فيه، هذه سنة رسول الله ﷺ(١). ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ أي: اذكر الله بعد الصلوات، وذلك بالذكر الوارد في أدبار الصلوات المفروضة، قال ﷻ ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ﴾ [النساء: ١٠٣]، والذكر بعد الصلاة مشروع، وقد وردت الأدلة بأنه ﷺ كان إذا سلم يقول وهو متوجه إلى القبلة: «**أَسْتَغْفِرُ اللهَ**»، ثلاثًا، ثم يقول: «**اللهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**»(٢)، ثم يتوجه إلى أصحابه، ويلتفت إليهم، ثم يأتي ببقية الأذكار، بالتهليل، والتحميد، والتكبير، ومنها أنه بعد الفجر، وبعد المغرب يأتي بالتهليلات العشر، وبعد الصلوات الخمس يُسبح الله ثلاثًا وثلاثين، ويحمد الله ثلاثًا وثلاثين، ويكبر الله ثلاثًا وثلاثين(٣)، ويقول تمام المئة: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**»(٤)، أو يقول: «**سُبْحَانَ اللهِ**» خمسًا

---

(١) كما في الحديث الذي رواه مسلم (١٤٠١) من حديث أنس رضي الله عنه، «**أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ سَأَلُوا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ عَمَلِهِ فِي السِّرِّ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا آكُلُ اللَّحْمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ. فَقَالَ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا؟ لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**».

(٢) أخرجه مسلم (٥٩١) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٨٤٣)، ومسلم (٥٩٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم (٥٩٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وعشرين، «وَالْحَمْدُ للهِ» خمسًا وعشرين، «والله أَكْبَرُ» خمسًا وعشرين، «لَا إِلهَ إِلَّا اللهُ» خمسًا وعشرين، المجموع مئة(١)؛ هكذا ورد بهاتين الصفتين، أنه يجعل المئة أثلاثًا، أو يجعلها أرباعًا، فهذا هو الذكر بعد الصلوات.

ثم قال ﷻ مبينًا قرب البعث الذي أنكروه، وأنه ليس ببعيد: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ وهو إسرافيل الذي ينفخ في الصور ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ أي: يوم ينفخ في الصور نفخة البعث.

قال ﷻ: ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾؛ لأن المنادي من مكان بعيد لا يُسمع، فهو ينادي من مكان قريب -الله أعلم- به، لكن الحكمة في كونه قريبًا؛ لأجل أن يبلغ الناس كلهم.

ثم قال ﷻ: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾ هذا هو النداء، المذكور صيحة البعث، أي: بالبعث الذي هو حق لا مرية فيه، وهو الذي أنكروه، واستبعدوه، هذا سيحصل عما قريب، فلا تستبطئه؛ لأنه قريب، قال ﷻ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الروم: ٢٥]، دعوة واحدة، ليس فيها تكرار، يسمعها كل من تحت التراب، فيخرجون بأمر الله ﷻ.

قال ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ من القبور، وذلك أن الله ينبت الأجسام من القبور، حتى إذا تكاملت خلقتها، وليس فيها أرواح، يأمر إسرافيل فينفخ في

---

(١) أخرجه النسائي (١٣٥١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وأحمد في المسند (٢١٦٠٠) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.

الصور نفخة البعث، فتطير كل روح إلى جسدها، وتسري فيه، فتعود إليهم الحياة، ثم يؤمرون بالمسير إلى المحشر، قال ﷻ: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾ أي: من القبور، ﴿سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ﴾ أي: علم، ﴿يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣] أي: يسرعون، لا يتأخر منهم أحد، ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ﴾ أي: البعث من القبور؛ لأنهم كانوا تحت التراب، ثم إذا ناداهم المنادي، ودعاهم الداعي خرجوا من قبورهم، لا يتخلف منهم أحد.

قال ﷻ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ٤٣﴾ هذا رد على المشركين، فالله ﷻ يحي، ويميت، أي: يوجد من العدم، وهو البداية، ثم يميت الأحياء بعد حياتهم، ثم يبعثهم، أحياهم من العدم في بطون أمهاتهم، ثم أحياهم بعد موتهم من قبورهم، ﴿أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ أي: مرتين، ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ٤٣﴾ فالإحياء، والإماتة من اختصاص الله ﷻ، لا يقدر عليهما غيره؛ ولهذا لما قال إبراهيم عليه السلام للنمرود: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فأراد أن يُكابر فقال: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ أي إنه يأتي بالشخص يستحق القتل، فيصفح عنه، فيكون أحياه، ويقتل من أراد، ويميته، هذا الإحياء، والإماتة بزعمه، فإبراهيم عليه السلام عدل عن هذا الهذيان، وجاء له بشيء لا يمكن أن يُغالط فيه، فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ﴾.

﴿وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي: المرجع والمآب، كل الخلق يصيرون إلى الله، لا أحد يهرب، أو يتخلف، المؤمن، والكافر، والعاصي، والمطيع، والبر، والفاجر، والجبار، والطاغية، كلهم يرجعون إلى الله بأعمالهم،

المؤمن لا يضيع عليه شيء من عمله، ولا الفاجر، والكافر لا يضيع عليه شيء من عمله، فالمصير إلى الله ﷻ، وما دام المصير إلى الله فالمؤمن يطمئن، ولو أصابه ما أصابه من أذى الناس، والكافر، والطاغية لا يتمادى فإنه يعلم أن مصيره إلى الله، فهذا تهديد منه ﷻ، في أنهم وإن طغوا، وبغوا، وتجبروا في الأرض فإنهم لا مهرب لهم عن الله ﷻ، وأن مصيرهم إلى الله.

ثم قال ﷻ: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ فالخروج من القبور، بأن تشقق الأرض عنهم، كانت الأرض من قبل مطبقة عليهم، فإذا جاء البعث تشققت، وخرجوا منها، مثل ما يخرج النبات، والبذور التي في الأرض، فأنت تمر على الأرض جرداء، ليس فيها شيء، فإذا جاء المطر تشققت، وخرج منها النبات، كذلك البعث تتشقق الأرض، ويخرجون منها، كما يخرج النبات.

ثم قال ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ حشر الناس، وجمعهم على كثرتهم من أولهم إلى آخرهم يسير على الله؛ لأن الله لا يعجزه شيء، ولا يهربون من سلطانه، وقضائه، وجمعه لهم، لا أحد يستطيع الهروب، والاختفاء، ولا أحد يستطيع أن يكذب، أو يجحد، كل شيء مضبوط، ومدون عليه، فكما أن الخلق يسير عليه، فكذلك الحشر، جمع الأولين، والآخرين يسير على الله ﷻ، لا يعجزه شيء، ولا مهرب لهم من الله ﷻ.

ثم قال ﷻ: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ وهذا أيضًا تثبيت للنبي ﷺ:

أولًا: أمره بالصبر.

ثانيًا: أمره بالعبادة، أن يُقابل هذه المشاق بالعبادة، والصلاة، والذكر.

ثالثًا: أن يترقب الوعد الذي لا يتخلف، وهو البعث، وهو قريب.

رابعًا: أن يعلم أن الله يعلم ما يقولون، ولا يخفى عليه ما يقولونه في حقه ﷺ، لكنه يمهلهم لحكمة، إما لأن يتوبوا، وإما لأن يزيدوا إثمًا، فهو يمهلهم لحكمتين:

الأولى: إما أن يتوب من يتوب منهم، ويرجع إلى الله، وهذا يحصل كثيرًا.

الثانية: وإما أن يمهلهم لأجل أن يزدادوا إثمًا، فيكون ذلك أشد في تعذيبهم.

ثم قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ﴾ أي لا تستطيع إجبارهم على الإيمان، هذا بيد الله سبحانه وتعالى، أما أنت فعليك البلاغ، وأما قبول الهداية فهو من الله ﷻ، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]، قال سبحانه وتعالى: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢﴾ [الغاشية: ٢٢]، فلا تملك أن تجبرهم على قبول الدعوة، وعلى الهداية، هذا ليس بيدك، ولست مكلفًا به، وإنما هو بيد الله سبحانه وتعالى، أما أنت فعليك البلاغ، وإقامة الحجة، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، فلا يضيرك إذا لم يؤمنوا، أنت قد أديت الذي عليك، وبلغت، وقال سبحانه وتعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، فالهداية ليست على الرسول، ولا على الدعاة، وإنما هي بيد الله، أما الرسل والدعاة فإنما

عليهم البلاغ، والبيان للناس، وكان ﷺ حريصًا على هداية الناس، وكان يتعب نفسه ويشق عليه أنهم لا يؤمنون، فالله طمأنه فقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾ أي: مهلكٌ نفسك ﴿إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، لا تأسف عليهم، وقال ﷻ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، فالله طمأنه وقال: لا يشق عليك عدم قبولهم؛ لأن هذا ليس من شأنك، وهذا بيد الله ﷻ، وأنت أديت الذي عليك وهو: الدعوة، والبلاغ وهذه مهمة الدعاة إلى الله ﷷ.

ثم قال ﷷ: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ عليك بالتذكير، قال ﷻ: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ۝١١ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ [الأعلى ٩ - ١٢]، ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ﴾ فالقرآن هو أعظم الذكر، وأعظم التذكير، وأعظم واعظ؛ ولهذا قال قبل آيات: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ [ق: ٣٧]، فأعظم واعظ، وأعظم مذكر هو القرآن العظيم، ذكر به، أي: بالقرآن؛ ولهذا كان ﷺ يكثر من تلاوة القرآن في خطبة الجمعة؛ لأن القرآن هو أعظم الذكر، وأعظم المواعظ، فالخطيب ينبغي له أن يركز على تلاوة القرآن، والإكثار من الآيات في الخطبة، ويختار الآيات المناسبة لموضوع الخطبة.

قوله ﷻ: ﴿مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي من يخاف هذا الوعيد الذي ذُكر في هذه السورة، وفي غيرها، فالقرآن ينفع من في قلبه خوف من الله ﷷ، ويؤثر فيه، وأما من لا يخاف الله، ولا يرجو ثوابه، فإنك تقيم عليه الحجة؛ لئلا يقول: ما بلغني شيء؛ لئلا يحتج يوم القيامة بأنه لا يعلم، ولا بلغه شيء، فتُقام عليه الحجة، فالدعوة إلى الله يحصل بها أحد أمرين: إما هداية

من يقبل الهداية، وإما إقامة الحجة على المعاند المعرض.

فهذه سورة عظيمة، - وكان يكثر من تلاوتها في خطب الجمعة؛ لما تتضمنه من البراهين، والوعظ، والتذكير، والمنهج الصحيح للدعوة إلى الله ﷻ، فهي سورة عظيمة ينبغي للمسلم أن يُكثر من تلاوتها، وتدبرها، والله أعلم.

الدرس التاسع

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾
إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾
يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ
ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾
إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾
كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ
وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات: ١- ١٩].

هذه السورة افتتحها الله سبحانه وتعالى بهذه الأقسام، أي: الأيمان الصادرة منه سبحانه وتعالى مع أنه سبحانه وتعالى هو الصادق الذي لا يتطرق شك إلى خبره سبحانه وتعالى، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، وقال عز وجل: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ﴾ [آل عمران: ٩٥]، ومع هذا أقسم سبحانه وتعالى بهذه المخلوقات العظيمة على ما يذكره من الخبر، توكيدًا لأمر عظيم، والله عز وجل يقسم بما شاء من خلقه، وهو لا يقسم إلا بشيء له أهمية، وفيه عبرة(١)، وقد أقسم سبحانه وتعالى في هذا القرآن بعدة

---

(١) يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: (فهو سبحانه يقسم على أصول الإيمان التي يجب على =

أشياء في مواضع مختلفة، وهذه الأشياء فيها عبر، وفيها أسرار عظيمة، وهذا النوع من القرآن يسمى بأقسام القرآن، وقد جمعها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب سماه «التبيان في أقسام القرآن».

أما المخلوق فإنه لا يقسم إلا بالله عَزَّوَجَلَّ.

فعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، وَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»**(١).

وعَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ، **«أَنَّ ابْنَ عُمَرَ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: لَا وَالكَعْبَةِ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: لَا يُحْلَفُ بِغَيْرِ اللَّهِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»**(٢).

= الخلق معرفتها، فتارة يقسم على التوحيد، وتارة يقسم على أن القرآن حق، وتارة على أن الرسول حق، وتارة على الجزاء، والوعد، والوعيد، وتارة على حال الإنسان، فالأول كقوله: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ۝٤﴾ [الصافات: ١ - ٤]، والثاني كقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧﴾ [الواقعة: ٧٥ - ٧٩]، والقسم على الرسول كقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨ - ٤١]، وأما القسم على الجزاء والوعد والوعيد ففي مثل قوله: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝٣ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ۝٦﴾ [الذاريات: ١ - ٦]، ثم ذكر تفصيل الجزاء، وذكر الجنة، والنار، وذكر أن في السماء رزقهم، وما يوعدون ثم قال ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣]. انظر: التبيان في أقسام القرآن لابن القيم (٣ - ٥) بتصرف.

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠١) واللفظ له، ومسلم (١٦٤٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي واللفظ له (١٥٣٥)، وأحمد في المسند (٩/ ٤٢٣).

فالحلف بغير الله شرك أصغر، وهو من الشرك في الألفاظ، إلا إذا نوى تعظيم المحلوف به كما يعظم الله، فإنه يكون شركًا أكبر، كالذين يحلفون بالأصنام، وبالمعبودات، فهذا شرك أكبر؛ لأنهم يعتقدون تعظيمها وعبادتها؛ ولهذا هم يحلفون بالله وهم كاذبون، ولا يحلفون بمعبوداتهم الشركية إلا وهم صادقون؛ لأنهم يخافون منها ولا يخافون من الله.

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾، الذاريات: هي الرياح، سميت بالذاريات؛ لأنها تذرو التراب[1]، ﴿ذَرۡوٗا﴾ توكيد للذاريات، ولأن في ذروها نوعًا من اللطافة، والحكمة.

﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢﴾، وهي السحاب، وسميت حاملات؛ لأنها تحمل الماء، وتسير به إلى حيث أمرها الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ﴾ [الأعراف: ٥٧]، فهي تحمل الماء بإذن الله، ﴿وِقۡرٗا﴾ أي: ثقلًا؛ لغزارة المياه التي فيها؛ ولهذا تفيض منها الأودية الكبار، فتمتلئ منها مخازن الأرض، وقد يغرق الله بها أممًا من البشر؛ لأنها تحمل ماءً غزيرًا وهو الوقر.

ثم قال ﷻ: ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝٣﴾، قيل: الجاريات هي السفن في البحار؛ كما قال ﷻ: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾ [الشورى: ٣٢]، فالجواري هي: السفن، والمراكب البحرية التي تسير على عباب الماء

(١) أي: تطيره وتذهبه، انظر: مادة (ذرو) لسان العرب (١٤/ ٢٨٣)، وتاج العروس (٣٨/ ٨٦).

بواسطة الرياح، وتحمل الأثقال، أو تسير بالوقود -كالحال الآن-، وهذا من آيات الله ﷻ، كيف الماء الرقيق تسير فوقه هذه المراكب، والبواخر الهائلة، ولا تغرق؟ فحمل الماء لها من قدرة الله ﷻ؛ ولهذا أقسم الله ﷻ بها؛ لأنها تدل على قدرته ﷻ.

﴿يُسۡرٗا﴾، أي تسير سهلة السير، ليس فيها صعوبة، بل تسير سيرًا متيسرًا سهلًا، لا يحس به الإنسان إلا إذا أراد الله بها شيئًا، فإنها تأتيها الأمواج، والعواصف، فتغرق حتى ولو كانت مراكب ضخمة؛ لأن الله ﷻ لا يعجزه شيء.

وقيل المراد بـ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝٣﴾: الكواكب، قال ﷻ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥، ١٦]؛ لأن الكواكب أيضًا تجري في أفلاكها منتظمة، وبدقة متناهية، لا يحصل فيها خلل، ولا اضطراب، فهذا من آيات الله ﷻ.

ثم قال ﷻ: ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ۝٤﴾، هي الملائكة؛ لأنها تقسم أوامر الله ﷻ في خلقه، فهي تحمل أوامر الله، وتنفذها في الخلق بما أمرها الله ﷻ، وانظر هذه الآيات العظيمة:

أولًا: الرياح؛ لأنها هي التي تلي الأرض، ثم فوق الرياح السحاب، ثم فوق السحاب الكواكب على القول بأن المراد بـ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا﴾ الكواكب، فهي فوق السحاب، ثم الملائكة؛ لأنها فوق الكواكب، فهذا نسق عجيب في هذه الآيات، ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ۝٤﴾، وجواب القسم ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ﴾، ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ من البعث، والنشور، والجزاء،

والحساب، ﴿لَوَٰقِعٌ﴾ أي: لابد من وقوعه؛ كما قال ﷻ: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الروم: ٦].

ثم قال ﷻ: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ﴾، المراد بالدين: الحساب، يُقال: دانه إذا حاسبه، فهو مدين يعني محاسب، قال ﷻ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ [الماعون: ١] أي: يكذب بالحساب، وكقوله: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] يوم الدين، أي: يوم الحساب(١)، والجزاء على الأعمال، فالبعث، والنشور واقع لا محالة، والحساب واقع لا محالة؛ لأنه هو النتيجة من الحياة في هذه الدنيا، فلسنا مهملين، كل يسرح، ويمرح، ويفعل ما يشاء، يكفر، أو يؤمن، وتنتهي المسألة، لا، فالنتيجة تنتظر في وقتها، وهو يوم الحساب، والجزاء على هذه الأعمال التي صدرت منا في هذه الدنيا(٢).

لماذا أقسم سبحانه وتعالى هذه الأقسام مع أنه الصادق ﷻ؟ أقسم للرد على

---

(١) وذلك يوم القيامة؛ لأنه يوم يُدان الناس فيه بأعمالهم.
انظر: تفسير الطبري (٢٢/ ٣٩٤)، وتفسير القرطبي (١٧/ ٣٠).

(٢) يروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله:

وَلَــوْ أَنَّـــا إِذَا مُـــتْنَا تُـــرِكْـــنَـــا ... لَــكَـــانَ الْمَوْتُ رَاحَـــةَ كُـــلِّ حَـــيِّ
وَلَـــكِـــنَّـــا إِذَا مُـــتْنَا بُـــعِـــثْـــنَـــا ... وَنُـــسْـــأَلُ بَـــعْـــدَ ذَا عَـــنْ كُـــلِّ شَـــيِّ

وَقَالَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ:

أَلَا إِنَّمَـــا الـــدُّنْـــيَـــا مَـــقِـــيـــلٌ لِـــرَاكِـــبٍ ... قَـــضَـــى وَطَـــرًا مِـــنْ مَـــنْـــزِلٍ ثُـــمَّ هَـــجَّـــرَا
وَرَاحَ وَلَا يَـــدْرِي عَـــلَامَ قُـــدُومُـــهُ ... أَلَا كُـــلُّ مَـــا قَـــدَّمْـــت تَـــلْـــقَـــى مُـــوَفَّـــرَا

انظر: أدب الدنيا والدين للماوردي (١/ ١٢٠).

المكذبين بالبعث، والنشور الذين يكذبون به، ويستبطئونه، ويتحدون، ويقولون: عجل لنا هذا الذي تقول، ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾، أي: نصيبنا من العذاب ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦]، هذا تحد لله ﷻ، وتكذيب للرسول ﷺ.

ثم قال ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾، هذا قسم رابع، ﴿ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾، أي: الجمال، ففيها المدارج الجميلة، والحُبك هو التدرجات التي تكون على سطح الماء، أو على الرمل، إذا جاءته الريح فإنه يتجعد، ويكون حبكًا جميلة تُعجب الناظر إليها(١).

﴿إِنَّكُمْ﴾، أيها الكفار ﴿لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ في حق الرسول ﷺ، فقد اختلفوا ماذا يسمونه، فأحدهم يقول: إنه كذاب، وآخر يقول: إنه ساحر، وآخر يقول: إنه مجنون، حتى قالوا: مُعَلَّم علمه أحد بني إسرائيل، قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، أي إنه يتلقى هذا القرآن من بشر من بني إسرائيل يعلمه، وليس هو من عند الله ﷻ، فاختلفت أقوالهم في الرسول ﷺ، وفي القرآن، فهذا دليل على كذبهم؛ لأنهم لو كانوا صادقين ما اختلفت أقوالهم، فكل واحد يتخرص، ويصف الرسول ﷺ بوصف، فهذا من اضطرابهم، وهكذا أهل الشر، وأهل الكذب لا يتفقون، كلٌ له قول، أما أهل الحق فإنهم يتفقون، ويكون قولهم واحدًا، فالقرآن لايختلف بل يصدق بعضه بعضًا، ويفسر بعضه بعضًا، وكذلك أحاديث

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٢/ ٣٩٤)، ويقال: الحبك: الشدة، وحبكت بالنجوم. انظر تفسير ابن كثير (٧/ ٣٨٧).

الرسول ﷺ لاتختلف، ولا تتناقض أبدًا؛ لأنها حق، والحق لا يختلف، أما أقوال الكفار فإنها مختلفة؛ لأنها باطلة.

ثم قال ﷻ: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ﴾ أي: يُصد عنه، أي: بسببه ﴿مَنْ أُفِكَ﴾ من افتتن، فاختلافهم هذا لحكمة: من أجل أن يبتلي الله الناس، فمنهم من يصدق قول الكفار فيهلك، ومنهم من يكذبه، ويتبع الرسول ﷺ فينجو، فهذه الحكمة ولتمييز المؤمن من المنافق من الكافر، أي: يضل بسببه، ويهلك من افتتن، وصدقه، واتبعه، ولو شاء ربك ما فعلوه، لكن الله أجراه للابتلاء، والامتحان للعباد، وهكذا الشائعات الآن، والافتراءات تجد لها زبائن من الناس يصدقونها، ويتابعونها، وهذا مطرد في العباد، وتجد من يكذبها، وينكرها، ثم إنه ﷻ توعدهم على هذا فقال: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾﴾ أي: لُعن، الكذابون، فهؤلاء، خراصون؛ بدليل أنهم مختلفون، ليس عندهم إلا خرص وتخمين، لو كان عندهم حق ما اختلفوا.

ثم قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾﴾ غمرة الجهل، والضلال، حيث يغمرهم الجهل، والضلال حتى لا يخرجوا منه -والعياذ بالله-، ﴿سَاهُونَ﴾ عن الحق، لا يفكرون فيه، ولا يسألون عنه؛ لا يسألون عن حق، أو يطلبون برهانًا، فغرقوا في الفتن -والعياذ بالله- ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ يسألونك ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أي: متى تقوم الساعة، قال ﷻ: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال ﷻ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٤٢- ٤٤]، فلا يعلم وقت قيام الساعة إلا الله، لا يعلمه أحد،

لا جبريل عليه السلام، ولا محمد ﷺ، ولا أي مخلوق، فهذا مما اختص الله ﷻ بعلمه، ثم ليس لنا مصلحة في السؤال عنه، ولا معرفته، وإنما علينا العمل، والاستعداد له، أما السؤال متى يحصل، فما لنا فيه مصلحة[١]، فهم يسألون من باب التحدي، والتكذيب، وهكذا من ترك الحق ابتلاه الله بالباطل، فبدل أن يسألوا عن الخير، والعلم، وعما ينفعهم، يسألون مثل هذه الأسئلة، ولا يسألون عن العلم والعمل، والاستعداد، وكيف يواجهون هذا اليوم، فهذا من العجائب في هذا الإنسان.

ثم قال ﷻ: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾، إذا جاء يوم الدين حينئذٍ ما يبقى إلا الجزاء، ومعنى: ﴿يُفْتَنُونَ﴾ أي: يُعذبون بها؛ كما يُفتن الذهب بالنار، فإذا أردت أن ترى صفاء الذهب فإنك تعرضه على النار؛ ليخرج ما فيه من زيف، ويبقى الذهب الخالص، ويسمى هذا فتنة، أي: اختبارًا[٢]، فهم يوم القيامة يُعذبون بالنار، ويصلون بها؛ كما يُصلى الذهب، والحديد، والمواد بالنار في الدنيا؛ لأجل تخليصها من الشوائب، وتصفيتها.

ثم قال ﷻ: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ أي: عذابكم، ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾

---

(١) لذلك كان النبي ﷺ يوجه السائلين عن الساعة إلى ما ينفعهم، ويفيدهم وهو العمل من أجلها، لا الانشغال بالسؤال عن وقتها؛ كما روى البخاري واللفظ له (٣٨٦٦، ٦١٦٧، ٦١٧١، ٧١٥٣)، ومسلم (٢٦٣٩) من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: «بَيْنَمَا أَنَا وَالنَّبِيُّ ﷺ خَارِجَانِ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَلَقِيَنَا رَجُلٌ عِنْدَ سُدَّةِ الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟»، فَكَأَنَّ الرَّجُلَ اسْتَكَانَ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَعْدَدْتُ لَهَا كَبِيرَ صِيَامٍ، وَلَا صَلَاةٍ، وَلَا صَدَقَةٍ، وَلَكِنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، قَالَ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ».

(٢) انظر: مادة (فتن) مقاييس اللغة (٤/ ٤٧٢)، وتاج العروس (٣٥/ ٤٨٩).

في الدنيا، تقولون: متى يحصل، ولماذا لا يحصل الآن، هذا هو الذي تستعجلونه، الآن وقعتم فيه من غير استعداد، ومن غير تفكير فيه.

ثم ذكر جزاء المؤمنين الذين آمنوا بالله، ورسوله، وعملوا، واستعدوا لهذا اليوم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾، والتقوى: هي اتخاذ الوقاية من المحذور، وتكون بطاعة الله ورسوله، وبفعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه؛ رجاءً لثوابه، وخوفًا من عقابه، وسميت تقوى؛ لأنها تقي من عذاب الله، ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ جنات لا يعلمها إلا الله ﷻ، وليست جنة واحدة، والجنة هي: البستان الملتف بالأشجار، والخضرة، والنضرة الشائقة للأبصار، وفي الجنات ﴿وَعُيُونٍ﴾ تجري من تحت الجنات، يجتمع خضرة، ومناظر جميلة، ومياه تجري من تحتها أنهار الجنة، هذا غاية البهجة، وغاية السرور، وقرة العين، قارن بين هذا وبين الذين تصلاهم نار جهنم، فيحترقون فيها، ويعودون كما كانوا[(١)]، لا يحيون فيها، ولا يموتون دائمًا، وأبدًا[(٢)]، والسبب أن هؤلاء كفروا بالله، وهؤلاء آمنوا بالله، وهذه العيون لا تنضب أبدًا، فهي ليست مثل عيون الدنيا تنضب، وتيبس، وتصير قاحلة، عيون الآخرة، في الجنة لا تنضب ولا تنفد أبدًا، وكذلك جناتها لا تيبس، ولا تموت[(٣)] مثل أشجار الدنيا، ولا تنقطع.

---

(١) إشارة إلى قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [النساء: ٥٦].

(٢) إشارة إلى قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾ [فاطر: ٣٦].

(٣) وهذا مصداقه قوله ﷻ في وصف الجنة، ونعيمها: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ﴾ [الرعد: ٣٥].

قوله ﷻ: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ﴾ فيه معنيان:

أحدهما: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ﴾ أي: في الجنة، وأنهم يرضون بما أعطاهم الله، ويتلذذون به، ولا أحد يرى أن أحدًا أحسن منه(١)، كلٌّ قد اطمئنت نفسه، ورضي بما هو فيه، وطابت به نفسه، وقرت عينه، مع تفاوت ما بينهم في الدرجات.

والثاني: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ﴾ في الدنيا؛ لأن هذا هو السبب الذي أدخلهم الجنة، وهو أخذهم ما آتاهم ربهم في الدنيا من فعل أوامره ﷻ وترك نواهيه، يمتثلونها؛ كما قال ﷻ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: ٧]، فمعنى ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ﴾ أي: في الدنيا؛ لأنهم يأخذون أوامر الله فيفعلونها، ويأخذون نواهي الله فيتركونها.

ولكن الراجح - والله أعلم - المعنى الأول؛ لأن المعنى الثاني سيأتي في قوله ﷻ: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ﴾، أي: في الدنيا، ﴿مُحۡسِنِينَ﴾ في أنهم أطاعوا الله، ورسوله، وتقبلوا شرع الله ﷻ وعملوا لآخرتهم، والإحسان: هو إتقان الشيء وإتمامه؛ كما قال ﷻ: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ**،

---

(١) كما روى البخاري (٦٥٤٩، ٧٥١٨) واللفظ له، ومسلم (١٣٨، ٢٨٢٩) من حديث أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- يَقُولُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ؟ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا».

فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ»[١]، أي: أتقنوها، وأريحوا المذبوح، والمقتول لا تعذبوه، فالإحسان يُراد به الإتقان في كل شيء، ويُطلق الإحسان على بذل الخير[٢]، والإحسان فيما بين العبد، وبين ربه، بأن يعبده كأنه يراه؛ كما قال النبي ﷺ[٣]، فيعبده على اليقين، والمشاهدة بالقلب كأنه يرى الله سبحانه وتعالى، وهو أعلى درجات الدين، ويكون الإحسان بين العبد، وبين الناس، ببذل الندى، وكف الأذى عنهم، ويكون الإحسان بين العبد، وبين المخلوقين، فالإحسان عام، وقيل: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ أي: قبل أن تُفرض عليهم الفرائض، وهم يعبدون الله ﷻ بأنواع العبادات، فلما فُرضت الفرائض التزموا بها، وأدوها، فكانوا على صلة مع الله سبحانه وتعالى وقيل: إن هذا في الآخرة -كما سبق-، وهذا هو الذي يظهر -والله أعلم-.

ومن إحسانهم: أنهم ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧﴾ يتهجدون في الليل.

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٥٥) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

(٢) قالَ الرَّاغِبُ: الإِحْسانُ على وَجْهَينِ:

أَحَدُهما: الإِنْعامُ إِلى الغَيْرِ.

وَالثَّانِي: إِحْسانٌ فِي فعْلِه.

انظر: مادة (حسن) تاج العروس (٣٤/ ٤٢٣)

(٣) كما في حديث جبريل عليه السلام الذي رواه البخاري (٥٠، ٤٧٧٧)، ومسلم واللفظ له (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن جبريل عليه السلام سأل النبي ﷺ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنَّكَ إِنْ لَا تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**».

و(ك) قيل: إنها نافية[(١)]، كانوا قليلًا لا يهجعون فيه من الليل، أي: يصلون من الليل، ولو قليلًا، ولا يتركون قيام الليل، ولو قليلًا، حتى جاء عن بعض السلف: «صَلَاةٌ مِنَ اللَّيْلِ وَلَوْ قَدْرُ حَلْبِ شَاةٍ»[(٢)]، فالإنسان لا يحتقر قيام الليل، حتى ولو قليلًا، فيداوم عليه؛ لأن خير العمل، وأحبه إلى الله ما داوم عليه صاحبه[(٣)]، فتكون «ما» هنا بمعنى «لا»، والتقدير -والله اعلم-: كانوا لا يهجعون قليلًا من الليل يقومون فيه لربهم ﷻ، وينامون غالب الليل، ولا حرج عليهم في ذلك.

وقيل: إن «ما» مصدرية تسبك مع ما بعدها بمصدر، أي: كان قليلًا هجوعهم، وأكثره يصلون، فيكثرون من قيام الليل، ولا ينامون إلا قليلًا منه.

﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ يختمون القيام بالاستغفار وقت السحر، ووقت النزول الإلهي إلى السماء الدنيا، حينما يقول الله ﷻ: «مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي

---

(١) انظر: شرح شذور الذهب (١/ ٤٧٣)، وشرح قطر الندى وبل الصدى (١/ ١٤٢).

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٤/ ٥٢٩) من قول الحسن البصري رحمه الله، وروى ابن أبي شيبة في مصنفه (٦٦٠٩) عن محمد «أَنَّهُ كَانَ يَسْتَحِبُّ أَنْ لَا يَتْرُكَ الرَّجُلُ قِيَامَ اللَّيْلِ وَلَوْ قَدْرَ حَلْبِ شَاةٍ».

(٣) كما في الحديث الذي رواه البخاري (٦٤٦٤، ٦٤٦٥)، ومسلم (٧٨٣) عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاعْلَمُوا أَنْ لَنْ يُدْخِلَ أَحَدَكُمْ عَمَلُهُ الجَنَّةَ، وَأَنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ».

وعَنْها رضي الله عنها، أَنَّهَا قَالَتْ: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ: أَيُّ الأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: «أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ».

فَأَغْفِرَ لَهُ»[١]، ومن ثَّم قال العلماء: إن القيام في آخر الليل أفضل من القيام في أوله؛ من أجل أن يوافق وقت النزول الإلهي، ومن أجل أن يكون من المستغفرين بالأسحار، وانظر كيف يستغفرون، وهم يقومون الليل، وما اكتفوا بقيام الليل؛ لأن الإنسان مقصر مهما عمل في حق الله ﷻ، فهو بحاجة إلى الاستغفار من تقصيره، وأيضًا لا يُزكي نفسه؛ لأنه لا يدري هل تُقبل منه، أو ما تُقبل منه، ربما يكون في عمله خلل، فهو لا يدري، فلا يُعجب بعمله، قال ﷻ بعد الحج: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٩٩﴾ [البقرة: ١٩٩]، فالمسلم يأتي بالعمل الصالح، ولا يزكي نفسه، بل يتبعه بالاستغفار.

والأسحار: جمع سحر، وهو آخر الليل، وينتهي بطلوع الفجر، هذا فيما بينهم، وبين الله، وأيضًا يمنون فيما بينهم، وبين الناس ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ في أموالهم حق: واجب، وهو الزكاة، وحق مستحب، وهو صدقة التطوع -، فالمال فيه حق للفقراء: إما واجب، وفرض، وهو الزكاة، وإما مستحب وهو صدقة التطوع، ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾.

السائل: هو الذي يتعرض للناس، ويطلب منهم، فله حق، وإن كان صادقًا فما أخذه له حلال، وإن كان كاذبًا فما أخذه حرام عليه، ويكون

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري (١١٤٥، ٧٤٩٤)، ومسلم واللفظ له (٧٥٨) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، وَمَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ».

جمرًا، وخدوشًا في وجهه يوم القيامة(١).

والمحروم: هو الذي لا يسأل، فلا يُعطى؛ فهذا أحق من السائل؛ لأن السائل يسأل الناس، ويعطونه، أما هذا فإنه لا يسأل، ويبقى محتاجًا، فهو يحتاج إلى من يفطن له؛ ولهذا قال ﷺ: **«لَيْسَ الْمِسْكِينُ بِالَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَا اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، إِنَّمَا الْمِسْكِينُ الْمُتَعَفِّفُ»، اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ**: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾(٢) [البقرة: ٢٧٣].

وقيل: المحروم هو الغني الذي أصابته جائحة فذهبت بماله، ولم يبقَ عنده شيء، فهذا يستحق الزكاة، والصدقة؛ لأن الناس يظنونه غنيًا، بينما هو فقير، فهذا من أحق الناس في أنه يُفطن له، وهذا يعم الفقير الذي لا يسأل، والغني الذي أصابته جائحة، فذهبت بماله، وقد يكون عليه ديون، لا يستطيع تسديدها، فيُعان من الزكاة، أو من الصدقات.

ودل على أن الغني لا حق له في الصدقات، لا الواجبة، ولا المستحبة، وإنما هي للفقراء، والمساكين قوله ﷻ.

فبهذه الصفات العظيمة استحقوا بها الجنات، والعيون التي يتمتعون بها دائمًا، وأبدًا، خالدين مخلدين فيها.

---

(١) كما في الحديث الذي رواه مسلم (١٠٤١) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ تَكَثُّرًا، فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ»**.
وعن ابْنَ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«مَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَسْأَلُ النَّاسَ، حَتَّى يَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ»**. أخرجه البخاري (١٤٧٤)، ومسلم (١٠٤٠).

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٣٩)، ومسلم واللفظ له (١٠٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فهذا فيه الفرق بين من صدق الرسول ﷺ، واتبعه، وهذا مآله الجنة يوم القيامة، وبين من كذب الرسول ﷺ، وسخر منه، وهذا مآله إلى النار يوم القيامة، وأن الناس يجزون على أعمالهم، ولا أحد يؤاخذ بجريرة غيره، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، ولا أحد ينتفع بعمل غيره، كلٌ له عمله، قال ﷻ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٤-٣٧]، فليس للإنسان إلا عمله في الدار الآخرة، لا ينفعه عمل غيره، ولا تضره إساءة غيره، كلٌ له عمله، ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

والحمد لله رب العالمين. وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

الدرس العاشر

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ [الذاريات: ٢٠ - ٣٠].

ينبهنا الله سبحانه وتعالى إلى رالنظر في آياته الكونية الدالة على قدرته، ووحدانيته، واستحقاقه للعبادة دون ما سواه، ممن لا يخلق، ولا يرزق، ولا ينفع، ولا يضر، مما اتخذه المشركون آلهة مع الله، سواء كان من الأصنام، أو من الأحجار، أو من الأشجار، أو من القبور، والأضرحة، أو من الأولياء، والصالحين، أو من الملائكة، أو من الرسل، فكل ما عبد من دون الله عز وجل فإنه معبود بغير حق؛ لأن العبادة حق لله عز وجل؛ كما في حديث معاذ رضي الله عنه حينما سأله النبي صلى الله عليه وسلم: «**هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟**»، قال: **قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ**، قَالَ: «**فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ العِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لاَ يُعَذِّبَ مَنْ لاَ يُشْرِكُ بِهِ**

شَيْئًا»(١)، وهذا الذي خلق الله الجن، والإنس من أجله، قال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝﴾ [الذاريات: ٥٦]، ولكن كثيرًا من الناس ضلوا هذا الطريق فعبدوا غير الله ﷻ.

فالله ﷻ يرد عليهم في كثير من الآيات، ومنها هذه الآيات ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝﴾، في جميع الأرض آيات، أي: علامات، ودلالات على قدرة الله ﷻ، وعلى وجوب إفراده بالعبادة؛ لأن هذه الأرض، وما عليها مخلوق لله، لا يشاركه فيه غيره، وهذه الآيات للموقنين الذين يتيقنون أنه لا خالق لهذه الآيات الكونية إلا الله.

ولا أحد يدعي أبدًا أنه خلق شيئًا مما في الأرض، فكل هذه المخلوقات التي بثها الله في الأرض مخلوقات الله ﷻ، فليس للأصنام، والمعبودات من دون الله شركة فيها، ولا استقلال بالملكية، فهذه الأرض تحمل آيات عظيمة: الجبال، والأودية، والأشجار، والأحجار، والتربة، واختلاف التربة، والنباتات المتنوعة مما هو غذاء للآدميين، وما هو غذاء للبهائم، وما فيها من المعادن، وما فيها من البحار، وما فيها من الأنهار، وما فيها من المخلوقات المتنوعة من البشر على اختلاف أنواعهم، واختلاف أجناسهم واختلاف ألوانهم، واختلاف لغاتهم، واختلاف طبائعهم، والحيوانات، والطيور، وغير ذلك مما بثه الله في هذه الأرض، هذا فيه آيات، وعبر، وكلها مخلوقات لله ﷻ.

ما أحد يدعي أنه خلق شيئًا منها، فلماذا يعبد غير الله ﷻ؟ فالآيات

(١) أخرجه البخاري واللفظ له (٢٨٥٦، ٢٢٦٧، ٧٣٧٣)، ومسلم (٣٠).

الكونية للموقنين، أما الغافلون فهؤلاء لا ينتفعون بهذه الآيات، ولا يتذكرون بها؛ ولهذا قال ﷻ: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]، آيات كثيرة في السماوات، والأرض، يمرون عليها وهم عنها معرضون، كثير من الناس ينظر إلى هذه المخلوقات نظر تنزه، وترفه، ولا ينظر إليها نظر إيمان، واعتبار، فهو وينظر من أجل الترفيه، ولا يعن في خاطره أن هذه آيات الله، ومخلوقات الله، وقليل من الناس من يتنبه لذلك.

﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، في أنفسكم أيضًا آيات، فهذا الإنسان المركب من أعضاء، وعظام، ولحم وعروق، وحواس، وسمع، وبصر، وآلات دقيقة لا يعلمها إلا الله ﷻ، كل عضو، وكل عضلة في جسم الإنسان يؤدي وظيفة، لا يؤديها الآخر، ومع هذا لا نعتبر بأنفسنا، وفي خلقنا، فكر في نفسك، وما فيك من العجائب، وما فيك من الروح، التي تسري في هذا البدن، ويتحرك بها، وتفارق البدن، وترجع إليه في النوم، ثم تفارقه بالموت، ثم ترجع إليه بالبعث.

فكر في هذا، ولو ذهبت إلى علماء التشريح، وعلماء الطب، ووقفت على بعض ما في هذا الإنسان، وجسم هذا الإنسان من عجيب التركيب، والأعضاء المختلفة لتعجبت، وأشد العجب، ثم هذا العقل الذي جعله الله في هذا الإنسان، وفرق به بينه، وبين البهائم هذا من العجائب.

فالروح، والعقل، والسمع، والبصر، والكلام، وغير ذلك، والقلب، وغير ذلك من عجائب خلقة الإنسان مما يحير العقول؛ ولهذا قال: ﴿أَفَلَا

تُبۡصِرُونَ﴾، أي لا تبصرون ما في أنفسكم من العجائب؟ ولو أن عضوًا من أعضائك، أو عرقًا من عروقك تعطل، أو مرض ماذا يحصل لك من الخلل، من الذي ركب هذه الأعضاء، وأمدها، وحركها، ونظمها فيك بدقة متناهية لا تدركها العقول، فهي من آيات الله سبحانه وتعالى.

﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾، هذا تهديد من الله، واستنكار من الله أنك لا تبصر ما فيك من الآيات، ثم قال عز وجل: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾، لما انتهى من ذكر الأرض قال: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ والسماء هي ما فوق الأرض، مما علا وارتفع ومن السماوات السبع المبنية فيها رزقكم، وما توعدون.

و﴿رِزۡقُكُمۡ﴾ أكثر الأقوال على أن المراد به المطر الذي هو سبب للرزق، وإنبات النبات، والشراب وغير ذلك.

فإذا انحبس المطر تضرر الناس، والبهائم، والطيور، والمخلوقات، فالمطر بلا شك أنه رزق، ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ وهو الجنة، فإنها في السماء.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، هذا قسم من الله عز وجل، أقسم بنفسه عز وجل، وهو عز وجل صادق ولو لم يقسم، لكنه أقسم من باب التوكيد، وقطع الشكوك، والوساوس، والمقسم عليه: إنه لحق، (إنه): أي ما ذكرنا في هذه السورة، وفي غيرها من وحدانية الله، واستحقاقه للعبادة دون ما سواه، إنه لحق، لا يتطرق إليه الباطل.

﴿مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ أي: كنطقكم، فما أحد يشك في نطقه، فأحقية الله عز وجل أثبت من نطقك الذي تنطق به، فكما لا يشك أحد في نطقه، وكلامه، فإنه لا شك في أحقية الله عز وجل للعبادة دون ما سواه.

ثم انتقل ﷻ إلى قصة إبراهيم عليه السلام مع ضيفه، والمناسبة -والله أعلم-: أنكم إن كذبتم بهذا الحق، فإن شأنكم كشأن قوم لوط، شأنكم الهلاك كما أهلكنا قوم لوط، وغيرهم من الأمم المكذبة.

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ﴾، فالنبي ﷺ ما عاصر إبراهيم، ولا عاصر قوم لوط، ولا عاصر الأمم السابقة، وإنما يخبر عما أنزله الله عليه، وآتاه الله من الوحي، والاستفهام هنا استفهام تحقيق، أي: قد أتاك، ونزل عليك، ﴿حَدِيثٍ﴾، والحديث الخبر.

وهذا كما ذكره الله ﷻ في سورة «هود»، وفي سورة «الحجر»، وقوم لوط أمة تعيش في سدوم من الأردن، ولكنهم -والعياذ بالله- ابتلوا بجريمة لم يسبقوا إليها، وهي: إتيان الذكور، وترك الإناث، فما سبقهم بها من أحد من العالمين، بل حتى البهائم لا تفعل هذا الشيء؛ لأن هذا مخالف للفطر، والعقول، فكانوا يأتون الذكران من العالمين، فأرسل الله إليهم نبيه لوطًا عليه السلام، ولوط هو ابن أخ إبراهيم عليه السلام، وكان معاصرًا له.

بعثه الله إليهم؛ لينذرهمعن الكفر ويحذرهم من هذه الجريمة، ويأمرهم بتركها، وذكر لهم شناعتها، وقبحها، ولكنهم عصوا الله، وعصوا الرسول، واستمروا على جريمتهم الشنعاء، ولم يقلعوا عنها، حتى إنهم هددوا نبي الله لوطًا عليه السلام بالإخراج، وطرده من بلدهم قالوا ﴿أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]، وليس لهم ذنب إلا أنهم يتطهرون، فهل التطهر جريمة؟ فدل على أنهم متنجسون بالفاحشة، ويرونها أنها مفخرة -والعياذ بالله-، ويسخرون من لوط عليه السلام، وأهله أنهم يتطهرون من هذه الفاحشة.

فأرسل الله الملائكة لإهلاكهم، فمروا على إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في صورة رجال شباب حسان الوجوه، عليهم الوقار والحشمة، ومن عادة إبراهيم أنه يكرم الأضياف، فكان عَلَيْهِ السَّلَامُ مضيافًا كريمًا يكرم الضيوف، فظن أنهم ضيوف.

والضيف هو الذي ينزل بك، سواء في البادية، أو في القرية، وهذه عادة قديمة أن أصحاب القرى، وأصحاب البادية يكرمون الضيوف، وهذه مفخرة، وخصلة عظيمة، وكانت في العرب في الجاهلية، وهي من مكارم الأخلاق، وأقرها الإسلام وحث عليها(١)، فالضيف له حق، وقد أوجب الإمام أحمد، وجماعة قرى الضيف، فهو من الواجب على المضيف أن يقري ضيفه، وهو حق للضيف، الواجب مقدار يوم وليلة، والمستحب ثلاثة أيام(٢)، وتكون في القرى، وفي البوادي، في الأمكنة التي ليس فيها مطاعم ولا مأوى، فالضيف محتاج، فيؤويه المضيف، ويطعمه، ويسقيه.

وكان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قائمًا بها خير قيام، كان مضيافًا، ولهذا قال: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾، قيل: المكرمين عند الله؛ لأنهم ملائكة كرام ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، وقيل: المكرمين عند إبراهيم، فإنه أكرمهم، وبش بهم، فهم مكرمون عند الله، وعند إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

---

(١) كما في الحديث الذي رواه البخاري واللفظ له (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ».

(٢) كما في الحديث الذي رواه البخاري (٦٠١٩) من حديث أَبِي شُرَيْحٍ العَدَوِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتَهُ» قَالَ: وَمَا جَائِزَتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ، وَالضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، فَمَا كَانَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ عَلَيْهِ».

فهذا فيه مشروعية إكرام الضيف، بما يستحقه، وحسب الاستطاعة، وهي من المفاخر المتوارثة الباقية، ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾، دخلوا على إبراهيم عليه السلام منزله على أنهم ضيوف ﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾، فبدؤوا بالسلام عند الدخول، فهذا فيه مشروعية السلام عند دخولك على بيت أخيك، فالسلام عند الدخول سنة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧]، ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١]، أي: يسلم بعضكم على بعض.

والملائكة سلموا على إبراهيم، ﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾، سلامًا منصوب على أنه مفعول لفعل محذوف، أي: نسلم عليك سلامًا، مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره نسلم عليك سلامًا[(1)]، فرد عليهم ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾، أي سلام عليكم، سلام مبتدأ، خبره محذوف، تقديره عليكم، جار ومجرور، جملة خبرية[(2)].

فهذا فيه رد السلام؛ كما في قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾ [النساء: ٨٦]، فالابتداء بالسلام

---

(١) ويجوز أن يكون منصوبا بوقوع الفعل عليه. ويدلّ على صحّة هذا الجواب أنّ سفيان روى عن ابن أبي نجيح عن مجاهد. فَقالُوا سَلاماً. قال: سدادًا.
انظر: إعراب القرآن للنحاس (٤/ ١٦٢)، والتبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري (٢/ ١١٨١).

(٢) «سَلامٌ»: مرفوع بالابتداء، والخبر محذوف أي: سلام عليكم، ويجوز أن يكون مرفوعًا على خبر الابتداء، والابتداء محذوف، أي: أمري سلام، وقرأ حمزة والكسائي: (قالَ سَلامٌ). انظر: إعراب القرآن للنحاس (٤/ ١٦٢)

سنة، ورده واجب[1] بمثل ما سلم عليك، وإن زدت فهو أحسن.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾، أي: ذهب إليهم خفية مسرعًا، وهذا فيه أن المضيف لا يظهر للضيف أنه سيعمل كذا، وكذا، وذهب مسرعًا، وبخفية، بحيث إن الملائكة لم يشعروا بذلك؛ لأنه قد يحرج الضيف، ولأنه إذا أظهر له ذلك فكأنما فيه تمدح، وتمنن على الضيف فيخجله.

وفي قوله: ﴿فَرَاغَ﴾ فيه التعجيل بقرى الضيف، وأن المضيف لا يتأخر، ولا يتباطأ، بل يعجل قرى ضيفه، ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾، أحسن ما يكون لحمًا، ﴿سَمِينٍ﴾، فهذا فيه أن المضيف يختار أحسن ما عنده للضيف، ولا يحضر له شيئًا رديئًا، وفي الآية الأخرى ﴿جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩]، أي: مشوي على الرضف، وهي الحجارة، فوصفه بوصفين: سمين، وحنيذ، ناضج، جاهز للأكل، لذيذ.

ففيه أن المضيف أيضًا يعتني بإعداد طعام الضيف على أحسن ما يكون، ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾ هذا فيه من آداب الضيافة أن المضيف يأتي بالطعام للضيف في مكانه، ومجلسه، ولا يضع الطعام في مكان آخر، ويقول له: هيا تفضلوا، مثل ما يعمله كثير من الناس الآن، هذا خلاف آداب الضيافة.

(قربه إليهم)، ولم يقربهم إليه، ثم قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، رأى منهم إحجامًا؛ لأنهم ملائكة، لا يأكلون الطعام، وهذا من الآداب أيضًا عرض عليهم عرضًا، ولم يقل كلوا، بل قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، فهذا من آداب

---

(١) انظر: كشف القناع عن متن الإقناع (٢/ ١٥٢)، والشرح الممتع على زاد المستقنع (١/ ١٨٠).

الضيافة، والمحادثة مع الضيف، ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ﴾، لما رآهم لا يأكلون خاف أن يكونوا أعداء؛ لأن من العادة أن الذي لا يأكل، سيبطش بك، فإذا أكل منه فذلك تأمين لصاحب المحل.

﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ﴾، طمأنوه، لما رأوا منه الخوف، وبشروه بعد التطمين، أي: أخبروه بخبر سار، بغلام يولد له؛ لأن إبراهيم كان لا يولد له، وإنما وهبه الله على الكبر كما قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾ [إبراهيم: ٣٩]، قيل: إنه بلغ ثمانين سنة، أو تسعين سنة، وهو لا يولد له، وكانت امرأته عجوزًا، فبشروه بغلام، وهو إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ، أما إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد بشر به في سورة الصافات: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ١٠١﴾ [الصافات: ١٠١].

تأمل وصفه: إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه حليم، وإسحاق بأنه عليم، فهذا له وصف، وهذا له وصف لماذا إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ حليم؟؛ لأنه سيأتي في قصته أنه أمر بذبحه، وأنه عرض عليه الذبح، فمن حلم إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ [الصافات: ١٠٢]، فإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بشر مرتين: بإسماعيل، وهذه البشارة الأولى؛ لأن إسماعيل هو بكر إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو من هاجر، وهي سرية، تسرى بها عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأما إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ فهو من سارة بنت عم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فهذه بشارات، قالوا: لا تخف، فطمأنوه، ثانيًا: بشروه، بغلام عليم، فضائل عظيمة حصلت لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا الموقف، وكرامات من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى متتابعة لخليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فلما سمعت امرأته هذا الخبر جاءت متعجبة، ﴿فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا﴾،

أي: ضربت على وجهها من الغرابة، ومن عادة النساء أنها إذا أخبرت بخبر غريب تضرب على وجهها من الاستغراب ﴿فِي صَرَّةٍ﴾، أي: في صيحة، وصوت من التعجب، فهذا خبر عجيب، شيخ كبير السن، يقال: عمره تسعون سنة، وعجوز كبيرة السن، يقال: عمرها ثمانون سنة يبشران بغلام، هذا من أعجب العجائب.

والعادة أن العجوز لا تلد؛ لذا قالت متعجبة ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾ [هود: ٧٢]، ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾، أي: أن الله لا يعجزه شيء ﷻ، وفي الآية الأخرى ﴿أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾، فالله لا يعجزه شيء ﷻ، أمره فوق العادات، وفوق المألوفات ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، فهذا أمر من الله ﷻ ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾، كما حصل لمريم عليها السلام لما جاءها الملك، وبشرها؛ فعند ذلك تعجبت فقالت: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ﴾، والعادة أن المرأة لا تحمل إلا من لقاح الذكر، وهي لم يمسها بشر، فهذا أمر الله ﷻ، لا يعجزه شيء.

فالله إذا أراد شيئًا لا يعجزه شيء ﷻ، ولا يتقيد بالعادات، أو بنظم الكون.

﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، الحكيم هو: الذي يضع الأمور في مواضعها، والعليم هو: الذي لا يخفى عليه شيء، ولا يعجزه شيء ﷻ، إذًا فلا غرابة.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

الدرس الحادي عشر

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾

[الذاريات: ٣١ - ٤٦].

توجه إبراهيم عليه السلام إليهم لما اطمأن، وجاءته البشرى يسألهم أين وجهتهم؟ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾، أي: ما شأنكم أيها المرسلون؟، فعلم أنهم رسل، وأنهم يحملون رسالة من الله عز وجل، فأين يتوجهون، فأخبروه أن الله أرسلهم إلى قوم مجرمين، وهم قوم لوط عليه السلام، وفي الآية الأخرى ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠]، وكانوا أمة يأتون الفاحشة التي ما سبقهم بها

من أحد من العالمين، وهي: أنهم يأتون الذكران -والعياذ بالله-، ويدعون النساء، وهذه جريمة شنيعة؛ ولهذا سموهم مجرمين.

﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً﴾، أي: معلمة، قيل على كل حجر اسم صاحبه، ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: من عند الله ﷻ، لم تأت من قبل مخلوق، وإنما جاءت من قبل الله؛ عقوبة لهم، وغضبًا عليهم، وليست من عند الملائكة، وإنما هي من عند الله الذي لا يرد أمره ﷻ، ولا يعقب على قضائه.

ومع ذلك فإن إبراهيم عليه السلام لحلمه، وعطفه، صار يجادلهم في قوم لوط، فيقول: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾، أي: كيف تهلكونهم، وفيهم لوط، وأهل بيته ﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٢]، وذلك أن امرأته كانت كافرة على دين قومها، وكانت تساعدهم على فعلهم -والعياذ بالله-، فلذلك لما رأت هؤلاء الأضياف الحسان، ذهبت، وأخبرت قومها، فجاءوا كما في الآيات الأخرى، لما علموا أن لوطًا عليه السلام عنده هؤلاء الفتية الشباب الحسان جاءوا يراودونه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ﴾ يريدون فعل الفاحشة بهم، وهذا من تمام الابتلاء، والامتحان، ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الحجر: ٦٧]، من الإغراء -والعياذ بالله-، ومن الاستدراج.

﴿قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾﴾ [الحجر: ٦٨]، يدافع عنهم، أنهم في ضيافته، فمن عادة أهل الكرم، والشهامة، أنهم يحمون من نزل بهم، ويدافعون عنه ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾﴾ [الحجر: ٦٩]، ضربهم جبريل بطرف جناحه، فطمس الله أعينهم كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا

﴿أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: ٣٧]، هذا أول عذاب لهم، ثم أمنوا لوطًا عليه السلام فقالوا له: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [الحجر: ٦٥]، أي: اعزلهم عن هذه الأمة الخبيثة؛ لئلا يصيبهم ما أصابهم، وكن في آخرهم؛ لئلا يتخلف منهم أحد.

وهكذا عادة القائد أن يكون في آخر القافلة، كما كان نبينا محمد ﷺ في الغزوات يكون في آخر الركب؛ ليتفقده، ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ [الحجر: ٦٥]؛ لأنه لو التفت لأصابه ما أصابهم، ﴿وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٥]، فنفذ لوط عليه السلام ما أمر به، فخرج بأهله، ومعهم امرأته، فلما سمعت الضربة -والعياذ بالله-، التفتت فأصابها ما أصابهم، فنفذ نبي الله لوط عليه السلام ما أمر به، وخرج بأهله بقطع من الليل، ومضى بهم.

ثم أنزل الله بهم عقوبته، لما خرج نبي الله، ومن معه من المؤمنين؛ كما في قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣]، فإذا نزلت العقوبة، فإن الله ينجي المؤمنين الذين يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، من الرسل، وأتباعهم ممن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولوط عليه السلام كان ينهى عن المنكر، فنجاه الله، وأهله، قال الله عز وجل: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا﴾ في القرية، من المؤمنين، وهم: لوط، وأهله، ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ وهو: لوط، وأهله، والمراد بـ«بيت»: أهل بيت من المسلمين.

ولماذا قال في الأول ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾﴾، وفي الآية التي بعدها ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾، الجواب: أن كل مؤمن فهو مسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا، فالمنافق يقال له: مسلم، ولكن

لا يقال: إنه مؤمن، والمؤمن قد يكون قوي الإيمان، وكامل الإيمان، وقد يكون ضعيف الإيمان، لكن معه من الإيمان ما يصحح إسلامه، ولو كان الإيمان ضعيفًا، ولو كان مثقال ذرة، فإن صاحبه يسمى مؤمنًا، ناقص الإيمان.

والإيمان، والإسلام كما ذكر العلماء، إذا اجتمعا افترقا، أي: صار لكل واحد معنى، وإذا افترقا اجتمعا، فإذا ذكر الإسلام، أو الإيمان، وحده صار الإسلام عبارة عن الأعمال الظاهرة، والإيمان عبارة عن الأعمال الباطنة، كما في حديث جبريل عليه السلام: «يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[١].

فالإيمان بالقلب، والإسلام علانية، ولابد من اجتماع الإسلام، والإيمان، فيقوم بأركان الإسلام الخمسة، ويعتقد بقلبه أركان الإيمان الستة، أما إذا كان معه الإسلام فقط وليس معه إيمان، فهذا لا ينفعه في الآخرة، وينفعه في الدنيا حيث يعامل معاملة المسلم، ويحقن دمه، وماله، لكن في الآخرة، يكون من أهل النار، كالمنافقين الذين هم في الدرك الأسفل من النار[٢] -والعياذ بالله-.

---

(١) أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٣١٨ - ٣١٩ - ٣٣١).

فدل على أنه لابد من اجتماع الإسلام، والإيمان، ولهذا قال العلماء: الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية(١)، وإذا ذكر الإيمان فقط دخل فيه الإسلام؛ لأنه لا يكون مؤمنًا إلا من كان مسلمًا، وإذا ذكر الإسلام وحده دخل فيه الإيمان؛ لأنه لا يكون مسلمًا إسلاما صحيحًا إلا من كان مؤمنًا، فلابد من اجتماعهما، فلا يكفي أحدهما عن الآخر؛ ولهذا قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥-٣٦]، وصفهم الله بالإيمان أولًا، ثم وصفهم بالإسلام؛ لأن كل مؤمن فهو مسلم.

فليس في الآية حجة لمن يرون أن الإسلام، والإيمان بمعنى واحد، وأن كل مسلم فهو مؤمن، لا، ليس كل مسلم مؤمنًا، إنما العكس هو الصحيح، أن كل مؤمن فهو مسلم.

ثم قالوا: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾ [الذاريات: ٣٧]، بعد إهلاكهم جعل الله قريتهم قائمة على طريق الذاهبين إلى الشام والآيبين منها ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٦]، يمر بها الناس في أسفارهم، لأجل العبرة، والعظة.

أبقاها الله ﷻ آية، وعلامة على انتقام الله من المجرمين، فكل من مر بها فإنه يعرف، ويتذكر، ويتعظ بما أحل الله بأهل هذه القرية؛ كما قال ﷻ: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا﴾ [النمل: ٥٢]، يبقيها الله سبحانه وتعالى عبرة لمن يأتي بعدهم.

---

(١) انظر: الإيمان لشيخ الإسلام (١/ ٢٥٨)، وأصول الإيمان لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب (١/ ١٥)، ومعارج القبول (١/ ٤١).

ولهذا قال: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾، أما الذين لا يخافون، ويعتبرونها من الآثار السياحية فقط، ويمتعون أنظارهم بها، فهؤلاء لا يخافون العذاب الأليم، أما أهل الإيمان إذا رأوها خافوا أن يحل بهم مثل ما حل بأولئك، فيتجنبون فعلهم، فهؤلاء هم الذين ينتفعون من هذه الآثار، وإذا رأوها اعتبروا بها، وزادتهم إيمانًا، ويقينًا، وخوفًا من الله ﷻ.

فالنظر في الآثار، والسير في الأرض إنما هو للعبرة، والعظة، وليس للنزهة والإعجابُ والافتخارُ بها أو التكسب من ورائها بما يؤخذ من الزائرين، وعدم الالتفات إلى ما فيها من آيات الله ﷻ فهذا من موت القلوب ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف: ١٠٥]، فهذا فيه تنبيه عظيم على أن الآثار الماضية إنما ينظر إليها نظرة اعتبار، واتعاظ.

ثم قال ﷻ: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ﴾ أي: وتركنا في قصة موسى عليه السلام، مع فرعون، وما حصل لفرعون من الهلاك، والغرق آية أيضًا، كما في ديار قوم لوط آية، وعبرة، وفرعون هو: ملك مصر من القبط.

﴿إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٨]، موسى بن عمران عليه السلام، وهو من بني إسرائيل، أرسله الله إلى فرعون، وكان فرعون جبارًا عاتيًا ادعى الربوبية: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾.

ومع عتوه، وجبروته، وادعائه للربوبية، كان ظالمًا جبارًا، يعذب بني إسرائيل، ويتخذهم خدمًا للقبط، ويقتل أبناءهم، ويستحيي نساءهم، فيفتك

بهم، ويستذلهم مع أنهم من ذرية إسرائيل نبي الله، ولكن تسلط عليهم بجبروته، وقوته، فاستخدمهم في أخس الحرف؛ من أجل إضعافهم، بحيث لا يستطيعون مقاومته، وقيل: إنه يقتل أبناءهم؛ لأنه يخشى أن يظهر منهم من يقاومه، أو أنه علم أنه سيبعث منهم نبي، فكان يقتل أبناءهم؛ من أجل أن لا يخرج فيهم هذا النبي.

وجاءه موسى عليه السلام، فأنكر عليه ادعاءه الربوبية، وأمره أن يعبد الله عز وجل، وأن يشكره على ما أعطاه، وأن يرفع القهر، والجبروت عن بني إسرائيل المستضعفين، أرسله الله بالمهمتين: مهمة الدعوة إلى التوحيد، والإيمان، ومهمة رفع الظلم عن المظلومين.

﴿بِسُلْطَانٍ﴾، أي: بحجة والسلطان المراد به: الحجة، والمعجزة، والبرهان، فكل نبي له برهان يدل على نبوته، وإلا كان كل يدعي النبوة، ولكن لابد من البرهان على نبوته، فالله أعطى موسى عليه السلام البرهان الدال على أنه رسول من عند الله، آتاه تسع آيات كما ذكر سبحانه وتعالى(١): اليد حيث يدخل يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء، أي: من غير برص، ويلقي العصا التي معه فتنقلب إلى حية، فهذه من المعجزات العظيمة التي قابل بها موسى فرعون، ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٧ - ١٠٨] ولهذا قال فرعون: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ٣٠].

---

(١) قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ۖ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل: ١٢].

قال له فرعون: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٦]، ففرعون يتحدى موسى، يقول: هات الآيات التي معك، فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، فالعصا الجامدة الخشبة صارت حية لحمًا، ودمًا في لحظة واحدة بقدرة الله ﷻ، وأدخل يده وهي عادية، ثم أخرجها وهي بيضاء كالشمس، فهذه معجزة من صنع الله ﷻ، وليست من صنيع موسى، ولا من صنيع البشر؛ ولهذا لما رأى السحرة ذلك آمنوا؛ لأنهم أهل علم، فعلموا أن هذا ما هو بسحر، وليس من صنع البشر، وأنه من صنع الله ﷻ الذي لا يعجزه شيء ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الشعراء: ٤٦ - ٤٨].

فاستكبر فرعون ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾، ما نفع فيه السلطان المبين، والحجة القاهرة، ما -والعياذ بالله-، مع أنه عرف أن موسى ﷺ نبي ورسول من عند الله، وأن رسالته من عند الله، ولكن من باب المكابرة، والعناد، وإرادة أن يبقى على ملكه، يظن أنه لو أطاع موسى لتحول من ملكه، مع أنه لو أطاع موسى لزاده الله عزًا، ورفعة في الدنيا، والآخرة، لكن يظن أنه إن آمن بموسى فإنه سيفقد ملكه، وجبروته، مع ما يمليه عليه الملأ من قومه من قولهم: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، هكذا يقول من باب المجابهة، والمكابرة، وإلا فهو يعلم أن موسى رسول من عند الله، ولهذا قال له موسى ﷺ لما عرض عليه الآيات: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال ﷻ ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ أي: بالآيات، والبراهين، ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ فهم في قرارة

أنفسهم مستيقنون بأنها آيات من عند الله، لكن من باب المكابرة تظاهروا بالإنكار.

﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ [الذاريات: ٣٩]، أي: بجانبه، كما في قوله ﷻ: ﴿أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾، فبعض الناس يتكبر، ويصد عن الدعوة، وعن القبول، تكبرًا، وعنادًا -والعياذ بالله-، وأعرض عن موسى عليه السلام، ولم يلتفت إليه.

وقيل: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ أي: بقوته، وقومه، وسلطته، ظانًا أنهم سينفعونه، وأنهم سيمنعونه، وأنهم سيدافعون عنه، وقال عن موسى عليه السلام -رسول الله، وكليم الله-: ساحر، لأنهم اعتادوا هم على السحر، فعنده السحرة وهو يعلم أن موسى ليس ساحرًا، ولكن هذا من باب التمويه على الناس، ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ۝٥٧ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [طه: ٥٧ - ٥٨].

﴿أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٣٩]، فيأتي بأشياء غير لائقة؛ لأن المجنون ما يحكم تصرفاته، ولا أقواله، ولا أفعاله، فوصف موسى عليه السلام بالجنون الذي يتخبط صاحبه من غير فكر، وكلمة (أو) قيل: أنها للتنوع، والشك، فلا يدري أهو ساحر، ولا مجنون، وقيل: إنها بمعنى الواو[1]، فهو ساحر، ومجنون معًا، فوصفه بصفتين: السحر، والجنون.

---

(١) تأتي (أو) على عدة معان جمعت في هذين البيتين:

خَيِّرْ، أَبِحْ، قَسِّمْ، بِأَوْ وَأَبْهِمِ ... وَاشْكُكْ، وَإِضْرَابٍ، بِهَا أَيْضًا نُمِي

ب أَو خَيِّـرْ، أَبِـحْ، قَـسِّـمْ، وَأَبْـهِـمِ ... وَفِي شَـكٍّ، وَإِضْـرَابٍ، تَـكُـونُ

وَمِـثْـلُ وَلَا، وَوَاوٌ، أَوْ لِـنَـصْـبِ ... بِـإِضْـمَـارٍ، لِحَرْفٍ، لَا يَـبِـينُ

انظر: الجنى الداني في حروف المعاني (١/ ٢٣٢).

وهكذا أعداء الرسل يصفونهم بالسحر، أو بالجنون، أو إرادة التعالي على الناس، إلى آخر ما قالوا في الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، فالله ﷻ عاقبه أشد العقوبة لما أعرض، وتكبر، ولم يقبل هدى الله ﷻ، والله ذكر في الآيات الأخرى ما جرى بين موسى، وبين فرعون، وقومه من الجولات العظيمة التي يظهر فيها الحق في كل موقف، وفي كل مشهد، فلم ينفع منه ذلك ولم يجد فيه.

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ [الذاريات: ٤٠]، أخذهم الله بالعذاب هو ﴿وَجُنُودِهِۦ﴾ الذين تكبر بهم، وأعجب بكثرتهم، أخذهم الله معه، ولم يقدروا على أن يدفعوا عن أنفسهم، ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾، أي: في البحر، فأغرقهم الله جميعًا عن آخرهم، ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾، أي: آت بما يلام عليه من الكفر، ومعصية الرسول، والاستكبار في الأرض.

وقصة إغراقهم أجملها الله في هذه الآية، لكنه فصلها في آية أخرى، أن موسى لما جادل فرعون في عدة مواقف، ولم يقبل فرعون، أمر الله موسى عليه السلام أن يخرج ببني إسرائيل، وأخبره أن فرعون سيتبعهم، ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾، فلما علم فرعون بخروج موسى ببني إسرائيل من مصر غضب، فجمع جموعه ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الشعراء: ٥٣-٥٦]، فاجتمعوا إليه، فخرج بهم في طلب موسى، وبني إسرائيل، فأدركوهم عند البحر، ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الشعراء: ٦١]، فالبحر من أمامنا، والعدو من خلفنا، فقال موسى عليه السلام: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، فأمره الله أن يضرب البحر بعصاه.

فضربه بعصاه فتجمد، وصار جبالًا من الماء الجامد، وفتحه شوارع بعدد أسباط بني إسرائيل، الاثني عشر، كل سبط له طريق، من أجل أنهم لا يتزاحمون، ﴿كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣]، فدخلوا، وساروا مع هذه الشوارع آمنين مطمئنين، ولما تكامل خروجهم، دخل فرعون، وجنوده في أثرهم، فلما تكامل فرعون وجنوده في البحر أطبقه الله عليهم، وعاد كما كان، بحرًا هائجًا -والعياذ بالله- فغرقوا عن آخرهم، وبنو إسرائيل ينظرون إليهم؛ لتقر أعينهم بإهلاك عدوهم، وهم ينظرون إليهم.

فنصر الله موسى عليه السلام، وقومه، وكان هذا في يوم عاشوراء، وهو يوم العاشر من شهر الله المحرم[(١)]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، قال الله عز وجل له ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾، أي: أتؤمن الآن لما شاهدت الموت، وهذا ليس وقت توبة، ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: ٩١ - ٩٢].

وأنجى الله جثته، وألقاه على جانب البحر حتى ينظروا إليه، ويعرفوا إنه هلك، ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾، فعرفوا إنه هلك؛ لئلا يقول قائل: إنما ذهب إلى كذا، أو كذا، ثم قال عز وجل: ﴿وَفِى عَادٍ﴾، أي: وفي قوم عاد آية على قدرة الله، وموعظة للمؤمنين، وعاد هي القبيلة العظيمة التي تسكن في الجنوب الشرقي من جزيرة العرب في بلاد الأحقاف، وكانت دولة قوية،

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٠٠٤، ٤٧٣٧) واللفظ له، ومسلم (١١٣٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ المَدِينَةَ فَرَأَى اليَهُودَ تَصُومُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، فَقَالَ: «مَا هَذَا؟»، قَالُوا: هَذَا يَوْمٌ صَالِحٌ هَذَا يَوْمٌ نَجَّى اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عَدُوِّهِمْ، فَصَامَهُ مُوسَى، قَالَ: «فَأَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ»، فَصَامَهُ، وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ».

وتسكن في ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝٨﴾، وكانوا أقوياء الأجسام، قال تعالى: ﴿وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ فاغتروا بقوتهم، وبعث الله إليهم نبيه هودًا عليه السلام، فدعاهم إلى الله، وأمرهم بالتوحيد، وترك الشرك.

ولكنهم قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، لما خوفهم بالعذاب، قالوا من أشد منا قوة، وفي الآية الأخرى: ﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ۝١٣٦ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣٧ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝١٣٨﴾ [الشعراء: ١٣٦-١٣٨]، هؤلاء الأقوياء أرسل الله عليهم الريح اللطيفة التي ما ترى، ﴿ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١] التي لا تنتج شيئًا، ولا تلقح الأشجار، ولا تلقح السحاب، عقيم لا تفيد شيئًا، وهم يقولون من أشد منا قوة.

أهلكهم الله بالريح، وهذه الريح شديدة، تنزعهم في الجو، وهم الأقوياء كانت الريح أقوى، ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧] ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠﴾ [القمر: ٢٠]، فأين قوتهم أمام قدرة الله سبحانه وتعالى، وجنود الله التي لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى.

﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ أي: مرت عليه ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾، فالأشياء القوية الجبارة تصبح متفككة كالرميم من هذه الريح -والعياذ بالله-، فهي ريح عاتية، فلما رأوها مقبلة، مستقبلة أوديتهم، قالوا: هذا سحاب لأنهم كانوا بحاجة إلى المطر ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ﴾ [الأحقاف: ٢٤-٢٥]، أبقى الله مساكنهم؛ عبرة للمعتبرين.

﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ وهم: الأمة التي تسكن في وادي القرى على طريق الشام بين مكة، والشام، وتسمى الآن بلاد العلا، وكانوا ينحتون الجبل العظيم ويجعلونه حجرة، واحدة، والآن هي موجودة ببيوتها، ونقوشها بارزة للعيان؛ لأجل أن يعتبر الناس بذلك، وكانت بلاد زراعية أيضًا.

قال لهم نبيهم صالح مخوفاً لهم: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٤٦ - ١٤٨]، فبلادهم خصبة فيها المزارع العظيمة، والإنتاج، وفيها المساكن فهم يتخذون من سهول الأرض قصورًا، وينحتون الجبال بيوتًا، فكانت أمة قوية، فأشركوا بالله، وعبدوا غير الله ﷻ، فأرسل الله إليهم نبيه صالحًا عليه السلام فدعاهم إلى الله.

وطلبوا منه آية، وتدل على صدقه فأخرج الله لهم ناقة عظيمة، تشرب الماء في يوم، حيث: قسم الله بينها، وبينهم الماء، فلهم يوم يشربون فيه، وللناقة يوم تشرب فيه، وتسقيهم اللبن، فكل القبيلة تشرب من لبن هذه الناقة، فآل بهم الأمر إلى أن عتوا عن أمر ربهم، وعقروا الناقة ﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧].

فأمر الله ﷻ نبيه صالحاً أن يبلغهم فقال لهم: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]، فلما انتهى اليوم الثالث، أرسل الله عليهم الصاعقة -والعياذ بالله-، وهي: صيحة ملك قطعت قلوبهم في أجوافهم عن آخرهم، ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٤]، هذه الأمة أصبحت هشيمًا -والعياذ بالله-، كهشيم المحتظر على إثر هذه الصاعقة.

﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾، ما استطاعوا أن يقاوموا هذه

الصاعقة وأن يثبتوا، وما كانوا منتصرين لأنفسهم.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ وهو أول الرسل عليه السلام، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾، خارجين عن طاعة الله عز وجل، وذلك أن قوم نوح كانوا يعبدون الله عز وجل، وعلى التوحيد، وعلى دين أبيهم آدم عليه السلام.

لكن حدث أن رجالًا صالحين، وعلماء منهم ماتوا في عام واحد، وهم: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر، فحزنوا عليهم حزنًا شديدًا، فجاءهم إبليس -عدو الله-، وأمرهم أن يصوروا صور هؤلاء الصالحين، ويعلقوها؛ من أجل إذا رأوها تذكروا أحوالهم، فنشطوا على العبادة، فجاءهم عدو الله مبدياً النصيحة، فعملوا بهذه الخطة الشيطانية، فصوروا صورهم، وعلقوها على مجالسهم، من باب محبتهم، للذكريات.

والآن يتخذون صورًا، ويقولون هذه ذكريات، وهذا مثل ما عمل قوم نوح، صوروا هذه الصور للذكريات، فلما علقوها و بذر فيهم إبليس بذرة الوثنية، لكن الجيل الذين عملوا هذا العمل فيهم علماء، وفيهم مؤمنون، ولا استطاع أن يدرك منهم إلا أنهم صوروا الصور فقط، لكن بقوا على الدين، وعلى التوحيد؛ لأن فيهم علماء، فلما هلك هذا الجيل، وهلك هؤلاء العلماء، وبقي الجهال جاءهم إبليس وقال: إن آباءكم كانوا يعبدون هذه الصور، وبها كانوا يسقون المطر، فعبدوها من دون الله عز وجل، ومن ذلك الوقت حدث الشرك في الأرض، بهذا السبب أي بسبب الغلو في الصالحين فالغلو في الصالحين يؤول إلى الشرك -والعياذ بالله[1]-.

---

(١) انظر القصة بتمامها في: تفسير القرطبي (١٨/ ٣٠٧).

ولهذا حذر النبي ﷺ من الغلو في الأموات، وفي القبور[1]؛ لأن هذا وسيلة إلى الشرك، كما حصل لقوم نوح، فأرسل الله إليهم نبيه نوحًا عليه السلام، فدعاهم إلى الله، ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، يدعوهم إلى التوحيد، وإلى عبادة الله، فلم يفد، ولم يؤمن معه إلا قليل؛ كما قال الله ﷻ، حينما أوحى الله إليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦].

وأمره بصناعة السفينة من الخشب، فصنع السفينة بأمر الله، وكانوا يمرون عليه، وهو يصنع السفينة، ويسخرون، ويضحكون منه، ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [هود: ٣٨-٣٩]، فلما تم أمر الله ﷻ، وانتهى أجلهم حل بهم العذاب فأخذهم الله بالغرق، فجر الله عليهم الأرض عيونًا، وأنزل الماء من السماء، والتقى الماء من السماء، والأرض عليهم، وغطى رؤوس الجبال حتى هلكوا عن آخرهم، ولم ينج إلا من ركب في السفينة مع رسول الله ونبي الله نوح عليه السلام، وقد قص الله هذه القصص عن هذه الأمم؛ للعبرة والعظة؛ ليسلي نبيه محمدًا ﷺ، في أن قومك لن يعجزوا الله ﷻ.

فالله ﷻ يقص على نبيه في القرآن الكريم من قصص الأولين ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٤٣٤، ١٣٤١، ٣٨٧٣)، واللفظ له ومسلم (٥٢٨) من حديث عَائِشَةَ رضي الله عنها: «أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ رضي الله عنها، ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَنِيسَةً رَأَتْهَا بِأَرْضِ الحَبَشَةِ يُقَالُ لَهَا مَارِيَةُ، فَذَكَرَتْ لَهُ مَا رَأَتْ فِيهَا مِنَ الصُّوَرِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُولَئِكَ قَوْمٌ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ العَبْدُ الصَّالِحُ، أَوِ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ».

عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود: ١٢٠]، فهذا تسلية للرسول ﷺ، وعبرة للمؤمنين إلى يوم القيامة، أن يعتبروا بأحوال هذه الأمم، وما جرى لها من النكبات، والعقوبات إذ لم يؤمنوا برسلهم.

وبالله التوفيق وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى أله، وصحبه وأجمعين.

الدرس الثاني عشر

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الذاريات: ٤٧ - ٦٠].

لما بين الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة إهلاك الأمم الكافرة المعاندة للرسل، بين سبحانه وتعالى في هذه الآيات قوته، وقدرته، وأنه لا يعجزه شيء، وأن الكفار الذين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم لا يعجزون الله، كما لم تعجزه الأمم السابقة، وفي هذا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم؛ ليصبر على أذى قومه، وينتظر الفرج من الله سبحانه وتعالى، ونصرة الحق، وأهل الحق، وخذلان أهل الباطل، فإن هذه سنته سبحانه وتعالى في خلقه، فلا يتعجب الآن من كبرياء، وغطرسة الكفرة المعاصرين، فإن لهم سلفًا كان لهم تاريخ معروف، فهؤلاء سيحصل لهم ما حصل للأمم السابقة

إن لم يتوبوا إلى الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ﴾، السماء مأخوذة من السمو، وهو: الارتفاع، والسماء لها معنيان، -كما سبق وتكرر ذكره-.

المعنى الأول: السماء المبنية ذات الأجرام.

والمعنى الثاني: يراد بها العلو فقط، فكل ما علاك فهو سماء فضائية.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨]، أي: من السحاب سمي سماء؛ لارتفاعه، ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا﴾، والسماء بالنصب على أنه مفعول لفعل مقدر يدل عليه الفعل الموجود، التقدير: وبنينا السماء بنيناها بأيد[(١)]، وهذا يسميه النحويون يسمونه الاشتغال، وهو باب معروف في النحو[(٢)]، ﴿بَنَيۡنَٰهَا﴾ أي: جعلناها بناءً مرتفعًا على الأرض، فالبناء هو ما ارتفع، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾، أي: سقفًا مرتفعًا، ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفًا مَّحۡفُوظًاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]، ﴿بِأَيۡيْدٍ﴾ أي: بقوة، كما في قوله ﷻ: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ﴾ أي: القوة، وقوله: ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ أي: لأولى القوة من الرسل.

﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ من العادة أن السقف يكون محدودًا، وله أطراف، لكن السماء ليس لها حدود، أينما ذهبت فالسماء فوقك، والأرض تحتك.

وقيل: ﴿لَمُوسِعُونَ﴾: أعم من توسيع السماء، وإنما الله ﷻ واسع عليم، وهو موسع الأرزاق، وموسع المخلوقات، فهي تعم كل أفعال الله ﷻ،

---

(١) انظر: إعراب القرآن للنحاس (٤/ ١٦٦)، والتبيان في إعراب القرآن (٢/ ١١٨٢).

(٢) انظر: (باب الاشتغال) في شرح قطر الندى وبل الصدى (١/ ١٩٢)، وشرح ابن عقيل على ألفية بن مالك (٢/ ١٢٨ - ١٢٩).

فهو الواسع العليم ﷻ.

ثم قال ﷻ: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا﴾، جعلها الله فراشًا يفترشها الخلق، وينامون، ويمشون، ويبنون عليها، فهي فراشهم، وإعرابه كالذي قبله، فالأرض منصوب بفعل مقدر من جنس الفعل المذكور، وهو من باب الاشتغال، تقديره وفرشنا الأرض فرشناها[١].

﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾، نِعْمَ الماهدون، ومخصوص نعم مقدر، تقديره نحن[٢]، والماهدون هو الله الذي مهد الأرض بقدرته ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾ [النبأ: ٦]، أي: جعلها ممهدة مهيأة في طرقها، وجبالها، وبرها، وبحرها، وفلواتها، فهي ممهدة يسير عليها الناس بارتياح، وينامون، ويبنون، ويسكنون؛ لأن الله مهدها لهم، فإن الله ﷻ مهدها لمصالح العباد فلا أحد يشكو من ضيق الأرض، بل أرض الله واسعة ﴿وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ﴾ [الزمر: ١٠]، ﴿وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٠٠]، فإذا ضاقت بك أرض، أو بلد، فالتمس غيرها قال الشاعر:

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ... ولكن أخلاق الرجال تضيق

وقال آخر:

وإن ضاقت عليك بلاد بأسرها ... فارحل فأرض الله واسعة فضاها

﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ﴾ [الذاريات: ٤٩]، من كل شيء من المخلوقات

---

(١) انظر: إعراب القرآن للنحاس (٤/ ١٦٦)، والتبيان في إعراب القرآن (٢/ ١١٨٢).
(٢) انظر: إعراب القرآن للنحاس (٤/ ١٦٦)، والتبيان في إعراب القرآن (٢/ ١١٨٢).

جعل الله شكلين مختلفين، الليل والنهار، والنور والظلمة، والأرض والسماء، وكذلك الذكور والإناث من الآدميين، ومن البهائم، ومن الطيور ومن جميع المخلوقات المتحركة ذوات الأرواح جعل الله ذكرًا وأنثى، ومن الأشجار، والنباتات جعل الله فيها الزوجين يلقح بعضهما بعضًا، ويتناسل الزوجان، ويبقى النوع والجنس حتى يرث الله الأرض، ومن عليها، فلو لم يخلق الله الزوجين لفني الجنس، ولكن الله جعل الزوجين دائمًا يتناسلان؛ لبقاء هذه المخلوقات، واستمرار وجودها لمصالح العباد، وللدلالة على قدرة الله ﷻ، فإن الذي خلقها هو الله ﷻ، فالذي خلق الزوجين واحد هو الله وحده، فلا أحد يدعي أنه خلق شيئًا من السماء، أو من الحيوانات، أو من الطيور مع كثرة العناد، والكفر، والمعارضات لله، ولرسله، بل إنه تحدى العالم أن يخلقوا ذبابة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣]، ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأحقاف: ٤].

تحداهم الله، يقول: أروني ماذا خلق هؤلاء الذين تعبدونهم من الأوثان والأشجار، والأحجار، ماذا خلقوا من السماوات، والأرض، لم يقولوا: خلقوا كذا، ولم يجيبوا أبدًا، مع شدة معارضتهم لم يجب أحد ويقول: نعم، أنا خلقت، أو فلان خلق، أو الصنم الفلاني خلق الجبل الفلاني، أو البحر الفلاني، ما أحد قال هذا، فدل على انفراد الله ﷻ بالخلق، فهو الخلاق ﷻ: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦].

حتى إنه تحداهم فقال: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦﴾ [الطور: ٣٥-٣٦]، قال ﷻ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، لا يقدرون أن يقولوا: خلقنا أنفسنا، أو خلقنا غير الله، أو خلقتنا الطبيعة، أو ما أشبه ذلك، يعجزون عن هذا، فدل على انفراد الله بالخلق، والإيجاد، وما دام أنه هو المنفرد بالخلق فيجب أن يفرد بالعبادة، ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝١٩١ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۝١٩٢﴾ [الأعراف: ١٩١ - ١٩٢].

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي إذا تفكرتم في المخلوقات، ورأيتم كيف تتناسل، وكيف تتكاثر، وكيف تتنوع، عرفتم قدرة الله ﷻ التي لا يعجزها شيء، فهذه المخلوقات لابد لها من خالق، ولم يدع أحد أنه خلق شيئًا منها إلا الله ﷻ، فهو الخلاق، فإذا تفكرت في هذه المخلوقات دلتك على عظمة الخالق ﷻ، ولهذا يقول الشاعر(١):

فَيَا عَجَبًا كَيفَ يُعْصَى الإِلَهُ ... أَمْ كَيفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

---

(١) هو الشاعر المشهور إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان أبو إسحاق العنزي، المعروف بأبي العتاهية، ولد سنة ثلاثين ومائة، أصله من عين التمر وهي بليدة بالحجاز ومنشؤه الكوفة، ثم سكن بغداد، وكان يقول في الغزل والمديح والهجاء، ثم تنسك وصار قوله في الوعظ والزهد، وأبو العتاهية لقب، توفي سنة ثلاث عشرة ومائتين. انظر: تاريخ بغداد (٦/ ٢٥٠)، وبغية الطلب في تاريخ حلب (٤/ ١٧٤٩)، والمنتظم (١٠/ ٢٣٦)، ووفيات الأعيان (١/ ٢١٩)، والوافي بالوفيات (٩/ ١١١)، والبداية والنهاية (١٠/ ٢٦٥)، والمستطرف في كل فن مستظرف (١/ ١٦). =

فإذا تفكرت فإنك تعرف قدرة الله ﷻ، وتعرف أنه هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، ثم إنه سبحانه وتعالى أمر بالفرار إليه، لما بين أنه لا رب سواه، ولا خالق سواه أمرنا بالفرار إليه، ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ارجعوا إلى الله، فروا من الشرك، والذنوب إلى الله بالتوبة منها لا ينجيك منها إلا الفرار إلى الله بتوحيده، وطاعته، وعبادته وحده لا شريك له، فهو الذي يجير، ولا يجار عليه، وهو المستعان، والمستغاث، وهو المستعاذ، وهو الملجأ سبحانه وتعالى.

فإذا كنت تريد النجاة ففر إلى الله سبحانه وتعالى، كل ما حصل لك مكروه، أو مضايقة فإنك تفر إلى الله، حتى إن المشركين في حال شركهم إذا وقعوا في الشدة فروا إلى الله، ودعوا الله مخلصين له الدين(١)؛ لأنه لا ينجي إلا الله سبحانه وتعالى.

فحينما تلجئهم الضرورة ينسون معبوداتهم، ولا يذكرون إلا الله ﷻ، فيدعونه مخلصين له الدين، ويتركون دعاء غيره، فحينئذ ينجيهم الله ﷻ؛ لأن الله يجيب المضطر، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ﴾ [النمل: ٦٢]، فهو المفر، والملجأ، والمستعان والمستغاث، والمستعاذ من كل المكاره، والمخاطر، لا ينجي منها إلا الله ﷻ، تعجز المخلوقات، وتعجز القدرات

= وقال ابن القيم رحمه الله في نونيته:

وَإِذَا تَـأَمَّـلْـتَ الـوُجُـودَ رَأَيْـتَـهُ ... إن لم تـكـن مِـن زُمـرةَ الـعُـمْـيَـانِ

بِـشَـهَـادَةِ الإِثْـبَـاتِ حَـقًّـا قَـائِـمًـا ... لِـلَّـهِ لاَ بِـشَـهَـادَةِ الـنُّـكْـرَانِ

انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (٢/ ١٩٩).

(١) إشارة إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥].

والحيل، ولا يبقى إلا الله ﷻ عند الشدائد، والكربات في الدنيا، والآخرة فلماذا يلجأ العباد إلى غيره، من الأصنام، والأحجار، والأشجار، والجن والإنس، والشياطينمم لا يغني شيئاً وينسون الله ﷻ أن يفروا إليه في جميع أمورهم، في حالة الرخاء، والشدة، وفي حالة اليسر، والعسر.

﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ الله سبحانه يأمرنا بالفرار إليه، والرسول يقول:

﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ﴾، أي: من الله، فهو مرسل من الله، إلينا ليبلغنا عن الله وينذرنا، والنذير يحذر من الشيء المكروه، والبشير يبشر بالشيئ المحبوب والرسول ﷺ بشير ونذير، بشير لأهل الطاعة، والاستقامة بالخير، ونذير لأهل الشر، والشرك، والكفر، والمعاصي من الشر، وهذا من رحمة الله أنه يدعونا إلى الرجوع إليه، ودعائه، وعبادته؛ من أجل أن ينقذنا من المكاره ويمدنا بالمنافع، وهو فهو غني عنا.

كما في الحديث القدسي يقول الله ﷻ: «**لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا**»(١)، قال ﷻ حكاية عن موسى عليه السلام ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]، ما ينقص ذلك من غناه، ولا ينقص ذلك مما عنده، وملكه تام، سواء أطعتم، أو عصيتم، لا يزيد بطاعتكم، ولا ينقص بمعصيتكم.

ولما أنزل الله عليه قوله ﷻ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]،

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم (٢٥٧٧) ومشهور باسم (أشرف حديث لأهل الشام) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

صعد الصفا، ونادى يا معشر قريش، فاجتمعوا إليه؛ لأن من عادتهم إذا حصل مكروه، أو عدو أنه يأتيهم نذير، ويصيح فيجتمعون إليه، فيحذرهم من العدو.

فلما نادى بأعلى صوته على الصفا «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ»، اجتمعوا إليه، وقالوا: ماذا حدث فقال ﷺ: «اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لاَ أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا»(١).

فبلغ ﷺ البلاغ المبين، فقال له أبو لهب: تبًا لك ألهذا جمعتنا، أنزل الله ﷻ قوله ﷻ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾﴾(٢) [المسد: ١ - ٥].

﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾ [الذاريات: ٥١]، أي: لا تجعلوا مع الله معبودًا آخر من الأصنام، والأوثان، والأشجار، والأحجار، والأولياء، والصالحين، لا تجعلوا مع الله إلهًا آخر أيًا كان هذا الإله.

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له (٢٧٥٣، ٤٤٧٠، ٤٧٧١، ٤٩٧١)، ومسلم (٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٩٤، ٤٧٧٠، ٤٨٠١، ٤٩٧١، ٤٩٧٢، ٤٩٧٣)، ومسلم (٢٠٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، أي: أنا لكم من الله نذير عن هذا الشرك، واتخاذ الآلهة من دون الله؛ لأنه الإله الحق ﷻ، وما سواه فهو مألوه بالباطل، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج: ٦٢]، وهذا معنى «لا إله إلا الله»؛ لأن معنى «لا إله»، نفي لجميع الآلهة، إلا الله استثناء الله ﷻ وحده، فهو الإله الحق.

ثم قال ﷻ مسليًا رسوله مما يتعرض له من الأذى، والمضايقات من المشركين، ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي: مثل فعل هؤلاء الذين آذوك، وكذبوك، ووصفوك بالأوصاف الذميمة، مثلهم قوم سبقوا فأخذهم الله ﷻ كما ذكر في أول هذه السورة، أي: مثل ما حصل لك حصل لمن قبلك، ما أتى الذين من قبلك من الأمم، من رسول من الله ﷻ، ﴿إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾، ليس رسولًا، وإنما هو ساحر، وما معه من الآيات إنما هي أشياء سحرية يسحر بها الناس، وليست معجزات دالة على رسالته.

﴿أَوْ مَجْنُونٌ﴾، أي: ليس له عقل، فهو مخبل، يهرف بما لا يعرف، ويقول ما لا يتصور؛ لأن المجنون لا يدري ماذا يقول.

قال الله ﷻ: ﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾، استفهام إنكار، أي: هل رأى بعضهم بعضًا، هل أمتك رأت الأمم السابقة، هل رأت قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم شعيب، وقوم إبراهيم؟، هل رأوهم حينما قالوا مثل قولهم؟، ما رأوهم، لكن هذه طبيعة الكفار في كل وقت، ولو لم يوص بعضهم بعضًا فطريقتهم واحدة، فلا تعجب من هذا، أو تضجر.

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾، هذا تسلية للرسول ﷺ.

ولم ير بعضهم بعضًا، لكن الكفر جمعهم، والكفر كما يقولون ملة واحدة، من أول الخليقة إلى آخرها، ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي لذي حملهم على هذا هو الطغيان، والطغيان مجاوزة الحد، فهم تجاوزوا الحق، فلما تجاوزوا الحق قالوا هذه المقالة.

ثم قال ﷻ لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾، أي: لا تلتفت إلى أقوالهم، واعتراضاتهم، ولا تعبأ بها أبدًا، ولا تهمك؛ لأنه ﷺكان يحزن على قومه، أنهم يدخلون النار، وأنهم يكفرون بالله، ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ [الكهف: ٦] ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء: ٣]، أي: مهلك نفسك، فالرسول ﷺ كان حريصًا، وكان يحزنه ما عليه قومه؛ لأنه يريد لهم السلامة، والنصيحة، ويريد لهم النجاة[(١)]، فإذا رآهم على ما هم عليه من العناد فإنه يحزن ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧﴾ [الحجر: ٩٧]، ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، فهذه تسلية للرسول ﷺ.

---

(١) من أعظم الأدلة على إرادة النبي ﷺ الخير لهذه الأمة ما أخرجه مسلم (٢٢٨٥) من حديث جابر رضي الله عنه، قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا، فَجَعَلَ الْجَنَادِبُ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا، وَهُوَ يَذُبُّهُنَّ عَنْهَا، وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، وَأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِنْ يَدِي».

﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾، أي أعرض عنهم، وليس معنى ذلك أن يتركهم، لا، يذكرهم، وإنما يعرض عن أذاهم، ولا يلتفت إليه، ولا يحزنه أيضًا؛ لأن حسابهم على الله ﷻ، ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١ - ٢٢]، وهذه الآية وأمثالها نزلت في مكة، يوم كان الرسول منهيًا عن القتال؛ لأن المسلمين لا يستطيعونه، فأمر بالإعراض عنهم والاستمرار في الدعوة إلى الله.

ولهذا قال: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٥﴾ مع إعراضك عن أذاهم لا تيأس، واستمر على التذكير، وعلى الدعوة إلى الله، فإن هناك من يقبل منك، ويتبعك، ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فالموعظة تنفع أهل الإيمان، وترقق قلوبهم، وتقربهم إلى الحق، وأما الكفار الذين أصروا على كفرهم، وعنادهم، فلا ينفع فيهم التذكير، لكن يكون حجة عليهم يوم القيامة؛ بأن الرسول ﷺ ذكرهم، وبلغهم، فتمردوا، وعصوا.

ودلت هذه الآية على أن الذي يتأثر بالتذكير، ويتعظ أنه مؤمن، وتدل بمفهومها على أن الذي لا يقبل التذكير ليس بمؤمن، فالإيمان يقتضي قبول التذكير، والموعظة، وأما الكافر فلا يقبلها، لكن تقوم عليه الحجة؛ ولهذا قال قوم عاد لهود عليه السلام: ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ١٣٦﴾ [الشعراء: ١٣٦]، فلا تنفع فيهم، وفي الآية الأخرى ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ١١ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ [الأعلى: ٩ - ١٢]، فأنت أيها الداعية، وأيها الواعظ، وأيها المذكر لا تيأس، فإن الذكرى تنفع المؤمنين، وتنفع من يخشى الله سبحانه وتعالى، ولن يعدم في العباد من يكونون كذلك

ولو كانوا قليلين، فالذكرى لها فائدة، ولها أثر عظيم، فلا ييأس الدعاة، والمذكرون، والوعاظ من تذكير الناس، فإن الذكرى تنفع المؤمنين. وأما المعرضون فقد أمره الله بالإعراض عنهم، والاستمرار على التذكير، فليس معنى الإعراض أنهم يتركون، ولا يذكرون، ولايقال: لا يقبلون، بل يستمر الداعية، ويصبر على التذكير، وعلى الموعظة، والدعوة إلى الله ﷻ. ونحن نسمع من بعض الصحفين الآن تقليلاً من شأن الوعظ وهذا لجهلهم وقسوة قلوبهم.

ثم قال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، ذكر الله الحكمة من خلقه الجن، والإنس، والجن عالم خفي لا نراه، سمي جنًا؛ لأننا لا نراهم وهو من الاجتنان، وهو الاستتار، ومنه سمي الجنين في بطن أمه؛ لأنه مستتر، وجن عليه الليل أي: ستره الظلام، وسميت الجنة بالجنة؛ لأنها ملتفة الأشجار، والأغصان، والجُنة هي السترة التي يتخذها المقاتل(١).

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ﴾، والجن عالم خفي لا يُرون، لكننا نؤمن بهم، منهم المؤمن، والكافر، ومنهم المطيع، والعاصي، ومنهم المستقيم، والفاسق؛ كما قالوا عن أنفسهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾ [الجن: ١١]، ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾، فالجن مثل الإنس، فيهم مؤمنون، وفيهم كفار، وفيهم مستقيمون، وفيهم عصاة، وفساق، والرسالة عامة لهم، للجن، والإنس.

والحكمة من خلق الجن والإنس، وأنه لم يخلقهم لحاجته إليهم،

---

(١) انظر: مادة (جن) مقاييس اللغة (١/ ٤٢١)، ولسان العرب (فصل الجيم) (١٣/ ٩٢).

ولا ليتقوى بهم من قلة، أو يتعزز بهم من ذلة؛ لأنه قوي عزيز ﷻ، ولم يخلقهم لأجل أن يرزقوه، ويكتسبوا له، ويجمعوا له الأموال، لم يخلقهم إلا لشيء واحد، هو العبادة.

والعبادة مصلحتها لهم؛ لأنهم محتاجون، ومفتقرون إلى الله، ولا يقربهم من الله، ويصلهم بالله إلا العبادة، فالعبادة مصلحتها لهم، وأما الله ﷻ فإنه غني عنها.

فحصر الحكمة من خلق الجن، والإنس في العبادة فقط، لا لشيء آخره، ثم منهم من عبد الله، ومنهم من لم يعبده، وهو غني عنهم ﷻ، فالذين لم يعبدوه لم يضروه، والذين عبدوه لم ينفعوه بذلك، وإنما الضرر والنفع راجع إلى العباد أنفسهم، وإنما أمرهم بعبادته رحمة بهم؛ لتكون صلة بينهم وبينه، ويتعرفون بها على ربهم، ويسألون حوائجهم، ويتضرعون إليه، فهو أمرهم بعبادته لحاجتهم إلى ذلك لا لحاجة الله ﷻ؛ ولهذا قال: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ﴾، لم يخلقهم لأجل أنهم يرزقونه، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾، فالله ﷻ يطعم ولا يطعم، ﴿وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ﴾ [الأنعام: ١٤]، ﷻ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾، الرزاق صيغة مبالغة، أي: كثير الرزق ﷻ، فهو يرزقهم، ويرزق غيرهم، يرزق الجن والإنس، ويرزق الحيوانات، ويرزق الحشرات، ويرزق من لا ترونه، هو القائم بأرزاق عباده ﷻ في البر، والبحر، والمخلوقات كلها بأنواعها هو الذي يرزقها، ويوصل إليها غذاءها ويهيء لها مصالحها.

كل له رزقه ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ﴾ [هود: ٦]، تكفل

الله برزقها، ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٠] فالطير تغدو خماصًا جائعة، وتروح بطانًا، أي ترجع آخر النهار شبعى، من رزق الله ﷻ، فهو الرزاق ﷻ، لكم أيها الجن والإنس، ولغيركم من المخلوقات.

﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾، ما هو بحاجة إليكم، الله ﷻ قوي بذاته ﷻ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾، صاحب القوة، والقوة صفة من صفات الله، وقوته لا تضاهى، ولا تغالب ﷻ، كل قوة فإنها ضعيفة أمام قوة الله ﷻ؛ ولهذا لما قال قوم هود: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ قال الله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥]، فكل القوى، والقدرات ضعيفة أمام قوة الله ﷻ، وقدرته، لا يعجزه شيء في الأرض، ولا في السماء ﷻ.

﴿ٱلْمَتِينُ﴾، شديد القوة، فالمتين صفة لله ﷻ، فالقوة صفة، والمتين صفة أخرى، ثم قال ﷻ: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ من قومك يا محمد، ظلموا أنفسهم بالشرك، والكفر، والمعاصي، ﴿ذَنُوبًا﴾، أي: نصيبًا من العذاب، ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ الذين مضوا من الأمم الكافرة، لهم نصيب من العذاب مثل نصيب الأمم السابقة ينتظرهم، فلا يغتروا بإمهال الله لهم، ويجحدوا العذاب، ويستبطئوه، كل شيء له أجل لا يقدم الله شيئًا على أجله، ولا يؤخره عن أجله ﷻ.

والظلم هنا يراد به: ظلم الشرك، وظلم المعاصي، وظلم العباد أيضًا، لأن الظلم ثلاث أنواع: ظلم بين العبد، وبين ربه، وهو الشرك، وهو أعظم

الظلم ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وظلم العبد لنفسه بالذنوب، والمعاصي التي يقتصر ضررها عليه، وظلم العباد بالتعدي عليهم في أموالهم، ودمائهم، وأعراضهم.

﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾، لا يقولوا: عجل لنا العذاب ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ [ص: ١٦]، أي: نصيبنا من العذاب.

فالله ﷻ لا يعبأ بتحديهم؛ لأنه قدر الآجال، وقدر الأشياء، وكل شيء في وقته: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنعام: ٦٧]، فلا يستعجلون، ولا يظنون أن تأخر العذاب عنهم أنه ليس بواقع، بل سيقع إن لم يتوبوا إلى الله سبحانه وتعالى.

ثم قال ﷻ: ﴿فَوَيْلٌ﴾ تهديد، ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من قريش، وكذبوا الرسول ﷺ، وويل كلمة عذاب وتهديد، ﴿مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾، قيل: هو يوم القيامة، وقيل: يوم بدر، فإن الله عجل لهم فيه ما عجل من النكبة، والقتل، والذلة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦]، وذلك في يوم بدر، فإن الله أراهم ضعفهم، وأراهم غطرستهم أمام قلة من عباد الله المؤمنين.

فإن أجل الله آت لا محالة، ولكنه لا يأتي إلا في أجله الذي ضربه الله سبحانه وتعالى له، فلا يستعجلوه فإنه إذا نزل بهم فلا يستطيعون الخلاص منه، ولا مقاومته ولا مدافعته، ما له من دافع.

الدرس الثالث عشر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦﴾ [الطور: ١ - ١٦].

سورة الطور: هي مكية بالاتفاق، وفيها عظات وبينات وتذكير، فالله ﷻ في أولها أقسم بمخلوقات عظيمة من مخلوقاته الدالة على قدرته على كل شيء، وهو -سبحانه- يقسم بما شاء من خلقه، ولا يقسم إلا بشيء له أهمية وفيه عبرة، أما المخلوق، فلا يجوز له أن يقسم، ولا يحلف إلا بالله ﷿، والحلف بغير الله شرك؛ كما صح في الأحاديث: «**مَنْ كَانَ حَالِفًا، فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ**»(١)، . . . .

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٧٩)، ومسلم بنحوه (١٦٤٦).

«مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»[١]، فلا يجوز من المخلوق الحلف إلا بالله ﷻ.

لأن الحلف تعظيم للمحلوف به، التعظيم حق لله سبحانه فقوله ﷻ: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١﴾ والطور المراد به: الجبل والمراد بالطور هنا طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى ﷺ[٢]، وسيناء صحراء أضيف إليها الجبل؛ فرقاً بينه وبين غيره من الجبال، ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢﴾، قيل: هو اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير الخلائق، وقيل المراد به الكتاب المنزل وهو يشمل التوراة والإنجيل والزبور والقرآن[٣]، ﴿فِى رَقٍّ﴾، بفتح الراء على المشهور من القراءات، والرق هو: ما يكتب عليه من الجلود أو الأوراق، ﴿مَّنشُورٍ﴾ أي: مكتوب[٤]، ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤﴾، البيت المعمور الذي في السماء وهو مثل: البيت المعمور في الأرض، وهو الكعبة، والبيت المعمور في السماء للملائكة، يطوفون به، ويدخلونه؛ كما أن المسلمين يطوفون بالبيت الذي بالأرض، ويصلون إليه، والبيت المعمور في السماء السابعة، وقيل: في السماء الدنيا، وقيل: الذي في السماء السابعة هو البيت المعمور، والذي في السماء الدنيا بيت العزة، وكل منهما متعبد للملائكة، وهو بحيال الكعبة المشرفة -وقد رآه النبي ﷺ ليلة المعراج، وسمي المعمور لأنه

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥)، وأحمد في المسند (٢/ ١٢٥)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١/ ٣٢٥)، والقرطبي (١٧/ ٨٥)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٢٤٤).

(٣) انظر: زاد المسير (٨/ ٤٥، ٤٦)، وتفسير القرطبي (١٧/ ٥٩)، وابن كثير (٤/ ٢٤٠).

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ١٦)، وزاد المسير (٨/ ٤٦)، والقرطبي (١٧/ ٥٩).

معمور بالعبادة، يدخله كل يوم سبعون ألفًا من الملائكة، ثم لا يعودون إليه، هذا يدل على كثرة الملائكة[١].

فعمارة -بيوت الله- إنما هي بالعبادة؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة: ١٨]، لا بالزخرفة والأصباغ والألوان والكتابات والنقوش، إنما عمارتها بالعبادة، وهي تبنى البناء الحسي؛ لتؤدي العبادة فيها.

﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾﴾ [الطور: ٤-٥]، السقف هو ما علا وارتفع[٢]، المراد به هنا السماء، فالسماء سقف الأرض، ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء: ٣٢]، فالسماء سقف الأرض وبناؤها، ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة: ٢٢]، يعني: سقفًا، والسقف المرفوع أي مرفوع عن الأرض، و بينه وبين الأرض مسيرة خمسمائة سنة، وبين كل سماء وسماء من السماوات السبع خمسمائة سنة[٣]، فهذا يدل على اتساع هذا الكون.

﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ٥-٦]، البحر في الأصل هو: الشق في الأرض،

---

(١) كما في الحديث الطويل الذي أخرجه مسلم (١٦٢) من حديث أنس رضي الله عنه في قصة المعراج.

(٢) انظر: معجم مقاييس اللغة (٣/ ٨٧).

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه الترمذي (٣٢٩٨)، وأحمد في مسنده (١٤/ ٤٢٢)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٥٤)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٦٠)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٢٨٧).

ويراد به هنا ما يقابل، والمسجور: قيل معناه: المملوء بالماء، وقيل معناه الممنوع من أن يغمر الأرض، ممنوع أن يغمر الأرض، وقيل المسجور معناه الموقد بالنار، لأنه في يوم القيامة تسجر البحار يعني توقد ناراً، كما يسجر التنور، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾ [التكوير: ٦]، يعني أوقدت نارًا[١].

هذه إقسامات من الله ﷻ للتوكيد، وإلا فهو سبحانه وتعالى صادق ولو لم يقسم، وإنما أقسم للتوكيد، وقطع شبه المشبهين، والمقسم عليه ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ وهو وقوع العذاب الذي يكذب به المجرمون، أي: حاصل لا محالة في وقته، لا يتقدم، ولا يتأخر، فهؤلاء الذين يستعجلون العذاب إنما ذلك من طغيانهم وجهلهم، وتكذيب للرسول ﷺ، فالله ﷻ جعل لوقوع هذا العذاب وقتًا لا يتقدم عنه، ولا يتأخر، ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: ٨]، إذا وقع، فإنه لا يقدر أحد على دفعه ورده، فإنهم في الدنيا يتخذون الوقايات، ويتخذون الموانع التي تمنع من المكروه ولكن في الآخرة ليس هناك شيء يدفع العذاب، لا حصون، ولا جنود، ولا سلاح، ولا قوة، إذا وقع يوم القيامة، ويقع ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ [الطور: ٩]، (يوم) ظرف منصوب للظرفية، والعامل فيه واقع، أي واقع يوم تمور السماء مورًا وذلك عند قيام الساعة تمور السماء يعني: تتشقق[٢]،

---

(١) انظر في ذلك: تفسير الطبري (٢٧/ ١٩، ٢٠)، وزاد المسير (٨/ ٤٧)، والقرطبي (١٧/ ٦١)، وابن كثير (٤/ ٢٤١).

(٢) انظر في ذلك: تفسير الطبري (٢٧/ ٢١)، والتبيان في تفسير غريب القرآن (١/ ٣٩٢).

﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠﴾ هذه الجبال الرواسي الثابتة في الأرض يأتي عليها يوم تتقلع من أصولها، وتكون هباءً منثورًا، و تكون كالعهن -أي: الصوف المنفوش- من رقتها، إذا جاء الهول والقضاء والقدر، صارت رقيقة، صارت مثل العهن المنفوش[1]، وتكون هباءً منثورًا

فالجبال تسير، وتنسف، وتدك، حتى تكون كأنها لم تكن، وكأنها لم توجد؛ لأن أجلها قد انتهى، وانتهت الدنيا بما فيها، وحانت الآخرة، فالذي أوجدها قادر على أن يغيرها ﷻ، وإذا حصل هذا ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، فويل، وعيد من الله، وقيل: هو واد في جهنم، وقيل: هلاك، يومئذ أي إذا حصلت هذه الأهوال ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، الذين كانوا يكذبون الرسل -عليهم الصلاة والسلام- ويل لهم من عذاب الله ﷻ.

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١﴾ بالبعث والنشور، مكذبين للرسل، للمكذبين لكتب الله ﷻ، ويل لهم، فقد حل بهم ما يوعدون، ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ يخوضون، ويترددون فيما جاءت به الرسل، بعضهم يقول: سحر، وبعضهم يقول: كهانة، وبعضهم يقول: هذيان مجانين، وبعضهم يقول: أساطير الأولين، فهم يخوضون بالباطل بدلًا من أن يؤمنوا ويصدقوا ويستعدوا، أمضوا وقتهم في الخوض في الباطل -والعياذ بالله-.

وهم لم يخلقوا للعب واللهو وإضاعة الوقت، إنما خلقوا لأمر عظيم، لم ينتبهوا له، ولما نبهوا، لم ينتبهوا، بل كذبوا بذلك -والعياذ بالله-، ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ يدفعون بقوة، ويساقون بعنف ﴿إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ يدفعون إليها

(١) انظر: تفسير الطبري (٣٠/ ٢٨١)، وابن كثير (٤/ ٤٢١).

بعنف وقسوة، لا رحمة ولا هوادة، تدفعهم الزبانية - والعياذ بالله -، يساقون إليها، ويدفعون إليها.

وجهنم من أسماء النار، ومن أسمائها: سقر، والهاوية، وسجين، والنار والقارعة، وغير ذلك، فلها أسماء كثيرة، ﴿إِلَىٰ نَارِ﴾، فنار جهنم من إضافة الموصوف إلى صفته، ثم يقال لهم -من باب التبكيت والتوبيخ-: ﴿إِلَىٰ نَارِ﴾ التي كنتم في الدنيا تكذبون بها، لما أنذرتكم الرسل ضحكتم وسخرتم قلتم: ليس هناك جنة، ولا نار، ولا بعث، ولا نشور، ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنعام: ٢٩]، و هذه إشارة إلى النار فهي حاضرة، يرونها.

﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾﴾؛ لأنهم كانوا في الدنيا يقولون: عما أخبر به الرسول هذا سحر، أو -والله أعلم- هل هذا الذي أمامكم خيال أو حقيقة ناصعة واضحة؟ فهم كانوا في الدنيا يتهمون الرسل بالسحر والكذب وغير ذلك من الأوصاف الذميمة، فيوبخون يوم القيامة و(أم) بمعنى بل، بل أنتم لا تبصرون، يعني: في الدنيا ما كنتم تبصرون البصيرة النافعة، وتعلمون أن ما أخبرت به الرسل، هو الحق، وأنه لابد منه، وأن الرسل صادقون مصدوقون.

﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي: ادخلوها، وهي تصلاكم من فوقكم ومن تحتكم ومن أيمانكم ومن شمائلكم، ولا مفر لهم منها، والصلي هو: التعذيب بالحرارة الشديدة، فالصبر لن ينفعكم بشيء، في الدنيا الإنسان يصبر على المكاره وعلى

المشاق، وينتظر الفرج، لكن هذه ما منها فرج ولا مخرج، سواء صبرتم، أو لم تصبروا، فالصبر لا ينفعهم حينئذ، سواء عليكم الأمران: الصبر، وعدم الصبر، ليس هناك حيلة -والعياذ بالله-، ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦]، هذا الذي حاق بكم ووقعتم فيه إنما هو بسبب أعمالكم الكفرية والشركية والإلحادية، ما ظلمناكم، فالله لا يعذب إلا من يستحق العذاب، ولا ينعم إلا من يستحق النعيم وذلك بسبب الأعمال؛ كما قال الله ﷻ في الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ**»(١).

﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هذا حصر فالجزاء إنما هو بسبب أعمالكم، لن تعذبوا بأعمال غيركم، أو تعذبوا بغير سبب، إنما الذي عذبتكم أعمالكم التي شغلتكم بالباطل في الدنيا.

هذا وبالله التوفيق وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

الدرس الرابع عشر

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ
ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ
وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ
أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا
يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ
كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا
مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور: ١٧ - ٢٨].

لما ذكر الله ﷻ جزاء الكافرين وما أعد لهم من العذاب في نار جهنم نتيجة لكفرهم بالله ﷻ، ونسيانهم البعث والنشور، وما أمامهم من أمور يوم القيامة، لما ذكر جزاءهم وعذابهم، ذكر جزاء المتقين المؤمنين بالله ﷻ، الذين آمنوا بالبعث والنشور والجنة والنار، فاستعدوا لذلك بالإيمان والأعمال الصالحة، وهذا مطرد في القرآن أن الله ﷻ إذا ذكر النار وأهلها، ذكر الجنة وأهلها؛ من أجل أن يتذكر قارئ القرآن، فيكون إذا قرأ الآيات التي فيها ذكر النار والعذاب خاف ربه أن يكون من أهل هذا المستقبل

المؤلم، فعمل بطاعة الله ﷿، وترك الكفر والمعاصي، وإذا قرأ الآيات التي فيها ذكر الجنة وأهلها، فإنه يرجو ربه ﷿، ويتعلق قلبه بالجنة، فيعمل لها، فيكون دائمًا بين الخوف والرجاء.

لا يخاف فقط حتى يقنط من رحمة الله، ولا يرجو فقط حتى يأمن من مكر الله ومن عذاب الله، بل يكون بين الخوف والرجاء، فإذا خاف، ترك الأعمال السيئة من الكفر بالله والمعاصي، وإذا رجا، عمل الأعمال الصالحة، التي تؤهله لرحمة الله ﷿، هذه هي الحكمة من تجاور آيات الوعد، وآيات الوعيد في القرآن الكريم.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، إن حرف توكيد ونصب، فالمتقين اسم إن منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، والمراد بالمتقين: الذين اتقوا ربهم، واتقوا عذابه، فاتخذوا وقاية تقيهم من ذلك، وهي الأعمال الصالحة، فإنه لا يقي من عذاب الله، ولا يقي من النار، ولا يقي من غضب الله إلا الطاعات والأعمال الصالحة، فهم اتخذوا وقاية من طاعة ربهم ﷿، تقيهم من هذا المصير المؤلم الذي سارع إليه من لم يتقوا الله ﷿.

﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر إن، تقديره: كائنون في جنات؛ لأن الجار والمجرور متعلق بمحذوف، تقديره كائن أو مستقر.

قال الناظم:

وأخبروا بظرف أو بحرف جر   ناوين معنى كائن أو استقر

والجنات جمع جنة، وهي: البستان الملتف بالأشجار والأنهار والمساكن البهية[١]، هذا مقابل ما أخبر به عن الكفار، وأنهم في جهنم، وفي النار، فالمتقون أعد الله لهم الجنة، وهي جنات متعددة، وبعضها فوق بعض، فأهلها درجات عند الله ﷻ، بعضهم فوق بعض في منازلهم حسب أعمالهم، ﴿وَنَعِيمٍ﴾ أي: سرور.

فالمكان مكان طيب، ونفوسهم مرتاحة متنعمة، جمع الله لهم بين حسن المسكن، وسرور النفس، فإن الإنسان قد يكون في مسكن طيب، ولكنه مهموم، أما أهل الجنة، فيكونون في نعيم، لا يكدر عليهم شيء، فالدنيا وإن ازدهرت لأصحابها بمآكلها ومشاربها ومساكنها إلا أنهم ليسوا في نعيم، بل يكونون مهمومين، خائفين مما يصيبهم في الدنيا من الأمراض والأسقام والهرم والعدو، فالإنسان في هذه الدنيا ليس بآمن، أما أهل الجنة، فإنهم آمنون من كل ما يكدر.

يتنعمون في هذه الجنة، ويسرون فيها سرورًا دائمًا لا ينقطع، ولا يخافون موتًا ولا هرمًا ولا مرضًا ولا عدوًا، آمنون من كل النواحي، متنعمون بما أعطاهم الله ﷻ، ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ فاكهين يعني: مبتهجين ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾؛ لأنهم ليس عندهم ما يكدرهم، فهم يتفكهون في الجنة، أما في الدنيا، فالإنسان قد يكون عنده ملذات، لكنه مريض أو مهموم، فلا يتفكه بما هو فيه، أما أهل الجنة، فإنهم يتفكهون بما أعده الله لهم، وأعطاهم،

---

(١) انظر: لسان العرب مادة (جنن) (١٣/ ٩٩)، ومختار الصحاح (١/ ٤٨)، وتاج العروس (٣٤/ ٣٧٤).

ليس كعطاء الناس والملوك والأثرياء، وإنما هو عطاء من الرب ﷻ، الذي لا تنفذ خزائنه، ولا يعجزه شيء، والذي يتفضل ويتكرم على عباده.

وإنما أعطاهم الله هذا تفضلًا منه وإحسانًا منه إليهم، لم يستحقوه بعملهم لأن عملهم مهما كان فهو قليل، ولكن العمل الصالح سبب لدخول الجنة، كما أن الأعمال السيئة سبب لدخول النار، فالأعمال إنما هي سبب، وأما العطاء، فهو من الله ﷻ فضلًا منه وإحسانًا، ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾، حتى يكونوا في سرور دائم، لا يخافون أنهم يخرجون من الجنة، ويحولون منها، فالإنسان في الدنيا وإن كان في قصور وفي حبور وسرور، لكنه يحول منها، إما بالموت، وإما بيد الأعداء، وإما بالفقر، فهو عرضة للتحول، فأهل الجنة وقاهم عذاب الجحيم، فهو الواقي ﷻ، لا يقي من عذابه إلا هو، لا يقيك أبوك، ولا نسبك، ولا أسرتك، ولا مالك، ولا جنودك، ولا قوتك، ما يقيك إلا الله ﷻ، ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾، أي: يقال لهم كلوا من ثمر الجنة، واشربوا من أنهارها، يشربون من أشربة الجنة الصافية اللذيذة، التي لا مكدر فيها.

﴿هَنِيٓـًٔۢا﴾، هنيئًا أي: شراباً، ليس معه منغص ولا مكدر، وفي الآية الأخرى (هنيئًا مريئًا)، أي: سهلًا، لا غصة فيه ولا مكدر، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي: بسبب ما كنتم تعملون في الدنيا من الأعمال الصالحة، فالباء هنا سببية، وليست باء العوض، فالجنة ليست عوضًا عن العمل، وإنما الجنة فضل من الله ﷻ، وإنما العمل سبب لدخولها، ولا تدخل الجنة بالتمني أو الرجاء المجرد بدون عمل، فالذي يرجو الجنة يعمل لها، أما أنه يرجو فقط، ولا يعمل، فهذه صفة المفاليس، وفي الحديث (العاجز من اتبع

نفسه، وتمنى على الله الأماني)، فلابد من العمل الصالح، الخالص لوجه الله ﷻ، الخالي من البدع والخرافات والمحدثات، وعلى سنة رسول الله ﷺ، هذا هو العمل الذي يسبب لصاحبه دخول الجنة بإذن الله ﷻ.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ جمع سرير، ولا يعلم صفة هذا السرير وجماله وحسنه إلا الله ﷻ، ليس مثل سرير الدنيا، ﴿مَّصۡفُوفَةٍ﴾ أي متساوية بعضها إلى جنب بعض، من أجل أن يأنس بعضهم ببعض، ويتآنسون في المجالس.

لأنهم ليس بينهم حزازات، ولا عداوات، ولا شحناء كما بين أهل الدنيا ولهذا قال: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٤٧﴾ [الحجر: ٤٧].

فهم يحب بعضهم بعضًا، ويأنس بعضهم ببعض، ويتنعم بعضهم بمجالسة البعض الآخر، ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾، من تمام النعمة واللذة الزوجات، الزوجات من تمام النعمة، وليست زوجات الدنيا، ما قال: زوجناهم بنساء، بل قال: بحور، حور يعني: الحسان، التي في عينها حور وهو شدة البياض مع شدة السواد وذلك أجمل ما يكون في العين(١)، حور جمع حوراء، عظام الأعين جميلات.

ثم ذكر إكرامًا آخر لهم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ٢١﴾، هذا من تمام السرور، من أجل أن تقر أعين الوالدين بالأولاد، فالله يرفع الأبناء إلى منزلة الآباء، لكن بشرط، أن تكون الذرية مؤمنة، وهذا يستدعي من المؤمنين أن

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٢٤)، وزاد المسير (٧/ ٣٥١)، والقرطبي (١٦/ ١٥٣).

يربوا أولادهم على الإيمان، من أجل أن يجمع الله بينهم في الجنة، وتقر أعينهم بهم في الجنة، أما إذا أهملوهم وضيعوهم، وربما أنهم يكونون كفارًا، أو عصاة، فيفرق الله بينهم في الآخرة.

فالاجتماع بين الآباء والأولاد إنما هو خاص بالمؤمنين، أما إذا اختلف الدين، فصار الآباء على دين والأبناء على دين آخر، فإن الله يفرق بينهم، فهذا مما يؤكد على الآباء الحرص على تعليم أولادهم الإيمان، وتربيتهم على الإيمان؛ حتى يلحقوا بهم في الآخرة. فالأبناء لحقوا بالآباء تفضلًا من الله، وإن قصرت أعمالهم عن ذلك، فإن الله ﷻ يجبر ذلك برحمته وفضله، فيرفعهم مع آبائهم.

﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾: ما نقصنا الآباء وأخذنا شيئًا من عملهم وأعطيناه الأبناء؛ حتى يرتقوا إلى درجتهم، بل عملهم موفر لهم، ولكننا ألحقناهم بهم تكرمًا من الله ﷻ على الآباء، فإلحاق الأبناء بالآباء في المنازل في الجنة إنما هو تفضل من الله.

﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾، أي: محبوس على عمله، ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثر: ٣٨] أي: محبوسة على عملها، فالعمل لعامله، لا ينقص منه شيء، ولا يؤخذ منه شيء للآخر.

﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم﴾ أي: المتقين، واصلنا العطاء لهم، مدداً من الله لهذا الرزق، فلا ينقطع أبدًا، ﴿بِفَٰكِهَةٍ﴾: ما يتفكه به من أنواع الفواكه اللذيذة، ﴿وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ وفي الآية الأخرى ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢١]، من طيور الجنة، ذكر الشراب، فقال: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾، يعني: شرابًا،

والكأس هو الكوب المملوء بالشراب، فإن لم يكن فيه شيء فلا يسمى كأسًا[(١)]، أي: شرابًا، من خمر الجنة الطيبة وليست مثل خمر الدنيا خبيثة المذاق، مرة الطعم، منتنة الرائحة، سيئة الأثر على الصحة وعلى العقل، خمر الجنة منزوع منها كل الآفات التي في خمر الدنيا، إنما تشترك معها في الاسم فقط، لكنها مختلفة تمامًا، ليس فيها من الآفات التي في خمر الدنيا شيء؛ ولهذا قال: ﴿مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾، وفي هذه الآية ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا﴾؛ لأن عادة الذين يشربون الخمر في الدنيا يكون بينهم لغو في الكلام ولغط، بذيء، وكلام، خمر الجنة لا تؤثر هذا؛ لأنها طيبة، لا لغو فيها، ولا تأثيم؛ لأن شارب خمر الدنيا يلحقه التأثيم، ويقع في الإثم، قد يزني، قد يفعل اللواط، قد يقتل النفس؛ لأنه نزع منه العقل الذي يتميز به، فصار يقع في الآثام - والعياذ بالله- وفي الآية الأخرى ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩]؛ لأن خمر الدنيا تصدع الرؤوس، وخمر الآخرة: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ﴾ لا يصيبهم صداع، ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾، ولا ينزفون، في الآية الأخرى، يعني: لا تنزف عقولهم، ولا تنزف أموالهم، خمر الدنيا تنزف العقول، وتصدع الرؤوس، وتتلف الأموال، خمر الآخرة ليس فيها أي مضرة أو مفسدة.

فهذه هي الفروق بين خمر الدنيا وخمر الآخرة، وفي الحديث (من شرب

---

(١) قال ابن الأعرابي: (لا تسمى الكأس كأسا إلا وفيها الشراب).
انظر: لسان العرب (٦/ ١٨٩)، ومختار الصحاح (١/ ٢٣٤).
قال الزجاج: (الكأس الإناء الذي فيه الخمر، ويقع الكأس على كل إناء مع شرابه فإن كان فارغا فليس بكأس). انظر: زاد المسير (٧/ ٥٦)، والقرطبي (١٥/ ٧٧).

الخمر في الدنيا، لم يشربها في الآخرة)[١] عقوبة له.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾، يتردد عليهم -شباب- يخدمونهم من شباب الجنة، والغلام هو الصغير، ويحضرون لهم طلباتهم، ﴿لَّهُمْ﴾، لهم دائمًا وأبدًا، يملكونهم.

﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾: اللؤلؤ مادة تستخرج من البحر ثمينة، ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]، يخرج في الصدف، ليس يخرج يعني بارز، وإنما هو مصون في الصدف، هذا اللؤلؤ البحري. الجنة كذلك كأنهم لؤلؤ ﴿مَّكْنُونٌ﴾ في الصدف، ما يتبين للهواء والشمس، ويتغير لونه؛ فنظافة الخادم وجمال الخادم مما يدخل السرور على المخدوم، خلاف ما إذا كان الخادم سيء المنظر، غير نظيف في ثيابه ولا في ملابسه.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ بعد ما يتناولون هذه الطيبات من المشارب والمآكل يقبل بعضهم على بعض، في الحديث في مجالسهم، وعلى سررهم يحدث بعضهم بعضًا: من أين حصَّلْنا هذا النعيم، يقولون: هذا النعيم، كيف حصلنا عليه؟ ثم يتذكرون ما كانوا عليه في الدنيا، ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾ يعني: في الدنيا ﴿فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ خائفين من عذاب الله، فهذا هو الذي سبب لهم أنهم خافوا في الدنيا من العذاب، فعملوا الأعمال التي تنجيهم منه.

فهم يتحدثون بنعمة الله ﷻ، ويذكرون أنهم حصلوا على هذا بسبب أنهم

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٥٥٧٥)، ومسلم (٢٠٠٣)، ولفظه: «مَنْ شَرِبَ الخَمْرَ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا، حُرِمَهَا فِي الآخِرَةِ».

كانوا في الدنيا خائفين، أما لو أمنوا من العذاب في الدنيا، فإنهم لا يتجنبوا الذنوب والآثام والمعاصي، ولكن الله منَّ عليهم، فرزقهم الخوف.

و هذا تحدُّثٌ بنعمة الله من باب الشكر، ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ انظر. فالذي نحن فيه منٌّ مِنَ الله علينا بسبب خوفنا من عذابه في الدنيا، أما الإنسان الذي يأمن من عذاب الله ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ﴾، انظر. جمعوا بين الخوف والرجاء.

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ﴾ يعني: في الدنيا، والله ﷻ يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، فالدعاء هو أعظم أنواع العبادة؛ ولذلك لا يجوز أن يدعى غير الله، ولا يستغاث بغير الله من الأموات والقبور والأضرحة وغيرها، وإنما الدعاء لله ﷻ.

﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [غافر: ١٤]، ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ﴿١٨﴾﴾ [الجن: ١٨]، ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، سماهم كافرين -والعياذ بالله-، الذين يدعون غير الله كفار.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ ثناء على الله ﷻ بأسمائه وصفاته، فمن بره أنه أدخلنا الجنة، ومن رحمته أنه أدخلنا الجنة، فهذا دليل على أن الجنة لا تنال بالعمل، وإنما تنال برحمة الله وفضله -سبحانه-.

فدل على أنه لابد من العمل الصالح، فالذي يرجو رحمة الله ﷻ يعمل

صالحاً، ولا يعتمد على الرجاء فقط؛ فإن هذا يسمى الرجاء المذموم، الرجاء الذي ليس معه عمل، ولا ينفع صاحبه، وهو تمنٍ من التمنيات، والخوف الذي معه قنوط من رحمة الله هذا أيضًا ضرر على صاحبه، فالمسلم يجمع بين الخوف والرجاء.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾، فمن أسمائه -سبحانه- البر، وهو كثير البر، وكثير الخير سبحانه وتعالى، الرحيم المبالغ في الرحمة، والرحمة من صفاته سبحانه وتعالى.

وصلي الله على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه.

الدرس الخامس عشر

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ
رَيْبَ ٱلْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ
قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟
صَٰدِقِينَ (٣٤) أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ
بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ
فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن
مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ
ٱلْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣) وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ (٤٤) فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لَا
يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ (٤٧) وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ ٱلَّيْلِ
فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ (٤٩)﴾ [الطور: ٢٩ - ٤٩].

لما ذكر الله تعالى في الآيات السابقة ما يكون في يوم القيامة من العذاب الواقع الذي ليس له دافع.

ذكر ما يكون فيه المتقون من الجنات والنعيم، والمقام الكريم، والبهجة،

والسرور بسبب ما قدموا في هذه الدنيا من الأعمال الصالحة، وأنهم يتذاكرون هذا في مجالسهم في الجنة، يتذاكرون ما كانوا عليه في الدنيا من الخوف من الله، والعمل الذي يقدمونه يرجون السلامة في هذا اليوم.

لما ذكر ذلك كله، قال لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الطور: ٢٩]، أي: امض في طريقك في الدعوة إلى الله، ولا تلتفت لأقوالهم فيك واتهاماتهم لك ليصدوا الناس عن دعوتك، فإن هذا كيد لا يجديهم شيئًا، ولن يدفع الحق، ﴿فَذَكِّرْ﴾ الناس جميعًا: المؤمنين والكفار، والعربي والأعجمي، والجن والإنس؛ لأن رسالته ﷺ عامة، ولهذا لم يذكر المذكر، لم يقل: ذكر العرب، ذكر الإنس. بل عمم، فقال: فذكر؛ لأن تذكيره ﷺ عام، وأيضًا تذكيره للجيل الحاضر في وقته والأجيال الآتية من بعده إلى أن تقوم الساعة.

ثم نفى الله عن نبيه ﷺ اتهامات المغرضين، فقال: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي: بمنه عليك، وإحسانه إليك، وإرساله لك، ما أنت بهذه النعم بكاهن ولا مجنون. والكاهن هو الذي يخبر عن الغيب بواسطة رئي من الشياطين يسترق السمع، ثم يخبر به الكهان[1]، يخبرهم بما سمع من حديث الملائكة قبل أن يدركه الشهاب، فيلقي ما سمع إليهم، ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٣]، هؤلاء هم الكهان، والرسول ﷺ ليس بكاهن فيما يخبر

(١) انظر: النبوات (١/ ٤٩٦، ٢/ ٨٣٠، ١٠٣٣، ١٠٤٤) لشيخ الإسلام ابن تيمية، ومعالم السنن (٤/ ٢٢٨)، ولسان العرب (١٣/ ٣٦٣).

به، والرسول يتلقى عن جبريل ولا يتلقى عن الكهان.

كما أنه لما كان السحر متفشيًا في عصر فرعون ظنوا أن موسى عليه السلام ساحر، ولهذا قال: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ﴾؛ لأن الذي ينزل عليك من ربك هو جبريل عليه السلام من عند الله عز وجل، والشياطين لا تقرب الوحي، ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠ - ٢١٢]، فالذي يأتي محمدًا صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء إنما هو وحي من الله بواسطة، الروح الأمين، وهو جبريل عليه السلام، شديد القوى، فلا تقربه الشياطين.

﴿وَلَا مَجۡنُونٍ﴾ والمجنون هو: زائل العقل بسبب مس من الجن؛ لأنهم يقولون: إن محمدًا مجنون، والبعض يقول: إنه شاعر، اختلفت أقوالهم فيه، مما يدل على تخرصهم، وأنهم ليسوا على شيء.

وبعضهم يقول: إنه شاعر، وأن القرآن هذا شعر، لأن القرآن فصيح وبليغ، وكلامه يأخذ الألباب، فشبهوه بالشعر؛ لأن الشعر له مكانة عندهم في البلاغة والفصاحة والتأثير على السامع، فالنبي صلى الله عليه وسلم ليس بشاعر، والقرآن ليس بشعر، وإنما هو كلام الله عز وجل، ليس كلام شاعر، بل هو كلام الله؛ لأن القرآن حق، كله حق، وكلام الشعراء أكثره كذب ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٦].

﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ﴾ ننتظر ﴿رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ ننتظر به الموت، يموت ونستريح منه، اصبروا عليه، أن يموت ونستريح منه، لكن هل إذا مات تموت رسالته هل

يموت القرآن والسنة وما جاء به ﷺ؟ أبدًا، رسالته باقية وممتدة إلى أن تقوم الساعة، وإذا مات ﷺ سيخلفه أصحابه والمؤمنون من بعده، فيقومون بهذا الدين رغم أنوف الكفرة والملحدين، وقد حصل هذا -ولله الحمد-، مات الرسول ﷺ، ولكن الرسالة حية وباقية لا تموت إلى آخر الدهر؛ لأن الله قد تكفل بحفظها، فلا تموت بموت من جاء بها مثلما تموت الأفكار والمذاهب لأنها باطل، فتموت مع أصحابها، أما هذا فهو حق، والحق لا يموت، بل يبقى، لحياته حتى نستريح منه، ويظنون أنه إذا مات تخمد دعوته وما جاء به.

فخاب ظنهم، وبطل سعيهم في أنه إذا مات، فإنها ستنقطع رسالته؛ كما تنقطع الأفكار والمذاهب البشرية، بل إنهم قالوا: إنه رجل أبتر، ليس له ذرية، وإذا مات سينقطع ذكره ويُنسى، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر: ٣]، فالأبتر هو صاحب الباطل، فهو الذي يبتره الله ويقطعه، ويقطع ذكره، أما رسول الله، فإنه ليس أبتر -كما يقولون-، وإن لم يكن له ذرية، فما جاء به من الشريعة وما جاء به من الدعوة فهو متصل إلى أن تقوم الساعة، فهذا من آيات الله ومن معجزات هذا الرسول ﷺ. وذكر الرسول باق في القرآن والسنة وفي الآذان والإقامة والخطب وفي التشهد في الصلاة قال تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: ٤].

وقال مهددًا لهم: ﴿قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي﴾ أي انتظروا ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ﴾، أنتم تنتظرون موتي وانقطاع رسالتي، وأنا أنتظر ما يحل بكم من العقوبة والنكال، وأينا الذي ينقطع ذكره بموته؟ أنا أو أنتم؟

فالإسلام يبقى، ويستمر، ويدوم، ودعوة الكفار تنقطع، وتذهب، وتبطل

ويموتون، وينقطع ذكرهم، بل يتبعهم الذم كلما ذكروا، وأما الرسول ﷺ، فيتبعه الثناء والمدح والصلاة والسلام عليه كلما ذُكر ﷺ.

ثم قال الله ﷻ: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾ أي عقولهم، فالعقول السليمة تعرف هذا الرسول وما جاء به لأن الرسول ﷺ جاء بما يوافق العقول السليمة والفطر المستقيمة، فالعقول السليمة والفطر تشهد أن ما جاء به هو الحق، وأنه ليس من عنده، وليس شعرًا ولا كهانة ولا جنونًا، وإنما هو وحي من الله سبحانه وتعالى.

فدل على أنهم ليس لهم عقول، أو أن لهم عقولاً، لكنهم يريدون الكيد لمحمد ﷺ، فيقولون فيه ما يخالف العقول، وهم يعرفون أنه رسول الله، قال سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، فهم يقولون هذا جحودًا وعنادًا، وإلا فهم يعلمون وهم عقلاء وعرب فصحاء، يعلمون أن القرآن ليس شعرًا ولا سحرًا ولا كهانة، لأنهم يعرفون الكهانة، ويعرفون السحر، ويعرفون الشعر والقرآن ما يشابه هذه الأشياء كلها.

﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أم بمعنى (بل) وهذا هو الصحيح أنهم قوم طاغون، والطغيان مجاوزة الحد، فهم متجاوزون للحد، متجاوزون لما تقوله العقول السليمة.

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ أي أن القرآن قاله محمد من عنده فرد الله عليهم بقوله: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ فما دام إنه قول بشر، وأنتم بشر، هو عربي، وأنتم عرب، هاتوا مثله. ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ أن محمدًا ﷺ هو

الذي قال هذا القرآن، وتكلم به، وليس هو كلام الله.و هذا تعجيز لهم، وهم أعدى ما يكونون للرسول وللقرآن، ومع هذا ما جاؤوا بشيء يشابه القرآن، فدل على أنه كلام الله، لا كلام البشر، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦] أي لعاجله الله بالعقوبة؛ لأن الذي يكذب على الله، يعاجله الله بالعقوبة، ولا يمهله، فلو أن الرسول ﷺ - وحاشاه - تقول على الله ﷻ، لعاجله الله بالهلاك والعقوبة، ولم يمهله، فدل على أنهم غير صادقين؛ لأن الله تحداهم، ولم يستطيعوا أن يأتوا بأقصر سورة من القرآن، لم يأتوا فدل على أن القرآن ليس من كلام الرسول، وإنما هو كلام الله ﷻ، الذي لا يشبهه شيء من كلام البشر.

ثم قال ﷻ مذكرًا لهم بالتوحيد الذي أنكروه على الرسول، وهم يعبدون الأصنام والأشجار والأحجار، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ هل أنهم وُجدوا على هذه الأرض من غير خالق، هذا لا يقوله عاقل، أنهم وُجدوا من غير خالق، فكل مُحْدَثٍ لابد له من مُحْدِث، وكل مخلوق لابد له من خالق، وكل عمل لابد له من عامل، فلا يوجد الأثر بدون مؤثر أبدًا، هذا لا يقوله عاقل، ومن غير شيء -أي: من غير خالق-، أبدًا.

﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ إذا قالوا: إنهم وجدوا بخالق، إذن من هو الذي خلقهم؟ هل هم خلقوا أنفسهم؟ ما يمكن أن الإنسان يخلق نفسه، أبدًا، وإنما كل موجود لابد له من موجد غيره، فلا شيء في هذا الكون يوجد نفسه، كيف يوجد نفسه وهو عدم، هل العدم يُوجد شيئًا؟ فكل موجود لابد له من موجد.

﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، إذا كانوا لم يخلقوا أنفسهم، فهل هم خلقوا السماوات والأرض؟، ما ادعى أحد من الطواغيت والجبابرة والمشركين أنه خلق شجرة من الأشجار، أو نهرًا من الأنهار، أو أنه أوجد ذرة في هذا الكون، تحداهم الله أن يخلقوا ذبابًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: ٧٣]، لو تجمع صناع العالم والأطباء والفلاسفة والمفكرون على أن يخلقوا ذبابًا لا يستطيعون ذلك مع إنهم يصنعون الطائرات والنفاثات والصواريخ والمعدات، لكن الذباب أصغر شيء، الذي يصنع الطائرة يعجز أن يخلق ذبابًا؛ لأن هذا خلق الله ﷻ، لا أحد يشاركه فيه أبدًا، ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ [الرعد: ١٦]، فإذا كان الله هو الخالق وحده، فهو المستحق للعبادة.

قال تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ [الأعراف: ١٩١]، فالذي لا يستطيع أن يخلق لا يستحق أن يُعبد، فجميع الآلهة التي يعبدونها باطلة؛ لأنها لا تخلق شيئًا، بل هي لم تخلق نفسها، ولما جاء جبير بن مطعم إلى المدينة وكان كافرًا؛ بعد غزوة بدر يريد فكاك الأسرى الذين أسرهم المسلمون من أهل مكة، فسمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآيات في صلاة المغرب ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥ - ٣٦]، قال: فكاد قلبي أن يطير، مع أنه كافر في ذاك

الوقت، لما سمع هذه الآيات المحيّرة الملزمة المفحمة، تحير، وكاد قلبه أن يطير، ثم منّ الله عليه بعد ذلك بالإسلام، فأسلم وحسن إسلامه رضي الله عنه.

لكن الشاهد أنه لما سمع هذه الآيات كاد قلبه أن يطير من التعجب من بلاغتها وفصاحتها وإفحامها للخصوم؛ لأنه عربي فصيح، ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأحقاف: ٤]، هل واحد منهم ادعى أنه خلق جبلًا من الجبال، أو شجرة من الأشجار، أو خلق نهرًا أو بحرًا، لا أحد استطاع أن يدعي هذا، فدل على انفراد الله بالخلق، وما دام أنه هو المنفرد بالخلق، فهو المنفرد بالألوهية والعبادة، فهذا فيه إبطال الشرك من أصله.

ثم قال عز وجل: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ خزائن ربك ما عنده من الخيرات والأرزاق، فهم حسدوك على الرسالة والنبوة التي أعطاك الله إياها هل هم يملكون خزائن الله، ويريدون منع الإعطاء من الله عز وجل، يحجرون على الله عز وجل، يحجرون عليه سبحانه وتعالى في عطائه لخلقه؟ ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ ليمنعوا الرسالة، ويعطوها من يشاؤون، خزائن الله بيده سبحانه وتعالى، لا أحد يملكها سواه أبدًا.

قال سبحانه عن المنافقين: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾ [المنافقون: ٧] كلها بيده سبحانه وتعالى، وهو الذي يعطي، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع سبحانه وتعالى.

﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ الذين يسيطرون على الكون، ويدبرون فيه، أم الله عز وجل

هو المسيطر، وهو المتصرف في الكون، وهو المدبر له وحده؟ إذن لماذا يعترضون على دعوة الرسول ﷺ؟ ما السبب الذي حملهم على ذلك؟

﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ هل يأتيهم الوحي؟ هل يصعدون إلى السماء بسلم، ويسمعون كلام الله أو كلام الملائكة؟ ليسوا كذلك، هم عاجزون، وإن كان لهم سلم ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي إن قالوا: نعم، لنا سلم، ونحن نصعد إلى السماء، ونسمع الكلام، ونأتي بأخبار الغيب فإنه يطلب منهم أن يأتوا بالخبر الصحيح.

﴿بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾، أي: بحجة بينه، فدل على أنهم ليس لهم سلم يستمعون فيه، وأن الوحي من شأن الله ﷻ، وهو الذي يرسل بالوحي إلى من يشاء من عباده، هو الذي يرسل بالأمر إلى من يشاء من عباده بواسطة الملائكة.

فدل هذا على عجزهم وانقطاعهم، وأن ما جاء به رسول الله ﷺ هو الحق من عند الله ﷻ، ثم قال: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾، هذا إنكار عليهم؛ لأنهم جعلوا لله البنات، يقولون: الملائكة بنات الله، نسبوا له البنات، مع أنهم هم يكرهون البنات، فهم ينسبون إلى الله ما ينزهون أنفسهم عنه والله ﷻ ليس له ولد، لا بنات ولا أبناء، تعالى الله عن ذلك ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾﴾ [الإخلاص: ٣].

لكن هذا من باب الرد عليهم وإبطال قولهم، وأنهم لا يعظمون الله، بحيث إنهم ينسبون إليه ما ينزهون أنفسهم عنه، وهو البنات ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾.

الله ﷻ يقول: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ۝١٥٣ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝١٥٤﴾ [الصافات: ١٥٣ - ١٥٤]، ويقول ﷻ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ۝٦٢﴾ [النحل: ٦٢]، فيجعلون الأولاد لهم، والبنات لله ﷻ، هذا دليل على إغراقهم -والعياذ بالله- في الضلال، وأنهم لا ينزهون الله ﷻ. عما ينزهون عنه أنفسهم.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾، هل الذي حملهم على معارضتك، وعلى تكذيبك لأنك تطلب منهم مالًا لتعليمك إياهم ودعوتك إياهم، ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ محملون من الغرامات التي يدفعونها لك، فالرسول ﷺ يدعو إلى الله محتسبًا، ولا يريد منهم أجراً، ولا يريد منهم طمعًا دنيويًا أبدًا، إذن ما الذي حملهم على تكذيب الرسول ﷺ، كل الشبهات التي يمكن أن يتعلقوا بها كلها بطلت.

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ فالغيب لله ﷻ، ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٦٥﴾ [النمل: ٦٥]، فالغيب لله ﷻ، لا يعلمه إلا هو، ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ يكتبون منه ما يريدون.

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ (أم) بمعنى بل - فهذا هو الواقع أنهم يريدون الكيد والمكر والبهرجة؛ للرسول ﷺ ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ فالله يكيدهم - سبحانه-؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فمن كاد الرسول و المؤمنين، أراد بهم كيدًا ومكرًا، فإن الله يكيده، ويمكر به ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠] جزاءً لهم ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ فلينتظروا ما يحل بهم من الله ﷻ.

ثم قال ﷻ: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ وهذا باطل فليس هناك إله حقًا إلا الله ﷻ

وحده ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج: ٦٢]، فليس لهم إله غير الله ﷻ، إذن أين يذهبون؟ وأين يفرون؟ الله هو إلههم وإله جميع الخلق، كيف يتكبرون على الله وعلى رسوله، ويعاندون رسوله ﷺ، وهم يعلمون أنه ليس لهم إله إلا الله ﷻ.

ثم قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أي يتنزه عن شركهم وعن أقوالهم.

ثم قال ﷻ مبينًا أنهم لا يصدقون بشيء ولو رأوه بأعينهم فقال: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا﴾، يعني: لو رأوا السماوات تتقطع، وتتنزل عليهم، ما اعترفوا بذلك ولا خافوا، بل قالوا هذا: ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ سحاب يمطر، وفيه خير لنا، ولا يقولون: هذا عذاب؛ لأنهم لا يخافون الله ﷻ، كما قال عن عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ [الأحقاف: ٢٤] رأوا الريح العقيم عارضًا مستقبل أوديتهم ظلمة -والعياذ بالله- ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ سحاب؛ لأنهم كانوا مجدبين، وينتظرون المطر، فلما رأوا الريح مقبلة، ما يتعظون، ولا خافوا، مع أنهم كذبوا رسول الله هودًا عليه السلام ما خافوا، ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ لا يزالون في غيهم، ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

الحاصل أنهم لا يتعظون، ولو رأوا العذاب بأعينهم فإنهم يفسرونه بغير الحقيقة؛ لأن قلوبهم متجمدة، وقلوبهم قاسية، لا تلين، ولو رأت العذاب، وهذا واقع في وقتنا هذا، إذا حصلت النكبات والمثلات، فسروها بغير

تفسيرها، ولا يتعظون بها، ويقولون هذه ظواهر كونية ومناخية فلا يخافون من الله ﷻ أبدًا، إنما يتعظ بها أهل الإيمان، ويخافون الله ﷻ، أما هؤلاء قال الله ﷻ لنبيه: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ اتركهم، وامض في دعوتك، ولا تلتفت إليهم فقد بلغتهم، ولا يحزنك أمرهم أبدًا، ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ أي حتى يحل بهم الهلاك، ويأتيهم اليوم الذي يصعقون فيه، وهو يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨]، وفي الآية الأخرى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل: ٨٧ - ٨٨].

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ وفي هذا اليوم لا ينجيهم شيء: لا مال، ولا أهل، ولا قبيلة، ولا ملك، ولا سلاح، ولا عدة، ولا طائرات، ولا مدرعات ولا ينجي من هذا اليوم شيء.

ثم قال: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ يعني: دون ما يحصل يوم القيامة لهم عذاب في الدنيا، عذاب قريب في الدنيا، قيل: هو ما أصابهم يوم بدر وما بعدها من انتصارات الرسول ﷺ عليهم وقتلهم، وقيل: المراد به عذاب القبر؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة: ٢١]، ولا مانع المراد هذا كله(١).

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٣٦)، وزاد المسير (٨/ ٥٩)، والقرطبي (١٧/ ٧٨)، وابن كثير (٤/ ٢٤٦).

ومعنى ظلموا أنفسهم أي بالكفر والشرك، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، لا يعلمون العلم الذي ينفعهم وإنما ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧] يعلمون الاختراعات واستخراج الكنوز من بطن الأرض من المعادن والصناعات، يعلمون، هذا كله من أمور الدنيا، وهو فان ومنقطع، وإنما العلم الذي ينفع هو علم الآخرة وعلم الشرع، هذا هو العلم الذي ينفع وينجي في يوم القيامة إذا عمل به ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ثم قال ﷻ مسليًا لنبيه ﷺ، ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ اصبر واستمر على الدعوة ولا تلن، ولا تخف منهم، لا تخف منهم ومن كيدهم وتهريجهم وإشاعاتهم بل امض في سبيلك واصبر، وفي الآية الأخرى ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، بمرأى منا، نحن نراك، ونحن معك؛ كما قال لموسى وهارون ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٦]، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ [الشعراء: ٢١٧ - ٢١٩].

فكلهم مع مكرهم وكيدهم وشرهم ما استطاعوا أن ينالوا الرسول ﷺ بشيء، وهو بشر واحد، وهم أمم، ما استطاعوا؛ لأن الله يحفظه منهم ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، استعن على ما أنت فيه من الضيق والشدة بشيئين: استعن عليه بالصبر وبذكر الله، وهذا إرشاد لكل مسلم أنه إذا وقع في شدة أو في كيد من عدوه، فإنه يصبر ويشتغل بذكر الله ﷻ.

﴿حِينَ تَقُومُ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

١- قيل: المراد حين تقوم في الصلاة، وذلك بالاستفتاح في أول الصلاة

تقول: «**سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، تَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ**»[١]، فريضة أو نافلة، فتستفتحها بذكر الله.

٢- وقيل: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ من النوم، وتستيقظ من النوم، فينبغي للمسلم إذا استيقظ من النوم أن يذكر الله ﷻ، سواء أراد القيام للصلاة، أو أراد أنه ينقلب إلى جنب آخر، فإنه يذكر الله عندما يستيقظ من النوم.

٣- وقيل: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ يعني: من المجلس، فإذا كنت في مجلس، وأردت أن تقوم، فإنك تأتي بكفارة المجلس، فتقول: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك[٢].

والأقوال الثلاثة كلها -والله- أعلم مرادة: حين تقوم في الصلاة، حين تقوم من النوم، حين تقوم من المجلس، سبح بحمد ربك في هذه المواطن كلها[٣].

ثم قال ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ وهذا المراد به صلاة الليل، فالذي يعينك على مشاق الحياة وعلى مكابدة الأعداء قيام الليل، ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾ ما قال: سبح الليل كله، بل قال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾ يعني: بعض الليل، صل في الليل أو في أوله أو في وسطه أوفي آخره، والأفضل في آخر الليل.

---

(١) أخرجه مسلم (٣٩٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٥٧)، والطبراني في الدعاء (١٩١٥)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٣٥٣).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٣٨)، وزاد المسير (٨/ ٦٠)، والقرطبي (١٧/ ٧٨)، وابن كثير (٤/ ٢٤٦).

﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾، وهالسادس عشرو وقت الفجر، حينما تقرب النجوم من الغروب وذلك عند الفجر، قيل: والمراد راتبة الفجر[(١)] فجعل وقت النبي ﷺ ووقت كل مسلم مشغولًا بذكر الله ﷻ والتسبيح والصلاة، هكذا ينبغي للمسلم أن يكون على صلة بربه ﷻ، لا تنقطع صلته بالله، لاسيما في وقت الشدائد، فإنه يتصل بالله ﷻ؛ حتى ينصره الله، ويعينه الله ﷻ، ولا يكن من الذين قال الله فيهم ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ﴾ [الطور: ٤٤]، فلا يتعظون، ولا يذكرون الله، ولا يرجعون إلى الله ﷻ.

هذا ونسأل الله ﷻ أن يوفقنا وإياكم إلى صالح القول والعمل.

وبهذا انتهى ما استطعنا من الكلام على هذه السورة العظيمة، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٣٩)، وزاد المسير (٨/ ٦٠)، والقرطبي (١٧/ ٨٠)، وابن كثير (٤/ ٢٤٧).

الدرس السادس عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ
إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ
دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ
الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ
۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ
رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝١٨﴾ [النجم: ١ - ١٨].

ابتدأ الله هذه السورة بالقسم بالنجم، وقد سبق بيان أن الله ﷻ يقسم بما شاء من مخلوقاته، ولا يقسم إلا بشيء له شأن عظيم، وفيه عبرة وآية من آيات الله، والمراد بالنجم قيل: المراد الثريا، ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ إذا سقط للغروب وقت الفجر، وقيل: بل المراد عموم النجوم عندما تسقط للغروب في وقت الفجر؛ لما في ذلك من العبرة العظيمة، والآية الدالة على قدرة الله ﷻ؛ حيث يصرفها ﷻ، وينظمها، ولايتخلف شيء منها، أو يختل شيء منها، أو يتغير نظامه.

فالله ﷻ نظم هذه الكواكب تجري في أفلاكها بانتظام دقيق، وتبدو من

المشرق، وتغرب من المغرب دائمًا وأبدًا ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣] فالله أقسم بهذه الآية العظيمة للدلالة على وحدانيته ﷻ، وانفراده بالخلق، واستحقاقه للعبادة.

وقيل: المراد ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ①﴾: الشهب التي ترمى بها الشياطين إذا حاولوا استراق السمع، فإنهم يرمون بالشهب، وهذه الشهب شظايا من النجوم، تلاحق الشيطان الذي يريد استراق السمع.

والمقسم عليه ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ②﴾، صاحبكم هو محمد ﷺ، والخطاب لقريش، وللعرب عمومًا، وسماه صاحبهم؛ لأنهم يعرفونه، ونشأ بينهم، فعرفوا أمانته، وعرفوا أخلاقه ﷺ، فهم لا ينكرونه، ﴿مَا ضَلَّ﴾ عن الحق والضلال هو: القول والعمل بلا علم، والغواية هي المخالفة عن علم، فالغاوي هو الذي يعصي الله على علم وعلى بصيرة، ويخالف لا عن جهل.

وقد نزه الله نبيه محمدًا ﷺ عن هاتين الصفتين (الضلالة، والغواية)، فهو لا يقول بلا علم، ولا يترك العمل بالعلم كما عليه الغاوون، بل هو يبلغ ما أمر به، ويعمل به في نفسه ﷺ.

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ③﴾ لا يأمر وينهى، ويحلل ويحرم، ويخبر إلا عن الوحي، لا ينطق عن هواه وما تمليه عليه نفسه، وإنما هو وحي من الله ﷻ، ففي هذا دليل على حجية السنة النبوية؛ لأنها وحي من الله ﷻ، نطق بها النبي ﷺ عن وحي من الله، لا أنها من عنده، وإنما يبلغ ما جاءه عن ربه من غير زيادة ولا نقصان، يبلغ القرآن كما تلقاه عن جبريل عن الله ﷻ، ويبلغ

السنة كما نزلت عليه من الله ﷻ، فالقرآن والسنة وحي من الله، وحجة من الله على عباده، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾، إن بمعنى ما نافية، ما هو إلا وحي، نفى عنه هذه الصفات الثلاث: الضلال والغواية والنطق عن الهوى.

وكون الله ﷻ أقره، وأعانه، وكف عنه أذى الأعداء هذا دليل على أنه يبلغ عن الله ﷻ، فهذه شهادة من الله لهذا النبي أنه ما ضل، وأنه ما غوى، وأنه لا ينطق عن الهوى، شهادات عظيمة من رب العالمين لهذا النبي ﷺ[1].

ثم ذكر المعلم له، وهو جبريل ؑ، فجبريل ؑ هو الذي علمه بأمر الله، فهو الواسطة بينه وبين الله، وفي هذا نفي لأن يكون تلقى هذا عن الشياطين، أو من أهل الكتاب، وإنما يتلقاه عن جبريل ؑ -الروح الأمين-، ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾، هو: جبريل ؑ، وصفه الله بأنه شديد القوى أعطاه الله قوة شديدة، فلا تطيقه الشياطين، ولا تقربه ﷺ.

ثم وصف جبريل بصفة ثانية، فقال: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾، أي: هيئة حسنة، جبريل ؑ له هيئة حسنة، فهو يجمع بين: حسن المنظر، وقوة الشخصية، فهو قوي، بهي المنظر ﷺ[2]، ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ أي: جبريل ؑ، استوى يعني: ارتفع في الأفق الأعلى، فوق الأرض.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٤٢)، وزاد المسير (٨/ ٦٣)، والقرطبي (١٧/ ٨٤)، وابن كثير (٤/ ٢٤٧).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٤٣)، وزاد المسير (٨/ ٦٤)، والقرطبي (١٧/ ٨٥)، وابن كثير (٤/ ٢٤٨).

ورآه النبي ﷺ في الأفق قد سد ما بين الخافقين على صورته الملكية[(١)]، رآه ﷺ وهو في بطحاء مكة، لما رفع رأسه لما سمعه يقول: يا محمد. كما قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣﴾، هذه الرؤية الأولى ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]، هذه الرؤية الأولى، فقد رآه مرتين على خلقته الملكية، وأما في سائر اللقاءات، فكان جبريل يأتي إلى النبي ﷺ في صورة إنسان بحضرة أصحابه، وأصحابه ينظرون إليه، ويظنون أنه من الناس، فيكلم النبي ﷺ؛ كما في حديث عمر بن الخطاب ﷺ لما دخل عليهم رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منهم أحد، فجلس إلى النبي ﷺ، وهم ينظرون إليه، وسأل النبي ﷺ أسئلة يسمعونها، والرسول ﷺ يجيبه على كل سؤال إلا واحدًا من الأسئلة، وهو سؤاله عن قيام الساعة، فقال ﷺ: «**مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**»[(٢)]، يعني: أنا وأنت سواء، لا نعلم متى تقوم الساعة، هذا لا يعلمه إلا الله ﷻ.

هذه غالب أحواله أنه يأتي إلى النبي ﷺ في صورة بشر، لكيلا ينفر منه الصحابة، ولا يستوحشون إلا في هاتين المرتين: المرة الأولى رآه في الأفق المبين، وهو ﷺ في الأرض، في بطحاء مكة وجبريل في الأفق الأعلى، فكلمه بما شاء الله ﷻ[(٣)]. والمرة الثانية في السماء حين عرج به إليها.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (١٧٧) عَنْ عَائِشَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ، لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ، رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ**».

(٢) أخرجه مسلم (٨).

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧)، واللفظ للبخاري، أنه ﷺ «**رَأَى جِبْرِيلَ** ﵇ **فِي صُورَتِهِ مَرَّتَيْنِ**».

﴿ثُمَّ دَنَا﴾ جبريل عليه السلام دنا إلى الرسول ﷺ، ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾، أي: زاد في القرب من محمد ﷺ، حتى كان منه قاب قوسين، تثنية قوس، وهو ما يُرمى به، وكان هو السلاح المعروف عند العرب، ومعنى ﴿قَابَ﴾، يعني: قدر قوسين والقوس الواحد بمقدار ذراع تقريبًا، يعني: كان جبريل من النبي مسافة قوسين أو أدنى أو أقل من ذلك، هذا يعني أن جبريل عليه السلام قرب من محمد ﷺ[(١)].

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾، اختلف المفسرون من الذي أوحى؟ فأكثرهم على أن الذي أوحى هو جبريل، أوحى إلى محمد ﷺ، ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ أي: عبد الله، وهو الرسول ﷺ، فأوحى جبريل عليه السلام إلى عبدالله، وهو محمد ﷺ، وذلك بأمر الله عز وجل.

وقيل: الذي أوحى هو الله، بواسطة جبريل، والمعنيان متقاربان، فالوحي من الله عز وجل، والواسطة جبريل عليه السلام.

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ الفؤاد: القلب، فالقلب وافق رؤية البصر التي رآها النبي ﷺ، توافق القلب والرؤية، ولم يختلفا فيما حصل، وهذا يدل على تأكد هذا الواقع، و(ما) اسم موصول، أي: الذي رأى، وهو مفعول لكذب، ما كذب الفؤاد الذي رآه، فؤاد محمد ﷺ الذي رآه بعينه ﷺ، فلم يكن هذا توهمًا عرض لعينه، ولكنه حقيقة رآه بعينه، وتيقنه قلبه ﷺ[(٢)].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٤٥)، وزاد المسير (٨/ ٦٦)، والقرطبي (١٧/ ٨٩)، وابن كثير (٤/ ٢٥٠).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٤٧)، وزاد المسير (٨/ ٦٨)، والقرطبي (١٧/ ٩٢)، وابن كثير (٤/ ٢٥٠).

ثم خاطب الكفار، فقال: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾، أي: تجادلون محمدًا ﷺ حينما أتاكم بالرسالة تجادلونه وتكذبونه، بعدما سمعتم من توثيق الله ﷻ لما دار بين جبريل عليه السلام ومحمد ﷺ، هل يبقى لأحد أن يجادل في هذا الأمر، إلا من له هوى، ولا يريد الحقيقة؟! فهو متيقن مما رأى، وأنتم تجادلونه عن هوى، هل يستوي هذا وهذا؟ الذي يرى الشيء بعينه، ويعتقده بقلبه، فيجادله الجاهل الذي لا يرى شيئًا، ولم يحضر شيئًا، وإنما يعتمد على وهمه وعلى تكذيبه(١).

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾، هذه المرة الثانية التي رأى محمد ﷺ جبريل عليه السلام فيها على خلقته الملكية ﴿وَلَقَدْ﴾ اللام لام القسم أي والله، لقد رأى محمد ﷺ جبريل على صورته الملكية ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ أي مرة ثانية بعد التي ذكرها الله في أول السورة. أنه رأى جبريل في الأفق وهو في الأرض والمرة الثانية رءاه ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ حينما عرج بالنبي ﷺ ومن هناك عرج به إلى السماء وجاوز ﷺ السبع الطباق، يستفتح له جبريل كل سماء، فيفتح له ﷺ إلى أن انتهى إلى هذا المكان فوق السماوات ووصل ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾، والسدرة شجرة معروفة بهذا الاسم، لكنها ليست كالسدر الذي عندنا، وإنما هي سدرة لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، سميت سدرة المنتهى؛ لأنه ينتهي إليها ما يعرج من الأرض، وينتهي إليها ما ينزل من الله سبحانه وتعالى، فينتهي إليها ما نزل من الله، وينتهي إليها ما صعد من الأرض، فسميت سدرة المنتهى(٢).

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٥٠)، وزاد المسير (٨/ ٦٨)، والقرطبي (١٧/ ٩٣)، وابن كثير (٤/ ٢٥٠).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٥٢)، وزاد المسير (٨/ ٦٩)، والقرطبي (١٧/ ٩٤).

فالنبي ﷺ رأى جبريل عليه السلام عند هذه السدرة على صورته الملكية الهائلة العظيمة، ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ﴾، ﴿ٱلسِّدْرَةَ﴾ الألف واللام للعهد، أي: السدرة المذكورة، التي هي سدرة المنتهى، يغشى هذه السدرة ما يغشى من الجمال والجلال، وما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى من آيات الله العظيمة، وتغشاها الملائكة الكرام بأعداد كثيرة؛ ولذلك لم يبين سبحانه وتعالى الذي يغشاها، وهذا مجمل؛ لأنه لا يعلم تفاصيله إلا الله سبحانه وتعالى[1].

هكذا انتهى محمد ﷺ في معراجه إلى سدرة المنتهى فوق السماوات السبع، وهذه معجزة من معجزات هذا الرسول ﷺ، وخاصية له ﷺ.

هذه جنة المأوى والجنات كثيرة، والذي عند سدرة المنتهى هو جنة المأوى وقيل: إنها هي الجنة التي أدخلها آدم عليه السلام.

ثم قال عز وجل: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾، ما زاغ بصر محمد ﷺ في هذا الموقف العظيم الهائل، يعني: ما التفت يمنة ولا يسرة؛ من أدبه مع الله عز وجل، ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ يعني: ما تجاوز ما حدد له تأدبًا مع الله عز وجل، لم يلتفت، ولم ينظر، ولم يمد بصره عما حدده الله له.

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ أي: رأى في هذه الليلة من آيات ربه الكبرى

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٥٥)، وزاد المسير (٨/ ٧٠)، والقرطبي (١٧/ ٩٦)، وابن كثير (٤/ ٢٥٣).

كما أخرج مسلم في صحيحه (١٧٣) عَنْ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ: «لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، انْتُهِيَ بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، إِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ فَيُقْبَضُ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُهْبَطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا فَيُقْبَضُ مِنْهَا»، قَالَ: ﴿إِذْ يَغْشَى﴾ السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى، قَالَ: «فَرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ».

في السماوات، وعند سدرة المنتهى، رأى الملائكة، وهذا كما في قوله ﷻ ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: ١]، فالله عرج به ليريه من آياته، وأراه ﷻ ما أراد الله أن يريه إياه إكرامًا له ﷺ.

وفي هذه الليلة كلمه الله ﷻ، وفرض عليه الصلوات الخمس؛ خمسين صلاة في اليوم والليلة، فلما أخبر موسى عليه السلام بذلك، قال له: إن أمتك لا تطيق ذلك، ولقد بلوت بني إسرائيل، فرأيت منهم العجز والكسل عنها، فاسأل ربك التخفيف، فما زال محمد ﷺ يسأل ربه التخفيف، حتى استقرت على خمس صلوات في اليوم والليلة[1]، وقال الله ﷻ: «**قَدْ أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي، وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي، وَأَجْزِي الحَسَنَةَ عَشْرًا**»[2]؛ لأن الحسنة

---

(١) كما في الحديث الطويل الذي أخرجه البخاري (٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٢)، واللفظ له، وفيه: «فَأَوْحَى اللهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى، فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَنَزَلْتُ إِلَى مُوسَى ﷺ، فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلَاةً، قَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ، قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي، فَقُلْتُ: يَا رَبِّ، خَفِّفْ عَلَى أُمَّتِي، فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، فَقُلْتُ: حَطَّ عَنِّي خَمْسًا، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، قَالَ: فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَبَيْنَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ، فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً، قَالَ: فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى ﷺ، فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَقُلْتُ: قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ».

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٧).

بعشر أمثالها، فكل فريضة عن عشر فرائض، فإذا صلى المسلم الصلاة كما أمره الله، وأداها كما أمره الله، زاده الله ﷻ فضلًا من عنده عشر صلوات، فهي خمس صلوات في العمل، وهي خمسون صلاة في الميزان عند الله ﷻ.

فهذا يدل على فضل هذه الصلوات الخمس: من حيث مكانت فرضيتها، فوق السماء، وفرضت على النبي ﷺ بغير واسطة الملك، وإنما بين الرسول وبين الله ﷻ، هذا يدل على فضل هذه الصلاة العظيمة، التي يخف أمرها عند كثير من الناس، وربما يعتبرونها من العادات والتقاليد، ولا يعرفون قدرها، وهي عظيمة عند الله سبحانه وتعالى، وهي عمود الإسلام، وهي الركن الثاني من أركان الإسلام بعد الشهادتين، وهي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وفيها ذكر الله ﷻ، وذكر الله أكبر، فهي صلاة عظيمة، اعتنى بها العلماء ببيان فضائلها ومزاياها، حتى ألف أحدهم كتابًا سماه: تعظيم قدر الصلاة، وهو مطبوع ومتداول[(١)].

وذكر فيه فضائل هذه الصلوات، وقدرها عند الله سبحانه وتعالى، فهي عبادة عظيمة وهي أول ما يحاسب عنه العبد يوم القيامة من عمله، **«إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ العَبْدُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ صَلُحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ»**[(٢)]، هذا يدل على عظمها.

والحمد لله رب العالمين. وصلى الله وسلم عل نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) كتاب تعظيم قدر الصلاة من تأليف: محمد بن نصر المروزي، وهو مطبوع سنة ١٤٠٦هـ، من إصدارات مكتبة الدار، في مجلدين.

(٢) أخرجه النسائي (٤٦٥)، والترمذي (٤١٣) بلفظه، وأبو داود (٨٦٤) بلفظ قريب.

الدرس السابع عشر

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾
تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن
سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ
لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى
شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ
لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى
مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم
مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [النجم: ١٩ - ٣٠].

بعد أن بين الله ﷻ في مطلع هذه السورة العظيمة صدق رسوله ﷺ وثبوت رسالته، وبين قدره عند الله ومعراجه إليه فوق السماوات، وما تلقاه من ربه من الإكرام، وما رأى من آيات الله العظيمة في السماوات، رد على المشركين الذين يكذبون هذا الرسول ويتنقصونه، وينتصرون لآلهتهم الباطلة، التي جاء هذا الرسول بإنكارها والدعوة إلى تركها وبطلان عبادتها.

قال الله ﷻ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾، كان للعرب أصنام كثيرة يعبدونها في الجاهلية، فبعث الله نبيه محمدًا ﷺ لإنكار

عبادة هذه الأصنام، والدعوة إلى عبادة الله ﷻ؛ لأن الله خلق الخلق ليعبدوه لا ليعبدوا غيره، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فالعبادة لله ﷻ، هي حقه على عباده، ولا يجوز أن يعبد معه غيره.

فالله ﷻ ذكر هذه الأصنام الثلاثة: اللات والعزى ومناة؛ لأنها أكبر أصنام العرب، ولأنها هي القريبة من مكة ومهبط الوحي ومبعث الرسول ﷺ، فإذا بطلت عبادتها، فبطلان عبادة غيرها من باب أولى.

فقوله ﷻ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾، هذا السؤال سؤال إنكارٍ وتحدٍّ، أي: أخبروني أيها المشركون عن شأن هذه الأصنام، هل تنفع؟ هل تضر؟ هل تقدر على شيء؟ هل لها تصرف في الملك؟ هل تسمع؟ وهل تبصر؟ أخبروني عن شأنها، ولماذا اتخذتموها آلهة من دون الله؟ ما السبب الذي حملكم على ذلك؟

واللات بتخفيف التاء في الأصل صخرة بيضاء في الطائف منقوشة، بنوا عليها بنية، وجعلوا لها سدنة، فصارت صنمًا لثقيف ومن جاورهم من أهل الطائف[١]، وقُرِئَ: اللاتّ بتشديد التاء، اسم فاعل من لتّ يلتّ، وهو اسم رجل صالح كان يطعم الحُجَّاجَ، ويلتُّ لهم السويق، ويطعمهم، فلما مات بنوا على قبره بناءً، وجعلوا يعبدونه[٢]، وهذا من الغلو في الأولياء والصالحين.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٤٥٥).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٥٩).

فعلى قراءة التخفيف صخرة، وعلى قراءة التشديد اسم رجل من الصالحين، لما مات غلوا فيه، وعبدوه من دون الله[١]، والعزى صنم كبير لأهل مكة، وهو عبارة عن مجموعة أشجار عليها بناية وستور وسدنة، وكانت لقريش وخزاعة ومن جاورهم[٢]، ومناة صنم لأهل المدينة من الأوس والخزرج ومن جاورهم، تقع في واد المشلل قريبة من جبل قديد، كانوا يتخذونها ميقاتًا للإحرام، ويحرمون منها للحج والعمرة[٣].

قالوا: واشتقاق هذه الأسماء: اللات أخذوها من اسم الله، والعزى أخذوها من اسم العزيز، ومناة من اسم المنان أي المُعْطِي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى[٤].

فالله تحداهم أن يبينوا ما هو السبب الذي حملهم على عبادتها، هل هي تسمع وتبصر وتجيب الدعاء وتغيث الملهوف؟! لن يستطيعوا أن يقولوا: إنها تفعل شيئًا من ذلك.

ثم إنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما أنكر عليهم عبادتهم للأصنام، وأبطلها، وتحداهم، فلم يجيبوا عن شأنها، ذكر أيضًا نوعًا آخرمن كفرهم، وهو أنهم يجعلون البنات لله عَزَّ وَجَلَّ، فيقولون: الملائكة هي بنات الله، فينسبون الولد إلى الله، ويجعلون له ما يكرهون من الولد؛ لأنهم يكرهون البنات، فكيف

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٥٨)، والحجة في القراءات العشر (ص٣٦٦).

(٢) انظر: تفسير ابن جرير (٢٧/ ٣٧).

(٣) انظر: فتح الباري (٨/ ٦١٣).

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٥٨)، وزاد المسير (٨/ ٧١)، والقرطبي (١٧/ ٩٩)، وابن كثير (٤/ ٢٥٤).

ينسبونها لله، وهم يكرهونها، وينسبون إلى أنفسهم الذكور، ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾ [النحل: ٦٢]، فإذا كانوا ينزهون انفسهم عن البنات، فكيف ينسبونها إلى الله ﷻ؟!

﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾؟! فهم يقولون: إن الملائكة بنات الله، ويقولون: إن الله صاهر الجن، فجاءته منهم البنات، وهي الملائكة! تعالى الله عما يقولون، ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾، افتراءات على الله سبحانه وتعالى.

﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ هذا استفهام إنكار وتوبيخ لهم؛ لتنقصهم لله ﷻ، الله منزه عن الولد، لم يتخذ ولدًا لا من الذكور ولا من الإناث، النصارى يقولون: المسيح ابن الله، واليهود يقولون عزير ابن الله والمشركون يقولون: الملائكة بنات الله، تعالى الله عما يقول الجميع، ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٣-٤].

فهذا من جملة مقالاتهم، فأنكر الله عليهم فقال: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾، إذا كان له الأنثى، ولكم الذكر، هذه قسمة جائرة، هذا من جهة العقل أنه ينسب له الناقص، وينسبون إلى أنفسهم الأحسن، والخطاب لهم بما يفضحهم، وإلا فالله ﷻ ليس له ولد لا ذكر ولا أنثى، لكن الله يبين تنقصهم لله ﷻ(١).

ثم رد عليهم فقال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ﴾ فاللات، والعزى، ومناة، ونسبة

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٦٠)، وزاد المسير (٨/ ٧٣)، والقرطبي (١٧/ ١٠٢)، وابن كثير (٤/ ٢٥٥).

الولد لله، كل هذه افتراءات، وأسماء فارغة ليس لها معنى، سميتموها من عند أنفسكم، واتخذتموها آلهة من عند أنفسكم، ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ﴾، يعني: من حجة، فليس عندهم حجة على عبادة هذه الأشياء، أو على نسبة الولد إلى الله ﷻ.

والعقيدة تبنى على الحجة والبرهان، ولا تبنى على الظنون والأكاذيب والتقليد الأعمى، فعبادة غير الله ما أنزل الله بها حجة، ونسبة الولد إلى الله ما أنزل الله بها حجة، والله ﷻ لا يقال في حقه إلا بحجة، فلا يقال على الله بغير علم حسب الظنون والتخمينات، وهذا تحدٍ لهم، فلو كان عندهم برهان لبينوه وأبرزوه ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ ﴿إِنَّ﴾ نافية يعني: ما يتبعون إلا الظن الذي ظنوه بالله ﷻ؛ وهو أسوأ الظنون، ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت: ٢٣]، فالظنون لا تجدي في العقيدة شيئًا، لابد من برهان لابد من حجة، لابد من بينة.

﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ﴾ يعني ويتبعون ما تهوى الأنفس هو (شهواتهم)؛ لأنهم بهذه الشركيات والمعبودات ينالون شيئًا من الرئاسة ومن الدنيا وجمع الأموال، فهم اتخذوها ليصطادوا بها المغفلين، ليأكلوا بها أموال الناس ويعتبروها موارد للكسب وجمع المال مما يحصلونه من الزائرين لها.

وسبحان الله هذا هو الواقع الآن عند الأضرحة والقبور، اتخذوها شهوة لأنفسهم؛ لأنهم يستغلونها، يعتبرونها من الموارد المالية التي تجلب لهم الأموال من الزائرين ومن المخدوعين، ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ﴾، الشهوات، فهم بنوا عقيدتهم على الظن وما تهوى الانفس وإحياء الآثار الذي ينادون به

الآن يؤل إلى هذا.

ثم قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي قد جاءهم من ربهم البيان الواضح لبطلان ما هم عليه، على يد هذا الرسول ﷺ، لو كانوا يريدون الهدى، فإنه قد جاءهم، فالواجب عليهم أن يتركوا عبادة هذه الأصنام، ويتركوا هذه المقالات الكاذبة في حق الله ﷻ، ويتبعوا الهدى.

لكنهم لم يفعلوا، بل استمروا على طغيانهم، ولم يقبلوا الهدى، فقامت عليهم الحجة، إلا من منّ الله عليه بالهداية، وقبل الهدى، وترك عبادة الأصنام، وترك الشرك، ووحد الله ﷻ، فهؤلاء انتفعوا بهذا الرسول ﷺ، واهتدوا بهديه، وأنقذهم الله به من الشرك إلى التوحيد، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور، لكن الغالبية منهم عاندت وكابرت، فماذا كانت نهايتهم؟ كانت نهايتهم الهزيمة.

حينما فتح الله بلده الحرام لرسوله ﷺ، وحطم هذه الأصنام، ولم تدافع عن نفسها، حطم اللات والعزى ومناة وسائر الأصنام، ولم تدافع عن نفسها، فلو كانت آلهة -كما يزعمون-، لدافعت عن نفسها ولهذا قال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ وما حصل لها.

ثم قال ﷻ لما ذكر أنهم يتبعون ما تهواه أنفسهم من عبادة هذه الأصنام، قال: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ أي: هل الإنسان يقدر على أن يحصل على أمنيته من هذه الأضنام أو أن الأمور بيد الله ﷻ؟ لأن الله له ما في السماوات وما في الأرض، فليس للإنسان ما تمنى من عند الله ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾،

فلا يأخذ هذا الإنسان إلا ما قسم الله له.

وهذه الأصنام لا تعطيه شيئًا مما يتمناه، بل الذي يعطي هو الذي له ما في السماوات وما في الأرض، وما عند الله لا ينال بمعصيته، وإنما ينال بطاعته سبحانه وتعالى وبتوحيده، فبطلت بهذا عبادة الأصنام؛ لأنها لا تملك شيئًا لنفسها، فضلًا عن أن تملكه لغيرها، ولا تدفع عن نفسها، فكيف تدفع عن غيرها؟! ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقًا﴾ [العنكبوت: ١٧].

ثم ضرب مثلًا بالملائكة، فالملائكة هم أكرم الخلق، وأفضل الخلق، وأقوى الخلق خلقة وقوة، ومع هذا لا يملكون شيئًا إلا ما أعطاهم الله سبحانه وتعالى، ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ فكثيرمن الملائكة لا يعلمهم إلا الله سبحانه وتعالى، ﴿لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾.

فالملائكة لا يشفعون لأحد؛ لأن المشركين يزعمون أن الأصنام تشفع لهم، يقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨]، ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، الله أخبر أن الملائكة الكرام الأقوياء لا يشفعون عند الله إلا بإذنه؛ لعظمته سبحانه وتعالى، فالشفاعة ملك لله، ولا يشفع أحد لا الملائكة ولا غيرهم إلا بعد أن يأذن الله سبحانه وتعالى، ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وليس كملوك الدنيا يشفع عندهم الشفعاء، ولو لم يأذنوا، ولو كانوا كارهين، أما الله عز وجل فلعظمته وجلاله، لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه.

فالشفاعة تطلب من الله ﷻ، ولا تحصل إلا بشرطين:

الشرط الأول: أن يأذن الله بالشفاعة.

والشرط الثاني: أن يرضى الله عن المشفوع فيه، بأن يكون من عصاة الموحدين، ليس عنده شرك، أما المشرك، فلا تنفعه شفاعة، ولا تقبل فيه شفاعة، ﴿مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]، ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨]، فكيف تحصلون على الشفاعة وأنتم مشركون؟! ولا يرضى الله عن المشركين.

ثم عطف على المشركين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: لا يؤمنون بالبعث ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾، فيقولون: الملائكة بنات الله، فجعلوهم إناثًا، ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ﴾ [الزخرف: ١٩]، ﴿سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾، فالملائكة ليسوا إناثًا -كما يقوله المشركون-، بل هم عباد مكرمون، خلقهم الله من النور، وهم يقومون بعبادة الله لا يفترون، ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، ويقومون بما أمرهم الله به من تنفيذ الأوامر الإلهية في هذا الكون، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٨] وإذا كان الملائكة عباده، لا تصلح عبادتهم من دون الله.

﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ﴾ أي: بهذه التسمية التي سموا بها الملائكة، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ﴾، وسبق أن الظن لا يحتج به وأمورالتوحيد وأمور الغيب ولا يحتج فيها إلا بالبرهان المنزل من عند الله ﷻ؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ أي: لا يعتمد عليه، فالنبي ﷺ يقول: «**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ،**

فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ»(١)، «بِئْسَ مَطِيَّةُ الرَّجُلِ زَعَمُوا»(٢)، فالظن لا يعتمد عليه، لا سيما في الأمور الغيبية وأمور الاعتقاد.

ثم قال ﷻ لما وبخهم وبين بطلان حججهم، وأنهم يبنون على كذب وظنون، وعلى اقتداء بآبائهم، ويقولون: ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [المائدة: ١٠٤]، لما بين هذا قال لنبيه ﷺ: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾، عن القرآن، وعن ذكر الله ﷻ وعبادته، وبلغتهم، وأد ما عليك، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، فمهمة الرسول ﷺ تمت، لأنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وأنهى ما عليه ﷺ، وأما الهداية، فهي بيد الله ﷻ، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]، ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾، في الآية الأخرى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦]، فالذي يعرض عن ذكر الله، يبتلى بالضلال، فلا يقبل الحق بعد ذلك، فيفسد قلبه، ويزيغ -والعياذ بالله-، فلا ينتفع بعد ذلك بالأدلة والبراهين، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

الحاصل أن الرسول ﷺ لما بلغ، وأمره الله أن يعرض عنهم، ولا يهمه أمرهم، يكل أمرهم إلى الله، وهذا قبل أن يفرض الجهاد، هذا يوم كان الرسول ﷺ في مكة، وبعدما هاجر للمدينة أمره الله بجهادهم، لقطع دابر

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٤٣)، ومسلم (٢٥٦٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٧٢)، كما أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧٦٢، ٧٦٣)، وأخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٥/ ٢٧٢).

الكفر والشرك، وليهدي الله من يشاء منهم إلى الحق[١].

﴿وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ ولا يريد الآخرة، ﴿ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ﴾ فليس عندهم علم بالآخرة ولا إيمان، وإنما هم أصحاب مطامع، وشهوات عاجلة، ولا يفكرون في الآخرة والبعث والنشور، فهمهم الدنيا، ولهذا جاء في الدعاء: «**وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا**»[٢]، فأهل الإيمان يؤمنون بالآخرة، ويستعدون لها، ولا يضيعون الدنيا أيضًا، بل يأخذون من الدنيا ما يستعينون به على الآخرة، وما يحتاجون إليهفي حياتهم فهم سعدوا في الدنيا وفي الآخرة.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ فالله ﷻ بعلمه الأزلي يعلم كل شيء، يعلم من يهتدي، ويعلم من لا يقبل الهداية لانه أعرض عن الهداية، وأعرض عن سماع الحق، وانشغل بالدنيا، وترك الآخرة، فالله ﷻ حرمه وأضله، وحرمه من الهداية، فهو السبب في حرمان نفسه ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ [الصف: ٥]، فدل على أنه يهدي القوم المؤمنين، وإنما يحرم الهداية القوم الفاسقون والكافرون بكفرهم وفسقهم، فالحرمان من الهداية إنما هو بسبب من قبل العبد، والله علم أنه لا يصلح للهداية، وعلم ما يكون منه؛ فلذلك حرمه الله ﷻ.

---

(١) انظر: زاد المسير (٨/ ٧٥)، والقرطبي (١٧/ ١٠٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٠٢)، والنسائي في الكبرى (١٠١٦١)، والطبراني: في الدعاء (١/ ٥٣٥)، وفي المعجم الصغير (٢/ ١٠٩).

هذا ونسأل الله ﷻ التوفيق للهداية، ومعرفة الحق، والعمل به، والثبات عليه، وأن نلقى الله ﷻ مسلمين مؤمنين موحدين، وأن يغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان؛ إنه سميع مجيب، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

الدرس الثامن عشر

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم: ٣١ - ٤١].

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١] أي: لله ذلك وحده، لا يشاركه أحد ما في السماوات العلى، وما في الأرض من المخلوقات، التي لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، كلهم ملكه وعبيده وتحت تصرفه وقهره من المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، كلهم عبيده، وتحت تصرفه وقهره، وليس للأصنام ما يدعى أصحابها شيئ من ذلك.

كل ذلك لله عز وجل، يتصرف فيه كيف يشاء سبحانه وتعالى، ولا ينازعه أحد، ولا يمتنع

عن تدبيره الكوني القدري أحد، تجري أقدار الله على المخلوقات كما أرادها الله، لا أحد يمتنع، سواء كانت هذه المخلوقات عاقلة أو غير عاقلة، كلها مسخرة بأمره سبحانه وتعالى، على نظام دقيق لا يتغير ولا يتبدل، هذا ودليل على ربوبيته سبحانه وتعالى، وعلى استحقاقه للعبادة، وأن عبادة ما سواه باطلة ممن لا يملك شيئًا في السماوات ولا في الأرض.

هذا إعلان منه سبحانه وتعالى لم يعارضه أحد، فيدعي أن الملك له، أو أنه يشارك الله عز وجل في ملكه، وذلك برهان على وحدانيته سبحانه وتعالى في الربوبية والألوهية، والمشركون معترفون أن آلهتهم لا تملك شيئًا في السماوات ولا في الأرض معترفون بذلك، ومع هذا يعبدونها، وهذا من انتكاس الفطر واختلال العقول، ما داموا يعترفون أنها لا تملك شيئًا، ولا تملك ضرًا ولا نفعًا، ولا تدفع عن نفسها من أرادها، فكيف تعبد من دون الله عز وجل؟!.

ثم قال عز وجل: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾، كما أنه مالك الملك وحده لا شريك له، فهو الذي يجازي العباد على أعمالهم، فالجزاء من عنده سبحانه وتعالى، فالذين عملوا السيئات: من الشرك بالله، والكفر، والمعاصي؛ يجزيهم بما عملوا، الجزاء العادل الذي لا ظلم فيه،

وفي مقابل الإساءة الإحسان، فالذين أحسنوا العمل، وأتقنوه في طاعة الله سبحانه وتعالى، فجزاؤهم عند الله سبحانه وتعالى يجزيهم الله بالإحسان ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]؛ فهم أحسنوا فيما بينهم وبين الله بالعبادة والعمل الصالح، وأحسنوا فيما بينهم وبين الخلق من بذل المعروف، ونفع الناس، ومساعدة المحتاجين من الفقراء والمساكين.

فجزاهم ﴿بِٱلْحُسْنَى﴾ والحسنى هي الجنة[١]، فالله ﷻ خلق الجنة للمحسنين، فهي دار المحسنين، وهذا فضل منه ﷻ أنه لا يضيع أجر من أحسن عملًا، ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦]، فالله ﷻ لا يضيع لديه عمل عامل من خير أو شر، والإنسان ما خلق ليأكل، ويشرب، ويسرح، ويمرح في هذه الحياة كالبهائم، وإنما خلق للعمل للآخرة؛ فالدنيا مزرعة الآخرة، ومن ضيع الدنيا، ضاعت آخرته، ومن حفظ الدنيا، حفظ آخرته.

ثم بيّن من هم الذين أحسنوا، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ فأدوا الواجبات والفرائض، وتجنبوا المعاصي من الكبائر وما دونها، هذا هو الإحسان.

والذنوب تنقسم إلى قسمين: كبائر وصغائر، والصغائر هي: اللمم، والكبائر ضابطها: كل ذنب ختم بلعنة، أو غضب، أو نار، أو رتب عليه حدٌّ في الدنيا، أو وعيد في الآخرة.

والكبائر ليست على حد سواء، بعضها أشد من بعض، فأكبر الكبائر الشرك بالله ﷻ، وعقوق الوالدين، والزنا بالقريبات والمحارم، وقتل القريب من أكبر الكبائر، فالكبائر تختلف، وأعظمها الشرك بالله ﷻ.

ثم قال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾، فالله محيط علمه بكل شيء، ومن ذلك إحاطته بعباده، فهو محيط علمه بالعباد: مؤمنهم وكافرهم، صغيرهم وكبيرهم،

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٦٤)، وزاد المسير (٨/ ٧٥)، والقرطبي (١٧/ ١٠٦)، وابن كثير (٤/ ٢٥٦).

ذكرهم وأنثاهم، حرهم وعبدهم، عربيهم وأعجميهم، الله محيط بكل عبد من عباده، لا يخفى عليه شأنه وأموره مهما كان، وأينما كان، ﴿إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾، بخلق أبيكم آدم؛ لما خلق آدم، علم ذريته، وعلم أعمالهم، وما يكون منهم، لا يخفى عليه شيء سبحانه وتعالى.

﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ أي: وهو أعلم بكم إذ كنتم في بطون أمهاتكم، فالحمل في البطن يكون في ظلمات ثلاث: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، ولا يعلم ما في البطون إلا الله سبحانه وتعالى، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤]، ولا أحد يعلم ما في الأرحام إلا الله عز وجل، ثم أيضًا هو يعلم ما يكون لهذا الجنين من سعادة أو شقاوة، وأجل، ورزق، وعمل.

﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا تمدحوا أنفسكم بالصلاح فالله يعلم هذا سبحانه وتعالى، ويعلم نيتك أيضًا، هل هي صحيحة، أو ليست بصحيحة، أو أن أعمالك رياء، هو يعلم سبحانه وتعالى.

لكن في الآية الأخرى يقول الله عز وجل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس: ٩]، أي: زكى نفسه، فالذي يزكي نفسه في هذه الآية أفلح، بينما الآية التي معنا يقول الله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾، فما الجمع بين الآيتين؟ الجمع أن التزكية مختلفة في الآيتين: التزكية في آية النجم، وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٤٩﴾ [النساء: ٤٩]، المراد بالتزكية هنا: الإعجاب بالعمل، واستكثار العمل، ومدح النفس، والغرور هذا المراد بالتزيكة هنا.

أما المراد بالتزكية في سورة الشمس وضحاها، فالمراد: تزكيتها

بالأعمال الصالحة، وتطهيرها من السيئات والأخلاق الذميمة، فالمراد به: تطهير النفس بالأعمال الصالحة.

ثم قال ﷻ: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾، يخاطب رسوله ﷺ: ﴿ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾، أي: قد رأيته. فهو استفهام تقرير، يعني الذي أعرض عن الله ﷻ، ولم يقبل الإسلام حينما دعاه الرسول ﷺ، ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ۝٣٤﴾، عمل عملًا قليلًا، ثم امتنع وقطع العمل، عمله قليل، وإلى قطعه، ذُكر أن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة، فإنه نذر أن يتصدق بمال، ثم أخرج بعضه، ومنع البقية، من الكدية، وهي الصخرة الصلبة التي تعترض حافر البئر، فلا يستطيع المضي، وقيل: إنها نزلت فيه؛ لأنه اعترف لما سمع القرآن أنه كلام الله، ومدحه، فلما لامه قومه، انتكس -والعياذ بالله-، وقال: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥﴾ [المدثر: ٢٤-٢٥]، فهو اعترف في الأول بأحقية القرآن، وأنه كلام الله، ثم انتكس، وقال: إنه كلام محمد، وهو سحر[(١)].

﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ۝٣٥﴾ حينما يتمنى على الله الأماني.

﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ۝٣٤﴾ فهذا فيه النهي عن قطع العمل الصالح، وأن الإنسان يواصل العمل الصالح، ولا يقطعه، ويداوم عليه، ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ۝٣٥﴾، علم الغيب لا يعلمه إلا الله، لا أحد يعلم الغيب إلا الله ﷻ، وهو ما غاب عن الناس. الغيب والشهادة: الشهادة ما

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٧٠)، وزاد المسير (٨/ ٧٧)، والقرطبي (١٧/ ١١١)، وابن كثير (٤/ ٢٥٨).

يشاهد ويراه الناس، والغيب ما غاب عن الناس، فلم يروه، هذا لا يعلمه إلا الله؛ كالأمور المستقبلة، وأمور الآخرة، والأمور الخفية، لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، هذا من صفات الله عز وجل أنه يعلم الغيب.

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦ - ٢٧]، يطلع الرسل على ما شاء من الغيب لأجل المعجزة، ولأجل مصلحة الأمة، فهم لا يعلمون إلا ما علمهم الله سبحانه وتعالى.

﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ﴾ هذا استفهام إنكار، أي: ليس عنده علم الغيب، ﴿فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾: يرى ما غاب، ويحكم على المستقبل، ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ﴾: يُخبر، ﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ بلى قد نُبِّئ، فهواستفهام تقرير، وصحف موسى عليه السلام هي التوراة، فالقرآن جاء بما في صحف موسى وإبراهيم- عليهما الصلاة والسلام- قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨ - ١٩]، وقال: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٣٣]، أي: وبما في صحف إبراهيم أبي الأنبياء عليه الصلاة والسلام.

﴿ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾، وَفَّى يعني: تمم ما أمر به صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، يعني: قدوة، فهو وفى صلى الله عليه وسلم ما أمره الله به، ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۝٣٧﴾ وهذا ثناء عليه، ثناء على إبراهيم صلى الله عليه وسلم، والذي فيها هو: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝٣٨ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ۝٤١﴾، هذا هو ما في صحف إبراهيم وموسى، أنه لا يؤاخذ الإنسان بذنب غيره، وإنما يؤاخذ

بذنبه هو، وهذا من عدل الله ﷻ أنه لا يحمل الإنسان فعل غيره.

وفي صحف موسى وإبراهيم عليهما السلام: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾، ليس لك إلا ما عملت، لا ينفعك عمل غيرك، فلا تتكل على عمل غيرك، لا تقل أنا من أقارب الرسول ﷺ، أنا ابن فلان التقي العالم الزاهد، آبائي وأجدادي من الصالحين، هذا كله لا ينفعك، ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة: ١٣٤]، فلا تتكل على عمل غيرك أبدًا، ولو كان أقرب الناس إليك.

فيخصص هذا العام بما ورد أنه قد ينفع الإنسان ما عمله له غيره فينفع الإنسان الدعاء من غيره، وينفعه الصدقة من غيره، وينفعه الحج والعمرة من غيره؛ لأن هذه وردت بها الأدلة.

وقال ﷺ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»[(١)]، وهذا من عمل الإنسان الذي عمله في حياته، فاستمر أجره له بعد موته من صدقة جارية، وهذه هي الوقف، فإن نفع هذا الوقف يجري عليه، ما دام ينتفع به.

وكذلك العلم الذي علمع ينتفع به من بعده، وإذا ألف الكتب النافعة، فانتفع بها الناس، هذا من عمله، ويجري عليه بعد موته، والولد الصالح أيضًا من كسبه، «إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ، وَإِنَّ أَوْلَادَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ»[(٢)]

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٥٢٨)، والنسائي (٤٤٤٩)، والترمذي (١٣٥٨)، وابن ماجه (٢٢٩٠).

فهذه أعمال عملها في حياته، فجرى ثوابها، وأجرها عليه بعد موته، فهي من الآثار التي يكتبها الله ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ [يس: ١٢]، هذه آثار تركها بعد موته، فهي تجري عليه بعد وفاته.

﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠﴾ أي يكشف يوم القيامة عمله خيرًا أو شرًا، ويوقف عليه، ويعطى صحيفته التي فيها أعماله، إما بيمينه، وإما بشماله.

﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ الخير بخير والشر بشر، والأوفى بأن لا ينقص من عمله شيئًا، ولا يُضاف إليه شيء لم يعمله، فهذا فيه الحث على الأعمال الصالحة وإخفائها، وفيه التحذير من الأعمال السيئة، وأنها تحصى عليه، ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: ٤٩]، أي خائفين مما يشتمل عليه ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، فلا تظن أنك في هذه الدنيا، تسرح، وتمرح، وتفعل ما تشاء، وتفسق، وتفجر، وتظن أنه ليس وراءك حساب، ولا وراءك رقيب، ولا وراءك كتاب، ولا وراءك جنة ونار، فعليك أن تتذكر هذا وتعمل صالحاً وتب إلى الله من الأعمال السيئة.

هذا وبالله التوفيق وصلي الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه.

الدرس التاسع عشر

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾
وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ
هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ
﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا
غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾
لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾
وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾ [النجم: ٤٢ - ٦٢].

هذه الآيات العظيمة من آخر سورة النجم بيّن الله ﷻ فيها جملة من أفعاله وقدرته هي محل النظر، والاستدلال على عظمة الله ﷻ، ووجوب عبادته وحده لا شريك له، وهي من جملة ما ذكره الله في صحف إبراهيم وموسى، حيث ذكر جملة منها تتعلق بالإنسان وأعماله وجزائه عند الله، ثم ذكر جملة من أفعاله ﷻ الدالة على عظمته وقدرته واستحقاقه للعبادة وحده لا شريك له.

فقال سبحانه: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾، أي: المصير، فلا أحد يفلت

من الله ﷻ، أو يهرب منه، فإن مرجع الجميع إليه، المؤمنون والكفار، والأبرار والفجار، كلهم مرجعهم إلى الله ﷻ، فيجازيهم بأعمالهم، وتنتهي إليه كل الخلائق، إلى الله المصير والمرجع والمآب، فلا مهرب منه ﷻ.

فليعمل الإنسان في هذه الدنيا ما يعمل من خير أو شر، فإنه سيلاقي ربه ﷻ، ويجازيه على عمله، ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾، هو وحده لا شريك له، أضحك بعض الناس، وأبكى بعضهم، وكذلك الإنسان يمر عليه طور يُسَرُّ فيه، ويضحك فيه، ويمر عليه طور يبكي فيه مما يصيبه من المصائب، فالدنيا تتغير من سرور إلى حزن، ومن صحة إلى مرض، ومن رخاء إلى شدة، فهو أوجد هذه المتضادات -الضحك، والبكاء-، فهذا من عجائب قدرته ﷻ.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۝٤٤﴾، فبيده الموت والحياة فهو ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك: ٢]، فلا أحد يملك الموت والحياة إلا الله ﷻ.

ولذلك لما ناظر إبراهيم عليه السلام النمرود الذي يدعي أنه يقدر على كل شيء، فأعجب بملكه، ولما قال إبراهيم له: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ فقال مكابرًا: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾، بمعنى أنه يأتي باثنين يستحقان القتل، فيعفو عن أحدهما، ويقتل الآخر، فإبراهيم عليه السلام انتقل إلى قاصمة الظهر، التي لا يستطيع أن يراوغ فيها قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ من الآدميين، ومن البهائم، ومن الأشجار والنباتات، خلق الذكر والأنثى، ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦]، وذلك لبقاء المخلوقات، من نطفة، وهي النقطة، نقطة الماء، ﴿مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾، يعني: تراق في الرحم.

﴿مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ حين يمنيها ويريقها الذكر في رحم الأنثى(١)، ثم وبعد أربعين يوم تتحول هذه النطفة إلى علقة، يعني: إلى نقطة دم، علقة يعلق باليد، فإذا مضت الأربعون الثانية، تحول هذا الدم إلى مضغة (قطعة لحم)، فإذا مضت الأربعون الثالثة تحولت هذه المضغة إلى عظام ولحم وعروق وحواس، ثم نفخت فيه الروح.

﴿وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾: النشأة الأولى في بطن أمه، والنشأة الأخرى وهو في القبر، يجمع الله ﷻ عظامه ولحمه وشعوره، ثم ينبتها على ما كانت في الدنيا جسمًا متكاملًا، فيكون بطن الأرض مثل رحم الأم فإذا تكامل الخلق يؤمر إسرافيل ﵇، فينفخ في الصور، فتطير كل روح إلى جسمها، فيحيا بإذن الله، ويمشي، ويتحرك، ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

فالذي قدر على البداءة والإيجاد من العدم قادر على الإعادة من باب أولى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٧٥)، وزاد المسير (٨/ ٨٣)، والقرطبي (١٧/ ١١٨)، وابن كثير (٤/ ٢٦٠).

وَٱلْأَرْضِۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٢٧].

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾ وهب المال للإنسان، وهب له المال، ولما خرج من بطن أمه ليس معه شيء، بل ليس عليه لباس، ثم يملكه الله المال في هذه الدنيا، ويعطيه الثروة، ويعطيه الرزق.

فأعطى: المال الذي يستهلك، والمال الذي يقتنى ويدخر، كله من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ الشعرى هي: النجم الزاهر الذي يكون خلف الجوزاء، يسميه العامة المرزم، وهو من النجوم السيارة، ولماذا نص عليه مع أنه خلق كل الكواكب وكل النجوم؟ لأن هذا النجم قد عُبِد في الجاهلية، قد عبده بعض القبائل في الجاهلية، واتخذوه ربًا، فالله عَزَّ وَجَلَّ يقول: هذا النجم الذي تعبدونه إنما هو مخلوق من مخلوقاتي، وأنا ربه الذي يملكه ويصرفه، فكيف تعبدونه من دون الله؟![1].

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾﴾ أمتان من الأمم، عاد قوم هود في جنوب الجزيرة وثمود قوم صالح، ومسكنهم في الحجر شمال غرب الجزيرة قريبًا من تبوك، على طريق الشام، ولا تزال مساكنهم باقية منحوتة في الجبال، تسمى مدائن صالح، وهي أمة طاغية عاتية، أرسل الله إليهم رسوله صالحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأعطاه الناقة معجزة وعلامة على صدقه، وجعلت تشرب ماء البئر، وتسقيهم اللبن بدله، وفي يوم يكون الماء لهم، يوم لها ويوم

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٧٦)، وزاد المسير (٨/ ٨٤)، والقرطبي (١٧/ ١١٩)، وابن كثير (٤/ ٢٦٠).

لهم، ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥]، ولكنهم لما نهاهم صالح عليه السلام أن يعقروها، وأن يؤذوها، فعتوا عن أمر ربهم وعقروا الناقة، فعند ذلك أهلكهم الله تعالى بأن أرسل عليهم صيحة واحدة أي صاعقة قطعت قلوبهم في أجوافهم، فماتوا عن آخرهم في لحظة واحدة ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾ [القمر: ٣١].

هذه هي ثمود، وهي عاد الثانية، أما عاد الأولى، فهم قوم هود، وكانوا يسكنون في شرق جنوب الجزيرة، في إرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد، وأعطاهم الله قوة الأجسام، وكبر الأجسام، فدعاهم نبي الله هود عليه السلام إلى أن يعبدوا الله وحده لا شريك له، ويتركوا عبادة الأصنام، لكنهم عتوا، وعصوا، وتمردوا، فأرسل الله عليهم الريح العقيم، قال تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: ٤١ - ٤٢].

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ من قبل عاد وثمود قوم نوح الذين صوروا صور الصالحين بإيحاء من الشيطان، لما ماتوا، صوروا صورهم للذكريات -كما يقال: صور تذكارية-، فنصبوها على مجالسهم، وفي النهاية جاءهم الشيطان، فزين لهم عبادتها، فعبدوها من دون الله، وهو أول شرك حدث في الأرض بعد آدم عليه السلام، فأرسل الله إليهم نبيه نوحًا عليه الصلاة والسلام أول الرسل، دعاهم إلى الله، ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى الله، إلى أن قال الله له: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [هود: ٣٦]، ثم أمره الله بصناعة الفلك، صناعة السفينة.

ولما حان الموعد، فجر الله عليهم الأرض عيونًا، وأمطر السماء بماء

منهمر، فتلاقى الماء من السماء ومن الأرض، وغطى الجبال، أهلكهم الله عن آخرهم بالغرق والطوفان، ونجى الله نوحًا ومن معه في السفينة، هذه عاقبتهم، كانوا خارجين عن طاعة الله ﷻ.

هذا كله تسلية لنبينا محمد ﷺ، في أنه لا يحزن على ما أصابه من قومه من العناد والكفر والأذية لرسول الله ﷺ، فإن إخوانه من النبيين من قبله حصل عليهم أشد من ذلك، وكانت العاقبة لهم على أقوامهم، فهذا فيه تسلية لنبي الله محمد ﷺ ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾ المؤتفكة: قوم لوط الذين يأتون الذكران من العالمين، أول جريمة حدثت لم يسبق لها مثيل، وأشنع جريمة وهي اللواط، فنهاهم نبي الله لوط ﷺ، فأصروا على فعلتهم الشنيعة، فعند ذلك أرسل الله الملائكة لإهلاكهم، ومروا على إبراهيم، وأضافهم على عادته، لكنهم لم يأكلوا من الضيافة؛ لأن الملائكة لا يأكلون، وحصل من لوط ما حصل من التضايق، ومن مجيء قومه إليه يريدون هؤلاء الأضياف، قالت تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، عند ذلك أمر الله جبريل عليه السلام، فحمل بلادهم بما فيها من الناس والمخلوقات والمباني، حملها على طرف جناحه، حتى بلغ بهم عنان السماء، وسمعت الملائكة صياح ديوكهم ونباح كلابهم، ثم قلبها عليهم، وخسف الله بهم، وأتبعهم بالحجارة من سجيل وهي النار.

﴿فَغَشَّىٰهَا﴾ من الحجارة، وأتبعها بالحجارة ﴿مَا غَشَّىٰ﴾، هذه سنة الله ﷻ في من كذب رسله، وتكبر عن طاعته، وأشرك به، وهي سنة الله لا تتبدل، ولا تتغير.

قال الله ﷻ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ﴾ أي نعمه ﴿تَتَمَارَىٰ﴾ الخطاب، لجنس الإنسان، فبأي نعم الله أيها الإنسان، ﴿تَتَمَارَىٰ﴾: يكون عندك شك وتردد وعدم شكر لنعم الله عليك، أو تنسب نعمه إلى غيره.

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦﴾ هذا رسول الله ﷺ محمد بن عبدالله نذير من النذر الأولى، فهو ليس بدعًا من الرسل، وإنما سبقه رسل جاؤوا أقوامهم، وهو جاءكم مثل إخوانه من الرسل السابقين يدعوكم إلى الله ﷻ، يدعوكم لمصلحتكم وخوفًا عليكم، وهو أفضل الرسل ﷺ.

ثم قال ﷻ مهددًا ومتوعدًا لهؤلاء الكفار الذين استكبروا عن إجابة هذا الرسول ﷺ والإيمان به، قال: ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ۝٥٧﴾، يعني: قربت القيامة، أزف بمعنى قرب؛ كما قال الشاعر:

أَزِفَ التَّرَحُّلُ غَيْرَ أَنَّ رِكَابَنَا ... لَمَّا تَزُلْ بِرِحَالِهَا وكَأَنْ قَدِ[1]

يعني قرب قيام الساعة، ونبينا ﷺ هو نبي الساعة، ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨﴾ إذا حدثت هذه الحادثة، فلا أحد يردها ويدفعها ثم قال ﷻ مختتمًا هذه السورة العظيمة: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩﴾، الحديث هو القرآن، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، «إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ»[2]، فالقرآن يسمى حديثًا، ومن هو

---

(١) هذا البيت للنابغة الذبياني، انظر: البيان والتبيين (٢/ ١٩٢)، ودرة الغواص في أوهام الخواص (١/ ١٤)، وتاج العروس (٢٣/ ١٢).

(٢) أخرجه النسائي (١٥٧٨)، وأصله عند مسلم (٨٦٧) بلفظ «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ».

المتحدث به؟ هو الله ﷻ، ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ أيها الكفار، وتجحدون أنه وحي من الله، وتقولون: إنه أساطير الأولين، إنه سحر، إنه من قول البشر، إنه، إنه، هذا استنكار من الله ﷻ عليهم.

﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ فالواجب أن يخشع الإنسان من ذكر الله ويبكي من هذا القرآن، أما أنه يضحك، ويستنكر، فهذا غير لائق بهذا العبد الضعيف المسكين، قال ﷻ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]؛ لأنه كلام الله ﷻ، وفيه هذه الزواجر، وهذا الوعيد الشديد، ومع هذا كثير من الناس لا يتأثر به، هذا من العجب؛ لأن قلبه قاسٍ، والعياذ بالله.

قست القلوب، حتى صارت أشد من الحجارة ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، أشد قسوة من الحجارة، فالذي لا يتأثر بهذا القرآن، فهذا يكون قد قسا قلبه، فصار أقسى من الحجارة.

﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾، غافلون لاهون عن هذا القرآن، وكأنه ليس بين أيديكم، ﴿سَٰمِدُونَ﴾ والسمود هو: الغفلة واللهو والإعراض أو من السمود الغناء والطرب والموسيقى؛ هذا من السمود، عند العرب أن الغناء يسمى سمودًا، ولكن اللهو أعم، يدخل فيه الغناء، ويدخل فيه كل غفلة، والعياذ بالله(١).

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٨٢)، وزاد المسير (٨/ ٨٥)، والقرطبي (١٧/ ١٢٣)، وابن كثير (٤/ ٢٦٠).
وانظر: مادة (سمد) في العين (٧/ ٢٣٥)، وتهذيب اللغة (١٢/ ٢٦٢)، ومقاييس اللغة (٣/ ١٠٠)، ولسان العرب (٣/ ٢١٩).

ثم قال الله ﷻ: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾ هذا هو اللائق بكم، فأمر الله بالسجود؛ لأن السجود هو أعظم أنواع العبادة، «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ»(١)؛ لأنه يضع أشرف أعضائه على الأرض تواضعًا لله ﷻ ﴿وَٱعْبُدُوا۟﴾، اعبدوا الله ﷻ بأنواع العبادة، والسجود نوع من أنواع العبادة لكنه ذكره تنويهًا بشأنه، وهذه الآية من الآيات التي يُسجَد عندها، فقد قرأها رسول الله ﷺ على أصحابه، وعندهم الكفار جالسون معهم، فسجد رسول الله ﷺ، وسجد معه الحاضرون من مسلمين وكفار(٢).

فهذه سورة عظيمة من أولها إلى آخرها، وانظر كيف بدأها بتصديق الرسول ﷺ، وختمها بتصديق الرسول ﷺ فقال: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾، وفي آخرها يقول: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾، يعني محمدًا ﷺ، وأنه صادق في رسالته، وأن له سلف من إخوانه النبيين من قبله.

هذا والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٤٨٦٢) عن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: «سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ بِالنَّجْمِ وَسَجَدَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْجِنُّ وَالإِنْسُ».

الدرس العشرون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ
٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ٣ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ
ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ٤ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ٥ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ
يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ٦ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ
٧ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ٨ ۞ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ
عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ١٠ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ
مُّنۡهَمِرٖ ١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ١٢ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ
وَدُسُرٖ ١٣ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ١٤ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٥
فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ١٦ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر: ١-١٧].

هذه سورة عظيمة، ذكر الله ﷻ فيها أحوال المكذبين للرسل، وبدأها بحال المشركين، الذين على عهد نبينا محمد ﷺ خاتم النبيين وإمام المرسلين.

فهي سورة عظيمة، فيها عبرة وعظة وتذكرة، وكان النبي ﷺ يقرأ بسورة (ق)، وبسورة (اقتربت) في صلاة العيدين؛ لما فيهما من العبر والعظات،

فيقرأهما بمناسبة اجتماع الناس، هذا الاجتماع الكبير في يوم العيد(١).

فقوله ﷻ: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾، أي: قرب وقت قيامها. والساعة هي نهاية الدنيا وبداية الآخرة، ويحصل عندها أهوال عظيمة، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾ [الحج: ١]، فهو يوم مهول، وقد أخفاه الله ﷻ، فلم يطلع عليه ملكًا مقربًا، ولا نبيًا مرسلًا، فضلًا عن غيرهم، وكان المشركون يسألون رسول الله ﷺ عن الساعة فيخبرهم أنه لا يدري عنها، لأن أمرها إلى الله ﷻ، وليس للناس مصلحة في بيان وقتها، لو كان لهم مصلحة في ذلك لبينها الله ﷻ(٢).

فاستأثر ﷻ بعلمها، ولهذا لما سأل جبريل عليه السلام نبينا محمدًا ﷺ عنها: قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: «**مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**»، أي أنا وأنت سواء لا نعلمها؛ لأن الله حجب ذلك عن عباده، واستأثر به ﷻ «**قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا**»(٣)، أما أمارات الساعة فقد ذكرها الله ﷻ، وذكرها النبي ﷺ؛ لأجل أن يستعد الناس ويعتبروا.

قال ﷻ: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ أي ماينتظرون إلا قيام الساعة ﴿أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ﴾ [محمد: ١٨]، أي: علاماتها، الدالة على قربها، وفي مطلع هذه السورة أخبر ﷻ عن قربها، فقال: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾،

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٨٩١). وانظر: زاد المعاد (١/ ٢٠٣).

(٢) كما أخرج البخاري (٦٥١١)، ومسلم (٢٩٥٢) من حديث عائشة رضي الله عنها قَالَتْ: «كَانَ الْأَعْرَابُ إِذَا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ سَأَلُوهُ عَنِ السَّاعَةِ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَنَظَرَ إِلَى أَحْدَثِ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ، فَقَالَ: «**إِنْ يَعِشْ هَذَا، لَمْ يُدْرِكْهُ الْهَرَمُ، قَامَتْ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ**».

(٣) أخرجه مسلم (٨).

اقترب وقت أو زمان قيامها؛ كما قال ﷻ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النحل: ١]، وقال ﷻ: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء: ١]، فالساعة قريبة.

وأول أمارات الساعة بعثة النبي ﷺ؛ فهو آخر الأنبياء، ولا يبعث بعده نبي إلى أن تقوم الساعة، ولهذا قال ﷺ: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ هَكَذَا**»، وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى(١)، فهو نبي الساعة ﷺ، ومن أسمائه ﷺ الحاشر الذي حشر الناس على عقبه، يعني: تأتي الساعة والحشر بعده ﷺ(٢).

﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ فمن علامات الساعة انشقاق القمر، وقد حصل، وانشق أي: انفلق فلقتين، ورآه أهل مكة وذلك معجزة للرسول ﷺ، فكانت فلقة منه على جبل أبي قبيس، وفلقة له على جبل قعيقعان المقابل له، وهم ينظرون إلى ذلك، لكنهم كذبوا بهذا، فقالوا: إن محمدًا سحر أبصارنا، فاسألوا القادمين من المسافرين، يتبين لكم هذا، فكان كل من قدم أخبرهم أنه رأى القمر قد انشق، فتبين بذلك كذبهم(٣)، وأن انشقاق القمر حقيقة، لا سحر،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٣)، ومسلم (٢٩٥٠).

(٢) كما أخرج البخاري (٣٥٣٢)، ومسلم (٢٣٥٤) من حديث جبير بن مطعم أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «**أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي، الَّذِي يُمْحَى بِيَ الْكُفْرُ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى عَقِبِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ وَالْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ**»، واللفظ لمسلم.

(٣) كما أخرج أبو داود (٢٩٣) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: «**انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: هَذَا سِحْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ، قَالَ: وَقَالُوا: انْتَظِرُوا مَا تَأْتِيكُمْ بِهِ السُّفَّارُ فَإِنَّ مُحَمَّدًا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْحَرَ النَّاسَ كُلَّهُمْ قَالَ: فَجَاءَ السُّفَّارُ فَقَالُوا ذَاكَ**»، وأصل حديث انشقاق القمر عند البخاري (٣٦٣٦)، ومسلم (٢٨٠٠).

والرسول ﷺ وجميع الأنبياء ليسوا سحرة، وإنما هم أنبياء الله الصادقون المصدوقون.

يقول ابن كثير رحمه الله: قد تواترت الأخبار والأحاديث في هذا فلم يبق مجال للشك في وقوعه[1]، ومن المؤلين من يحاول أن يقول: هذا عبارة عن ظهور الحق، الحق وبيانه واندحار الباطل، وهذا الكلام باطل.

ثم قال عز وجل: ﴿وَإِن يَرَوْا ءَايَةً﴾، يروا -أي: كفار قريش يعرضوا؛ لأنهم لا يريدون الحق، والإنسان إذا كان لا يريد الحق، فلن تستطيع أن تؤثر عليه؛ لأنه لا يريد الحق، ويتبع هواه، وهذا لا حيلة فيه، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يونس: ١٠١-١٠٢]، فهم لا يستفيدون من العبر، ولا من العظات، ولا من الأدلة والبراهين؛ لأنهم لا يريدون الحق.

وهكذا القلوب القاسية والقلوب التي لا تؤمن بآيات الله تفسر الأحداث بتفسيرات غريبة بعيدة عن العقول، فيفسرون المعجزات بتفسيرات غريبة، وأنها ليست بمعجزات، ويفسرون الحوادث بأنها لا تدل على عذاب، ولا على غضب من الله سبحانه وتعالى، وإنما هي أمور طبيعية، كالذي سمعتم من بعض الصحفيين لما حدث الحدث العظيم، وهو الزلزال الذي هاجت منه البحار، وهلك به أمم، يقولون: هذا أمر طبيعي، وأنكروا على من وعظ الناس بمناسبة ذلك، وقال: إن ذلك بسبب الذنوب والكفر والمعاصي،

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٦٢).

أنكروا عليه وجهّلوه، وهذه عادة مضطردة عند الذين قست قلوبهم، فلا تؤثر فيهم الآيات، ويلتمسون لها تفسيرًا بعيدًا وغريبًا.

﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي استمروا على تكذيبهم للرسول ﷺ، ولم تؤثر فيهم هذه الآية العظيمة، ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾، ولم يتبعوا الدليل والبرهان، وينتفعوا من الآية، وإنما اتبعوا أهواءهم، ولم يبحثوا عن الحق، فهم فسروا هذا الحدث، بأنه سحر مستمر -أي: قوي-(١).

قال ﷻ: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾، يعني: لا يؤثر فيه تكذيب هؤلاء أو تأويلهم له، فالأمور ثابتة كما أرادها الله ﷻ، فأهل الضلال لا ينتفعون بالآيات، وأهل الإيمان ينتفعون بها، هذا الذي استقر عليه أمر الله ﷻ، ولا يغير ولا يبدل.

قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾، أي: من الأخبار الماضية والأمم الهالكة التي كذبت الرسل، وكذبت بالمعجزات والآيات، ما قصه الله ﷻ أي: شاهدوا بأعينهم الأحداث التي تجري، لكن كما قال الله ﷻ: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١]، وهذا تأكيد، اللام لام القسم، وقد للتحقيق أي: بلغهم فعلنا بالأمم المكذبة قبلهم، ولكن لم يتعظوا ويحذروا أن يصيبهم مثل ما أصاب الأمم قبلهم؛ لأن قلوبهم ميتة لا تؤثر فيها المواعظ والأحداث.

﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أي: زاجر لمن له قلب، ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾، أي:

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٨٨)، وزاد المسير (٨/ ٨٩)، والقرطبي (١٧/ ١٢٧)، وابن كثير (٤/ ٢٦٤).

موعظة وزاجر لمن يتدبر بعقله ما يبلغه من الأحداث، ولكن مع هذا لم يزدجروا، ثم قال ﷻ: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾، أي: إصرارهم على الكفر والعناد منه حكمة من الله، أن الله ﷻ حرمهم من الهداية؛ لأنهم لا يصلحون لها، وليسوا موضعًا للهداية، فالله ﷻ حكيم عليم يضع الهداية فيمن يقبلها ويستحقها، ويصرف عنها من لا يريدها ولا يستحقها، فالله ﷻ لا يجري ما يجري في هذا الكون من إيمان وكفر وهدى وضلال وخير وشر إلا لحكمة بالغة، ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾، أي: لا تغني الآيات في هؤلاء، ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، أي شيء تغنيه وتفيده، النذر: جمع نذير، من الحوادث والوقائع التي تنذر الناس من الأخطار، أو النذر أي: الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، فالنذر تشمل الرسل، وتشمل الأحداث والوقائع كلها نذر لمن ينتفعُ بها ويعتبرُ بها، أما من لا ينتفع بها، فإنها لا تغني في حقه شيئاً؛ لأن الله عاقبه بطمس قلبه وعمى بصيرته، فما تفيد فيه المواعظ ولا الزواجر، ولا الأنباء الصادقة عن الأمم السابقة[1].

ثم قال الله ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾، أي: أعرض عنهم، ولا يهمك شأنهم؛ لأنك قد بلغت، وأديت ما عليك، وكِلْ أمرهم إلى الله؛ كما قال الله ﷻ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وهذا الإعراض يوم أن كان النبي ﷺ في مكة -والسورة مكية-، إلى أن هاجر النبي ﷺ، وصار له قوة، فحينئذ أمره الله بجهاد الكفار.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٨٩)، وزاد المسير (٨/ ٩٠)، والقرطبي (١٧/ ١٢٩)، وابن كثير (٤/ ٢٦٤).

ثم قال ﷻ مذكرًا لما يحدث في المستقبل: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾، وهذا عند البعث، والداعي هو: إسرافيل عليه السلام حينما ينفخ في الصور نفخة البعث، ويدعو الأموات إلى أن يقوموا من قبورهم، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الروم: ٢٥]، تجتمع أعضاؤهم وشعورهم ولحومهم وعظامهم وجلودهم وعروقهم كما خلقهم الله أول مرة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤] ويقومون من قبورهم.

ثم يسيرون إلى المحشر ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾، في كثرتهم وسيرهم في اتجاه واحد كما﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾، وهو إسرافيل الذي يدعوهم إلى السير إلى المحشر، قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس: ٥١]، ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾، أي: مسرعين.

﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾، في ذاك اليوم يدركون ما فرطوا فيه، وما ضيعوه في حياتهم الدنيا، لكن لا ينفعهم التذكر حينذاك، أبدًا؛ لأنه فات وقت التذكر والاعتبار، كما قال الله ﷻ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ [المدثر: ٨-١٠]، وقال ﷻ: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

ومفهومه أن هذا اليوم يكون سهلًا على المؤمنين، إنما عسره ومشقته على الكافرين -والعياذ بالله-، الذين لم يحسبوا له حسابه، أما المؤمنون، فهم حسبوا له حسابه، واستعدوا له، وآمنوا به، فسهل عليهم في الآخرة، ثم ذكرهم بالأمم السابقة التي كذبت رسلها، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾، أي: قبل قومك يا محمد كذبت قبلهم قوم نوح، ونوح هو أول الرسل إلى

أهل الأرض، لما حدث الشرك في الأرض بعبادة الصالحين والغلو فيهم وهم: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر.

واستمر نوح عليه السلام يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، ولم يستجب له منهم إلا القليل، وأوحى الله إليه أنه ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]، فعند ذلك دعا عليهم فقال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح: ٢٦]؛ لأنه لا طمع في هدايتهم، ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: ٢٧].

﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾ نوحاً عليه السلام وقد وصفه بالعبودية لله، ونسبه إلى نفسه: ﴿عَبْدِنَا﴾؛ لأن العبودية على نوعين: عبودية عامة لجميع الخلق، كلهم عباد الله: المؤمن والكافر، والبر والفاجر ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٤]، أما العبودية الخاصة، فهي عبودية الإيمان بالله عز وجل، فنوح عليه السلام عبد الله بمعنى العبودية الخاصة، ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، صلى الله عليه وسلم.

وإضافته إلى الله إضافة تشريف وتكريم، أما إضافة بقية العالم من الكفار، فهي إضافة خلق وإيجاد.

﴿وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ﴾ فأكمل خلق الله عقلًا قالوا: إنه مجنون؛ كما قالوا في محمد: إنه ساحر، إنه مجنون، إنه كاهن، إنه كذاب... إلى آخر ما يقولون، والمجنون هو الذي يخالطه الجني، فيخبله، ويتكلم بكلام غير معقول، ولم يكتفوا بالوصف بل زجروه ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ أي: زجروه وهددوه صلى الله عليه وسلم، وأغلظوا في حقه، وهو يصبر صلى الله عليه وسلم على أذاهم.

عند ذلك لما طال العهد، ولم يستجب له إلا القليل، وأخبره الله ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]، ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠﴾، أي: انتصر لي، من الكفار الذين بلغوا حدًا من الكفر والتحدي لم يبلغه غيرهم.

﴿فَٱنتَصِرْ﴾ لي يا رب منهم؛ لأن الله ينتصر لعباده المؤمنين، ويجعل العاقبة لهم على الكافرين والمعاندين، فأجاب الله دعاءه، فأمر السماء، فانهمرت بالماء، وأمر الأرض، فنبعت بالمياه، ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾، حتى التنور الذي كان توقد فيه النار ومحل الحريق نبع، صار عينًا.

﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾: ماء السماء، وماء الأرض ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾، على أمر قدره الله وقضاه، وقيل: ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أن الله قدر ماء السماء وماء الأرض، فقدّر ما ينبع من الأرض، وقدر ما ينزل من السماء، فالتقى ماء السماء المقدر، وماء الأرض المقدر(١).

وماذا كان لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ وما هو شأنه في هذه الحادثة؟ ﴿وَحَمَلْنَٰهُ﴾ أي: حملنا نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾، وهي السفينة، أمره الله أن يصنع السفينة، فلما تكامل صنع السفينة، أمره الله أن يحمل فيها من كل جنس زوجين اثنين لبقاء النسل، ثم عم الطوفان، فسارت السفينة على الأمواج ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢]، فعند ذلك أنجى الله نبيه ورسوله

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٩٣)، وزاد المسير (٨/ ٩٢)، والقرطبي (١٧/ ١٣٢)، وابن كثير (٤/ ٢٦٤).

نوحًا عليه السلام ومن معه من المؤمنين، ومن معه أيضًا من بقية المخلوقات وهي الأزواج التي حملها معه لبقاء النسل، وأغرق أهل الأرض كلهم عن آخرهم، ولم ينج إلا نوح عليه السلام ومن معه في السفينة ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: ١٥].

وقوله: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾: بمرأى منا وحفظ وكلاءة وتوجيه للسفينة، يسيرها الله سبحانه وتعالى، ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي فعلنا هذا جزاء لنوح عليه السلام، على صبره وشكره، وقُرِئ: ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كَفَرَ﴾، أي: أن هذا الغرق جزاء الكفرة، ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً﴾ أفلا يعتبر هؤلاء الذين عصوا أفضل الرسل محمد صلى الله عليه وسلم؟! ألا يعتبرون بهذا الحدث؟! ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾ أي: ترك الله السفينة آية، أي: علامة على قدرته سبحانه وتعالى، والألواح هي الخشب، والدسر هي المسامير، وقيل الحبال التي تربطها[1]، فبقيت هي بذاتها، أو المراد جنسها مما تعلم الناس من صناعة المراكب البحرية، والفلك التي تجري في البحر، فأبقى الله عز وجل هذه الصنعة في بني آدم آية على قدرته سبحانه وتعالى، ومن أعظم الآيات أن هذه البواخر والمراكب والبوارج الهائلة تمشي على البحر، على الماء، ولا تغرق، ولا تغوص في الماء، من الذي يحملها؟ هو الله عز وجل، وأيضًا تقف على الماء، ولا تغوص مع ما فيها من الأحمال الثقيلة، فهذا من آيات الله سبحانه وتعالى[2].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٩٣، ٩٤)، وزاد المسير (٨/ ٩٣)، والقرطبي (١٧/ ١٣٢)، وابن كثير (٤/ ٢٦٥).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٩٥)، وزاد المسير (٨/ ٩٤)، والقرطبي (١٧/ ١٣٣)، وابن كثير (٤/ ٢٦٥).

﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: متذكر، ومتعظ، ومعتبر، هذا تنبيه، وحث على التذكر والاعتبار، وأن لا يجري ذكر هذه الحوادث عابرًا فقط بدون اعتبار، فأنت حينما تقرأ القرآن، وتقرأ التاريخ يجب أن تعتبر، وأن تخاف من الله، لا لمجرد الاطلاع والثقافة فقط، بل الأهم من ذلك هو الاعتبار والاتعاظ.

﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝١٧﴾ سهل الله القرآن العظيم، للحفظ والتعلم وللتدبر وللعمل، فهو ميسر لمن وفقه الله ﷻ، وهذا شيء واضح، تجد الطفل الصغير يحفظ القرآن، وتجد الأعجمي يحفظه بينما لو تأمره بحفظ قصة أو حفظ أسطر من التاريخ لا يستطيع ذلك، هذا من تسهيل الله لهذا القرآن، وكذلك تدبر القرآن سهل أيضًا؛ لأنه بلسان عربي مبين فصيح، فحفظه وتدبره والعمل به أيضًا كل ذلك ميسر؛ لأن القرآن ينهى عن التشدد، وينهى عن التساهل في العمل، بل يأمر بالوسط، فهو ميسر.

وأيضًا فيه الرخص لمن يحتاج إلى الرخص، ﴿وَإِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [النساء: ١٠١]، ﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا﴾ [النساء: ٤٣]، ففيه رخص عند الضرورةفهو ميسر للعمل، فليس فيه صعوبة، فهو ميسر من كل الوجوه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

الدرس الحادي والعشرون

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ
مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ
يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ
إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ
غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ
الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي
وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ
نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا
فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ
صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ
مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٨ - ٤٠].

ما زال السياق في ذكر الأمم السابقة التي كذبت رسلها، وأحلّ الله بها العقوبات المستأصلة، وفي هذا إنذار للمشركين في عهد النبي ﷺ، وبعده وتسلية للرسول ﷺ.

وقد ذكر الله قوم نوح وما جرى لهم، ثم ذكر عادًا؛ وكانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم نبيه هودًا عليه السلام يدعوهم إلى الله، وينهاهم عن الشرك، ويحذرهم من العقوبة إن لم يستجيبوا، ويذكرهم بما جرى لقوم نوح من قبلهم، إلا أن هذا لم يجد فيهم، وعصوا نبيهم هودًا عليه السلام، وهددوه، وتوعدوه بآلهتهم أن تأخذه، وأن تمسه بسوء، واغتروا بقوتهم، وقالوا: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ يقولونه لهود عليه السلام: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الشعراء: ١٣٦ - ١٣٨].

وقالوا: من أشد منا قوة؟ فاغتروا بقوتهم ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، فلما قامت عليهم الحجة، ولم يبق لهم عذر، أرسل الله عليهم الريح العقيم.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾: الذي أوقعته فيهم، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي: قوية، باردة شديدة البرودة، وقيل: قوية جدًا، فهي باردة وقوية أيضًا[1]، أرسل الله عليهم الريح، ألطف الأشياء، ولكنها ريح باردة وقوية، فصارت تنزع الناس، وترفعهم إلى السماء، حتى يتوارى الواحد منهم من شدة الارتفاع، ثم تنكسه على رأسه، فتدق عنقه بالأرض، فتتطاير رؤوسهم، وتبقى أجسامهم الكبيرة ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾.

يعني: في يوم شؤم عليهم، لا على غيرهم، ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾، يعني: شؤم عليهم، ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾، قيل: إنه مستمر، يعني: مستديم لم ينقطع، وقيل:

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٤/ ١٠١، ٢٧/ ٩٧)، والقرطبي (١٥/ ٣٤٧، ١٧/ ١٣٥)، وابن كثير (٣/ ٣٤٣، ٤/ ٢٦٥).

مستمر من المرارة، أي: شديد المرارة، ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ ترفعهم إلى السماء، ثم تردهم على رؤوسهم إلى الأرض[(١)].

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾، كيف كان هذا العذاب من الشدة والقوة والاستئصال، إنه عذاب لا يقاس، ولا تدركه العقول، فهذا تهويل لهذا العذاب، وهذا عاقبة مخالفة النذر التي جاءتهم من الله ﷻ، ثم قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾، سبق تفسير هذه الآية، وكررها الله ﷻ بعد كل قصة في هذه السورة للتنويه بهذا القرآن العظيم الذي هو أكبر معجزة لنبينا محمدٍ ﷺ، وهو الآية الباقية، المعجزة الباقية، المستمرة.

ثم ذكر الأمة الثالثة، وهم ثمود، وثمود قبيلة تسكن في أرض الحجر شمالي الحجاز على طريق الذاهب إلى الشام، وكانت بلادًا زراعية وخصبة فيها المياه، وفيها الزروع والنخيل، فهذه القبيلة اغترت بنعمة الله عليها وبقوتها، وأشركوا بالله ﷻ، فبعث الله إليهم نبيه صالح ﵇، فدعاهم إلى الله، وحذرهم من الشرك، وأمرهم بإفراد الله بالعبادة.

لكنها ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ يعني: بالرسل؛ لأن من كذب رسولًا واحدًا، فقد كذب المرسلين كلهم، ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ هذا من السخرية والاستهزاء بنبي الله صالح، يريدون أن يأتيهم ملك من السماء.

﴿إِنَّآ إِذًا﴾، أي: إن اتبعناه ﴿لَّفِى ضَلَٰلٍ﴾، وهل أشد من الضلال الذي هم فيه، يزعمون أنهم على هدى، وأنهم إن تركوا ما هم عليه، وتبعوا صالحًا، صاروا في ضلال، ﴿وَسُعُرٍ﴾، أي: شر، يحذرون من اتباع نبي

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٩٨)، والقرطبي (١٧/ ١٣٧)، وابن كثير (٤/ ٢٦٥).

الله ﷺ، وأن من اتبعه، فقد ضل، ومن عصاه وبقي على ما هو عليه، فهو على هدى، فاعتقدوا الحق باطلًا، والباطل حقًا؛ وهذا من انتكاس فطرهم.

ثم قالوا: ﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾، أي نزل الوحي عليه من بيننا، لماذا خُصّ؟ لماذا لا يوحى إلينا مثله؟ ثم قالوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ﴾، لم ينزل عليه وحي، ولم يرسل، فخونوه، وكذبوه، ﴿أَشِرٌ﴾: من الأشر، وهو: الكبر، والبطر هكذا يصفون نبي الله ﷺ(1).

والكبر إنما يكون فيمن رفض الحق، وأما من جاء بالحق، فإنما يريد لهم الخير لأنه ناصح لهم، قال تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾، إذا وقع بهم العذاب أو في يوم القيامة، وسماه غدًا؛ لأنه قريب (من الكذب والأشر).

هل هو صالح أو هم؟ سيتبين لهم هذا عندما يحل بهم العذاب، فيدركون صدق نبي الله ونصحه، ويعلمون أنهم هم الكذابون، وهذا عام في كل من خالف الأنبياء، فإنه سيندم، إذا حلّ به العقاب.

ثم إنهم اقترحوا على صالح، البيّنة والآية التي تدل على أنه نبي، فأخرج الله لهم ناقة عظيمة حلوباً فيها اللبن الكثير، ومعها فصيلها، فقال لهم: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣]، ليست نفقتها عليكم ولا عليّ، هي التي تعلفكم، تسقيكم اللبن، ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾، أي: اختبارًا لهم، هل يؤمنون أم لا يؤمنون؟ هل يشكرون أم لا يشكرون؟ ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾، انظر ماذا يعملون؟

---

(1) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ١٠١)، وزاد المسير (٨/ ٩٧)، والقرطبي (١٧/ ١٣٨).

﴿وَٱصۡطَبِرۡ﴾ اصبر ولا تستعجل على ما يصدر منهم من عناد واستكبار، ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ﴾، كانوا يردون على بئر عذبة يقال لها: بئر الناقة، ويستقون منها، فكانت البئر لا تكفيهم هم والناقة، لأن الناقة تحتاج إلى ماء كثير، بحيث تشرب البئر كله، فالله ﷻ جعل ماء البئر قسمة بينهم وبين الناقة، يوم لهم يستقون ويوم للناقة، وعوضهم الله عن الماء بالحليب.

﴿كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ﴾، أي: كل قسم في يومه، فإن أهله يحضرون، فيوم الناقة تحضر الناقة، ويوم الأمة تحضر الأمة، وتشرب من البئر، أو محتضر يعني: ممنوع، فالناقة لا تشرب من يومهم، وهم لا يشربون من يوم الناقة، فكفروا نعمة الله ﷻ، وكفروا بآياته ورسوله[1].

﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ﴾ واحدًا منهم اسمه قدار بن سالف، وكان جبارًا عنيدًا، فنادوه، دعوه لعقر الناقة، تجرأ هذا الرجل الظالم فعقر الناقة.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾، أي: عقرها هذا الرجل، ونسب العقر إليهم جميعًا؛ لأنهم تمالؤوا معه، فكانوا كلهم عقروها، المباشر والمتسبب والمتمالئ حكمهم سواء.

فتعاطى أي: اتخذ جميع الأسباب لعقر الناقة، ﴿فَعَقَرَ﴾، ضربها بالحربة فعقرها، وقتلها، قال الله ﷻ: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي﴾، شدة وبطشًا.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ صاعقة، بأن صاح بهم جبريل عليه السلام، صيحة واحدة، فتقطعت قلوبهم في أجوافهم، وماتوا عن آخرهم، ﴿فَكَانُواْ كَهَشِيمِ

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ١٠٢)، وزاد المسير (٨/ ٩٧)، والقرطبي (١٧/ ١٤١).

﴿ٱلْمُحْتَظِرِ﴾، الهشيم هو النبات اليابس المتفتت، أي صاروا كالهشيم اليابس من الشجر، والمحتظر هو الذي يعمل الحظيرة لدوابه، فهذه الأمة صارت مثل الهشيم اليابس المتفتت الذي يُجعل حظيرة للدواب، وذهبت قوتهم التي يعتزون بها[(١)].

وكانوا مترفين يبنون القصور في الوادي، وينحتون من الجبال بيوتًا، ولا تزال مساكنهم إلى الآن في الجبال عبرة وعظة لمن يعتبر ويأتي بعدهم.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ كرر هذه الآية العظيمة تنويهًا بهذا القرآن العظيم الذي اشتمل على: أخبار الأمم الماضية، والأمور المستقبلة، والأحكام، والأمثال، والعظات. فهذا قرآن عظيم، من لدن حكيم خبير سبحانه وتعالى.

ثم قال عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ﴾، وكانوا في سدوم شمالي الحجر وكانوا على شرك بالله عز وجل، ومع الشرك كانوا يعملون فاحشة ما سبقهم بها من أحد من العالمين، مع حيث ارتكبوا فاحشة لم تعملها أمة من الأمم قبلهم، وهي إتيان الذكور بدلًا من الإناث التي خلقها الله أزواجًا لهم لإعفافهم ولأجل النسل والذرية، فهم كفروا بنعمة الله، واستبدلوها بالخبيث، استبدلوا الخبيث بالطيب.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾، أنذرهم لوط عليه السلام من هذه الجريمة ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾، ذكر الله عقوبتهم لما كذبوه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ١٠٢)، وزاد المسير (٨/ ٩٨)، والقرطبي (١٧/ ١٤٢)، وابن كثير (٤/ ٢٦٦).

حَاصِبًا﴾، والحاصب هو الحجارة التي أمطرها الله عليهم[(١)]، ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤] أي من النار.

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾: وقت السحر، السحر آخر الليل، أمره الله أن يسري بأهله في آخر الليل فرارًا من العذاب الذي سينزل بهم.

﴿نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ﴾، أي: أنجيناهم إنعامًا منا عليهم ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ﴾، فمن شكر الله ﷻ، فإن الله ينجيه، من شكر نعمة الله، فإن الله ينجيه، ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يونس: ١٠٣].

ثم ذكر أنهم استمروا في عنادهم إلى آخر لحظة لأن الله ﷻ أرسل الملائكة لإهلاكهم، فمروا على إبراهيم عليه السلام، فظنهم ضيوفًا، فقدم لهم الضيافة، لم يأكلوا، ثم أخبروه بمهمتهم، ثم إنه جادلهم في قوم لوط؛ لأن إبراهيم عليه السلام أواه حليم، ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٢﴾ [العنكبوت: ٣٢]، ثم ذهبوا إلى لوط عليه السلام، ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ [هود: ٧٧]؛ لأن قومه كلهم قد كذبوه، فماذا يعمل، ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾، لأنه ظنهم أنهم ضيوف أيضًا، وقد ألقى الله عليهم الجمال، وكانوا شبابًا، وفيهم جمال عظيم، فتنة لهذه الأمة، فأرسلت امرأته إلى هؤلاء تخبرهم بهؤلاء الرجال الذين جاؤوا إلى لوط، وأنهم في غاية الجمال؛ تغريهم، فجاؤوا

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ١٠٤)، وزاد المسير (٨/ ٩٨)، والقرطبي (١٧/ ١٤٣)، وابن كثير (٤/ ٢٦٦).

يريدون الفاحشة بهم، وهذا من الإملاء والإمهال والاستدراج، جاؤوا إلى لوط، وراودوه عن ضيفه، يعني طلبوا منه أن يخلي بينه وبينهم؛ ليفعلوا بهم الفاحشة، وحاصروه، وضايقوه، وهو يدافعهم، وأرادوا أن يكسروا الباب ويدخلوا عليهم، عند ذلك طمأنته الملائكة ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ [هود: ٨١]، فأخبروه بمهمتهم، وطمأنوه أنهم لن يصلوا إليه، خرج عليهم جبريل عليه السلام، فضربهم بطرف جناحه، فطمس الله أعينهم، وذهبت أبصارهم جميعًا في لحظة واحدة من أثر الضربة، وقيل: ﴿فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ﴾، يعني: أن الله أزال مكان أعينهم، حتى كأن لم يكن لهم أعين -والعياذ بالله.

﴿وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ ٣٨﴾، صبحهم وقت الفجر، والغالب أن العذاب يأتي في وقت الصباح وفي أول النهار، ﴿عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ﴾.

﴿مُّسۡتَقِرّٞ﴾ أي: دائم لا يخرجون منه أبدًا[1] ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾، وذلك بأن الله أمر جبريل عليه السلام، فرفع مدنهم على طرف جناحه، وهي سبع مدن ملأى بالناس فحملها على جناحه عليه السلام إلى أن بلغ عنان السماء، ثم قلبها عليهم، وأتبعوا بحجارة من سجيل، أي من النار -والعياذ بالله.

هذا وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وآله، وصحبه أجمعين.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ١٠٦)، وزاد المسير (٨/ ٩٩)، والقرطبي (١٧/ ١٤٤)، وابن كثير (٤/ ٢٦٧).

الدرس الثاني والعشرون

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾
أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾
سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ
فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ
خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ
فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ
﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر: ٤١-٥٥].

هذه الآيات من آخر سورة اقتربت الساعة، وهي كسابقاتها في بيان ما أحل الله ﷻ بالمكذبين من الأمم الذين كذبوا رسلهم من العقوبات والهلاك وفي ذلك تسلية لنبينا محمد ﷺ فيما أصابه من أذى قومه وتكذيبهم له، وفيه تهديد لهؤلاء الكفار الذين آذوا رسول الله ﷺ وكذبوه، ونسبوه إلى الصفات الذميمة، في أن ما حل بالأمم السابقة سيحل بهم إن لم يتوبوا إلى الله ﷻ.

والسعيد من وعظ بغيره، وفيها تذكير للمؤمنين أيضًا في أن يثبتوا على إيمانهم، ولو نالهم ما نالهم من الأذى، فإنهم يصبرون كما صبر إخوانهم من

المؤمنين السابقين، فكانت العاقبة لهم في الدنيا والآخرة، وكانت العقوبة على من عاداهم في الدنيا والآخرة.

ومن آخر من ذكره الله في آخر هذه السورة من الأمم السابقة فرعون وقومه، وفرعون هو ملك مصر، هذا اللقب يلقب به كل من ملك مصر في ذلك الزمان وكان قد بلغ من الكفر والطغيان ما لم يبلغه غيره، وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، فادعى الربوبية، وأنكر ربوبية الله ﷻ في الظاهر، وإلا في الباطن فهو يعلم أن الله هو رب العالمين، ويعلم عجزه ونقصه، وأنه ليس ربًا لهؤلاء، وإنما هذا من باب المكابرة والطغيان.

هذا من ناحية ما فعله في التوحيد والعقيدة، أما من ناحية ما فعله ببني إسرائيل وهم ذرية يعقوب عليه السلام، فهم من ذرية الأنبياء، وفيهم المؤمنون الصادقون، فهو تسلط عليهم، ورفع قومه من القبط، ومكنهم، وأذل بني إسرائيل، إلى حد أنه كان يقتل أبناءهم، ويستحيي نساءهم.

فعند ذلك أرسل الله إليه موسى عليه السلام، وهارون وهما من بني إسرائيل، أرسلهما إليه، لأن موسى طلب من ربه ذلك، فأجاب الله دعوته، وآزره بأخيه هارون، فجاءا إلى فرعون، وبلغاه رسالة الله ﷻ، وأن يتخلى عن هذه الدعوى القبيحة، وهي دعوى الربوبية، وأن يتخلى عن ظلم هؤلاء المستضعفين، فأخذته العزة بالإثم، واستكبر، وتوعد موسى وهارون، وحصلت جولات بينه وبين موسى وهارون عليها السلام، ظهر فيها كذبه، وافتضح أمره، ولكن ذلك لم يزده إلا عتوًا وجبروتًا.

في النهاية أمر الله موسى عليه السلام أن يخرج ببني إسرائيل من مصر، أراده الله عز وجل، فخرج بهم عليه السلام، فلما بلغ فرعون خروجهم، استشاط غضبًا، وخرج في أثرهم بقوته وقضه وقضيضه، يريد القضاء عليهم، وقال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ٥٤ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤-٥٦]، فخرج في أثرهم، فلما بلغوا البحر، وإذا فرعون وقومه خلفهم، فصار البحر أمامهم، والعدو من خلفهم، ﴿قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]، قال موسى عليه السلام: ﴿كَلَّآ﴾، أي: لن تدركوا أبدًا، ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، ومن كان الله معه، فلا غالب له، ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، فموسى عليه السلام موجه من قبل الله، والله معه، ﴿مَعِيَ رَبِّي﴾، يعني: بنصرته وتأييده وحفظه، ﴿سَيَهۡدِينِ﴾: سيدلني على النجاة.

فأمره الله أن يضرب بعصاه البحر الهائج المتلاطم، فضربه بعصاه، فتجمد، وصار شوارع أمثال الجبال، بينها طرقات: اثنا عشر طريقًا، على قدر أسباط بني إسرائيل، كل فِرقٍ له طريق خاص، حيث لا يتضايقون في طريق واحد، فأمرهم الله عز وجل بدخول هذا الطريق اليبس، فدخلوا، ولما تكامل خروجهم من الجانب الآخر، دخل فرعون في أثرهم، فأمر الله البحر، فانطبق عليهم، فأغرقهم الله جميعًا عن آخرهم، وبنو إسرائيل ينظرون إليهم.

هذا ملخص قصة فرعون وما جرى له، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ﴾، لقد: اللام لام القسم وتقديره والله لقد، وقد حرف تحقيق، وآله وأتباعه.

﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾، الله أعطى موسى آيات وبراهين- تدل على صدقه،

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١]، منها العصا، واليد التي يدخلها في جيبه، ثم تخرج بيضاء من غير سوء، ومنها الآيات التي ذكرها الله في سورة الأعراف، ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأعراف: ١٣٠]، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف: ١٣٣].

﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ التي مع موسى عليه السلام، بل كذبوا الآيات التي مع الرسل الذين قبله، وقامت عليهم الحجة، ووجب عليهم العذاب، ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾، أخذهم الله بالغرق، لما انطبق عليهم البحر، فغرقوا جميعًا هم وفرعون الذي يقودهم -والعياذ بالله-، فصارت أجسادهم إلى الغرق، وأرواحهم إلى الحرق.

﴿أَخْذَ عَزِيزٍ﴾، وهو الله عز وجل، والعزيز معناه: القوي الذي لا يغلبه شيء، ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ على كل شيء، لا يعجزه شيء سبحانه وتعالى، فلم يعجزوا الله عز وجل على قوتهم وجبروتهم وكثرتهم وثروتهم، لم يعجزوا الله عز وجل، أهلكهم جميعًا في لحظة واحدة.

ثم إن الله عز وجل خاطب كفار قريش وغيرهم الذين كذبوا محمدًا صلى الله عليه وسلم، فقال: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ﴾، أكفاركم يا معشر قريش ومن تبعكم ممن كذبوا رسولنا محمدًا صلى الله عليه وسلم خير من أولئك؟ من هذه الأمم -قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وفرعون-، أنتم خير منهم؟و أقوى منهم؟ وأقدر منهم على النجاة من العذاب؟، لا، الأمر ليس كذلك، بل أنتم أضعف منهم.

﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ﴾، هذا سؤال ثان، أو أن عندكم عهد من الله

ألا يعذبكم؟!، كتبه في الكتب السابقة أنه لا يعذبكم.

وسؤال ثالث ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾ ما أحد يهزمنا أبدا، قال الله ﷻ: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾. هذا وعد الله وهذه السورة مكية، وهم في إبان قوتهم وجبروتهم أخبر أنهم سينهزمون، كما حصل في يوم بدر، حينما خرجوا بقضهم وقضيضهم ورؤسائهم وجبروتهم؛ يريدون بذلك إظهار عزتهم وقوتهم، خرجوا أشرًا وبطرًا ورئاء الناس؛ ليفتخروا بقوتهم، والمسلمون عدد قليل، وليس معهم قوة تعادل قوة قريش، لا بالعدد، ولا في المدد، ثلاثمائة وبضعة عشر، وهم يزيدون على الألف.

التقوا في بدر، فمكن الله المسلمين من رقابهم، فقتلوا جبابرتهم ورؤساءهم، قتلوا منهم سبعين من رؤسائهم، وأسروا منهم سبعين، وظفروا بما معهم من الأموال والمتاع، وغنموه، ورجع المسلمون منتصرين، ورجع الكفار منهزمين، ومقتول رؤساؤهم وكبراؤهم، فوقع ما أخبر الله به ﷻ.

وتحقق وعد الله ﷻ في وقعة بدر، التي سماها الله يوم الفرقان؛ لأن الله فرق بها بين الحق والباطل، وهي أول وقعة في الإسلام طار ذكرها في الآفاق، وانتشر خبرها في القبائل، وأعز الله بها الإسلام والمسلمين، الذين كانوا في مكة مستضعفين ومستذلين ومقهورين(١).

ثم أخبر أنه ينتظرهم نقمة أشد من يوم بدر، ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾، حينما تقوم الساعة، وهو موعد لا يتخلف أبدًا، ولا يفلتون منه

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ١٠٨)، وزاد المسير (٨/ ١٠٠)، والقرطبي (١٧/ ١٤٥)، وابن كثير (٤/ ٢٦٧).

أبدًا، ﴿أَدۡهَىٰ﴾: أكبر مما أصابهم في الدنيا من الهزيمة والعار، ﴿وَأَمَرُّ﴾ يعني: أشد عذابًا، وأشد مرارة مما ذاقوه في الدنيا، فالله هددهم بأمرين: أمر في الدنيا، وقد وقع، وأمر ينتظرهم في الآخرة، لا محيد لهم عنه[(١)].

ثم أخبر عن حالهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، أي: كثيري الإجرام بالكفر، والشرك، والظلم، والعدوان على الناس، وتعدي حدود الله ﷻ، وانتهاك محارم الله، هؤلاء هم المجرمون، ﴿فِي ضَلَٰلٖ﴾، والضلال ضد الهدى، فهم في الدنيا في ضلال؛ لأنهم عصوا رسول الله ﷺ، ومن عصى رسول الله ﷺ، فهو ضال، قال الله ﷻ: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢].

و هم يزعمون أنهم في تقدم ورقي وحضارة وثروة، ويظنون أنهم على حق، يغترون باستدراج الله لهم، وهم في ضلال يسيرون ﴿وَسُعُرٖ﴾، قيل: سُعُر في الدنيا، وهو ما ينتابهم من الأفكار الباطلة والخواطر السيئة، وأنهم لا يقر لهم قرار؛ لأنهم ليسوا على هدى، الكافر قلق، تجده يظهر لك أنه مرتاح، وهو قلق في نفسه، تتناوبه الأفكار المزعجة؛ لأنه ليس على هدى، وإن بدا لك أنه في راحة وفي رفاهية، فهو في قلبه في قلق واضطراب، خلاف المؤمن؛ فإنه في قلبه الاطمئنان والراحة والصبر والثبات.

وقيل: في سعر يعني: في الآخرة، وذلك في النار؛ لأن النار هي السعير ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾، هذا ما ينتظرهم.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ١٠٩)، وزاد المسير (٨/ ١٠٠)، والقرطبي (١٧/ ١٤٦)، وابن كثير (٤/ ٢٦٧).

ويقال لهم: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾، أي: النار، مسها أي: لهبها وحرارتها، ذوقوا هذا -والعياذ بالله-، من باب التوبيخ لهم، زيادة إهانة لهم(١).

ثم قال الله ﷻ مبينًا أن كل ما يجري في هذا الكون -من كفر وإيمان، ومن نصر وهزيمة، ومن نعمة ونقمة، ومن مرض وصحة، ومن غنى وفقر- كله بقضاء الله وقدره، فقال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾؛ لأن الله قدر مقادير الخلائق، وكتبها في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، كما صح ذلك في الأحاديث(٢)، فهو علم ﷻ ما كان وما يكون، ثم كتب ذلك في اللوح المحفوظ بالقلم الذي قال له: اكتب، فكتب ما يكون إلى يوم القيامة(٣).

فهذه الآية من أدلة أهل السنة على القدرية الذين ينفون القدر، لأنها تدل على أن كل شيء، فهو بقدر، قدره الله ﷻ، وما قدره الله، فلابد من وقوعه، وهذا كما في قوله ﷻ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وفي الحديث: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ،

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ١١٠)، وزاد المسير (٨/ ١٠١)، والقرطبي (١٧/ ١٤٧)، وابن كثير (٤/ ٢٦٨).

(٢) كما أخرج مسلم في صحيحه (٢٦٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ».

(٣) كما أخرج أبو داود (٢١٥٥)، والترمذي (٣٣١٩) في سننهما، وأحمد في مسنده (٣٧/ ٣٧٨)، واللفظ له، من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمُ، ثُمَّ قَالَ: اكْتُبْ فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[(١)].

فلا يظن هؤلاء الكفار ومن جاء بعدهم أنهم أحرار يفعلون ما يشاؤون، بل هم عباد يمشون حسب ما قدره الله سبحانه وتعالى عليهم، وما قدره الله لابد أن يقع، لا راد له سبحانه وتعالى، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، فلا ينجو إلا من أطاع الله، وآمن بالله، وأما من استكبر، فإن الله عز وجل قد كتب عليه الشقاء، فلابد أن يدركه[(٢)].

﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾، إذا أراد الله شيئًا، فإنما يقول له: كن فيكون، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠].

﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾، ليس هناك شيء أسرع من لمح البصر؟ ما هناك شيء، فهذا أمر الله عز وجل مثل لمح البصر في السرعة، يقول له: كن. فيكون كما أمر الله عز وجل، لا يستعصي ولا يتخلف ما أراده، وأمر بتكوينه سبحانه وتعالى، ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ﴾ أي: الأمر الكوني.

ثم أعاد التهديد للكفار فقال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾، من الأمم الماضية: من قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم إبراهيم، وأصحاب مدين، والمؤتفكات، كلهم في الكفر متشابهون، فآخر الكفار يشبه أول الكفار، سنتهم واحدة، وسنهلككم مثلهم، هذا تهديد من الله عز وجل[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم (٨).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ١١٠)، وزاد المسير (٨/ ١٠٢)، والقرطبي (١٧/ ١٤٨)، وابن كثير (٤/ ٢٦٨).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ١١٢)، وزاد المسير (٨/ ١٠٢)، والقرطبي (١٧/ ١٤٩)، وابن كثير (٤/ ٢٦٩).

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، هل من متذكر منكم، مزدجر، متعظ بما جرى لمن سبقكم؟[١].

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾، هذا مثل قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾، كل شيء فعله العباد، فإنه مكتوب في الزبر، يعني: في اللوح المحفوظ، وقيل: في صحائف الملائكة التي تسجل عليهم، ولا مانع من هذا وهذا، فما فعلوه فهو في اللوح المحفوظ، وهو محصىً عليهم في الزُّبُر، وهي الكتب التي بأيدي الحفظة، ويحاسبون عليها يوم القيامة، ما تضيع أو تذهب[٢].

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ﴾ من الأمور، ﴿وَكَبِيرٍ﴾ من الأمور، ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ يعني: مكتوب في اللوح المحفوظ، أو في صحائف الملائكة، أو فيهما جميعًا، ولهذا يقولون يوم القيامة إذا عرض الكتاب ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

ولما انتهى من توبيخ هؤلاء المشركين المكذبين، ثم ذكر حال المؤمنين الذين لم يأخذهم الكبر والجهل والأنفة، فاستجابوا للرسول ﷺ، وأطاعوه وانقادوا له، وآمنوا به، قال: ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾، هؤلاء يسحبون في النار على وجوههم، وهؤلاء في جنات، جمع جنة: وهي البستان الملتف بالأشجار

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ١١٢)، وزاد المسير (٨/ ١٠٢)، والقرطبي (١٧/ ١٤٩)، وابن كثير (٤/ ٢٦٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ١١٢)، وزاد المسير (٨/ ١٠٢)، والقرطبي (١٧/ ١٤٩)، وابن كثير (٤/ ٢٦٩).

والخضرة والمناظر الجميلة والثمار الشهية، ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ﴾، ليست جنة واحدة، جنات كثيرة، لا يعلمها إلا الله ﷻ، وكل له منزله ومكانه، لا يزدحمون، ولا يتخاصمون، ولا يتجادلون، وكل يرضى بما هو فيه؛ لأنه يحس أن ما هو فيه أنه أكثر النعيم، ما أحد يغبن في الجنة، كل واحد يرى أنه هو أحسن أهل الجنة منزلة، مطمئن، ولا يوجد حسد، ولا شحناء، ولا أحقاد، إخوان على سرر متقابلين: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر: ٤٧].

﴿وَنَهَرٍ﴾، أنهار تجري من تحت الجنات، يشربون منها، وينظرون إليها، فيجتمع لهم جنات وأنهار، هذا منتهى السرور والغبطة والراحة، ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾، وهو مقعدهم عند الله ﷻ، وبجوار الله ﷻ، وكرامة الله، ﴿عِندَ مَلِيكٍ﴾، مليك: مالك لكل شيء، لا يعجزه شيء، فما طلبوا أعطاهم إياه، وزادهم ما لم يطلبوه؛ لأنه لا يعجزه شيء، وهو جواد كريم ﷻ، قادر على كل شيء، كل ما أرادوا وتمنوا، وما لم يتمنوا، فإنه موجود وبسهولة، ما يحتاج إلى كلفة وتعب ومشقة.

بل إن الله ﷻ يتجلى لهم ويرونه عيانًا بأبصارهم، فلا يجدون لذة ألذ من رؤية الله ﷻ، ينسون نعيم الجنات إذا رأوا الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، الزيادة هي النظر إلى وجه الله[١]، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، ناضرة بالضاد وهي النضرة وهي

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١١/ ١٠٤)، وزاد المسير (٤/ ٢٤)، والقرطبي (٨/ ٣٣٠)، وابن كثير (٢/ ٤١٥).

الحسن، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾، بالظاء أي: تنظره بأبصارها وتراه بأبصارها رؤية عيان، كما قال ﷺ: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ، لاَ تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لاَ تُغْلَبُوا عَلَى صَلاَةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا**»(١)، كلٌّ يراه بدون تزاحم وبدون ضرر، فيتجلى لهم سبحانه وتعالى علانية، ويرونه سبحانه وتعالى بأبصارهم؛ حتى تقر أعينهم برؤيته، ولا يجدون نعيمًا ألذ من النظر إلى وجه الله.

قال سبحانه وتعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق: ٣٥]، المزيد هو النظر؛ مثل: آية يونس عليه السلام، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، وهذه آية ق ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾، وهو النظر إلى وجه الله؛ كما ثبت ذلك في صحيح الإمام مسلم رحمه الله(٢).

هذا نتيجة الإيمان والعمل الصالح، واتباع هذا الرسول ﷺ الذي يدعو إلى الجنة، ويدعو إلى السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، فمن اتبعه، حاز على هذه الكرامة، وهذه النعمة والمنزلة العظيمة في الدار الآخرة، ثم نعيم الجنة لا نفاد له، ولا موت ولا مرض، ولا هم ولا حزن، ولا تباغض أو شحناء، فهو نعيم صاف، ليس فيه ما يكدره، وأيضًا دائم لا ينقطع ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨]، ما يخافون أنهم يطلعون من الجنة، أو يُخرجون

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٤، ٥٧٣، ٧٤٣٤)، ومسلم (٦٣٣).

(٢) كما أخرج مسلم في صحيحه (١٨١) من حديث صُهَيْبٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عز وجل**».

منها، أو أن أحدًا يتغلب عليهم؛ مثل: ما هم في الدنيا، كل يخاف على ما عنده أنه يؤخذ ويسرق، يتغلب عليه جبار أو ظالم، لا. ما يخافون ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحجر: ٤٦]، وهي دار السلام.

فهذه هي الجنة التي وصفها الله، وهي لمن اتبع هذا الرسول ﷺ، فمن أراد هذه الجنة، فليتبع هذا الرسول ﷺ، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى**»، **قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ**: «**مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى**»(١)، فالذي لا يطيع الرسول ﷺ يدخل النار.

فهذه نتيجة طاعة هذا الرسول ﷺ، وهذه نتيجة معصية الرسول ﷺ ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾، هذه نتيجة كفرهم برسول الله ﷺ، وامتناعهم من طاعته والانقياد له، نسأل الله ﷻ أن يوفقنا وإياكم وسائر المسلمين لطاعة هذا الرسول والإيمان به واتباعه، والتمسك بسنته، والسير على نهجه إلى يوم نلقاه.

هذا، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٠).

الدرس الثالث والعشرون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ٤
ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ
ٱلْمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ
٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ١١ وَٱلْحَبُّ ذُو
ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ١٢ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ
كَٱلْفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ١٥ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾
[الرحمن: ١ - ١٦].

هذه سورة عظيمة، ذكر الله ﷻ فيها من نعمه التي أنعم بها على عباده الشيء الكثير، وسماها آلاء، والآلاء هي: النعم(١).

افتتحها الله ﷻ باسم من أسمائه، متضمن لما ذكر فيها من النعم، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ والرحمن: اسم من أسمائه سبحانه وتعالى، متضمن للرحمة، وهي صفة من صفاته ﷻ، ثم بدأ بذكر أعظم النعم، وهي: تعليمه القرآن، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ٢﴾، الذي هو كلامه سبحانه وتعالى، أنزله على رسوله محمد ﷺ،

---

(١) انظر: لسان العرب (١٥/ ٤١٤) (فصل الواو)، وتاج العروس (٣٧/ ٩٧) باب (ألى).

وعلمه رسوله لأمته، وأمته تناقلته جيلًا بعد جيل، يتعلمون هذا القرآن.

وقد يسر الله ﷻ تعلم القرآن، فصار يتعلمه الكبير، والصغير، والعربي، والعجمي، والذكر، والأنثى، ولا يجدون مشقة في تعلمه، وحفظه(١)، فالقرآن كلام الله ﷻ، علمه لعباده، ويسره لهم، وهذا من أكبر نعمه ﷻ.

والقرآن العظيم فيه آيات، وعبر، وفيه نعم عظيمة، وفيه علوم جليلة من كل ما يحتاجه البشر، علم ألفاظه، وعلم معانيه، فهذا منَّة من الله ﷻ على عباده، فأعظم نعمة أنعمها الله على عباده هو هذا القرآن الذين بين أيديهم، يهتدون بهديه، ويسيرون على توجيهاته، يبشرهم، وينذرهم، يفقههم في دين الله، فهو الكتاب العظيم الذي ما نزل أعظم منه في الكتب الإلهية(٢).

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾، جنس الإنسان، وهم: بنو آدم، ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾، علم هذا الإنسان البيان من بين سائر المخلوقات، فمنحه الله ﷻ النطق الذي يبين به مراده، ومطلوبه، وميز بذلك الإنسان عن سائر المخلوقات، يبين مراده بلغات مختلفة: اللغة العربية، واللغة الفارسية، واللغة السريانية، واللاتينية، ولغات كثيرة لا يعلمها إلا الله ﷻ، كل هذا داخل في البيان الذي علمه الله لهذا الإنسان.

---

(١) مصداقًا لقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ١٧].

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه أحمد في المسند (٢٨/ ١٨٨) من حديث وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمَئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ».

فكل إنسان يفصح عن مراده باللغة التي ينطق بها، ويتخاطب بها مع غيره.

﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾، فمن نعم الله ﷻ: هذه الكواكب النيرات في السماء، منها ما هو سيّار، ومنها ما هو ثابت، وأعظمها النيران: الشمس، والقمر، ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٥﴾ [يونس: ٥] ونص على الشمس، والقمر؛ لما فيهما من عظيم المنافع من بين سائر الكواكب.

والشمس: سراج يضيء الكون، والقمر: نور يضيء الكون -أيضًا-، وفي ضوء الشمس، والقمر مصالح للنباتات، وللعباد، وبهما يُعرف الليل، والنهار، فلو لم يكن هناك شمس، ولا قمر لما عرف الناس الليل، والنهار(١)، ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا﴾ [الإسراء: ١٢].

فقوله: ﴿بِحُسۡبَانٖ﴾ أي: يعرف بهما حساب السنة: الشهور، والسنين، وبذلك تنتظم مصالح العباد، ومواقيتهم من سير الشمس، ومن سير القمر، وتكون السنة الشمسية، والسنة القمرية، فالله ﷻ جعل في السماء بروجًا تنزلها الشمس برجًا بعد برج، وهي: اثنا عشر برجًا تستكملها الشمس في استكمال السنة، والقمر منازل، كل ليلة ينزل في منزلة، وهي: ثمان وعشرون، وليلة تسع وعشرين وثلاثين يستتر القمر، وتسمى ليالي

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٢/ ٩).

الاستسرار، ثم يُهِل، فهذه منازل القمر[١].

﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩]، كل ليلة في منزلة، فالقمر يقطع في شهر ما تقطعه الشمس في سنة في هذه المنازل، هذا هو المشهور في تفسير الآية: أن الله جعل الشمس، والقمر لمصالح عظيمة، ومنها: الحساب، ﴿وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا﴾ [الإسراء: ١٢]، ولا يختلف الحساب، ولا يتغير[٢]، ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠﴾ [يس: ٤٠].

فهذا معنى قوله ﷻ: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ٥﴾، ثم هذا الحسبان لا يتغير، ولا يختلف، ولا يختل أبدًا؛ لأنه مقدر، ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨].

ثم قال ﷻ، ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ٦﴾، لما ذكر الشمس، والقمر، ذكر آية النبات، والنبات على قسمين: نبات صغير يغطي الأرض، وهو: النجم الذي ليس له ساق[٣]، والشجر ما له ساق[٤]، وقيل: المراد بالنجم الكوكب[٥]، فالكواكب تسجد لله، وسجود كل شيء بحسبه، وليس كما

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤٥٤).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢١٧)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣١٠)، وقال ابن كثير رحمه الله (٤/ ٢١٧): «فَبِالشَّمْسِ تُعْرَفُ الْأَيَّامُ، وَبِسَيْرِ الْقَمَرِ تُعْرَفُ الشُّهُورُ، وَالْأَعْوَامُ».

(٣) ويراد به: ما نَجَمَ من الأرض من نَبت، انظر: تفسير الطبري (١/ ٥١٦، ٢٢/ ١١)، وزاد المسير (٤/ ٢٠٦)، ولسان العرب (١٢/ ٥٦٨).

(٤) انظر: تفسير الطبري (١/ ٥١٦)، وتفسير القرطبي (١٥/ ١٢٩)، ومقاييس اللغة (٣/ ٢٤٦).

(٥) انظر: زاد المسير (٤/ ٢٠٦).

يقول بعض البلاغيين: إنه مجاز، أو سجود معنوي، لا، هو سجود حقيقي، لكنه يختلف باختلاف المخلوقات.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ [الحج: ١٨]، فالنباتات تسجد لله، كبيرها، وصغيرها سجودًا يليق بها، والنجوم تسجد لله سجودًا يليق بها وهو سجود خضوع وكل شيء يسجد لله ﷻ، كما أن الإنسان يسجد لله ﷻ سجود عبادة، ومن الناس من لا يسجد لله، ويتكبر، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨] ولهذا قال ﷻ: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]، فلم يستثن في الشمس، والقمر، والنجوم، والشجر والدواب؛ لأنها كلها تسجد لله ﷻ سجود انقياد وخضوع والإنسان منه من يسجد طاعة لله، وتعبدًا، ومنهم من لا يسجد هذا السجود وهم كثيرون، ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾.

ثم قال ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧﴾، من نعم الله: خلق السماوات، والأرض، فالأرض فراش، ومهاد للإنسان، والسماء سقف محفوظ، ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾، بقدرته ﷻ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١]، فهو الذي يمسك السماوات، والأرض بقدرته ﷻ، هذا الرفع رفع بعيد، ما بين الأرض، والسماء الدنيا خمسمائة عام كما في الحديث[1]؛ . . . .

---

(١) إشارة إلى الحديث الذي أخرجه الترمذي (٣٢٩٨) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: «بَيْنَمَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ وَأَصْحَابُهُ إِذْ أَتَى عَلَيْهِمْ سَحَابٌ، فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا هَذَا؟» فَقَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «هَذَا العَنَانُ هَذِهِ رَوَايَا الأَرْضِ =

ولهذا قال: ﴿رَفَعَهَا﴾.

﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾، أي: أمر بالعدل في المكاييل، والموازين، وإعطاء الناس حقوقهم من غير بخس، والعدل في القول: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، والعدل في الحكم ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، والعدل بين الزوجات: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣]، والعدل بين الأولاد؛ كما في الحديث: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ»[1]، فالعدل مطلوب في كل شيء، وضده الجور، والظلم، وهو حرام، ومنهي عنه[2]، والعدل مأمور به، ومثاب عليه؛ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما، يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ: «الْمُقْسِطُونَ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عز وجل، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ

= يَسُوقُهُ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- إِلَى قَوْمٍ لَا يَشْكُرُونَهُ وَلَا يَدْعُونَهُ» ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا فَوْقَكُمْ»؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهَا الرَّقِيعُ، سَقْفٌ مَحْفُوظٌ، وَمَوْجٌ مَكْفُوفٌ»، ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهَا؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهَا مَسِيرَةُ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ». ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا فَوْقَ ذَلِكَ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّ فَوْقَ ذَلِكَ سَمَاءَيْنِ، مَا بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ» حَتَّى عَدَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ، مَا بَيْنَ كُلِّ سَمَاءَيْنِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا فَوْقَ ذَلِكَ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّ فَوْقَ ذَلِكَ الْعَرْشَ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّمَاءِ بُعْدُ مَا بَيْنَ السَّمَاءَيْنِ»... الحديث.

(١) أخرجه البخاري (٢٥٨٧) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٥٥) من حديث أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا»... الحديث.

يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ، وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا»[(١)].

فالذين يعدلون في حكمهم، وأهليهم، وما ولاهم الله عليه، يوم القيامة يكرمهم الله، فيكونون على منابر من نور، وأيضًا عن يمين الرحمن ﷻ؛ تكرمة لهم، وجزاء على ما قاموا به من العدل.

فالواجب على الإنسان التزام العدل في جميع أموره، ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾، فلا تدفعك عداوة شخص على أن تقول فيه قولًا سيئًا، أو تشهد عليه شهادة زور، أو تخبر عنه بما لم يحصل منه؛ نتيجة لعداوتك له، ولا تحف مع زميلك، أو صديقك، بل الزم العدل، وقل الحق ولو كان على نفسك، ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾، فليتنبه لهذا من يقعون في أعراض الناس، ويغتابونهم، خصوصًا أعراض ولاة أمور المسلمين، والعلماء، فلا يجوز أن تجور في حقهم، بل تلزم العدل في كلامك، فالميزان هو العدل في كل شيء.

ثم تأمل قوله: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾، وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾، أي: لا يكن منك زيادة في الوزن، وزيادة في القول، وزيادة في الحكم، وغلوًا، وتطرفًا، ولا يكن منك إخسار للميزان، ونقص لحقوق الناس، بل الزم الوسط، والطغيان هو: الغلو، والزيادة عن الحق في كل شيء.

﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾، لما ذكر أنه رفع السماء ذكر أنه وضع الأرض،

---

(١) أخرجه أحمد (١١/ ٣٢)، وابن حبان في صحيحه (١٠/ ٣٣٦) بلفظ: «**الْمُقْسِطُونَ عَلَى أَهْلِيهِمْ، وَأَوْلَادِهِمْ، وَمَا وَلُّوا**».

وجعلها على الماء؛ ليعيش الناس عليها، وثبتها بالجبال الرواسي حتى لا تميد بأهلها، وحتى يتمكنوا من العيش على ظهرها، ومن استغلال خيراتها، ﴿لِلْأَنَامِ﴾، أي: للخلق، فالمراد بالأنام: الخلق، وليس هذا خاصًا بالإنسان، بل كل المخلوقات التي تعيش على وجه الأرض من إنسان، وغيره من الحيوانات، فالله ﷻ مهد لها الأرض، وبسطها، وجعل فيها منافع العباد، يزرعون، ويأكلون، وأودع فيها المعادن التي يستخرجونها، وينتفعون بها، ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [فصلت: ١٠].

فهذه الأرض وما فيها من آيات الله، ومن عجائب مخلوقاته.ثم ذكر ما تخرجه الأرض من الفواكه، ومن النباتات، فقال ﷻ: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾، وهي ما يتفكه الإنسان، ويتلذذ به من أنواع الفواكه المختلفة في الطعوم، والروائح، والألوان، يترفهون بها، ويتلذذون بها[1]، وهناك فواكه من الزيتون، والرمان، والأعناب، وغير ذلك من أصناف الفواكه، التي لا يعلمها إلا الله ﷻ، ثم ذكر النخل، وخصها بالذكر؛ لعظم المنة بها.

فقال: ﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾، الأكمام: الطِلْع المكموم بالغلاف الذي يتفتح عنه غلافه، ثم يؤبّر، ثم يتنامى إلى أن ينضج، ويكون رطبًا وتمراً يتغذى به الناس، ويتفكهون به[2]، وقيل: المراد بالأكمام الليف الذي تلتف

---

(١) انظر: مادة (فكه) مقاييس اللغة (٤/ ٤٤٦)، ولسان العرب (١٣/ ٥٢٣)، وتاج العروس (٣٦/ ٤٥٨).

(٢) انظر: مادة (كم) مقاييس اللغة (٥/ ١٢٢)، ولسان العرب (١٢/ ٥٢٦)، وتاج العروس (٣٣/ ٣٧٧).

به النخلة(١)، ولكن المشهور القول الأول.

﴿وَٱلْحَبُّ﴾، ذكر ثلاثة أصناف: فواكه، وتمور، حب والمراد به سائر الحبوب التي يتغذى بها الناس، البر، والشعير، والدخن، والذرة، وغير ذلك من أنواع الحبوب التي يتغذى بها الناس، ويستثمرونها من هذه الأرض فتأمل كيف أنها تربة واحدة، وماء واحد، والمخرجات تختلف، فهذا مما يدل على قدرة الله ﷻ، ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤].

فاخرج إلى الأرض وقت الربيع، وانظر إلى العشب، كم ترى من الأصناف المتجاورة، والأشكال، والألوان، فالذي أوجدها، ونوعها، وغذاها هو الخالق ﷻ، فهذا من آياته ﷻ، ﴿ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾، العصف هو: التبن الذي تأكله الدواب إذا يبس، وصار تبنًا، يسمى عصفًا، والريحان: الورق الأخضر، وقيل: هو الريحان المعروف الذي له رائحة ذكية(٢)، ولكن المشهور أن المراد بالريحان الأوراق الخضراء، والناس ينتفعون بهذا، وهذا.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾، فكل هذه النعم لا ينكر أحد ان الذي أوجدها هو الله وحده، ولم يُعلم أن أحدًا قال: إن فلانًا هو الذي خلق هذا الشيء، أو هو الذي أوجد هذا الشيء، فهل أحد يقول: إن الأصنام،

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٢/ ٢٠)، وزاد المسير (٤/ ٢٠٧)، وتفسير القرطبي (١٧/ ١٥٧).

والقبور، والأضرحة، والأموات هم الذين أوجدوا هذا الأشياء أو شيئاً منها؟ ما أحد يستطيع قول هذا، يعترفون بهذا فطرة، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾، أي: نِعم ﴿رَبِّكُمَا﴾، التثنية للثقلين: الإنس، والجن؛ بدليل قوله في الآية التي ستأتي: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾.

فهذا تقرير لتوحيد الربوبية التي يعترفون به، ومطالبة بتوحيد الألوهية الذي ينكرونه، كيف تعترفون أن الله هو خالق هذه الأشياء، ثم تعبدون غيره ممن لا يملك شيئًا، ولا يقدر على شيء إلا بإقدار الله ﷻ، فهذا فيه تقرير التوحيد، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، أي: أي نعمة من هذه النعم تكذبون بها؟ لا يمكن أنهم يكذبون؛ ولذلك لما سمعها الجن من رسول الله ﷺ قالوا: «**لَا بِشَيْءٍ مِنْ نِعَمِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ فَلَكَ الحَمْدُ**» فقال ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم: «**لَقَدْ قَرَأْتُهَا عَلَى الجِنِّ لَيْلَةَ الجِنِّ فَكَانُوا أَحْسَنَ مَرْدُودًا مِنْكُمْ كُنْتُ كُلَّمَا أَتَيْتُ عَلَى قَوْلِهِ**: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمن: ١٣]، **قَالُوا: لَا بِشَيْءٍ مِنْ نِعَمِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ فَلَكَ الحَمْدُ**»(١).

ثم واصل الله ﷻ ذكر النعم إلى آخر السورة، وبعد كل نعمة من النعم يقول: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وهذا تقرير عظيم بالبرهان على التوحيد، وبطلان الشرك.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾، المراد بالإنسان: آدم عليه السلام، فإن الله خلقه من طين يابس له صلصلة، وصوت من يبسه، ﴿كَٱلْفَخَّارِ﴾،

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٩١)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥١٥)، والبيهقي في الشعب (٤/ ١١٥، ٦/ ٢٤٠).

وهو الآجر المشوي بالنار، خلق آدم من جنس هذا الفخار، من طين لازب يابس، خلقه الله ﷻ بيده، أما بقية الخلق فيقول له: كن فيكون، أما آدم فإن الله ﷻ خلقه بيده تكرمة له.

وهذا من عجائب قدرة الله ﷻ أنه جعل من الطين بشرًا، ولحمًا، ودمًا، وعروقًا، وأعصابًا، وعظامًا، وخلق نسله من سلالة من ماء، وهو: المني فذرية آدم من ماء، أما آدم عليه السلام فهو من طين.

﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾، أي: أبا الجان، وهم إبليس، وذريته، سموا جانًا؛ لأنهم مستترون، من الاجتنان وهو: الاستتار[1]، فهم من عالم الغيب لا نراهم، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ﴾ أي: الشيطان، ﴿وَقَبِيلُهُۥ﴾، أي: ذريته، وجماعته ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧]، فهم عالم خفي؛ ولذلك سموا بالجان ولذلك لما افتخر إبليس، وقال: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، وكان هذا القياس باطلًا؛ لأن الطين خير من النار، فالطين ينبت النباتات وينتج، وهو بارد وفيه فوائد، أما النار فهي محرقة، لا تنتج شيئًا.

ثم تناسلت الجان مثلما تناسل بنو آدم، وذكر الجان؛ لأنهم مكلفون مثل بني آدم، ومأمورون، ومنهيون، ولهم عقول، فهم مثل بني آدم، منهم المسلم، والكافر، ومنهم المطيع، والعاصي، ومنهم الفاسق، ومنهم الخيّر، ومنهم الشرير، مثلما في بني آدم سواء[2].

---

(١) انظر: مادة (جنن) مقاييس اللغة (١/ ٤٢١ - ٤٢٢)، وتاج العروس (٣٤/ ٣٦٦ - ٣٦٧).

(٢) مصداق ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ [الجن: ١١] =

ثم قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾، هل ينكر الإنسان أنه مخلوق لله ﷻ؟، هل ينكر الجن أنهم مخلوقون لله ﷻ؟، هل أحد يدعي أنه وُجِد من غير موجد؟، أو من غير خالق؟ يقرر ﷻ نعمه، وآياته، وبراهينه، ثم يتحدى الجن، والإنس فيقول: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾، لا أحد يكذب بهذا، فتوحيد الربوبية لا يجحده أحد.

هذا وبالله التوفيق وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه.

= وقال شيخ الإسلام ؒ: (أي: على مذاهب شتى، كما قال العلماء: منهم المسلم، والمشرك، واليهود، والنصراني، والسني، والبدعي).

انظر: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (١/ ١٩٣- ١٩٤)، ومجموع الفتاوى (١١/ ٣٠٥).

الدرس الرابع والعشرون

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ
﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ
وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ
﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ
﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٧ - ٣٤].

قوله ﷻ: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾، أي: أرسل، فالمرج هو: الإرسال(١)، والضمير في مرج مستتر عائد على قوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾، والمراد بالبحرين: البحر المالح، والبحر العذب؛ كما في قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الفرقان: ٥٣].

---

(١) انظر: مادة (مرج) في تاج العروس (٦/ ٢٠٧)، ولسان العرب (٢/ ٣٦٥).

وأما البحر المالح وجعله الله مالحًا لمصالح العباد؛ لأنه يلطف الجو، وما مات فيه من الحيوانات لا ينتن، وتجري فيه السفن، والمراكب، ويستخرج منه اللؤلؤ، والمرجان، فالبحر فيه مصالح عظيمة للعباد.

﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾، والبرزخ هو: الحاجز[1] الذي يحجز أحدهما عن الآخر فيمنع اختلاط بعضهما ببعض، مع أنهما متجاوران، ولكن من حكمة الله، ولطفه أن وضع حاجزًا بين البحر العذب، والبحر المالح لمصالح العباد.

وفي الآية الأخرى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣]، فهذا من آيات الله ﷻ، ولطفه بعباده أنه عزل الماء العذب عن الماء المالح، فبقي العذب عذبًا، وبقي المالح مالحًا، وفي كل منهما مصالح لعباده، ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾، لا يتجاوز أحدهما على الآخر، فالبغي معناه: التجاوز، والتعدي[2]، فكل منهما له حدود لا يتجاوزها، فيختلط بالآخر، مع أنهما في أرض واحدة، ولكن من لطف الله ﷿: حجز بعضهما عن بعض.

ثم قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾، أي: بأي نعم الله تكذبان أيها الثقلان: فهذا من نعم الله، أنه أوجد البحرين، وفاوت بينهما في الطعم، وحجز بينهما.

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٢٢﴾، هذا من أعظم فوائد البحر المالح،

---

(١) انظر: مادة (بزخ) في مقاييس اللغة (١/ ٣٣٣)، وتاج العروس (٧/ ٢٣٤)، ولسان العرب (٣/ ٨).

(٢) انظر: مادة (بغي) في تاج العروس (٣٧/ ١٧٩)، ولسان العرب (١٤/ ٧٨).

﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ﴾، أي: الدر الكبير[١]، ﴿وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾، الدر الصغير[٢].

ثم قال ﷻ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، لا أحد يكذب بهذه النعمة، ويجحدها؟ أو ينسبها إلى غير الله ﷻ؟ فهذا تقرير للتوحيد، وإفراد الله بالعبادة ﷻ، فإذا كان لا يقدر على هذا إلا الله، فإنه هو المستحق للعبادة، وأن ما يعبد من دونه فإن عبادته باطلة؛ لأنه لا يملك شيئًا من ذلك، ولا يقدر على شيء، بل هو محتاج فقير.

ثم قال ﷻ: ﴿وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ﴾، الجوار أصلها الجواري بالياء، وحذفت الياء، تخفيفاً والجواري هي: السفن التي تجري في البحر[٣]، فقوله: ﴿وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ﴾، أي في ملكه ﷻ، ﴿ٱلۡمُنشَـَٔاتُ﴾، أي: المرفوعات في البحار، تكون أمثال الجبال في الارتفاع، والضخامة، ولا تغوص في الماء؛ لأن الله ﷻ يحملها، وهذا من آيات الله ﷻ.

فهذه المراكب على ضخامتها، فإنها تسير على الماء، وتقف عليه، ولا تغوص، ﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓ﴾ [الشورى: ٣٣]، هذا من آيات الله ﷻ، ولو شاء أغرقها؛ ولهذا أحيانًا يرسل الله عليها الأمواج،

---

(١) سُمِّيَ بِذَلِكَ لِاضْطِرَابٍ يُرَى فِيهِ لِصَفَائِهِ، كَأَنَّهُ مَاءٌ يَضْطَرِبُ. انظر: مقاييس اللغة (٢/ ٢٥٦)، ولسان العرب (١٣/ ٤٠٦).

(٢) انظر: لسان العرب (١٣/ ٤٠٦)، وتاج العروس (١/ ١٢٠).

مسألة: قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: الْمَرْجَانُ صِغَارُ اللُّؤْلُؤِ، وَاللُّؤْلُؤُ اسْمٌ جَامِعٌ للحبِّ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الصدفة، والمَرْجانُ أَشدُّ بَيَاضًا، وَلِذَلِكَ خَصَّ الْيَاقُوتَ وَالْمَرْجَانَ فَشَبَّهَ الْحُورَ الْعِينَ بِهِمَا. انظر: لسان العرب (١٣/ ٤٠٦).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٤٥٦)، وتفسير القرطبي (١٥/ ١٣٦).

والرياح، فتغرق؛ ليري العباد قدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ونعمته عليهم، ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾، الفلك هي: السفينة، ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٢-٢٣]، فهم يخلصون لله في الشدة، ويشركون به في الرخاء، وهذا كان في الجاهلية.

أما عبّاد القبور اليوم -والعياذ بالله-، فإن شركهم دائم في الرخاء، والشدة بل شركهم في الشدة أشد فهم أشد شركًا من أهل الجاهلية، فشركهم دائم -والعياذ بالله- في الرخاء، وفي الشدة.

﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾، أي: كالجبال، والأعلام جمع علم، وهو: الجبل المرتفع[1]، فهي كالجبال، ومع هذا تقف، وتسير على الماء، فالله هو الذي يسيرها، ويحفظها بما فيها على أمواج المياه، ومتن العباب، فهذا من آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾، هذا من نعم الله، وآلائه على عباده، أنه يسيرهم في البر، والبحر، ويسير بضائعهم، وتجاراتهم، وهذا شيء مشاهد الآن بما يوجد في البحار من المراكب الفخمة البحرية، والسفن، والبوارج التي تمشي على العباب، وتشق الماء، هذا من آياته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لكن أين من يعتبر، ويتعظ، ويشكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على هذه النعمة، ويعبد الله، ولا يشرك به شيئًا؟؛

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٥٤١)، ولسان العرب (١/ ١٧٣).

لهذا ذكّر عباده بهذه النعمة، وقررهم بها، والمطلوب أن يشكروا الله عليها بدل أن يكذبوا بها، هل الأصنام، والأموات، وهل المعبودون من دون الله يستطيعون أن يسيروا هذه المراكب الهائلة في البحار؟، ويهدوها الطريق في بحر ليس فيه علامات، ولا جبال، ولا طرق؟، بحر متلاطم، ومع هذا سخر الله للعباد وسائل يهتدون بها في السماء، وفي الأرض، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧].

ثم قال ﷻ مبينًا نهاية هذا العالم، وأنه لن يستمر، وأن هذه الدنيا إنما خلقت لأجل العمل لدار بعدها، ونهاية هذه الدار هو الموت، الذي ينتقل به العباد إلى الدار الآخرة، قال ﷻ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾، أي: على هذه الأرض، والمراد: خطاب العقلاء من بني آدم، من الثقلين: الجن، والإنس، ﴿فَانٍ﴾ ميت، من الإنسان، والحيوان، وكل ما فيها حتى المباني، والقصور تفنى، والمصنوعات تخرب، وتفنى، فلا يبقى شيء في هذه الدنيا.

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾، لا يبقى إلا الله ﷻ، فله البقاء الدائم، وهو الحي الذي لا يموت، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ٥٨]، ولا تتوكل على الحي الذي يموت من الجن، والإنس أو الأولياء، والصالحين، وغير ذلك، ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾، كما في الآية الأخرى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، والوجه صفة من صفات الله الذاتية، فله وجه ﷻ يليق بجلاله، وعظمته.

ثم قال: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾، وصف وجهه ﷻ بالجلال، والإكرام، والجلال: العظمة التي لا يعادلها شيء، والإكرام، أي: الذي يكرم عباده

بالنعم، والطاعة، والجزاء الحسن، ويكرمه العباد -أيضًا- بالعبادة، والثناء عليه، والشكر له ﷻ، فهو المستحق للإكرام، والمستحق للإجلال.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، عد الله الفناء، والموت من النعم؛ لأن الله يسوي به بين المؤمنين، والكافرين، والجبارين، والطواغيت، والمفسدين والمصلحين، وهذا عدل منه ﷻ، وهذا من نعمه على عباده أنه جعل لهم نهاية ينتقلون فيها إلى دار الجزاء، والعدل، والحساب، ولم يتركهم يسرحون، ويمرحون، فالمؤمن يتعب في عبادة الله، ثم لا يحصل على جزاء؟، والمفسد يفسد في الأرض، ويطغى، ويتكبر، ويتجبر، ولا يوقف عند حده، ولا يجد جزاء؟

فالله جعل هذا من أكبر نعمه، أنه وضع حدًا لهذه الحياة؛ لينتقل أهل الإيمان، والأعمال الصالحة إلى الجنة، وينتقل أعداء الله، ورسله إلى النار، ولم يتركهم يسرحون، ويمرحون، ويفسدون في الأرض.

فالموت غاية كل حي، لا أحد يبقى من الخلق دائمًا على قيد الحياة، فليتذكر المسلم هذا، وأنه في يوم من الأيام، أو لحظة من اللحظات سيموت فيتناهى عن غيه، وعن ضلاله، ويستعد لهذا الموت قبل حلوله، وكثيرًا ما يذّكر الله بالموت، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: ٣٤ - ٣٥].

ثم قال ﷻ: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فكل الخلق في السماوات،

أو في الأرض مفتقرون إلى الله، والله هو الغني الحميد.

فكل الخلق يحتاجون إلى الله، ويسألونه حوائجهم، كل الحوائج تطلب من الله ﷿، يطلب منه الرزق، ويطلب منه الشفاء من المرض، ويطلب الخير، وحوائج العباد متنوعة لا يعلمها إلا الله ﷻ، ويعطي إذا شاء كل سائل سؤله، ولا ينقص ذلك مما عنده شيئًا(١)، ولا يتبرم، أو يكره سؤال عباده، بل يفرح بذلك، ويحثهم على أن يسألوه ﷻ، ولا يكره سؤالهم، بخلاف ابن آدم فإنك إذا سألته يتبرم من ذلك، ويكرهه؛ ولهذا يقول الشاعر(٢):

لَا تَسْأَلَنْ بُنَيَّ آدَمَ حَاجَةً ... وَسَلِ الَّذِي أَبْوَابُهُ لَا تُحْجَبُ

اللهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَه ... وَبُنَيُّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

فالله ﷿ يحب أن يسألوه، وأن يلحوا عليه(٣)، وأن يطلبوا منه، ولا تقف

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٥٥) من حديث أبي ذر ﵁، عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه - تبارك وتعالى - أنه قال: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ»... الحديث.

(٢) ذكر هذين البيتين أبوسليمان الخطابي في كتابه (العزلة) (ص٦٧) وعزاهما إلى الخزيمي. وانظر: شرح الطحاوية لابن أبي العز (ص٥١٩)، وفيض القدير (١/ ٥٥٦) وتحفة الأحوذي (٩/ ٢٢١).

(٣) جاء في الحديث الذي أخرجه الطبراني في الدعاء (١/ ٢٨)، والبيهقي في الشعب (٢/ ٣٦٤) من حديث عَائِشَةَ ﵂، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَيُحِبُّ الْمُلِحِّينَ فِي الدُّعَاءِ».

عند حد في الطلب، واسأل الله الفردوس الأعلى[١]، والنعيم المقيم، واسأله من خير الدنيا، والآخرة، فإنك تسأل غنيًا كريمًا قريبًا مجيبًا.

وحتى الذين يعبدون غير الله، يريدون أن يجعلوهم وسائط في قضاء حوائجهم، فالسؤال كله لله ﷻ، ولكن هؤلاء غلطوا، فجعلوا بينهم، وبين الله وسائط، والله لا يحتاج إلى وسائط، فهو يسمع، ويجيب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويريد أن يعطي عباده إذا سألوه، ولا يليق به أن يجعل وسائط بينهم، وبينه، أما إذا عبدوا هذه الوسائط، وظنوا أن عبادتها تقربهم إلى الله، فهذا هو الشرك الأكبر قال نعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وقالوا: ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فالله ﷻ يُسأل مباشرة بدون واسطة أحد، وإذا طلبت من أحد الصالحين الأحياء أن يدعو الله لك فلا مانع، وكونك تدعو الله أنت أفضل، وأحسن، أما أن تدعو ميتًا، أو غائبًا، أو جنيًا، فهذا شرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿كُلَّ يَوْمٍ﴾، أي: كل وقت، ﴿هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، من شؤون خلقه المتنوعة المتعددة المتكررة، ومن شؤون ملكه ﷻ، يخلق، ويرزق، ويحيي، ويميت ويجيب دعاء الداعين على اختلاف حاجاتهم، وتنوع لغاتهم، واختلاف أماكنهم، من في السماوات، والأرض كلهم يسألون الله، كم في السماوات والأرض لا يعلمهم إلا الله، وكل واحد له حاجة تختلف عن الآخر، وربما يسألونه في وقت واحد، بلغات مختلفة، وحاجات متنوعة، وكلها يسمعها

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٧٩٠، ٧٤٢٣)، واللفظ له من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ، وَأَعْلَى الجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ».

الله ﷻ، ويجيبها، ويجيب ما يشاء منها، وهذا دليل على عظمته ﷻ، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠].

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وهذا من نعم الله ﷻ، أنه يسأله من في السماوات، والأرض، وهو قد فتح بابه ليلًا، ونهارًا، سرًا، وجهارًا، يسمع دعاءهم، ويقضي حاجاتهم، ويفرج كرباتهم، ويعطيهم، ولا ينفد ما عنده ﷻ؛ ولهذا جاء في الحديث القدسي أنه ﷻ يقول: «**يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ**»(١)، فهو ﷻ أكرم الأكرمين، وأجود الأجودين، وكل جود في الناس فهو من جوده، وكل كرم في الناس فهو من كرمه ﷻ. ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ كل يوم يقدر ما يجري في ذلك اليوم وهذا التقدير اليومي وهناك التقدير الحولي في ليلة القدر وهناك التقدير العام في اللوح المحفوظ.

ثم قال ﷻ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾، أي: نحاسبكم، ونجازيكم على أعمالكم، وهذا معناه التهديد، والوعيد، وهذا الحساب بعد الموت.

فدل على أن الجن، والإنس كلهم سيحاسبون، ويجازون بأعمالهم، وأن الجن مكلفون مثل الإنس، ومجزيون بأعمالهم، منهم المؤمن، والكافر، ومنهم المطيع، والعاصي، ومنهم المستقيم، والفاسق، ومنهم الطيب، والخبيث، مثل الإنس تمامًا.

ثم قال: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، الإنس: بنو آدم، آدم أبو البشرية،

---

(١) أخرجه مسلم (٥٥) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

وإبليس أبو الجن، ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ﴾، هذا تعجيز لهم بأنهم، وإن تمردوا عليه في الدنيا، وخالفوا أمره، وعصوه، فإنهم في الآخرة لن يفلتوا من الحساب، ومن المجازاة، ولن يمكنهم الهرب من الله ﷻ، فليعملوا ما شاءوا، فإنهم سيلاقون عملهم.

﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ﴾، أي: تخرجوا ﴿مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، لا يمكن أن يخرج أحد من ملكوت الله ﷻ، وهذا في يوم القيامة، إذا جمع الله الأولين، والآخرين، وأحاطت بهم الملائكة صفوفًا، فلا منفذ لأحدهم ولا مهرب، ﴿فَٱنفُذُواْۚ﴾، هذا أمر تعجيز، ثم قال: ﴿إِلَّا بِسُلۡطَٰنٍ﴾، إلا بقوة تغلب قوة الله ﷻ، وهذا مستحيل، فإذا كنت يوم القيامة في المحشر فلن تستطيع أن تهرب، وأن تخرج من ملك الله ﷻ، فكيف تعصيه في هذه الدنيا؟ هل تظن أنك ستفلت يوم القيامة؟، هل تظن أنك ستبقى، ولا تموت؟، هل تظن أنك ستترك، ولا تحاسب؟، فكر أيها الإنسان العاقل في هذا الأمر.

فتذكر هذا أيها الإنسان: أنك ستلاقي عملك، ولا يغيب منه شيء، كل ما عملته في الدنيا فإنك ستلاقيه، وإذا كان عملًا سيئًا فلن تتخلص منه، ولن تهرب منه، فهو ملازم لك، ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾ [الإسراء: ١٣ - ١٥]، لا حجة لأحد، فقد بعث الله الرسل، وأقام الحجة على عباده، وبين لهم حتى كأنهم يشاهدون يوم القيامة عيانًا، وما يجري فيه، فلم يبق لهم حجة على الله ﷻ.

ثم قال تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾، من حاول أن يخرج من أقطار السماوات، والأرض، فإنه لا يستطيع؛ لأنه يرسل عليه الشواظ، وهو: اللهب الخالص، من نار، ونحاس، وهو: الدخان الذي لا لهب فيه، أو الدخان المختلط بشيء من اللهب، وقيل: المراد بالنحاس على حقيقته[1]، وهو: المعدن، فهو يذاب يوم القيامة، ويلقى على هؤلاء المجرمين؛ تعذيبًا لهم -والعياذ بالله-.

﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾، على هذا الشواظ، وعلى هذا النحاس، بل يغلبكم ذلك وتقعون تحت وطأته، ولا يفلت منكم أحد.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وآله، وصحبه أجمعين.

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٤٥ - ٤٦)، وتفسير ابن كثير (٧/ ٤٥٩)، وتفسير القرطبي (١٧/ ١٧١).

الدرس الخامس والعشرون

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾
فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ
ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ
ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾
وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ
زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ
دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا
جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

[الرحمن: ٣٧ - ٦١].

بعد أن ذكر الله ﷻ آياته الدالة على عظمته، وقدرته، واستحقاقه للعبادة، وأن هذه الآيات، والبراهين من نعمه على عباده، ذكر ﷻ ما يكون في الآخرة من نعيم الجنة، وعذاب النار؛ ليذكر عباده بذلك حتى يستعدوا له،

ويعملوا من أجله، ويعلموا أنهم ما وجدوا في هذه الدنيا ليستقروا، ويبقوا فيها، وإنما سينقلون إلى دار أخرى، فعليهم أن يستعدوا لهذه النقلة، وهذه الدار التي لا انتقال منها، هي: دار القرار.

فقال ﷻ: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾، أي: السماوات المبنية بعد أن كانت قوية محكمة فإنها تتشقق يوم القيامة؛ لأن هذا الكون سيتغير بسمائه، وأرضه، وأفلاكه، وكواكبه، إلى عالم آخر، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وقد ذكر الله ﷻ تشقق السماوات في آيات كثيرة، قال ﷻ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقال ﷻ: ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة: ١٦-١٧]، وقال ﷻ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ [الانفطار: ١-٤]، وقال ﷻ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾﴾ [الانشقاق: ١ - ٥].

آيات كثيرة تذكر بهذا الحدث الهائل الذي تتشقق منه السماوات، وتندك منه الجبال، وتتناثر منه الكواكب، وتزلز الأرض، يوم هائل، ويوم عظيم، ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾، أي: تقطعت، وتمايزت، ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾، أي: محمرة كحمرة الورد، فهي الآن خضراء صافية، ثم يتغير لونها عند قيام الساعة، فالسماء تحمر، وتصير كالوردة الحمراء، وتذوب، فتصير كالدهان الذائب، ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ [المعارج: ٨]، أي: الفضة الذائبة، ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾﴾ [المعارج: ٩]، أي: الصوف المنفوش.

فيذكر الله ﷻ بهذا الحدث الهائل؛ ليستعد له الإنسان، ولا يطمئن إلى هذه الدنيا، وينشغل بها عن هذا اليوم الذي لا بد منه، ولا ريب فيه؛ لأنه لا بد أن يقع، وليس هو من الأمور المحتملة التي يمكن أن تحصل، ويمكن أن لا تحصل، أو يمكن للإنسان أن يغيب عنها، ولا يحضرها، كل هذا منتفٍ، فلابد أن تحصل، ولابد لكل إنسان أن يحضر في هذا اليوم؛ ولهذا قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، أي: بأي نعم الله تكذبان أيها الجن، والإنس وهذا الذي يحصل، وهذا الهول نعمة؛ لأن الله ﷻ لا يترك الناس يسرحون ويمرحون بدون جزاء، وينال به المحسن ثواب عمله، وينال المجرم عقاب عمله، فمن نعمه ﷻ: أنه يقيم العدل بين عباده، فينتصر أهل الإيمان، والحق على أهل الباطل، الذين كانوا يسرحون، ويمرحون في هذه الدنيا، ويطغون، ويتكبرون، ويؤذون المؤمنين، فمن نعم الله ﷻ أنه لا يتركهم، بل يوقفهم يوم القيامة على جزائهم، وينال المحسنون الصابرون الثابتون على الحق ثوابهم الذي لا يعلمه إلا الله ﷻ.

هذا من أعظم النعم أن الأعمال لا تذهب سُدى، وتكون تعبًا بلا نتيجة؛ ولهذا قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾.

ثم قال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾، أي: إذا تشققت السماء، وقام الناس من قبورهم ﴿لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾؛ لأن أعمالهم محصاة مكتوبة، فلا يسئلون عنها سؤال استعلام، واستفهام، وإنما يسئلون عنها سؤال حساب، ومناقشة هذا قول.

والقول الآخر: أن يوم القيامة أحوال، تارة يسألون، ويحاسبون،

ويناقشون، وتارة لا ينطقون، ولا يتكلمون، فهذا يراد به هذه الحالة أنه يأتي عليهم وقت لا يتكلمون، ولا ينطقون(١).

وكيف يعرفون ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾، تظهر عليهم علامات يعرفون بها أنهم مجرمون، ولا يحتاج إلى سؤال، كسواد الوجوه(٢) -والعياذ بالله- والمناظر السيئة المحزنة، ويظهر على محياهم، وعلى ملامحهم أنهم مجرمون، كما أن المؤمنين يعرفون -أيضًا- بسيماهم، ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩]، فيبعثون يوم القيامة غرًا محجلين من أثر الوضوء، فيعرفون بسيماهم الطيبة، وملامحهم الكريمة(٣).

﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾، تأخذهم الملائكة أخذ إهانة، وقوة، وإنما يجمع بين نواصيهم، وهي: مقدم رؤوسهم، وأقدامهم، فتجمع النواصي، والأقدام فيكون هذا تعذيبًا لهم -والعياذ بالله-، ويطرحون في النار، تأخذهم الملائكة على هذه الصفة المروعة.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، هذا من نعم الله ﷻ: مجازاة المجرمين، فلا يتركهم بدون جزاء، وبدون حساب، ويهملهم، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾، [المؤمنون: ١١٥].

---

(١) انظر: زاد المسير (٢/ ٥٤٥)، وتفسير القرطبي (١٠/ ٦١).

(٢) قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٣٦) واللفظ له، ومسلم (٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: «إِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ».

ثم قال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، تأتي النار يوم القيامة، تُحْضَر، ويراها هؤلاء المجرمون، وتستعر، وتتوقد، ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: ٨]، يرونها معاينة[1]، ويقال لهم: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، في الدنيا يقولون: ليس هناك نار، ولا جنة، ولا بعث، ولا نشور ولا جزاء، ولا حساب، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [المؤمنون: ٣٧].

ففي يوم القيامة تظهر أمامهم عيانًا زيادة في حسرتهم، وتعذيبهم، ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ۝٥٣﴾ [الكهف: ٥٣]، ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦]، توبيخًا لهم.

﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ۝٤٤﴾، أي: يترددون بين سعيرها، وحرها، وعذابها، وبين ماء حميم، يسقون منه -والعياذ بالله-، حينما يحتاجون إلى الشراب يسقون من الحميم، وهو: الماء الحار ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، -والعياذ بالله، فهم ما بين سعير، ولهب، وعذاب، وبين شراب حميم، ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ [الكهف: ٢٩]، أي: كالفضة المذابة من شدة حره.

﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾، أي: شديد الحرارة، كما قال تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٥]، أي: حارة شديدة الحرارة، فهذان وصفان له: أنه حميم،

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٩) من حديث عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا**».

وأنه آن[1]، أي: شديد الحرارة، فهذا فيه جزاء هؤلاء المجرمين.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾، أيها الجن والإنس، فهذا فيه نعمة، وهو من الآلاء؛ لأنه جزاء، وليس ظلمًا لهم، وإنما هو جزاء، وعدل، ولم يظلمهم الله ﷻ، وهذا من نعمه أنه لا يظلم أحدًا، بل يجازي كلًا بعمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٢١﴾ [الجاثية: ٢١]، لا يمكن أن يسوي الله بين الكافرين، والمؤمنين الذين يعملون الصالحات، أو المجرمين، ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، هذا من أعظم نعم الله، وهو: العدل الذي يقيمه ﷻ بين عباده، فلا يعذب من يستحق التنعيم، ولا ينعم من يستحق التعذيب، هذا عدله ﷻ بين عباده.

ثم لما ذكر النار، وأوصافها، وما يلقاه أهلها، ذكر الجنة كما هي طريقة القرآن الكريم، أن الله يذكر الجنة، والنار، فإذا ذكر الجنة ذكر النار، وإذا ذكر النار ذكر الجنة؛ حتى يتضح الأمر للناس، وحتى يجمعوا بين الخوف، والرجاء، فإذا قرأوا الآيات التي فيها النار خافوا، وإذا قرأوا الآيات التي فيها الجنة رجوا الله ﷻ، فإذا خافوا تركوا الذنوب، والسيئات، وتابوا منها، وإذا رجوا الله عملوا الأعمال الصالحة.

فهذا من حكمته ﷻ: أنه يجمع بين آيات الوعد، والوعيد، وبين ذكر الجنة، والنار، فقوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾، أي: قيامه بين يديه ﷻ،

---

(١) انظر: مقاييس اللغة (١/ ١٤٣)، وتاج العروس (٣٧/ ١٠٨)، ولسان العرب (١٤/ ٤٨).

وعرضه على ربه؛ لأنك لابد أن تلقى الله ﷻ؛ للحساب، والجزاء، فإذا خفت هذا الموقف، وهذا المقام، فإنك تستعد له، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، فمن خاف هذا المقام، واستعد له في الدنيا، فإنه يكون من أهل الجنة[(١)]، ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ۝٤١﴾ [النازعات: ٤٠ - ٤١].

وليس هناك قسم ثالث، بل إما جنة، وإما نار، فانظر إلى أيهما تصير، وإنما ذلك بأعمالك، فأعمالك هي التي إما أن توردك النار، وإما أن توردك الجنة.

لمن خاف ﴿جَنَّتَانِ﴾، ليست جنة واحدة، بل هما جنتان منوع فيها النعيم والسرور، والحبور ما لا يعلمه إلا الله ﷻ، جنة النعيم[(٢)]، جنة عدن[(٣)]، جنان كثيرة، ودرجات عظيمة[(٤)]، ومنازل لا يعلمها إلا الله ﷻ.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه الترمذي، واللفظ له (٢٤٥٠)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٤٣٤)، والبيهقي في الشعب (٢/ ٢٦٦، ١٣/ ١٥٠) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ».

(٢) كما في قوله ﷻ من دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨٥﴾ [الشعراء: ٨٥].

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٤٦٧٤، ٤٨٧٨، ٤٨٧٩، ٧٠٤٧، ٧٤٤٤)، ومسلم (٢٩٦).

(٤) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٧٩٠، ٧٤٢٣)، واللفظ له، ومسلم (١١٦) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ - أُرَاهُ - فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ».

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾، لما ذكر الجنة، وذكر النار، عد هذا من نعمه سبحانه وتعالى على عباده، حيث لم يأتهم الأمر عن جهل، فيقولون: وما علمنا أننا نلاقي هذا، فهو مبين لهم في الدنيا، ومفصل لهم في الدنيا، كأنهم يشاهدونه.

فالجنان من آلاء الله، ونعمه سبحانه وتعالى، ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾، ذواتا: تثنية ذات، أي: صاحبتا، تقول: ذو كذا، أي: صاحب كذا، صاحب الحوت ذو النون والنون هي: الحوت، فذات بمعنى صاحب، ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾، جمع فنن، وهو: الغصن، أي: فيها أغصان الأشجار المثمرة، كل غصن محمل بالثمار الطيبة النضيجة، وقيل: أنواع من النعيم من الفواكه مختلفة الطعوم، والروائح، فهي أفنان، أي: فنون كثيرة[1]، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، فما أعد الله في الجنة فهو من نعمه سبحانه وتعالى التي يجب أن يشكر عليها.

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾﴾، لا تنضبان أبدًا، دائمًا تجريان بالماء العذب الزلال؛ لأن أهل الجنان يحتاجون إلى ماء، ولأن الأشجار تحتاج إلى ماء، وجعل الله عز وجل في هاتين الجنتين عينين تجريان دائمًا، وإذا اجتمع بهجة النظر إلى الأشجار، والثمار، وبهجة النظر إلى الماء، تكاملت البهجة، ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥]، وهي: أنهار متنوعة، ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٥٩)، وتفسير ابن كثير (٧/ ٥٠٢، ٥٠٧)، وتفسير القرطبي (١٧/ ١٧٨).

أما النار فقال: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ﴾، ماؤهم الحميم -والعياذ بالله-، ﴿تَجْرِيَانِ﴾، لا تيبسان، ولا تنضبان، ولا ينقطعان، أو يغوران كمياه الدنيا، بل إنهما دائمًا في جريان، ولا ينفد ما فيهما من الماء، وتأمل ﴿تَجْرِيَانِ﴾ يجري ماؤها ولا يكون في مكان محصور، ثم يتزاحمون عليه، وإنما تجريان للوصول لمنازلهم، وقصورهم.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ لأن هذا من نعم الله ﷻ التي يجب أن يشكر عليها، ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾، أي: صنفان من كل فاكهة، ليست فواكه محدودة، إنما هي كل فاكهة، وهي ما يتفكه به، وتتلذذ به النفس، ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]؛ لأن الشكل الواحد ربما يُملّ، وليس في الجنة ملل.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، هذا من نعم الله التي يشكر عليها، ثم قال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍ﴾، فأهل الجنة يتكئون، ويجلسون على فُرُش، وليست فرشًا عادية، ﴿بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾، أي: ما يلي الأرض منها من إستبرق، أي: من الديباج الحرير الغليظ، فإذا كان هذا باطنها، فكيف بظهورها، هذا لا يعلمه إلا الله ﷻ.

فذكر البواطن التي تلي الأرض، وأنها من هذا النوع من الحرير الذي لا يعلمه إلا الله، فكيف بظهورها، وما يلي الجالسين؟، هذا لا يعلم جماله إلا الله ﷻ، ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾، الثمر الذي يتناولونه، ويأكلونه لا يحتاج متناوله أن يصعد الشجرة، وأن يتكلف لأخذه، ويقاسي من الشوك، ومن ارتفاعه، هو دان إليه، متى ما أراد تناول منه، وهو على حالته، لا يتكلف

شيئًا في طلبه، ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾، [الحاقة: ٢٢ - ٢٣]، أي: ثمارها دانية قريبة من متناولهم، ليس عليهم مشقة في أخذها كما يكون هذا في أشجار الدنيا.

ثم قال ﷻ: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾، وهن أزواجهم، الحور العين، قاصرات الطرف على أزواجهن لا يردن غير أزواجهن؛ لأنهن راضيات بهم، فلا يردن غيرهم، ولا يجدن أحسن منهم، بخلاف نساء الدنيا، فإنهن يتطلعن دائمًا إلى الرجال، ولا تقر أعينهن بأزواجهن-إلا من رحم الله-، أما الحور العين فإنهن قصرن نظرهن على أزواجهن، ولا يطمعن، ولا يطمحن إلى غيرهم؛ لأنهن قد رضين بهم تمام الرضا.

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾، أي: لم يطأهن، ويفتض بكارتهن، خلاف نساء الدنيا، فإنها غير مأمونة، أما نساء الجنة فإنها محفوظة بكارتها، ولذتها لا يفتضها إلا زوجها، وهذا دليل على أن الجنة يكون فيها جِنّ مثل ما كانوا في الدنيا، المؤمنون من الجن يكونون في الجنة، والكافرون من الجن يكونون في النار.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾، هذه الأزواج الحِسان القريرات أعينهن بأزواجهن، لا يطمحن، ولا يطمعن في غيرهم، ولا ينظرن في غيرهم؛ اقتناعًا، واستئناسًا بهم، ولا يجدن خيرًا منهم فهي من نعم الله وآلائه.

ثم وصفهن وصفًا آخر، فقال: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ۝٥٨﴾، كأنهن في صفاء، وحسن ألوانهن كالياقوت، وهو: الحجارة النفيسة صافية اللون، والمرجان الذي هو الدُّر الجميل، فهنّ حِسان الوجوه، بياض مع حمرة في

صفاء، مثل صفاء الياقوت، والمرجان، فهذه ألوان نساء أهل الجنة، ثم هن لا يتغيرن، ولا يهرمن، ولا يكبرن، ولا يمرضن، دائمًا وأبدًا هن كذلك(١).

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ بأي نعم الله أيها الجن، والإنس، ﴿تُكَذِّبَانِ﴾، هل أحد يكذب بهذه النعمة التي ذكرها الله ﷻ في الجنة؛ جزاءً لعباده المؤمنين؟، ثم قال ﷻ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾، هل: بمعنى لا، أي ليس جزاء الإحسان إلا الإحسان(٢)، فهم لما أحسنوا العمل، أحسن الله لهم الجزاء؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فكما أن الكفار الذين كفروا بالله، وعصوا رسله، صار جزاؤهم العذاب، والغضب من الله ﷻ، فالمؤمنون لما أحسنوا في طاعة الله ﷻ، أحسن الله لهم الجزاء، فهذا عدل، وتفضل منه ﷻ، حيث إنه لا يضيع أجر المحسنين، ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

ثم قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، فهذا من نعم الله ﷻ: أنه لا يضيع أجر المحسنين، بل يجازيهم بالإحسان الذي لا يعلم كنهه، ووصفه إلا هو ﷻ.

فهذه آيات عظيمة في وصف الجنة، وما فيها، ووصف نساء أهل الجنة، وجمالهن، هذه آيات عظيمة ترغب، وتشوق إلى الجنة، وهذه الجنة لا تنال بالتمني، ولا بالانتساب، وإنما تنال بفضل الله ﷻ، الذي سببه العمل

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٦٦ - ٦٧)، وزاد المسير (٤/ ٢١٤)، وتفسير ابن كثير (٧/ ٤٦٥)، وتفسير القرطبي (١٧/ ١٨٢ - ١٨٤).

(٢) انظر: زاد المسير (٤/ ٢١٤)، وتفسير القرطبي (١٧/ ١٨٢).

الصالح، فالذي يريد الجنة يحسن العمل، أما الذي يتمنى أن يكون من أهل الجنة، ولا يعمل، فالتمني لا يفيده شيئًا؛ ولهذا قال ﷺ: «**الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ**»(١).

«**الكَيِّسُ**» أي: العاقل، «**مَنْ دَانَ نَفْسَهُ**»، أي: حاسبها، «**وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ**»، فالعاقل هو الذي يحاسب نفسه دائمًا، وينظر في أعماله، ويتذكر الموت، فيعمل لما بعده، «**وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا**»، فالنفس لا تريد العبادة، ولا تريد الطاعة، وهو يعطيها هواها، يريحها من العبادة، ويريحها من الطاعة، ويريحها من الجهاد في سبيل الله، وينعمها، ويعطيها ما تشتهي.

«أتبع نفسه هواها»، في هذه الدنيا، «**وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الأَمَانِيَّ**»، يتمنى أن يكون من أهل الجنة بدون عمل، هذا لا يكون أبدًا، فهذا عاجز -والعياذ بالله-، عاجز عجز خمول، وكسل، لا هو عجز من لا يستطيع، الذي لا يستطيع لا يكلفه الله ﷻ، وإنما يستطيع، ولكن هذا عجز خمول، وكسل، وضعف إيمان، أو عدم إيمان، فهذا لا ينفعه التمني، أو الانتساب إلى الصالحين، أو التوسل بالصالحين، أو بصلاحهم، أو ما أشبه ذلك، فلا ينفعه شيء.

فعلينا أن نستعد للجنة بالأعمال الصالحة، ونستعد بالهرب من النار،

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠)، وأحمد في المسند (٢٨/ ٣٥٠)، والطبراني في الصغير (٢/ ١٠٧)، وفي الكبير (٧/ ٢٨١، ٢٨٤)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٢٥، ٤/ ٢٨٠)، والبيهقي في الشعب (١٣/ ١٢٩)، وفي الكبرى (٣/ ٥١٦)، من حديث شداد ابن أوس رضي الله عنه.

والتوبة من الأعمال السيئة؛ ولهذا يقول بعض السلف: «**عَجِبْتُ لِلنَّارِ كَيْفَ نَامَ هَارِبُهَا، وَعَجِبْتُ لِلْجَنَّةِ كَيْفَ نَامَ طَالِبُهَا**»(١)، فالذي يطلب الجنة، ويخاف من النار يقدم العمل الصالح.

وفي الحديث عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ**»(٢)، فإذا اتبعت الشهوات ذهبت بك إلى النار، وإذا صبرت على المكاره، ومشاق العبادة، صبرت على الصوم، على صلاة الليل، على أداء الفرائض، صبرت على الجهاد في سبيل الله، صبرت على الابتلاء، والامتحان، هذه مكاره، فإذا صبرت عليها آلت بك إلى الجنة، والنبي ﷺ قال: «**لَا تَنْسَوُا الْعَظِيمَيْنِ: الْجَنَّةَ، وَالنَّارَ**»(٣)، فلابد أن تكون دائمًا بين عينيك، تتذكر النار فتتوب إلى الله عز وجل من الذنوب، والمعاصي، وتتذكر الجنة فتكثر من الأعمال الصالحة، والطيبة، فإن الله ذكرنا بالجنة، والنار في كثير من آيات القرآن، ومنها هذه الآيات الكريمات.

وبالله تعالى التوفيق. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

---

(١) ينسب هذا القول إلى هرم بن حيان رحمه الله، من حكاية المعلي بن زياد: أنه، أي: هرم، كان يخرج في بعض الليالي وينادي بأعلى صوته قائلًا ذلك.
انظر: «التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار» لزين الدين عبد الرحمن بن أحمد ابن رجب بن الحسن، السَلامي، (١/ ١٨)، ونضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (٥/ ١٨٩٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٨٧) بلفظ: «**حُجِبَتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ، وَحُجِبَتِ الجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ**». من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (١) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الدولابي في «الكنى والأسماء» (٢٠٧٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الدرس السادس والعشرون

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا
فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ
يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ
وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾
[الرحمن: ٦٢ - ٧٨].

لما ذكر الله ﷻ الجنتين، وأوصافهما، قال في هذه الآيات: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾، أي: من دون الجنتين الموصوفتين جنتان أيضًا دونهما في الصفة، والجنتان الأوليان للمقربين، وهاتان الجنتان لأصحاب اليمين؛ لأنهم تختلف منازلهم في الجنة، فالجنة درجات، وأهلها متفاوتون في منازلهم، كتفاوتهم في الدنيا في أعمالهم الصالحة.

والجنتان الأوليان من ذهب آنيتهما وما فيهما من ذهب، وهاتان الجنتان

من فضة آنيتهما، وما فيهما[(١)]، ﴿مُدۡهَآمَّتَانِ﴾، أي: خضراوان، فالدهوم الخضرة الحاصلة بالأشجار الملتفة[(٢)]، وفي الجنتان الأوليان، قال: ﴿ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ٤٨﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣﴾، أي: نعم الله ﷻ، ﴿تُكَذِّبَانِ﴾، أيها الثقلان، فإن هذه الجنات من نعم الله ﷻ على عباده، ومن نعمه: أنه لايسوي بين الناس، بل يفاوت بينهما حتى في الجنة بحسب أعمالهم، فهذا من نعمه ﷻ، فهاتان الجنتان المدهامتان من نعم الله على عباده، تستوجبان منهم الشكر، لا التكذيب.

ثم قال ﷻ: ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ نَضَّاخَتَانِ ٦٦﴾، قيل فائضتان بالماء[(٣)]، وفي الأوليين قال: ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ ٥٠﴾، وهذا أفضل من النضاختين؛ لأن معنى ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾، فائضتان بالماء، وقيل فوارتان بالماء، وهذا أقل من الجريان.

ثم قال: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ ٦٨﴾، نص على أن النخل، والرمان، وهما داخلان في قوله: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ﴾، من باب تميز النخل، والرمان على

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري، واللفظ له (٤٨٧٨، ٧٤٤٤)، ومسلم (٢٩٦) من حديث أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ، عَنْ أَبِيهِ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِ، عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ**».

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٧٠ - ٧١)، وزاد المسير (٤/ ٤٣٢)، وتفسير القرطبي (١٧/ ١٨٤)، ومقاييس اللغة (٢/ ١٩٥)، ولسان العرب (١٢/ ٢٠٩).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٧٢)، وتفسير القرطبي (١٧/ ١٨٥)، ولسان العرب (٣/ ٦٢، ٢/ ٦١٨)، وتاج العروس (٧/ ٣٥٧).

بقية الفواكه، فالنخل للغذاء، والرمان للدواء، فتختلف منافع النخل، والرمان، وهما متميزان على غيرهما من أنواع الفواكه، وفي الأوليين قال: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَـٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ۝٥٢﴾، وهذا أكمل.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾، كما سبق أن هذا من نعم الله ﷻ التي تستوجب الشكر، ومن لم يشكر نعم الله فقد كذب بها، وكفرها.

﴿فِيهِنَّ﴾، أي: في هذه الجنات، ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾، هذا وصف لأزواج أهل هاتين الجنتين، ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ﴾، وفي قراءة «خيِّرات»، وخيِّرات - بالتشديد- جمع خيِّرة[1]، وكذلك خيرات جمع خيِّرة، ولكن خفف، فهن نساء خيِّرات في أجسامهن، وفي منظرهن، وفي أخلاقهن، فهن خيرات من كل وجه، كاملات مكملات، ليس فيهن نقص، خيرات في أخلاقهن، وتعاملهن، حسان في مرآهن، ومنظرهن، إذا نظر إليهن أزواجهن فإنهم يسرون بذلك.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾، تزويج أهل الجنة بهؤلاء من نعم الله ﷻ التي يشكر عليها، ومن لم يشكرها فقد كفرها، وكذب بها.

وهن ﴿حُورٌ﴾ جمع: حوراء، والحور هو: شدة بياض العيون مع شدة سوادهن[2]، فهذا مما يضفي عليهن الجمال، وقيل: عظام الأعين،

---

(١) قَرَأَ قَتَادَةُ وابن السميقع وَأَبُو رَجَاءٍ الْعُطَارِدِيُّ وَبَكْرُ بْنُ حَبِيبٍ السَّهْمِيُّ (خَيِّرَاتٌ) بِالتَّشْدِيدِ عَلَى الْأَصْلِ. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ خَيْرَاتٍ جَمْعُ خَيْرٍ وَالْمَعْنَى ذَوَاتُ خَيْرٍ. وَقِيلَ: مُخْتَارَاتٌ. انظر: تفسير القرطبي (١٧/ ١٨٧).

(٢) انظر: مقاييس اللغة (٢/ ١١٥)، وتاج العروس (١١/ ١٠٠).

جميلات الأعين[١]، ﴿حُورٌ مَّقۡصُورَٰتٌ﴾، انظر الصفة في الجنتين الأوليين ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾، وهنا قال: ﴿حُورٌ مَّقۡصُورَٰتٌ﴾، ولا شك أن قاصرات الطرف أفضل من المقصورات.

﴿فِي ٱلۡخِيَامِ﴾ وهي منازل خاصة، والخيام معروفة في الدنيا، لكن خيام الجنة تختلف عن خيام الدنيا؛ لأن هناك منازل مبنيةثابتة وهناك منازل خيام منقولة، ويتنوع هذا من أجل رفاهية السكان، وتنعمهم، فهن ﴿حُورٌ مَّقۡصُورَٰتٌ فِي ٱلۡخِيَامِ ٧٢﴾، لا يخرجن منهن؛ للإبقاء على جمالهن، وبهجتهن، فدل هذا على أن بقاء المرأة في بيتها أليق بها، وأقر لعين زوجها مما إذا خرجت.

فهذه فضيلة لهن، وهي: عدم الخروج؛ تكرمًا على أزواجهن، فإذا كن في الجنة بهذه الصفة، فيجب أن تكون المؤمنات في الدنيا على تلك الصفة؛ ليتشبهن بأزواج الجنة، فلا يخرجن إلى الأسواق، ولا إلى المحافل -كما هو الواقع الآن-، وفي هذا رد واضح على الذين يدعون إلى خروج المرأة من بيتها، وبروزها، وأنها تذهب إلى حيث شاءت، وهم لا يريدون بالمرأة ولا بالمجتمع خيرًا، وإنما يريدون أن يمردوا النساء، وأن يزيلوا الفوارق بين الرجال، والنساء.

هذا ما يريدونه، فمناداتهم بعمل المرأة، وخروجها، هذا ليس من صالحها، ولا من صالح المجتمع؛ لأنها تفقد عفتها، وحيائها شيئًا فشيئًا، حتى تصير لا تستحي، وقد تفقد عفتها، ولو على المدى البعيد؛ لأن خروجها، وتبذلها من أسباب ضياع عفتها، خلاف بقائها في بيتها،

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٤٢)، وتفسير ابن كثير (٨/ ٢١).

فهو إبقاء على عفتها، وحيائها.

ولئن قالوا: من أجل العمل، نقول: عمل المرأة في بيتها أكثر من عمل الرجال خارج البيوت، ففي البيوت أعمال كثيرة:

في دورهن شؤونهن كثيرة   كشؤون رب السيف والمزراق

فعمل المرأة في البيت قد يكون أكثر من عمل الرجل خارج البيت، وهو عمل لا يقوم به غيرها، فلو أتيت بخادمات، وخدم ما استطاعوا أن يقوموا بعمل المرأة في بيتها، فهي تؤدي عملًا جليلًا في البيت، لا يؤديه غيرها، هذا إن كانوا يريدون كما يقولون: عمل المرأة، وأن المرأة معطلة، نعم إذا أخرجت من بيتها صارت معطلة بالمعنى الصحيح؛ لأنها أخرجت من مجال عملها فتعطلت منه، أما بقاؤها في بيتها، وعملها في البيت، فهذا ليس عطالة كما يدعون، لكنهم لا يريدون نفعها، ولا نفع المجتمع، وإنما يريدون أهدافًا يضمرونها في أنفسهم، وسوف يكشفها الله ﷻ، ويخزيهم بها.

قال تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾، فحور وصف جمال، ومقصورات -أيضًا- وصف آخر، فالمرأة الجميلة إذا خرجت زال بهاؤها، وزال رونقها، وصارت مبتذلة، أما إذا كانت مكتنة في بيتها بقي جمالها، وبقيت أبهتها، وانكفت عنها أنظار الطامعين، والفساق.

﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ فدل على أن قصر الحور في خيامهن من نعم الله ﷻ، وكذلك قصر المرأة في بيتها، وحفظها في بيتها من نعم الله ﷻ، لو كانوا يعقلون.

ثم قال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ﴾، أي: فرش خضر؛ لأن هذا أبهج في العيون، والمناظر، كما أن ثيابهم خضر، فاللون الأخضر تلذ به الأعين، وترتاح معه، ﴿وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾، أي: متكئات، ووسائد يتكئون عليها، ويرتاحون، والعبقري هو الشيء الجيد(١)؛ ولهذا يقال للذكي من الرجال: عبقري، أي: أنه جيد في آرائه، وفي توقعاته، وتصرفاته؛ ولهذا قال النبي ﷺ في عمر رضي الله عنه: «فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا يَفْرِي فَرِيَّهُ»(٢)، فعمر رضي الله عنه عبقري بشهادة الرسول ﷺ، والعبقري هو: المحنك الجيد.

﴿حِسَانٍ﴾، مع كونها «عبقرية»، أيضًا هن «حسان»، فجمعن من الأوصاف أجملها: عبقرية، وحسنًا، عبقرية أي: جيدة الأصل، والحقيقة وحسان المنظر، والبهجة.

فكل ما في الجنة يسر، وكل ما في الجنة بهيج، خلاف الدنيا، فإنها مختلطة بين حسن، وسيء، وبين سار، ومحزن، وبين حسن، وقبيح، أما الجنة فليس فيها شيء يحزن أبدًا، وليس فيها شيء تكرهه النفوس، بل فيها «مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»(٣)، ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، هذه هي الجنة.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣﴾، فجعل هذه الفرش، والأرائك، من نعم الله ﷻ لعباده المتقين التي يشكر عليها سبحانه.

---

(١) انظر: لسان العرب (١٣/ ١٠٠)، وتاج العروس (١٢/ ٥١٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٨٢) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٣) حديث أخرجه البخاري (٣٢٤٤، ٤٧٧٩، ٤٧٨٠، ٧٤٩٨)، ومسلم (٢، ٣، ٤، ٥) من حديث أبي هريرة وسهل بن سعد الساعدي رضي الله عنهما.

وأما قوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾، هذا سبق،لم يطأهن الطمث، هو الوطء، فهن أبكار، لم يسبق أن تزوجن، وأن افتضت بكارتهن لا من إنس، ولا جان، فهي باقية على طراوتها، وحسنها، وبكارتها.

فإذا نظرت إلى أوصاف هاتين الجنتين، وقارنتها بأوصاف الجنتين اللاتي قبلها، وجدت فوارق؛ ولهذا قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۝٦٢﴾، والأوليان للمقربين السابقين، والأخريان لأصحاب اليمين الأبرار، كل له منزلة بحسب عمله.

ثم قال سبحانه وتعالى في ختام هذه السورة: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٧٨﴾، تبارك: هذا اللفظ لا يطلق إلا على الله عز وجل، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ [الملك: ١]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١]، فهذا اللفظ لا يطلق إلا على الله، فلا يقال للمخلوق: تبارك، أو تقول: تعال تبارك علينا كما يقول العوام، فهذا لا يجوز؛ لأن هذا اللفظ لا يطلق إلا في حق الله سبحانه وتعالى، أو على أسمائه، «تبارك اسمك»، فكما يقال: تبارك الله، يقال: تبارك اسمه، وفي دعاء الاستفتاح: «وَتَبَارَكَ اسْمُكَ»(١).

والبركة هي: ثبوت الخير، ودوامه، فالخير ثابت، ودائم من الله سبحانه وتعالى، ومن أسمائه وصفاته.

---

(١) أخرجه أبو داود (١/ ٢٠٦)، والترمذي (٢٤٢)، والنسائي (٩٠٠)، وابن ماجه (٨٠٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾، فهذه النعم التي ذكرها الله في هذه السورة كلها من نعمه، وإيجاده ﷻ، فهي من بركته ﷻ، ومن بركة أسمائه، وصفاته، ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ﴾، أي: دام خيره، وثبت ﷻ.

ويجوز أن تقول: فلان مبارك، أي: أن الله جعله مباركًا، فلا بأس، قال عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١]، فتقول: أنت مبارك، أو بارك الله فيك، ولا تقل: تبارك يا فلان، ﴿ٱسۡمُ رَبِّكَ﴾، أي: جميع أسمائه ﷻ.

فتباركت جميع أسمائه ﷻ، والله ﷻ له أسماء، وله صفات، سمى بها نفسه، ووصف بها نفسه، وسماه بها رسوله ﷺ، وأثبتها له، فنحن نثبتها كما جاءت على ما تدل عليه من المعاني العظيمة، وليست أسماء مجردة كما تقوله المعتزلة، ليس لها معان، ولا نجحدها كما جحدتها الجهمية، ويقولون: إن تعدد الأسماء يلزم منه تعدد المسمى، عدة آلهة، هذا من المغالطة، يعلمون أن تعدد الأسماء لا يلزم منه تعدد المسمى حتى في المخلوقين(١).

إذا تعددت صفات المخلوق فلا يدل هذا على تعدد ذاته، وإنما هذا من باب المغالطة؛ ولهذا قال المشركون لما سمعوا النبي ﷺ يدعو ربه، يا رحمن، يا رحيم، يا الله، قالوا: هو يزعم أن له ربًا واحدًا، وهو يدعو عدة أرباب، فقال الله ﷻ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ

---

(١) انظر: إعانة المستفيد (٢/ ١٤١)، وشرح مسائل الجاهلية لشيخنا العلامة صالح الفوزان - حفظه الله - (١/ ١٤٦).

ٱلْحُسْنَىٰۚ﴾(١) [الإسراء: ١١٠]، وهذا رد عليهم، وهو رد على الجهمية الذين يقولون: إنه يلزم من إثبات الأسماء تعدد الرب -تعالى الله عما يقولون-.

فهذا من شبههم الباطلة، وأسماء الله ﷻ، وصفاته لا تحصى، فهي كثيرة لا يعلمها إلا هو ﷻ، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠]، يلحدون في أسمائه، أي: يجحدونها، أو يفسرونها بغير تفسيرها، ويؤولونها، فالإلحاد له أنواع، وما حصل من الجهمية هو نفيها، بألفاظها ومعانيها وعند المعتزلة، اثبات ألفاظها وجحد معانيها وإنما يثبتون ألفاظًا مجردة من معانيها، فهذا إلحاد في أسماء الله ﷻ؛ ولذلك لا يدعون الله بها؛ لأنهم يعتبرونها إما ليس لها حقيقة كالجهمية، أو ليس لها معان فلا يدعون الله بها، -تعالى الله عن ذلك-.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَاۖ﴾، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨]، ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ [الحشر: ٢٤]، فأثبت لنفسه الأسماء، ووصفها بأنها حسنى، أي: لها معان جميلة جليلة، ليست مجرد ألفاظ، ولو كانت مجرد ألفاظ لما كانت حسنى، ولكونها حسنى يؤخذ منها صفات الله ﷻ، فالرحمن، والرحيم يؤخذ منهما الرحمة والعزيز يؤخذ منه العزة، والقوة، والحكيم يؤخذ منه وصف الله بالحكمة، والعليم يؤخذ منه وصف الله بالعلم، والقدير يؤخذ منه وصف الله بالقدرة التي لا يعجزها شيء، فهي أسماء حسنى، ولا تحصى؛ ولهذا قال ﷺ في

(١) أخرجه البخاري في «خلق أفعال العباد» (١/ ٨٢).

دعائه: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي»(١)، فدل على أن هناك أسماء لله استأثر الله بها، ولم يبينها لعباده.

وأما قوله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»(٢)، فليس هذا حصرًا لأسماء الله في تسع وتسعين، ولكن هذه التسع والتسعون من أحصاها دخل الجنة، ومعنى أحصاها: عرفها، وأثبتها لله ﷻ، وتعبد لله بها، وسأله بها، هذا معنى أحصاها، وليس المراد مجرد العد(٣)، أي أنك إذا عددت تسعًا وتسعين اسمًا تدخل الجنة.

ضمير ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ﴾، ضمير خطاب للنبي ﷺ، والرب هو: المالك المتصرف الذي لا يعجزه شيء، وهو: السيد والمصلح، فهذا معنى الرب ﷻ(٤)، ثم وصفه بالجلال، والإكرام، هذا وصف للرب ﷻ؛ ولهذا عمل فيه الجر فقال: ذي الجلال، فهما وصفان للرب لا للاسم، الجلال وصف للرب، والإكرام وصف للرب، وأما ما سبق في قوله، ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو﴾، ذو: بالرفع فهذا وصف، وجه الله ﷻ.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٧/ ٣٤١)، وابن حبان في صحيحه (٣/ ٢٥٣)، والطبراني في الكبير (١٠/ ١٦٩)، وفي الدعاء (١/ ٣١٤)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٩٠).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٣٦، ٧٣٩٢)، ومسلم (٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر: فتح الباري لابن حجر (١١/ ٢٢٠، ٢٢٧).

(٤) انظر مادة (ربب) مقاييس اللغة (٢/ ٣٨٢)، ولسان العرب (١/ ٣٩٩)، وتاج العروس (٢/ ٣٥٩).

﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ﴾، والجلال: العظمة، والكبرياء اللائق بجلاله سبحانه وتعالى، فهو العظيم الذي لا أعظم منه، وهو الكبير الذي لا أكبر منه، وهو القدير الذي لا يعجزه شيء، ﴿ذِي ٱلۡجَلَٰلِ﴾، الذي يجله عباده المؤمنون، ويستحق الإجلال سبحانه وتعالى، ﴿وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾، أي: الذي يكرم عباده المؤمنين.

وما ذكره في هذه السورة من أولها إلى آخرها فهو من إكرامه لعباده المؤمنين.

قد أمر به النبي ﷺ، أن تكثر من قول يا ذا الجلال والإكرام، قال ﷺ: «**أَلِظُّوا بِيَا ذَا الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ**»(١)، أي: أكثروا من الذكر بهذا الاسم، «يا ذا الجلال، والإكرام»، مما يدل على عظمة هذا الاسم، ومشروعية ذكر الله به بكثرة سبحانه وتعالى؛ ولهذا كان ﷺ إذا سلم من صلاة الفريضة وهو مستقبل القبلة يقول: «**اللهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**»(٢)، فكان ﷺ يلازم هذا الذكر بعد كل فريضة قبل أن ينصرف إلى أصحابه.

فهذا ذكر جليل ينبغي للمسلم أن يكثر منه دائمًا، وأبدًا، وهذه سورة عظيمة فيها من العبر، والعظات، وفيها من النعم، والكرامات، وفيها من أسماء الله، وصفاته الشيء الكثير، ابتدأها بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، ذو الرحمة الواسعة، ومن رحمته ما ذكره في هذه السورة في الدنيا، والآخرة، ثم قال: ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢﴾، وهذا من نعمه، ومن أجل نعمه تعليم الناس

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٢٥)، وأحمد في المسند (٢٩/ ١٣٨، ٣٦/ ٣٤٩)، والنسائي في الكبرى (٧٦٦٩)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٧٦) من حديث ربيعة بن عامر وأنس ابن مالك رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم (١٣٥، ١٣٦) من حديث عائشة وثوبان رضي الله عنهما.

القرآن الذي فيه الهدى، والبيان، والعلم النافع، وفيه التعريف بالله ﷻ، وفيه الوعد، والوعيد، وفيه الأخبار الصادقة عن الماضي، والمستقبل، وفيه الأحكام الشرعية العظيمة في المعاملات، وفي الأخلاق، فهو قرآن عظيم؛ ولذلك بدأ الله به النعم.

فما أعظم هذه السورة، وما أعظم ما ذكره الله ﷻ فيها لمن تنبه، وتدبر القرآن، أما من يمر عليه بلسانه دون تدبر، ودون تفهم، فهذا لن يستفيد منه شيئًا؛ لأن المقصود من تلاوة القرآن: التدبر، والتفقه، وحضور القلب، والعمل بما فيه؛ ليظهر أثر ذلك على تصرفات العبد، وأعماله، فالذي يتأثر بالقرآن، وينتفع به يظهر ذلك على أعماله، وعلى تصرفاته، والذي لا ينتفع بالقرآن، وإنما يمر عليه فقط، يظهر ذلك على تصرفاته، وأعماله، وحجة الله ﷻ قائمة على عباده، ولم يبق لأحد حجة ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٥]، فالله ﷻ أقام الحجة بهذه الآيات التي تتلى، وتسمع.

وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

الدرس السابع والعشرون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ
رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧
فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩
وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣
وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٤ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝١٦ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ
وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩
وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ
ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٤ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا
سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ١ - ٢٦].

هذه السورة العظيمة «سورة الواقعة»، والواقعة هي: القيامة(١)، وسميت

---

(١) اعلم -يارعاك الله- أن ليوم القيامة أسماء كثيرة، وهذا لعظم هذا اليوم الجلل، وهول مافيه.

يقول عبد الحق الإشبيلي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَاعْلَم أن الْعَرَب قد تسمى الشَّيْء بأسماء كَثِيرَة وَتجْعَل لَهُ ألقابًا عديدة؛ تَعْظِيمًا لشأنه، وإكثارًا لأمره، وَقد سمى الله ﷻ يَوْم الْقِيَامَة بأسماء كَثِيرَة وَلَعَلَّه من هَذَا وَهُوَ تبارك وَتَعَالَى أعلم». انظر: العاقبة في ذكر الموت (١/ ٢٥١).

بالواقعة ؛ لأنه لابد من وقوعها[(١)]، فقوله : ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾، أي : قامت القيامة التي أخبر الله عنها، وأخبر عنها الرسل، وأخبرت عنها الكتب، وأجمع عليها المسلمون من جميع الأمم، فالإيمان بالقيامة، والواقعة، والدار الآخرة من أركان الإيمان الستة[(٢)]، فمن جحد قيام الساعة، وجحد القيامة، وجحد البعث، والنشور، فهو كافر مكذب بالله ﷻ[(٣)]، ولرسله، ولإجماع المسلمين الإجماع القطعي[(٤)].

﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾، أي : لا شك، ولا تكذيب لوقوعها ؛ كما قال ﷻ : ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران : ٩]، وقيل : المراد أنها إذا وقعت، وعاينها الناس، فلا أحد يكذب بها، وإن كان مكذبًا لها قبل ذلك[(٥)] وعلى كل حال فإنها حادثة مروعة، وعظيمة ؛ كما قال ﷻ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج : ١ - ٢].

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير (٨/ ٤).

(٢) بل إن الإيمان باليوم الآخر جعله النبي ﷺ سدس الإيمان ؛ كما جاء في حديث جبريل عليه السلام المشهور حين سأل النبي ﷺ فقال : «فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ»، قَالَ : «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٣) حيث قال ﷻ : ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن : ٧].

(٤) إذ لا معارض بين الفرق الإسلامية، ولا منكر للبعث.

(٥) انظر : زاد المسير (٤/ ٢١٨)، وتفسير ابن كثير (٨/ ٤)، وتفسير القرطبي (١٧/ ١٩٥).

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾، عند قيام الساعة يخفض الله أقوامًا كانوا في الدنيا متكبرين مترفعين، يخفضهم الله إلى أسفل سافلين؛ بسبب كفرهم بالله ﷻ، ويرفع أقوامًا كانوا في الدنيا لا يؤبه بهم، وليس لهم مكانة عند الناس، ولا رفعة، ولا منزلة، لكنهم كانوا على الإيمان بالله ﷻ، والأعمال الصالحة، فيرفعهم الله في أعلى عليين(١).

فالساعة إذا قامت تغيرت الموازين، فيرتفع الذين كانوا منخفضين في الدنيا؛ بسبب إيمانهم، وأعمالهم الصالحة إلى أعلى عليين، وينخفض الذين كانوا مرتفعين في الدنيا على الكفر، والكبر، والأعمال الباطلة، فينخفضون إلى أسفل سافلين، فيجب على المسلم أن يستعد لهذا اليوم؛ ليكون مع الذين يرفعهم الله ﷻ، ويحذر من الكفر، والمعاصي؛ لئلا ينخفض مع هؤلاء المنخفضين إلى أسفل سافلين.

قال ﷻ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۝١٠١ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١ - ١٠٢]، فالعبرة بموازين الأعمال، وليست العبرة بالنسب، فمن لم يكن له نسب في الدنيا، فنسبه الصحيح هو العمل الصالح، ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟

---

(١) روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﷻ: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾: «**تَخْفِضُ نَاسًا، وَتَضَعُ آخَرِينَ**». أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ١٣٦).
وعن محمد بن كعب رحمه الله قال: «**خَفَضَتْ رِجَالًا كَانُوا فِي الدُّنْيَا مُرْتَفِعِينَ بِأَمْوَالِهِمْ إِلَى النَّارِ، وَرَفَعَتْ رِجَالًا كَانُوا فِي الدُّنْيَا مُنْخَفِضِينَ بِفَقْرِهِمْ إِلَى الْجَنَّةِ**». أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٢٨).
وعن السدي رحمه الله قال: «**خَفَضَتِ الْمُتَكَبِّرِينَ، وَرَفَعَتِ الْمُتَوَاضِعِينَ**». المصدر السابق (٢/ ٥٢٩).

أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٠٣]، فالعبرة عند الله ﷻ ليست بالأنساب، وإنما هي بالأعمال، «**وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**»[١].

وقيل: معنى ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾: أنها ينخفض صوتها حتى يسمعه القريب، ويرتفع حتى يسمعه البعيد[٢]، ثم بين سبحانه وتعالى كيف وقوع الواقعة فقال: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾﴾، حركت، الأرض بعد أن كانت مستقرة، وكان الناس على ظهرها مطمئنين، فإذا قامت القيامة رجت الأرض، وزلزلت، وحركت، فحينئذ يتحطم ما كان على ظهرها من الجبال، والمباني، ويضطرب الناس، ويرتاعون روعة شديدة من شدة الهول.

فمعنى ﴿رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾، أي: حركت بالزلزال بدل أن كانت قرارًا، ﴿رَجًّا﴾، توكيد، ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾﴾، أي: فتتت بدل أن كانت صلبة جامدة، فإنها تبس، وتفتت حتى تكون كالهباء، وهو الدخان، أو الغبار، تطير في الجو، وتصير كثيبًا مهيلًا، ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤]، وهذا معنى دكت الأرض، ورجت الأرض، ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا﴾، أي: رملًا منهالًا بدل أن كانت جامدة صلبة قائمة شاهقة.

﴿فَكَانَتْ هَبَآءً﴾، قيل: الهباء: الدخان الذي يتصاعد من النار، وقيل: إنه الغبار الذي يتطاير في الجو، ثم يضمحل[٣].

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠]، تكون الجبال كالعهن،

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٣٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٩١)، وتفسير ابن كثير (٨/ ٤)، وتفسير القرطبي (١٧/ ١٩٥)
(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٥)، وتفسير القرطبي (١٧/ ١٩٧).

وهو الصوف المنفوش(١)، وتكون كثيبًا مهيلًا، وتكون هباء، وتكون سرابًا(٢)، فكل هذه أوصاف لما تكون عليه الجبال الراسيات عند قيام الساعة.

﴿مُّنۢبَثًّا﴾، أي: منتشرًا في الجو، وعند هذه الحالة، وعند قيام الساعة، وحدوث هذه الأهوال المروعة، ﴿وَكُنتُمۡ﴾، الخطاب لجميع الناس، أي: كنتم أيها الناس ﴿أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ﴾، أي: أشكالًا ثلاثة، ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝٨﴾، ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ۝٩﴾، أصحاب الميمنة هم الذين يعطون كتابهم بأيمانهم(٣)، وقيل: الذين يكونون عن يمين العرش(٤)، وأصحاب المشأمة هم الذين يعطون صحائفهم بشمالهم(٥)؛ إهانة لهم، وقيل: الذين يكونون عن شمال العرش(٦).

وقوله: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾، ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾، هذا التكرار؛ للتفخيم وتعظيم شأن أهل اليمين، وتحقيرشأن أهل الشمال.

وأما الزوج الثالث، فقال ﷻ فيهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ السابقون إلى الرب ﷻ، يكونون بين يدي الرب؛ إجلالًا، وتعظيمًا، وتكرمة لهم، وهم والسابقون إلى الأعمال الصالحة في الدنيا هم السابقون،

---

(١) إشارة إلى قوله ﷻ: ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ۝٥﴾ [القارعة: ٥].
(٢) مرت الآيات التي تصف حال الجبال بهذه الأوصاف.
(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ١٠٩).
(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٥).
(٥) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ١٢٩).
(٦) انظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٥).

في الآخرة يسبقون الخلائق يوم القيامة إلى الله ﷻ، قال تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٦١]، ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١]، هؤلاء هم السابقون في الدنيا إلى طاعة الله، يكونون السابقين عند الله يوم القيامة.

﴿فِي جَنَّٰتِ﴾، هي دارهم، ومستقرهم، وجنات كثيرة ليست جنة واحدة ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾، أي: اللذة، والسرور، والبهجة، وكل ما يتنعم به فإنه في هذه الجنة، ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١].

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾، هؤلاء المقربون، هم ثلة، أي: جماعة كثيرة من الأولين، وقليل من الآخرين من هذه الأمة، وقيل: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾، أي: من جميع الأمم الذين سبقوا إلى طاعة الله، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾، أي من هذه الأمة. هذا قول(١).

والقول الآخر -وهو الراجح-: أنهم كلهم في هذه الأمة، أي: كثيرون من صدر هذه الأمة من المهاجرين، والأنصار، والتابعين، وأتباع التابعين، والقرون المفضلة، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾، من آخر هذه الأمة(٢)؛ لأنه كلما تأخر الزمان تشتد غربة الدين، ويقل أهل الإيمان الصحيح الذين يتمسكون بالدين، ويصبرون على الفتن، والبلاء، والامتحان، فهؤلاء قليلون، ويكونون غرباء في آخر الزمان(٣)، . . . .

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٩٦)، وتفسير القرطبي (١٧/ ٢١٢).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٨)، وتفسير القرطبي (١٧/ ٢٠١).

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٣٢) من حديث أبي هريرة ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ».

ويكونون نزاعًا من القبائل[١]، وكثير من الناس يمقتونهم، ويضايقونهم، ويهينونهم، ويعارضونهم، لكنهم يصبرون وهم قلة[٢].

فالثلة الأولى من صدر هذه الأمة، والقليل هم من آخر هذه الأمة، ثم ذكر الله ﷻ جزاءهم، فقال ﷻ: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ﴾، سرر: جمع سرير، وهو الذي يُجلس عليه للراحة، ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾، مزينة بالذهب، والفضة، والمعادن النفيسة، وأنواع الجواهر التي لم ترها العيون في الدنيا، ومرصعة بمناظر عجيبة من مناظر الجنة، ليست من مناظر الدنيا.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا﴾، يستريحون، ويستقرون عليها، ﴿مُتَقَـٰبِلِينَ﴾، يستقبل بعضهم بعضًا؛ لوجود المحبة فيما بينهم، فلا يعرض أحد منهم عن أحد، وإنما يكونون متقابلين من شدة المحبة، والألفة، والسرور، بخلاف ما يكون عليه الناس في الدنيا من كونهم متقاطعين متشاحنين متدابرين، يعرض بعضهم عن بعض، حتى ولو كانوا مؤمنين، فيكون بينهم شيء من الشحناء، ومن التهاجر، و من التقاطع، فهذا كله يزول في الآخرة قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر: ٤٧]. فينزع الله من قلوب أهل الجنة الأحقاد، والإحن، والتهاجر، والتقاطع، والكراهية،

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه ابن ماجه (٣٩٨٨)، وأحمد في مسنده (٦/ ٣٢٥) في وصف الغرباء من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قِيلَ: وَمَنِ الْغُرَبَاءُ؟ قَالَ: «النُّزَّاعُ مِنَ الْقَبَائِلِ».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه أحمد في مسنده (١١/ ٢٣١)، والطبراني في المعجم الكبير (١٣/ ٣٦٣) في وصف الغرباء من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما فَقِيلَ: مَنِ الْغُرَبَاءُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «أُنَاسٌ صَالِحُونَ، فِي أُنَاسِ سُوءٍ كَثِيرٍ، مَنْ يَعْصِيهِمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُطِيعُهُمْ».

ويجعل محلها المحبة، والأنس، بعضهم ببعض.

ثم ذكر الله ﷻ خدّامهم، فقال ﷻ: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾، أي: شباب، يبقون على شبابهم، لا يهرمون، ولا يكبرون، ولايمرضون، ولا تتغير صفاتهم أبد الآباد، فهم مخلدون على هذه الصفة، هؤلاء هم خدمهم، وفي الآية الأخرى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ [الطور: ٢٤]، وهنا ولدان، والمعنى واحد، فهم شباب، بهيو المنظر، ومنظرهم لا يتغير أبدًا(١).

﴿بِأَكْوَابٍ﴾، جمع كوب، وهو ما لا عروة له، وليس له خرطوم، وإنما هو مدوّر(٢)، ﴿وَأَبَارِيقَ﴾، وهو: الكوب الذي له عروة، وله مصب(٣)، ﴿وَكَأْسٍ﴾، أي: شراب مثل قوله: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا﴾ [الإنسان: ١٧]، أي: شرابًا، ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾، من منبع صاف دائم، ليس ماء قليلًا ينقطع، أو يشح مثل ما يكون في الدنيا، بل هو معين دائم من خمر، إلا أنه خمر طيب ليس كخمر الدنيا الخبيث؛ ولهذا نزع الله منه الصفات القبيحة، فقال: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ [الواقعة: ١٩]؛ لأن خمر الدنيا تجلب الصداع في الرأس على من يشربها، أما خمر الآخرة فليست كذلك، ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾، ولا تؤثر على

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ١٠١)، وتفسير ابن كثير (٨/ ١١)، وشرح السنة للبغوي (١٥/ ٢٢٠).

(٢) ويقال له أيضًا: الكوز. انظر: مقاييس اللغة (٥/ ١٤٥)، ولسان العرب (١/ ٧٢٩)، وتاج العروس (٤/ ١٨١).

(٣) وسُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ يَبْرُقُ لَوْنُهُ مِنْ صَفَائِهِ. انظر: زاد المسير (٤/ ٢٢١)، وتفسير القرطبي (١٧/ ٢٠٣).

عقولهم كخمر الدنيا الخبيثة التي تنزف العقول، فيتحول العاقل إلى مجنون، أو أحط من المجنون، فأهل الجنة لا تغير هذه الخمر عقولهم، وكذلك لا تنفد ثروتهم؛ لأن خمر الدنيا تنفد الثروات، وأما خمر الجنة فلا تكلفهم شيئًا، فهي ميسرة، تأتي من معين نابع مستمر يتلذذون بها؛ كما قال ﷻ: ﴿مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [محمد: ١٥]، بخلاف خمر الدنيا فإنه ليس فيها لذة، وإنما هي منتنة، وطعمها خبيث، وأثرها قبيح.

وهذا نوع من شرابهم، وإلا فعندهم أنواع من الشراب؛ كما أخبر الله ﷻ فقال: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [محمد: ١٥].

ثم ذكر طعامهم، وفاكهتهم، فقال: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠﴾، فاكهة لا يعلم كيفيتها، وطعميتها، ولذتها إلا الله ﷻ، ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾، من كل ما طلبوه من الفاكهة فهو حاضر، ففي الدنيا يتمنى الإنسان شيئًا، ولا يحصل له، أو يحصل لكن لا يقدر على شرائه، أو يحصل، ويقدر على شرائه، ولكن لا يقدر على أكله للمرض، أما في الآخرة فلا.

قالوا: وهذا يستنبط منه: أنه إذا قدمت فاكهة متنوعة، فإن للآكل أن يختار منها ما يريد، ولا يتعين أن يقتصر على نوع واحد.

﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ﴾ لأنه ألذ شيء من اللحوم ﴿مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾، فكل ما يشتهونه يتوفر لهم، ولا يحتاج أن يتحرك، ويذهب، ويجئ، بل يأتيه وهو في مكانه هذا نموذج من طعامهم، وشرابهم، ثم ذكر أزواجهم فقال ﷻ: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾، الحور سبق معناها: أنهن النساء الجميلات، كبيرات الأعين،

جميلاتها، صافيات الحدق[١]، فإن المرأة إذا كانت عيناها جميلتين فإنها تكون جميلة مرغوبة.

ثم وصف جسمها، فقال ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ﴾، واللؤلؤ هو: الجوهر النفيس بهيّ المنظر[٢]، ﴿ٱلْمَكْنُونِ﴾، الذي يكون عليه كِنّ مغلف[٣]، بحيث لا تغير لونه الشمس، أو الهواء، أو الجو، فهو مصون، فنساء الجنة يشبهن اللؤلؤ المصون الذي لا تغيره العوارض، فيبقى على منظره الجميل.

ثم بين ﷻ أنهم حصلوا على هذا النعيم، ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، لأنه لا يحصل شيء بدون عمل، فالذي يريد الجنة يعمل، ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: ١٩]، فهؤلاء ما حصلوا على هذه المنزلة، والكرامة إلا بسبب الأعمال الصالحة من قيام الليل، وصيام النهار، والجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله، وغير ذلك من الأعمال الصالحة، فهذا الذي يوصل العبد إلى الجنة برحمة الله ﷻ.

ثم ذكر ما يكون بينهم، فالناس في الدنيا يحصل بينهم سوء تفاهم، وشتائم، وسباب، ولغو، وكلام باطل، وساقط، ما الآخرة، فـ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾، لا يسمعون فيها كلامًا لا فائدة فيه، فكلام أهل الجنة ليس فيه لغو لا فائدة فيه، ﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾، أي كلامًا يؤثّم؛ كالسب، والشتم، واللعن،

---

(١) انظر: تفسير سورة «الرحمن» عند تأويل قوله ﷻ: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾.

(٢) انظر: تاج العروس (١/ ٤١٢).

(٣) انظر: تاج العروس (٣٦/ ٦٤).

والغيبة، والنميمة، والكلام الباطل، فهذا يؤثّم، ويجلب الأوزار، فلا يسمعونه؛ لأن الله طهر الله أسماعهم منه.

فالكلام إما أن يكون لغوًا لا فائدة فيه، وإما أن يكون قبيحًا مؤثّمًا، وإما أن يكون طيبًا، فكلام أهل الجنة من النوع الثالث، ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحج: ٢٤].

﴿إِلَّا قِيلًا﴾، أي: لا يسمعون، ﴿إِلَّا قِيلًا﴾، أي: قولًا، ﴿سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾، يسلم بعضهم على بعض، فلا يسمع بعضهم من بعض كلامًا جارحًا، أو كلامًا سيئًا، أو كلامًا مؤثّمًا، أو لغوًا لا فائدة فيه، فلا يسمعون إلا السالم من ذلك ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣]، فهم يسلم بعضهم على بعض، والله ﷻ يسلم عليهم، ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس: ٥٨]، والملائكة تسلم عليهم، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٣ - ٢٤]، فهم لا يسمعون في الجنة إلا السلام فيما بينهم، والسلام من الله ﷻ، والسلام من الملائكة الكرام، فهذا كله جزاء على أعمالهم التي قدموها في دنياهم، فوجدوا جزاءها عند ربهم، تثمر لهم هذه الأعمال، مساكن في الجنة، ومآكل، ومشارب، وهذا النعيم ليس عرضة للزوال، ولا للنهب، والسرقة، ولا عرضة للمشاحة فيه، والتقاتل عليه؛ لأنه خالد باق، لا يزول، ولا يخافون من زواله، ولا من انقطاعه، ونفاده، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ [ص: ٥٤]، من كل ما أرادوا، واشتهوا فإنه ميسر لهم وغير منقطع نسأل الله بمنه وكرمه أن يجعلنا منهم وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

الدرس الثامن والعشرون

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾

[الواقعة: ٢٧ - ٥٦].

لما ذكر سبحانه وتعالى جزاء السابقين؛ ذكر جزاء الأبرار، أصحاب اليمين، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾، هذا تفخيم لشأنهم، فقوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾: مبتدأ، ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾، خبره، وهو بيان لعلو منزلتهم وأنهم في سدر مخضود، أي: أنهم مستقرون في سدر مخضود، والسدر

هو: الشجر الطيب المعروف[١]، وهو كثير الشوك، ولكن سدر الجنة مخضود، ليس فيه شوك.

وقيل: مخضود: مملوء بالثمر[٢]، ولا مانع من الوصفين، أن يكون خاليًا من الشوك، ومملوءًا بالثمر الطيب.

﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾، الطلح: ظاهره أنه الطلح المعروف في الدنيا، وهو شجر بري كبير، ومرتفع يستظل به الناس، وتأكل البهائم من ورقه، وهو شجر طيب، ينتفع به الناس في الدنيا، فالجنة فيها طلح منضود، أي: كثير الثمر من أسفله إلى أعلاه، وقيل: المراد بالطلح هنا: الموز[٣].

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾ له نهاية ولا يزول، ولا يتخلله شمس كما يزول ظل الدنيا، ويعقبه شمس، وحر، قال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الفرقان: ٤٥، ٤٦]، فظل الدنيا يزول، وينسخ بالشمس، أما ظل الجنة فإنه دائم، وممدود؛ كما قال ﷻ: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]، أي: وظلها دائم.

وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ سَنَةٍ، وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾**»[٤].

---

(١) هو شجر النبق. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٣٥٣)، ولسان العرب (٤/ ٣٥٤)، وتاج العروس (١١/ ٥٢٥).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ١١١)، وتفسير ابن كثير (٨/ ١٦).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٨/ ١٥)، وتفسير القرطبي (١٧/ ٢٠٨).

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٥١، ٣٢٥٢، ٤٨٨١، ٦٥٥٢)، ومسلم (٦، ٨).

هذه شجرة واحدة، فكيف بالشجر الكثير فيها، فالجنة كلها ظل، حتى إن أهلها ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾، قال: «مَا بَيْنَ طُلُوعِ الفَجْرِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ»(١). وهذا من أطيب ما يكون في الدنيا.

﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾﴾، فالشجر متنوع، والظل ممتد، والماء متوفر وفي هذا، دلالة على تكامل النعيم، والماء ليس راكدًا، بل هو مسكوب، يصب من أعلى فيكون بذلك لذة للأسماع، فالماء الذي ينصب يكون له منظر بهيج.

﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾، الفاكهة ما تتفكه به النفوس، وتتلذذ(٢)، ﴿كَثِيرَةٍ﴾ لا تنفد، ولا تنقطع، ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾، وذلك بخلاف فاكهة الدنيا فإنها تأتي في وقت، ثم تنقطع في وقت آخر، ففاكهة الشتاء تنقطع في الصيف، وفاكهة الصيف تنقطع في الشتاء، أما فاكهة الجنة فإنها لا تنقطع، بل هي دائمة، ولا تقل، أو تنفد، وكلما أخذ منها شيء صار في مكانه شيء يخلفه.

﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾، لا تمتنع عليهم مثل فاكهة الدنيا، فإنها قد تمتنع، إما في الشجر؛ حيث يكون الشجر صعب المنال، ولا يقدر عليه كل الناس، وإما بأن يسيطر عليه أحد، ويمنع الناس منه، ففاكهة الجنة لا شيء يمنعها لمن أرادها.

---

(١) أخرجه البخاري تعليقًا، باب ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

(٢) انظر: مادة (فكه) مقاييس اللغة (٤/ ٤٤٦)، ولسان العرب (١٣/ ٥٢٣)، وتاج العروس (٣٦/ ٤٥٨).

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾، فرش مرفوعة على السرر يجلسون عليها، ويفترشونها، وليست مثل الفرش في الدنيا تكون على الأرض، وتكون على الغبار، والشوك، والحصى، بل هي مرفوعة، يستريح عليها أصحابها، ولا يعلم وصفها إلا الله ﷻ ولا يلحقها ما يغيرها.

ثم قال ﷻ: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾﴾، هذا فيه ذكر أزواج أهل الجنة؛ لأن الضمير يرجع إلى ما سبق من ذكر النساء، ويؤخذ من قوله ﷻ: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾؛ لأن المعلوم أن الفرش تكون عليها الزوجات.

فنساء الجنة ينشئهن الله ﷻ من غير ولادة كما في الدنيا، فإن نساء الدنيا من طريق الولادة، وهذا يشمل الحور العين، ويشمل المؤمنات من نساء الدنيا، فإن المؤمنات من نساء الدنيا ينشئهن الله أبكارًا، فالعجائز في الدنيا من المؤمنات يعدن أبكارًا يوم القيامة(١)؛ كما قال ﷻ: ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾.

﴿عُرُبًا﴾، جمع عروب وهي: الحسناء التي لا يوصف حسنها، وجمالها(٢)، ﴿أَتْرَابًا﴾، أي: في سن واحدة، بعضهم ترب للآخر في السن، لا يتفاوتون في الأعمار كما في الدنيا، فسن أهل الجنة الذكور،

---

(١) وفي ذلك قول رَسُول اللَّهِ ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَجُوزٌ، فَبَكَتْ عَجُوزٌ، فَقَالَ رَسُولُ ﷺ: «أَخْبِرُوهَا أَنَّهَا لَيْسَتْ يَوْمَئِذٍ عَجُوزٌ إِنَّهَا يَوْمَئِذٍ شَابَّةٌ»، إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَقُولُ: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾﴾ [الواقعة: ٣٥].
أخرجه البيهقي في البعث والنشور (١/ ٢١٧)، والبغوي في شرح السنة (١٣/ ١٨٣).

(٢) وأيضًا هي: المرأة الحسناء المتحببة إلى زوجها. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٢٠٣)، ولسان العرب (١/ ٥٩١)، وتاج العروس (٣/ ٣٣٨).

والإناث: ثلاث وثلاثون سنة[١]، وهذا غاية ما يكون من الشباب، والقوة.

والبكر التي لم يسبق أن طمثت؛ كما قال ﷻ: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٧٤]، وأيضًا البكارة تبقى، ولو استمتع بها زوجها، فإنها لا تكون ثيبًا، بل تبقى بكرًا، كلما أتاها وجدها بكرًا، بخلاف نساء الدنيا فإنها إذا وطئت زالت بكارتها، وقلت الرغبة فيها، أما نساء الجنة فلا تزول بكارتها[٢].

﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾، أي: هؤلاء زوجات أصحاب اليمين، وهم الأبرار والجار والمجرور في قوله: ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾، يتعلق بـ ﴿أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾، أي: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾﴾ ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾، ويحتمل أن يكون متعلقًا بقوله: ﴿أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾. أي مساويات لهم في السن لا تفاوت بينهم كما قد يكون في الدنيا من تفاوت السن بين الزوجين.

ثم بين من هم أصحاب اليمين، فقال ﷻ: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾، أي: جماعة من الأولين من أول الأمم، ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ من أمة محمد ﷺ، وقيل: إن الثلثين في أمة محمد ﷺ فـ ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أي: من أول هذه الأمة، ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾، أي من آخر هذه الأمة[٣].

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه الترمذي (٢٥٤٥) من حديث مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَدْخُلُ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ جُرْدًا مُرْدًا مُكَحَّلِينَ أَبْنَاءَ ثَلَاثِينَ أَوْ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً». وأخرجه الإمام أحمد في المسند (١٣/ ٣١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بزيادة «عَلَى خَلْقِ آدَمَ، سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي عَرْضِ سَبْعِ أَذْرُعٍ».

(٢) انظر: زاد المسير (٤/ ٢٢٤).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٩٦)، وتفسير القرطبي (١٧/ ٢١٢).

ثم ذكر الصنف الثالث وهم أصحاب الشمال؛ لأنه ذكر في أول السورة الأصناف الثلاثة: السابقون السابقون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، فذكر جزاء السابقين، وذكر جزاء أصحاب اليمين، ثم ذكر جزاء أصحاب الشمال.

فقال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝٤١﴾، هذا مبتدأ، وخبر، كما سبق والمراد به: التهويل من شأنهم، وما ينتظرهم من العذاب، ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ السموم هو: الهواء الحار الذي يدخل من مسام الجسم من شدة حره[1]، ﴿وَحَمِيمٍ﴾، المراد به: الماء الحار[2]، فالحميم شرابهم والسموم جوهم.

﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ من دخان جهنم، المختلط بالدخان، فليس فيه راحة مثل ظل الجنة؛ ولهذا قال: ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۝٤٤﴾، لا بارد لمن يستظل به، ولا كريم، أي: ولا حسن المنظر، إذا كان جيدًا فإنه يقال له: كريم؛ كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: «فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ»[3] أي: الجيد منها.

فهذا الظل ليس باردًا يستريحون فيه، ولا يظل حره عن حر الشمس، فليس فيه راحة، وليس بهي المنظر، وإنما هو قبيح المنظر؛ لأنه دخان جهنم، ثم ذكر السبب الذي أورثهم هذا الجزاء؛ لأن الله عز وجل حكم عدل، يجزي الناس بأعمالهم، فيجزي المسيء بالجزاء السيء، ويجزي المحسن بالجزاء الحسن، ويزيد المحسنين من فضله، وأما الكفار فإنهم يجزيهم بأعمالهم فقط، ولا يعذبهم على شيء لم يعملوه.

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٤٠٤)، ولسان العرب (١٢/ ٣٠٤).

(٢) انظر: مقاييس اللغة (١/ ١٤٣)، ولسان العرب (١٤/ ٤٨).

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري (١٤٩٦، ٤٣٤٧)، ومسلم (٢٩) من حديث معاذ رضي الله عنه.

فذكر سبحانه وتعالى السبب الذي أورث الكفار هذا المصير، أولا: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾، أي: في الدنيا، ﴿مُتْرَفِينَ﴾، مستغرقين في الترف، يعطون أنفسهم ماتشتهي، ولو من الحرام، والمترفون يعادون الرسل، ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾، [الزخرف: ٢٣]، فأكثر من يعادي الرسل هم المترفون؛ لأنهم لا يريدون التحول مما هم عليه من الترف، والرسل يأمرونهم بالعمل الصالح، والعبادة، والجهاد، والصيام، وهم لا يريدون هذا، يريدون أن يبقوا مترفين، فصاروا في الآخرة معذبين، وزال عنهم هذا الترف الذي انشغلوا به عن اتباع الرسل، وانشغلوا به عن العمل الصالح، فقد كانوا في الدنيا مشغولين في لهوهم، وملذاتهم، لا يصلون، ولا يصومون، ولا يتصدقون، ولا يقومون الليل، ولا يعملون الأعمال الصالحة؛ لأن هذه الاعمال لا تتناسب مع الترف.

أما أهل الجنة فقد قال الله عز وجل فيهم: ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٦ - ١٩]، أما هؤلاء فكانوا مترفين، لا يتحركون في العمل الصالح أبدًا، ولا يتركون الحرام، وما فيه ملذاتهم، لا يتركون الخمر، ولا الزنا، ولا الربا، ولا الاعتداء على الناس، وأخذ أموالهم، والتسلط عليهم، ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦]، فتكون العاقبةلهم سيئة، أما المؤمنون وإن تعبوا في هذه الدنيا في العبادة، والطاعة، وكفوا عن محارم الله، فإنهم يتنعمون في الآخرة.

وهذا فيه ذم الترف، وأن الإنسان لا يترف نفسه، ولا يستغرق في الملذات، وإنما يعتدل، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

فهؤلاء استغرقوا في الترف في الدنيا، وظنوا أنه ليس هناك بعث، ولا حساب، وكذبوا الرسل، وغرتهم الحياة الدنيا، واطمأنوا بها، ولم تأت الآخرة لهم على بال، فانتقلوا إلى الآخرة، وهم على هذه الحال، ليس معهم عمل، إلا الشرفهذا جزاؤهم، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

فالله يجزي الإنسان على عمله، وعلى نيته، وقصده، فلا يعذب من لا يستحق العذاب، ولا ينعم من لا يستحق النعيم؛ لأنه ﷻ حكم عدل.

ثانيًا: ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾، قيل: المراد به الشرك، والكفر(١)؛ لأن الشرك هو أعظم الذنوب(٢)، وهم يصرون عليه، ولا يتوبون إلى الله من الشرك، والكفر، والاستغراق في الشهوات المحرمة، وإلفهم للذنوب، والمعاصي، فلم يبق لهم جزاء عند الله إلا العذاب ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحريم: ٧]، أما لو أنهم تابوا إلى

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ١٣٢)، وتفسير ابن كثير (٨/ ٢٦).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٤٤٧٧، ٦٠٠١، ٦٨١١، ٧٥٢٠) من حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: «أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ»؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ». قُلْتُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ». قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ».

الله لتاب الله عليهم، كما قال الله ﷻ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ فهذا فيه تحذير من الإصرار على الذنب، والحث على المبادرة بالتوبة قبل أن يموت الإنسان، وهو على ذنبه فيوافي ربه به.

ثالثًا: ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، الاستفهام للإنكار، فهم ينكرون البعث، ويقولون أن الله لا يعيد العظام، والتراب إلى أجسام حية، فهم يجحدون قدرة الله ﷻ، ويعجزونه، في حين أنهم يعترفون أن الله خلقهم أول مرة قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، فالذي قدر على إيجادكم من العدم ألا يقدر على إعادتكم؟، هذا في نظر العقل، فإن من قدر على البداءة، قدر على الإعادة من باب أولى.

﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾، كما لم يعد الينا آباؤنا الأولون: ﴿فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

فأمر الله نبيه ﷺ أن يجيبهم، بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ﴾، أي: أول الخليقة، وآخرها، كلهم يبعثهم الله ﷻ، ويجمعهم جميعًا في صعيد واحد، فأخبر الله ﷻ أن هذا له موعد، إذا جاء فإن الله ﷻ يبعث الأموات، أما أن يبعثهم قبل هذا الموعد، فالله ﷻ لا يخلف وعده. ولا يغير سنته من اجل تحديهم.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾﴾، في هذا اليوم ﴿لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ كريه المنظر، كريه الطعم، وهو شجر النار -والعياذ بالله-، ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾، لأنهم يصيبهم جوع، ويضطرون أن يأكلوا من الزقوم -والعياذ

بالله-، ولا يأكلون منه أكلًا يسيرًا، بل يملئون بطونهم؛ زيادة في العذاب[(١)].

والذي يأكل يحتاج إلى الشراب، وهم يشربون من الحميم من الماء الحار ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۝٥٤﴾ لأنهم يضطرون الى أن يشربوا؛ لأنها تلتهب بطونهم بالنار، والزقوم ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾، اي يشربونكثيرا كشرب الإبل العطاش وقال ﷻ: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾، أي: ضيافتهم إذا قدموا على الله ﷻ يوم الحساب، ليس لهم نزل سواه[(٢)]، أما المؤمنون فالله ﷻ قال عنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٠٧﴾ [الكهف: ١٠٧]، نسأل الله العافية، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

---

(١) كما في الحديث عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄، قوله: «لَوْ أَنَّ قَطْرَةً، مِنْ زَقُّومِ جَهَنَّمَ أُنْزِلَتْ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ أَفْسَدَتْ عَلَى النَّاسِ مَعَايِشَهُمْ». أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٥٢)، والبيهقي في البعث والنشور (١/ ٣٠٢)، وانظر: تفسير الطبري (٢١/ ١٢٦).

(٢) انظر: لسان العرب (١١/ ٦٥٦)، وتاج العروس (٣٠/ ٤٨٠).

الدرس التاسع والعشرون

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ
ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ
وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا
تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ
تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ
أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾
أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا
تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة: ٥٧ - ٧٤].

بعد ما ذكر الله ﷻ تكذيب المشركين للبعث بعد الموت، واستبعادهم له، وقولهم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾، من باب الاستبعاد، والاستنكار، وكأن الله ﷻ عندهم لا يقدر على إحياء الأموات بعد موتهم؛ كما قال ﷻ: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التغابن: ٧-٨]، فخير لكم من أن تنكروا البعث، ولا تستحضروه

ولا تعملوا له، خير لكم أن تؤمنوا بالله، ورسوله، وما أخبر الله به، ورسوله، وأن تستعدوا لهذا اليوم الذي لا ريب فيه، وأن تعتمدوا على الخبر الصادق لا على الظن الكاذب.

وفي هذه الآيات الكريمات، ذكر الله الآيات الدالة على قدرته الكاملة التي لا يعجزها شيء، وهم يعترفون بها، وهو يخاطبهم بما يعترفون به، ولا يقدرون على إنكاره، من توحيد الربوبية، وأفعال الرب سبحانه وتعالى، فما داموا يعترفون بأنه ربهم، وأنه قادر على كل شيء، فكيف يستغربون البعث، وينكرونه؟، فهذه الآيات فيها تقرير قدرة الله عز وجل على البعث بعد الموت.

قال سبحانه وتعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾، فهم يعترفون أن الله خلقهم، قال ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ فهم اعترفوا أن الله خلقهم من بعد أن لم يكونوا شيئًا، وأوجدهم من العدم، فالذي أوجدهم من العدم قادر على أن يعيدهم من باب أولى فما داموا يعترفون أن الله خلقهم، وأوجدهم من عدم، ألا يقدر سبحانه وتعالى على إعادتهم؟.

فهذا دليل عقلي لا يقدرون على إنكاره؛ لأن الإعادة أهون من البداءة، وإن كان الله عز وجل لا يعجزه شيء، لكن هذا من باب الخطاب العقلي لهم؛ ولهذا قال عز وجل: هنا ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾، أي: فهلا تصدقون بالبعث، ما دمتم أقررتم أن الله خلقكم، فلماذا لا تصدقون بإعادته لكم بعد الموت، وهذا إلزام لهم بما اعترفوا به، ولا يمكنهم إنكاره، فلا أحد يقول: خلقني غير الله، أو أنا خلقت نفسي، أو الطبيعة أوجدتني.

ثم بيّن سبحانه وتعالى كيف خلقهم، ومن ماذا خلقهم، فقال عز وجل: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾

أي: ما تلقون من النطف في أرحام الإناث؛ لأن الإمناء معناه: الدفق[١]، أي: ما تدفقون من النطف في أرحام النساءويكون في قرار مكين، وهذه عملية يشاهدونها، فالمرأة قبل الجماع ما فيها حمل، وهذا ليس مقصورًا على الآدميين، بل في جميع ذوات الأرواح، بل حتى غير ذوات الأرواح، فالنباتات فيها أزواج، ذكور، وإناث، ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات: ٤٩].

وقد رأيتم هذا واقعًا، أن المرأة تكون خالية من الحمل، فإذا وطئها الزوج وألقى فيها هذه النطفة، في قرار مكين، لا تضيع، ثم يمر عليها أطوار إلى أن تكون جنينًا، ذا حياة، وروح، فالله سبحانه وتعالى يخلق من هذا الماء هذا الجنين. ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رضي الله عنه، قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ**»[٢].

وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون: ١٢]، هذا آدم عليه السلام، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً﴾، أي: ذريته، ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ

(١) انظر: لسان العرب (٣/ ٤٦).
(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (١).

أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤]، هذه بداية هذا الإنسان، وهذا تفصيل لقوله ﷻ: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾، خلقهم الله على هذه الكيفية العجيبة.

ولهذا قال: ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾، أي: أأنتم تخلقون هذه النطفة، وتطورونها وتحفظونها؟ هل أحد يعمل هذا غير الله ﷻ؟؛ ولهذا ليس كل نطفة يكون منها جنين، وإنما ما أراده الله ﷻ كان، فقد يكون هناك تزاوج بين الذكر، والأنثى، ولا يحصل الولد لأن هذا راجع إلى مشيئة الله ﷻ.

قوله ﷻ: ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾، فهذا سؤال ما أجاب عيه أحد، ولن يجيب عليه أحد إلى أن تقوم الساعة، فالسؤال مفتوح، والتحدي باق، ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ فالله ﷻ هو المنفرد بالخلق، والإيجاد.

﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾، هذا تقرير أن الله هو الخالق ﷻ وحده؛ ولهذا عجَّز الأصنام، وعبدتها أنهم لا يخلقون شيئًا، وهم يخلقون، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [النحل: ٢٠]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣]، فلو اجتمع الإنس، والجن، والأطباء، والحذاق؛ ليخلقوا ذبابة، أو أقل شيء ما استطاعوا؛ لأن الله ﷻ هو المنفرد بالخلق ﷻ، فهو المستحق للعبادة.

أما من يكابر من غلاة القبورية اليوم ويقول: إن الأولياء يخلقون الأجنة في البطون، فهذا كذاب مفتر على الله ﷻ، يكذبه الكفرة قبل المسلمين، ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾، إذا كانوا لم يقدروا على خلق أنفسهم، فلن يقدروا على خلق غيرهم.

ثم قال ﷻ: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠﴾، هذه آية ثانية، ومعجزة أخرى، أن الله قدر الموت على هؤلاء الخلائق، ولا أحد يقدر على أن يمتنع من الموت، أو يعمل شيئًا يمنع الموت عنه، لا الملوك، ولا غيرهم، ولا الأطباء، والحكماء، كل لا بد أن يموت، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]، هذا من آيات الله ﷻ.

وهذا الموت الذي هو مفارقة الروح للبدن، حتى يصبح البدن جثة هامدة، ثم يتحول إلى تراب، هذه من أدلة قدرة الله ﷻ على إعادته مرة اخرى

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، أي: بعاجزين، لا أحد يعجز الله ﷻ، ﴿عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾، و هذا وعيد من الله ﷻ في أنه ﷻ قادر على أن يهلكهم بالموت ويسلطه عليهم، فيموتون، ثم يأتي بغيرهم، ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ۝١٣٣﴾ [النساء: ١٣٣]، فهو القادر على أن يميت هؤلاء المتجبرين، والمتكبرين، ويستبدلهم بغيرهم، ولا يعجزون الله ﷻ، ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: ونحن قادرون على أن ننشئكم، ونحولكم من خلق إلى خلق، بأن نمسخكم قردة، وخنازير، فالله قادر على ذلك[1]، أو معناه: وننشئكم فيما لا تعلمون بعد البعث؛ لأن الله يبعثهم على حالة تختلف عن حالتهم في الدنيا[2]، فالناس بعد البعث تختلف

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ١٧٣).
(٢) من أحوال الناس المختلفة يوم الحشر عن حالهم في الدنيا ما أخرجه الإمام مسلم (٥٦) من حديث عَائِشَةَ ﵂، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ =

حالتهم عن حالتهم في الدنيا، فإذا بعثهم تَعَالَى فهي حياة دائمة، لا انقضاء لها، ولا موت كما في الدنيا.

ثم قال تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ﴾، وهي: خلقكم في بطون أمهاتكم، والنشأة الثانية هي: الإعادة، فالنشأة الأولى برهان، ودليل على النشأة الثانية، ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾، أن الله الذي اوجدكم من عدمقادر على أن يحييكم بعد موتكم مرة اخرى، لا يعجزه شيء تَعَالَى، ثم قال تَعَالَى مذكرًا بآية أخرى، فقال: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾، أي: تحرثون الأرض بالمحاريث، وتلقون فيها البذر، ثم تتركونه، من الذي ينبته؟ أأنتم تنبتونه، فأنتم ما تقدرون إلا على الحرث، والبذر فقط، فمن الذي يزرعه، وينبته، و لو شاء الله ما نبت، ولما استطعتم أن تنبتوه، ﴿أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ﴾، أي: تنبتونه، ﴿أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾، لا أحد يقول: نحن ننبت النبات، إنما يستطيع أن يقول: أنا أحرث الأرض، وألقي فيها البذر فقط. هذا، لكن إنباته لا أحد يقدر عليه إلا الله تَعَالَى؛ ولهذا لا تقل: أنا زرعت، بل قل: أنا حرثت، أما الزارع فهو الله تَعَالَى، فهذا دليل على قدرة الله تَعَالَى، ثم -أيضًا- إذا نبت من الذي يحفظه، ويدرجه في النبات شيئًا فشيئًا حتى يظهر عليه الحب؟، ومن الذي يحفظ الحب إلى أن يؤخذ؟، هو: الله عَزَّوَجَلَّ، فالله قادر على أن يسلط عليه بعد النبات ما يتلفه؛ ولهذا قال: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾﴾، يسلط الله عليه الريح، أو البَرَد، أو البَرْد، أو الحريق، فيصبح حطامًا متفتتًا، فالذي يحفظه بعد نباته من الآفات، وينميه،

= الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ جَمِيعًا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، قَالَ ﷺ: «يَا عَائِشَةُ الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ».

ويسوق الماء في أغصانه، وأوراقه هو الله ﷻ.

﴿فَظَلْتُمْ﴾، أي: بقيتم إذا جعله الله حطامًا ﴿تَفَكَّهُونَ﴾، أي: تتعجبون بحزن[١]، وتتحسرون، كيف أن الزرع بعد ما نبت، وتكامل نباته، ورجوناه صار حطامًا، ثم تقولون: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝٦٦﴾، والغرم هو الخسارة[٢]، أي: نحن خسرنا هذا الزرع، وغرمناه، والغارم هو الذي يخسر الشيء؛ كما قال الله عن صاحب الجنتين: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۝٤٢﴾ [الكهف: ٤٢].

كذلك أصحاب الزروع، إذا سلط الله عليها ما يهلكها، فإنهم يتحسرون، ويعترفون أن الله ﷻ هو الذي أتلفها، وحرمهم منها ويقولون ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾.

ثم ذكر الله آية أخرى، فقال ﷻ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨﴾، نص على الشرب؛ لأنه أغلب وجوه الانتفاع بالماء، وإلا فيه انتفاعات أخرى، لكن أهمها الشراب، ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾، أي: من السحاب[٣]، من الذي كوّن هذا السحاب، ولقحه بالماء، وساقه إلى الأرض الميتة، وأمره أن ينزل على الأرض بمقدار معلوم، ووزعه توزيعًا عادلًا؟، لا ينصب جميع فلا ينتفع به، وإنما ينزله الله ودقًا من خلال السحاب، فالسحاب كالغرابيل التي ينزل الماء من خلالها.

---

(١) التفكه هو: التعجب. انظر: لسان العرب (١٣/ ٣٢٤، ٥٢٤)، وتاج العروس (٣٦/ ٤٦١).

(٢) انظر: لسان العرب (١٢/ ٤٣٧)، وتاج العروس (٣٣/ ١٧٠).

(٣) انظر: مقاييس اللغة (٥/ ٣١٨)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ٣٢٥).

﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ بل الله ﷻ هو الذي ينزله، ويسوقه، ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ [الفرقان: ٥٠]، صرفه الله، فينزله على جهة دون جهة، يمر من فوق ناس، ولا ينزل منه قطرة، ثم يؤمر فينزل ما فيه في مكان آخر، من الذي ساقه وصرفه؟ هو الله ﷻ، وأم بمعنى بل[1]، أي: بل نحن المنزلون، ما أحد يقول: أنا المنزل، أبدًا ما قال هذا أحد، وما يسمونه الآن بالاستمطار لم ينجح ولم ينفع رغم تكاليفه الباهظة، فالله هو الذي انفرد بإنزال المطر بقدرته ﷻ، ورحمته، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى: ٢٨].

وهو الذي يجعل فيه البركة والنفع. ثم قال ﷻ: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾، أي: ملحًا، لا يستطاع شربه أجاجا لا ينفع ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾، أي: هلاّ تشكرون الله ﷻ على هذه النعمة العظيمة، وهي سقيا المطر بعد ما أجدبتم، ويبست أراضيكم، وأقفرت مراعيكم، وغارت آباركم، فمن الذي جاء بهذا الماء، وأنزله، فأنبت به الزروع، والأعشاب، والمراعي، من الذي خزنه في الأرض لمصالحكم، ووزعه؛ في بطن الأرض على الآبار، توزيعا بالقسط، والعدل على حسب حاجة الناس، فأذا تبين لكم هذا، هلا تشكرون الله على نعمته، ولا تكفرونها، وتنكرونها.

ثم ذكر الله أخرى، وهي: النار، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ﴾، أي: قد

---

(١) كثيرًا ما تتناوب الحروف في العمل فتأتي «أم» بمعنى «بل» كقوله ﷻ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [السجدة: ٢-٣]. وانظر في معاني «أم» لسان العرب (١٢/ ٣٥).

رأيتموها، ﴿ٱلَّتِى تُورُونَ﴾، أي: تقدحون الزناد بالمروة فتخرج نارًا[١]، من بين الزناد، والمروة تشتعل النار، وتطبخون عليها، وتستدفئون، وتنتفعون بها، فالله أودع في هذه المروة، وهذا الحديد النار التي تولدت من بينهما.

وقيل: المراد بذلك: الشجر الذي تخرج منه النار، وهو المرخ، والعفار إذا حُكّ غصن بغصن تولدت منهما النار[٢]، وهما أخضران، وهذا من آيات الله: أن غصنًا أخضر يُحكّ في غصن أخضر، فتتولد النار من بينهما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس: ٨٠]، ألا يدل هذا على عظيم قدرة الله ﷻ، حيث أوجد النار المحرقة في شجر اخضر، فكيف تجتمع الخضرة مع المادة المحرقة؟ هذا من قدرة الله ﷻ؛ لأجل مصالح العباد، وهذا الكبريت يستخرج من هذه المادة النارية، فهم يصنعونه من هذا النبات.

ففي النار فائدتان:

الفائدة الأولى: أن الله جعلها تذكر بنار الآخرة، فهم يكذبون بنار الآخرة، وعندهم النار في الدنيا، فإذا كنتم لا تطيقون نار الدنيا، فكيف تطيقون نار الآخرة، مع أن نار الآخرة أشد حرًا، ولا يقاس حرارة النار في

---

(١) المَرْوَةُ: الحَجَرُ الأَبْيَضُ الهَشُّ تكونُ فِيهِ النارُ. انظر: تاج العروس (٣٩/ ٥٢٠).

(٢) المَرْخُ والعَفارُ: شَجَرَتَانِ فِيهِمَا نارٌ لَيْسَ فِي غَيْرِهِمَا مِنَ الشَّجَرِ، ويُسَوَّى مِنْ أَغصانها الزنادُ فيُقْتَدَحُ بِهَا.
قَالَ الأَزهري: وَقَدْ رأَيتهما فِي الْبَادِيَةِ والعربُ تَضْرِبُ بِهِمَا الْمَثَلَ فِي الشَّرَفِ الْعَالِي فتَقُولُ: فِي كُلِّ الشَّجَرِ نَارٌ. واسْتَمْجَدَ المَرْخُ والعَفار أَي: كَثُرَتْ فِيهِمَا عَلَى مَا فِي سَائِرِ الشَّجَرِ. انظر: تاج العروس (٤/ ٥٨٩).

الدنيا على حرارة النار في الآخرة، وإنما هي جزء يسير من نار الآخرة -والعياذ بالله-[١]، ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ [التوبة: ٨١].

الفائدة الثانية: في قوله: ﴿وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾، و﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾، قيل: للمسافرين[٢]؛ لأن المسافر أشد حاجة إلى النار من الذي في البلد؛ لأن الذي في البلد عنده شيء يستدفئ به، لكن الذي في البر ليس عنده شيء يستدفئ به، ويتقي به البرد إلا النار ليصطلي عليها، ولما ذكر الله ﷻ هذه الآيات العظيمة، نزه نفسه ﷻ عما وصفه به المشركون من العجز، وعدم القدرة على البعث، فقال: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾، أي: نزه اسم ربك العظيم عما وصفه به المشركون من العجز عن بعث الأموات من قبورهم؛ لأنه اتضح من هذه الآيات أن الله لا يعجزه شيء.

﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، أي: بجميع أسماء الله؛ لأن المفرد المضاف يعم؛ كما قال ﷻ: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٧٨]، أي: جميع أسماء الله ﷻ مباركة، ﴿الْعَظِيمُ﴾، الذي لا أعظم منه ﷻ، فهو عظيم في ذاته، وعظيم في أسمائه وصفاته، وعظيم في أفعاله ﷻ، فهو العظيم المنفرد بالعظمة الكاملة التي لا يضاهيها شيء. هذا والحمد لله رب العالمين.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٣٠) واللفظ له من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا، مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ» قَالُوا: وَاللهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً، يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا».

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ١٤٥)، وتفسير ابن كثير (٨/ ٣٠)، ولسان العرب (١٥/ ٢١٠).

الدرس الثلاثون

﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ
لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذَا
بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ
﴿٨٥﴾ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ
ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٞ
لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ﴿٩٣﴾
وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾

[الواقعة: ٧٥ - ٩٦].

قوله تَعَالَى: ﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾، من المفسرين من يقول: إن «لا» زائدة؛ لأنها لا تعطي معنى بذاتها، وأن الأصل «أقسم بمواقع النجوم»، بدون «لا»[1]، ولكن الصحيح - بل الصواب -: أنه ليس في القرآن شيء زائد، ليس له فائدة، وأن هذه الكلمة «لا أقسم»، تكررت في

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ١٤٦)، وتفسير ابن كثير (٨/ ٣١).

القرآن، ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ١]، ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ [البلد: ١]، فلابد أن لها معنى، وفائدة[(١)].

فالمعنى - والله أعلم - لا ليس الأمر كما تزعمون من عدم البعث، وعدم الحساب، وإنما هناك بعث، وحساب، وجزاء، فهذا نفي لقولهم، ثم قال: أقسم بمواقع النجوم، وهو كلام مستأنف.

﴿أُقۡسِمُ﴾: أي: أحلف، ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾: اختلف العلماء في المراد بالنجوم، فقيل المراد: نجوم القرآن؛ لأن القرآن لم ينزل جملة واحدة، وإنما نزل على الرسول ﷺ منجمًا حسب الوقائع، والحوادث إلى أن تكامل نزوله عند وفاة الرسول ﷺ، فالمراد بالنجوم: نجوم القرآن أقسم الله بها؛ لعظمة هذا القرآن[(٢)].

وقيل: المراد: الكواكب التي في السماء[(٣)]؛ لأنها تدل على عظمة الله ﷻ، فجريانها، وانتظامها، وأشكالها، وتفرقها في السماء من أعظم

---

(١) وَقَالَ آخَرُونَ: لَيْسَتْ لَا زَائِدَةً لَا مَعْنَى لَهَا بَلْ يُؤْتَى بِهَا فِي أَوَّلِ الْقَسَمِ إِذَا كَانَ مُقْسَمًا بِهِ عَلَى مَنْفِيٍّ كَقَوْلِ عَائِشَةَ رضي الله عنها: «**لَا، وَاللَّهِ مَا مَسَّتْ يَدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ**»، وَهَكَذَا هَاهُنَا تَقْدِيرُ الْكَلَامِ. انظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٣١).

(٢) أخرج الحاكم في المستدرك (٢/ ٥١٩)، والبيهقي في الشعب (٣/ ٥٢٢) من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «**أُنْزِلَ الْقُرْآنُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ مِنَ السَّمَاءِ الْعُلْيَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا جُمْلَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ فُرِقَ فِي السِّنِينَ قَالَ: وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ** ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾ [الواقعة: ٧٥] **قَالَ: «نَزَلَ مُتَفَرِّقًا»**. وانظر: تفسير الطبري (٣/ ٤٤٧)، وتفسير ابن كثير (٨/ ٣١)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٢٩).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ١٤٨)، وتفسير ابن كثير (٨/ ٣١).

آيات الله ﷻ، ومعنى مواقع النجوم: أي: منازلها، ومسيرها في السماء؛ كما قال ﷻ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥ - ١٦]، وهي النجوم.

﴿إِنَّهُۥ﴾، الضمير يرجع إلى قوله: «أقسم»، أي إن هذا القسم لقسم عظيم لو تعلمون عظمته لعرفتم قدرة الله ﷻ، وحكمته، وعلمه، فعظمتم الله ﷻ، وعبدتموه حق عبادته.

ثم بين جواب القسم؛ لأن القسم لابد له من جواب، وهو: المقسم عليه، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧﴾، ﴿إِنَّهُۥ﴾، أي: القرآن، ﴿كَرِيمٞ﴾، أي: عظيم، فالكريم هو: الجيد، والنفيس من كل شيء، مثل الأحجار الكريمة، وأجود الأشياء، وأعظمها كلام الله ﷻ.

﴿فِي كِتَٰبٖ﴾، أي: مكتوب في كتاب مكنون، وهذا الكتاب هو اللوح المحفوظ، فإن الله كتب القرآن في اللوح المحفوظ، وأنزله على رسوله ﷺ فقد تكلم الله به، ثم كتبه في اللوح المحفوظ، ثم أنزله جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ، وبلغه محمد ﷺ لأمته(١).

فهو مكتوب في اللوح المحفوظ، ومحفوظ في الصدور، ومكتوب في المصاحف، وهو القرآن العظيم.

---

(١) كما جاء في الأثر الذي أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٤٤)، والنسائي في السنن (٧٩٣٧)، واللفظ له، والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٤٢) من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: (**فُصِلَ الْقُرْآنُ مِنَ الذِّكْرِ فَوُضِعَ فِي بَيْتِ الْعِزَّةِ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَجَعَلَ جِبْرِيلُ** عليه السلام **يَنْزِلُ عَلَى النَّبِيِّ** ﷺ **يُرَتِّلُهُ تَرْتِيلًا**).

﴿مَّكْنُونٌ﴾، أي: مستور، لا يراه أحد إلا من أذن الله له، وهم: الملائكة الكرام، فلا تطلع عليه الشياطين، ولا يطلع عليه أي مخلوق إلا من أذن الله له؛ ولهذا قال: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾، وهم الملائكة؛ لأن الله طهرهم، وزكاهم، وأثنى عليهم، وهذا نفي أن تكون الشياطين لها علاقة بهذا القرآن، أو لها اطلاع على اللوح المحفوظ، فهم لا يقربونه.

وهذا كقوله ﷻ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشعراء: ٢١٠ - ٢١٢]، فالسمع هو: الوحي، لمعزولون، أي: مبعدون، فهو مثل قوله هنا: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾.

وأخذ بعض العلماء من إشارة هذه الآية أنه لا يمس المصحف إلا على طهارة، فإن قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾، فيه إشارة إلى أن هذا القرآن لا يلمسه أحد إلا وهو على طهارة من الحدثين -الأكبر، والأصغر-، وهذا جاء في حديث عمرو بن حزم: «**أَنْ لَا يَمَسَّ الْقُرْآنَ إِلَّا طَاهِرٌ**»(١).

وهذا كتاب مشهور تلقته الأمة بالقبول، وهو ثابت: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، فأبان عن مصدر هذا القرآن، وأنه من الله، تكلم الله به، ثم حمّله جبريل عليه السلام أمين الوحي الى محمد ﷺ.

فهذا يدل على أن القرآن نزل من عند الله، وأنه كلام الله منزل غير مخلوق، ففي هذا رد على الجهمية، والمعتزلة، ومن على مذهبهم، الذين يقولون: إن القرآن مخلوق -قبحهم الله-، فمعنى هذا أنهم يصفون الله بعدم

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ١٩٩)، وعبد الرزاق في مصنفه (١/ ٣٤١)، والطبراني في المعجم الصغير (٢/ ٢٧٧)، والبيهقي في الشعب (٣/ ٤٤٦).

الكلام، وأن الله لا يتكلم -تعالى الله عن ذلك-، فنفوا عنه صفة من أعظم صفاته ﷻ(١).

ثم قال ﷻ: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾، هذا استفهام استنكار، والحديث هو القرآن، فهو حديث الرب ﷻ، وكلام الرب ﷻ، ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٢].

﴿أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾، متساهلون في العمل به، وإظهاره للناس، والدعوة إليه، المداهنة معناها: التساهل في الشيء(٢)، فالواجب أن يبّلغ هذا القرآن، ولا يُداهن فيه، ويعمل به، ويعلمه للناس، لا أن يُكتم منه شيء، أو أن يُؤول، ويفسر بغير تفسيره، وإنما يبلغ للناس لفظه، ومعناه، وتفسيره من غير مداهنة، وتساهل فيه، قال ﷻ: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ۝٩﴾ [القلم: ٩]، ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ۝٧٣ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ۝٧٥﴾ [الإسراء: ٧٣ - ٧٥].

فيجب أن يبلغ هذا القرآن للناس كما قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، ولا يتساهل في تبليغه، وبيانه من أجل خواطر الناس، وإرضائهم، بل يبلغ كما جاء عن الله ﷻ، فإن حصل تفريط في تعلمه، وتعليمه، والدعوة إليه، وبيانه للناس، وإلزام الناس بالعمل به،

---

(١) انظر في المسألة: التحفة المهدية شرح العقيدة التدمرية (٢/ ٧٣)، أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة (١/ ٣٣٤).

(٢) المداهنة هي: أن يظهر المرء خلاف ما يضمر.

انظر: لسان العرب (١٣/ ١٦٢)، ومقاييس اللغة (٢/ ٣٠٨)، وتاج العروس (٣٥/ ٤١).

فهذه مداهنة، والمداهنة هي: التنازل عن الحق؛ لأجل إرضاء الناس، أو إرضاء الملوك، أو الرؤساء، أو الدول، أو لأجل طمع من مطامع الدنيا.

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾، رزقكم، أي: المطر، قال ﷻ: ﴿وَفِي السَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢]، فتقولون: هذا المطر إنما هو بسبب النجوم، والكواكب، كما كانوا في الجاهلية يستقون بالأنواء، أي: بالنجوم وينسبون المطر إلى الظواهر الكونية، والمناخات، ولا ينسبونه إلى الله.

فهذا تكذيب للحق، فالقرآن منزل من الله، وكلامه، وكذلك المطر منزل من الله بأمر الله ﷻ، وتقديره، قال ﷻ: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]، فلاينسب المطر إلى غير الله ﷻ؛ لأن الله هو الذي أنزله، وهو الذي دبره، وساقه، وصرفه، ويحبسه إذا شاء، فالمطر ليس من الظواهر الكونية، أو تأثير النجوم، والطوالع، والغوارب كما هو في اعتقاد أهل الجاهلية، ومن يضاهونهم الآن؛ لأن النبي ﷺ أخبر أنه سيكون في هذه الأمة من يستسقي بالنجوم، والأنواء، وهذا من خصال الجاهلية.

عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الجُهَنِيِّ رضي الله عنه، أَنَّهُ قَالَ: «**صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلاَةَ الصُّبْحِ بِالحُدَيْبِيَةِ**[1] **عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ**»، أي: مطر؛ «**كَانَتْ مِنَ اللَّيْلَ**»، فأراد النبي ﷺ أن يذكرهم، وأن يقرر عقيدة التوحيد في هذا المطر، وأن يبطل عقيدة الجاهلية فيه، «**فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ**

---

(١) الحديبية هي الشميسي الآن غرب مكة على حدود الحرم إلى الغرب هذه الحديبية، ممتدة إلى التنعيم. (المؤلف).

بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ[(١)]».

هكذا علمهم رسول الله ﷺ بمناسبة نزول المطر، حتى يقرر لهم عقيدة التوحيد في المطر، وينفي عنهم عقيدة الجاهلية، والمشركين، ولذلك يستحب إذا نزل المطر أن تقول: مطرنا بفضل الله، وبرحمته، كما كان رسول الله ﷺ يقول ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ﴾، أي: الروح، ﴿ٱلْحُلْقُومَ﴾، وهو الحلق؛ لأن الروح تساق من البدن، وتجمع، حتى تصل إلى الغرغرة، فهذا الوقت الذي لا تقبل فيه التوبة ممن تاب[(٢)].

﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾ أي أنتم جالسون عند الميت، و ما لكم حيلة، ويمكن أن يكون هذا الميت أغلى شخص عندكم، وما لكم حيلة في منعه

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾، الضمير هنا ضمير جمع، والمراد الله وملائكته،

فنحن بملائكتنا، ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾، من الحاضرين، ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ لاتبصرون الملائكة، وهم موجودون، عند الميت، أقرب إليه منكم، فهذا من آيات الله ﷻ؛ لأن هذا من علم الغيب الذي لا تطلعون عليه مع أنه قريب منكم.

---

(١) أخرجه البخاري (٨٤٦، ١٠٣٨، ٤١٤٧).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٣)، واللفظ له، وأحمد في المسند (١٠/ ٤٦١)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٣٩٤) من حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ لَيَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ، مَا لَمْ يُغَرْغِرْ».

ثم تحداهم، فقال: ﴿فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ٨٦﴾ أي: غير مبعوثين، ومحاسبين، ومجزيين؛ لأنهم ينكرون البعث والحساب.

﴿تَرۡجِعُونَهَآ﴾، أي: تردون الروحالى الجسد.

يتحداهم الله ﷻ بهذه الآيات، ويعجزهم، وهذا التحدي باق، ومستمر في العالم إلى أن تقوم الساعة، يموت الملوك، والرؤساء، والأعزة عند الناس، ولا يستطيعون أن ينقذوهم من الموت أبدًا.

ثم أخبر ﷻ عن مصير هذا الميت، وأين يذهب بعد الموت، قال: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٨٨ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ٨٩ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٩٠ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٩١ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ٩٢ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ٩٣ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ٩٤﴾، وهذا مثل ما جاء في مطلع السورة، ففي مطلع السورة قسم الله الناس إلى هذه الأقسام الثلاثة.

فذكر الله القيامتين: القيامة الكبرى في أول السورة، والقيامة الصغرى، وهي: الموت في آخر السورة، فقال ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾، المقربون والسابقون هم الذين فعلوا الواجبات، والمستحبات، وتجنبوا المحرمات، والمكروهات، هؤلاء هم المقربون، السابقون، وأما أصحاب اليمين، وهم: الأبرار فهم الذين فعلوا الواجبات، وتركوا المحرمات، وقد يفعلون شيئًا من المكروهات، ويسمون بالمقتصدين - أيضا - ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٨٨ فَرَوۡحٞ﴾، أي: راحة، بعد الموت، وريحان: أي: سرور، ونعمة، وجنة نعيم.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٩٠ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي: صاحب

اليمين سالم -أيضًا- من العذاب يقال: سلام لك: أي: سلمت.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾، المكذبين بالرسل، ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾، عن الحق، ﴿فَنُزُلٌ﴾ أي: ضيافة من حميم[١] وهو: الماء الحار، والجو الحار، والمكان الحار، ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾، تحرقهم النار.

ثم قال ﷻ في ختام السورة: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾، أي: هذا الذي أخبرناكم به من أحوال الموتى عند الاحتضار، ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾، أي: الحق الذي لا شك فيه، ولابد من وقوعه، وكلكم ستلاقونه، لا يتخلف عنه أحد وهذا من إضافة الموصوف إلى صفته، والأصل اليقين الحق.

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾، أي: نزه ربك ﷻ عن النقائص، والعيوب وعن أن تكون أخباره، وآياته غير صحيحة.

نسأل الله ﷻ أن يمنّ علينا، وعلى جميع المسلمين بالعمل بكتابه، وسنة رسوله ﷺ، وأن يجعلنا، وإياكم من أهل القرآن الذين حملوه بصدق، وعملوا به، وأخلصوا لله ﷻ، وعظموا هذا القرآن حق تعظيمه.

وصلى الله، وسلم على نبينا محمد.

---

(١) سبق بيان معنى «الحميم» في مطلع السورة عند قوله ﷻ: ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾﴾.

الدرس الحادي والثلاثون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٥ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٩﴾ [الحديد: ١ - ٩].

في مطلع هذه السورة الكريمة أخبر الله ﷻ عن نفسه عدة إخبارات تدل على عظمته ووجوب الإيمان به، ثم قال بعدها: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ لأن هذه الإخبارات تقتضي وجوب الإيمان به سبحانه وتعالى، فهي براهين على وجوب الإيمان بالله سبحانه وتعالى والكفر بما سواه.

فقوله ﷻ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ هذا في عدة سور افتتحها بالتسبيح، وهو التنزيه لله ﷻ عما لا يليق به[(١)]، وكذلك تأتي آيات في أثناء السور فيها التسبيح لله ﷻ، فتارة سبح نفسه، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، وتارة يخبر أن كل من في الكون في السماوات والأرض يسبحه ﷻ بلفظ الماضي: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾، وبلفظ المضارع: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ [الجمعة: ١]، وبلفظ الأمر: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١].

فالتسبيح هو: التنزيه لله ﷻ عن النقائص والعيوب، فهو الكامل ﷻ في ذاته وفي أسمائه وصفاته وفي أفعاله، لا يلحقه نقص بوجه من الوجوه، له ﷻ الكمال المطلق الذي لا يعتريه نقص، وقال هنا: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾، أخبر أنه: نزه الله ﷻ، ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، من المخلوقات كلها تنزهه عما لا يليق به من الشرك والتشبيه والتمثيل والتعطيل، فكل المخلوقات في السماوات والأرض: من الملائكة، والآدميين، والجن والإنس، والحجر والشجر، والبر والبحر، والجبال والوهاد، كل شيء كما قال ﷻ: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

ليس هناك شيء في السماوات والأرض إلا وهو يسبح الله ﷻ وينزهه، ولكن هناك أشياء لا نفهم تسبيحها فهي تسبح الله ﷻ تسبيحًا يليق بها، ونحن لا نفهم هذا، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، يعني: لا تفهمونه وكوننا لا نفهم تسبيحها ولا نسمعه لا يدل على عدم وجوده.

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، أما من يقول: إن

(١) انظر: مادة (سبح) في العين (٣/ ١٥١)، وتهذيب اللغة (٤/ ١٩٦)، ومقاييس اللغة (٣/ ١٢٥)، وتهذيب الأسماء (٣/ ١٣٤)، ولسان العرب (٢/ ٤٧١).

تسبيح الجمادات مجاز؛ لأنها لا تنطق، وإنما تسبحه بلسان الحال، لا بلسان المقال، فهذا قول بلا علم، نقول بل هو تسبيح حقيقي، بحسب ما أعطاها الله ﷻ من التعبير اللائق بها(١).

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من جميع الكائنات، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: وما في الأرض؛ كما في الآيات الأخرى: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: اسمان من أسمائه ﷻ يتضمنان صفتين من صفاته، العزيز يعني: القوي المنيع، الذي لا يعجزه شيء ﷻ، ولا يرومه أحد، أو يتسلط عليه أحد، فهو الغالب ﷻ الذي لا يغلب، هذا معنى العزة.

الحكيم: الذي أحكم الأشياء، وأتقنها، ونظمها، وكذلك الحكيم في صنعته، وكذلك الحكيم في علمه ﷻ وأفعاله، وهو الذي يضع الأمور في مواضعها، ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧]، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الملك: ٣-٤]، لا تدرك أي شيء، أو أي خلل في مخلوقات الله ﷻ، فإن الله أعطاها كل ما تحتاجه، وأمدها بكل ما يصلحها.

والعزيز: يتضمن العزة، ويتضمن الحكمة، وهما صفتان من صفات الله، وهكذا كل أسمائه تتضمن صفات، وكل اسم من أسمائه يشتق منه صفة من صفاته ﷻ.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٩٢)، وزاد المسير (٥/ ٣٩)، والقرطبي (١٠/ ٢٦٦)، وابن كثير (٣/ ٤٣).

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: هو الذي يملك السماوات والأرض ومن فيهن، فلا يشاركه أحد في ملكه؛ كما قال ﷻ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٢]، فالملك كله له ﷻ، كلهم ملكه وعبيده، خاضعون لأوامره الكونية وتدبيراته لا أحد يستعصي على أوامر الله ﷻ وتدبيراته ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦]، ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣].

فمنهم من أسلم طائعًا، وهو المؤمن، ومنهم أسلم كارهًا، وهو الكافر، فكل المخلوقات منقادة، تطيع أمر الله الكوني وتدبيره ﷻ، لا تستعصي عليه، ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾: يحيي الأموات، ويميت الأحياء ﷻ، خلق الموت والحياة، فلا أحد يحيي ويميت أبدًا إلا الله ﷻ.

وهذا من أعظم آياته ﷻ، يحييهم وهم نطف في أرحام أمهاتهم، ويحييهم بعد موتهم عند البعث، ويميت الأحياء ﷻ، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]، فهو يحيي ويميت ولا أحد يملك هاتين الصفتين -الحياة والموت- إلا الله ﷻ، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

فلا يقال: وهو على ما يشاء قدير؛ كمايقول بعض الجهال والمعتزلة، بل هو على كل شيء قدير ولماذا نقيدذلك، ونقول: وهو على ما يشاء؟ وأما الآية التي في سورة الشورى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩] فهي خاصة بجمع أهل السماء والأرض، وأما القدرة، فهي شاملة لأي شيء

أراده الله، لا يستعظم عليه ﷻ شئ.

والخبر الثالث في قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ هو الأول، الذي ليس قبله شيء، الذي ليس له بداية، والآخر الذي ليس بعده شيء، فليس له نهاية، والظاهر: العالي فوق خلقه بذاته ﷻ وبقدره وقهره، والباطن: الذي يعلم بواطن الأشياء، فهو مع علوه لا يخفى عليه شيء في السماوات ولا في الأرض، ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٢-٣]، فسّر النبي ﷺ هذه الآية بقوله: «**اللهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ**»(١) لا يحجب علمه وبصره ﷻ شيء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾ [آل عمران: ٥]، فهذا تفسير النبي ﷺ، وهذه الأسماء الأربعة متقابلة، فالأول يقابله الآخر، والظاهر يقابله الباطن، اسمان لعلوه ودنوه، فهو عال وهو قريب ﷻ في علوه ودنوه، واسمان لأوليته وآخريته ﷻ، ثم قال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، فيه شمول العلم، وشمول القدرة فعلمه شامل لكل شيء، لا يخفى عليه شيء ﷻ، ولا يغيب عنه شيء ﷻ.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، هذا خبر رابع فالسماوات والأرض مخلوقة له.

﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، هو قادر على أن يخلق السماوات والأرض في لحظة، ولكنه خلقها في ستة أيام ليُعلم خلقه عدم العجلة في أمورهم، وهذه الأيام

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣).

هي أيام الأسبوع، أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، وقد سُمي يوم الجمعة؛ لأنه اجتمع فيه الخلق وتكامل.

وقد بينها بقوله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝١١ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩ - ١٢]، فالأرض وما فيها خلقت في أربعة أيام، والسماوات في يومين، فالمجموع ستة أيام.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾، أي: علا وارتفع سبحانه وتعالى على العرش، والعرش فوق السماوات، وهو أعلى المخلوقات، سقف المخلوقات، سقف الجنة وأعلى الجنة، العرش أعظم المخلوقات، وبعد العرش الكرسي، ثم البحر، ثم السماوات، والله عز وجل فوق ذلك كله، ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ استواءً يليق بجلاله سبحانه وتعالى، ليس كاستواء ا لمخلوق على المخلوق، وليس هو بحاجة إلى العرش، بل العرش هو المحتاج إليه بإمساكه وخلقه.

والعرش وغيره محتاج إلى الله، فليس معنى كونه استوى على العرش أنه محتاج إليه كاحتياج المخلوق إلى المخلوق، فالذي يستوي على الدابة أو على الباخرة أو على المركوبات محتاج إليها، وأما الله عز وجل، فإنه هو الغني، له ما في السماوات وما في الأرض، ليس بحاجة إلى مخلوقاته، وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾: ثم للترتيب، فالاستواء من صفات الأفعال، التي يفعلها إذا شاء سبحانه وتعالى، أما العلو، فهو صفة ذاتية ملازمة لله سبحانه وتعالى، فالفرق بين الاستواء

والعلو: أن الاستواء صفة فعلية يفعلها إذا شاء سبحانه وتعالى، وأما العلو فهو صفة ذاتية.

وليس المراد بالاستواء ما يقوله الأشاعرة وغيرهم بأنه الاستيلاء على العرش فهذا قول باطل؛ لأن الاستيلاء إنما يكون لمن كان عاجزًا في الأول، ثم تغلب، واستولى على الشيء، والله عز وجل لا يغالبه أحد، وكذلك قال استوى، ولم يقل: استولى، فهم زادوا اللام على كلام الله سبحانه وتعالى؛ كزيادة اليهود لما قيل لهم: قولوا حطة. أي: حط عنا ذنوبنا، قالوا حنطة فزادوا النون من باب تحريف الكلم عن مواضعه، تحريفا لكلام الله سبحانه وتعالى.

فاليهود زادوا النون، والأشاعرة زادوا اللام في كلام الله سبحانه وتعالى، وقد رد شيخ الإسلام ابن تيمية على هذا القول من تسعين وجها في رسالة اسمها التسعينية.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ﴾.

فلا يلزم من كونه فوق مخلوقاته وأنه على العرش أنه يخفى عليه ما في الكون، لأنه بعيد عن مخلوقاته، بل هو قريب منها سبحانه وتعالى بعلمه، فهو فوق السماوات على العرش، وعلمه في كل مكان، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، يعني: ما يدخل في الأرض من البذور التي تدفن في ا لأرض، وما يلج فيها من الأموات، وكل ما يدخل في الأرض، فإن الله يعلمه سبحانه وتعالى، ولا يخفى عليه.

﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾، من نبات ومن معادن وغير ذلك، ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الملائكة، ومن الوحي، ومن المطر، كله يعلمه سبحانه وتعالى، ﴿وَمَا

﴿يَعۡرُجُ فِيهَاۖ﴾، يعني: ما يصعد إلى السماء من الملائكة وأعمال بني آدم، ثم قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ﴾ أي: معكم بعلمه وإحاطته، لا بذاته، فهو ليس معنا بذاته، فيكون مختلطًا بنا، وإنما هو معنا بعلمه ﷻ.

وهو قريب منا، يرانا، ويسمعنا، ويعلم ما نُسّر وما نعلن، وهذه المعية العامة لكل المخلوقات.

كما تقول: القمر معنا، وهو في السماء، كلما ذهبت فالقمر معك، فإذا كان هذا في المخلوق، فكيف بالخالق ﷻ، وهذه معية عامة، وتكون للمسلم والكافر، والمطيع والعاصي. وهناك معية خاصة بالمؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ [طه: ٤٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ۝١٢٨﴾ [النحل: ١٢٨]، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، هذه معية خاصة معناها النصر والتأييد والإعانة، فهي معية خاصة للمؤمنين.

وعلى كل حال المعية العامة والخاصة ليس معناها الاختلاط والمماسة، وإنما معناها: أن الله ﷻ مع علوه، فهو قريب من خلقه في أي مكان بعلمه وأحاطته، لاتخفى عليه، ولا تخفيك عنه الحيطان والأبواب والستور، ما تخفى على الله ﷻ.

الشاعر يقول(١):

إذا ما خَلَوتَ الدَهرَ يَوماً فَلا تَقُل ... خَلَوتُ وَلَكِن قُل عَلَيَّ رَقيبُ

وَلا تَحسَبَنَّ اللَهَ يُغفِلُ ما مَضى ... وَلا أَنَّ ما يَخفى عَلَيهِ يَغيبُ

---

(١) ينسب هذان البيتان لأبي العتاهية، وينسبان أيضا للحسن الإباضي، ولأبي نواس، =

فكن دائمًا تراقب الله ﷻ، ولهذا قال ﷺ: «الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»(١)، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾، يبصركم ويراكم، ويرى أعمالكم، ويعلم ما في قلوبكم، ففيه إثبات البصر لله ﷻ، وأنه يرى عباده، ويرى أعمالهم، لا تخفى عليه، وإن حاولوا إخفاءها والتستر بها، فإنها لا تخفى على الله ﷻ.

﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ۝٥﴾ أي: تنتهي الأمور إلى الله كلها، ومنها أعمال العباد، فيحاسبهم، ويجازيهم عليها.

﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦﴾، يدخل هذا في هذا فيزيد هذا وينقص هذا لأجل مصالح العباد وهو عليم بما تكنه صدورهم من النيات والأسرار والمقاصد، وإن أخفوا ذلك، فيجب على العبد أن يراقب الله ﷻ في مقاصده ونياته، وفي أعماله، وفي أقواله، وفي جميع تصرفاته، وأن يخاف الله، ويخشاه الله، ويعظمه؛ لأنه محيط به من كل جانب.

ولما ساق هذه البراهين وهذه الأخبار العظيمة عنه ﷻ، قال: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾، أي: بربوبيته، وآمنوا بألوهيته، وآمنوا بأسمائه وصفاته، وآمنوا برسوله محمد ﷺ، فآمنوا بالله ورسوله، فالإيمان بالله يقتضي توحيده وطاعته، وترك معصيته، والإيمان بالرسول يقتضي اتباعه ﷺ والاقتداء به،

= ولصالح ابن عبد القدوس، والله أعلم، انظر: ديوان أبي العتاهية (١/ ١٠)، والجليس الصالح الكافي (١/ ٥٥١)، وربيع الأبرار (٢/ ٢٥٠)، وروض الأخيار (١/ ٢٥٠)، وأخلاق الوزيرين (١/ ٣٧٤).

(١) أخرجه البخاري (٥٠، ٤٧٧٧)، ومسلم (٩).

وتقديم قوله على قول كل أحد.

ثم قال: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾، أنفقوا: تصدقوا الصدقات الواجبة: كالزكاة، والصدقات المستحبة، والتبرعات الخيرية مما أعطاكم الله الصدقات إنفاقًا؛ لأنها إخراج للمال، ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾، فأنت مستخلف في هذا المال، لأنه سبقك من تملك هذا المال، وأنت تاركه لغيرك، فبادر لنفسك، تصدق من هذا المال؛ لأنه ليس لك من هذا المال إلا ما تصدقت، هذا وبالله التوفيق. وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

الدرس الثاني والثلاثون

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الحديد: ٧ - ١١].

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ﴾ أي شيء يمنعكم؟ وما حجتكم؟ وما عذركم في أنكم لا تؤمنون بالله؟ هل خفي عليكم برهان؟ هل أنتم في شك مما جاءكم بعد هذه البراهين ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾ فالله أرسل إليكم رسولًا يدعوكم إلى الإيمان، وأقام لكم البراهين فلماذا لا تؤمنون بالله ﷻ؟ لما بلغتكم الحجة، وانقطعت معذرتكم ببعثة هذا الرسول إليكم.

توبيخ من الله سبحانه وتعالى لمن لم يؤمن أو ضعف إيمانه، لأن الله أقام عليه الحجة بإرسال الرسول مع ما ذكره من البراهين الموجبة للإيمان بالله سبحانه وتعالى، وهذا

يدل على أنه لابد من الرسول، أما البراهين العقلية والآيات الكونية فانها لا تكفي، وان كانت دلالات واضحات، ولكنها لا تكفي في بيان الإيمان الواجب لله ﷻ، إنما هذا يحصل بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

فالعقول لا يعتمد عليها وحدها؛ لأنها قاصرة، ولذلك لم يكلنا الله إلى عقولنا، وإنما أرسل إلينا الرسول، وأنزل علينا الكتاب، فاجتمع لدينا آيات كونية وآيات قرآنية بيانية، ورسول - وهو محمد ﷺ- وقوله: (يدعوكم) يطلب منكم أن تؤمنوا بربكم، فإن الرسول ﷺ لما بعثه الله، صار يدعو الناس إلى الإيمان والتوحيد، ويبلغ الرسالة، ويتتبع مجامع الناس ومجالسهم ومنتدياتهم في موسم الحج، يبلغهم رسالة ربه ﷻ، ويقيم عليهم الحجة.

وأيضًا الله قد أخذ ميثاقكم، حينما بايعتم الرسول ﷺ، على السمع والطاعة والاتباع، وهذا ميثاق بينكم وبين الله ﷻ، فلماذا لا تفوا بهذا الميثاق؛ كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠]، وقال ﷻ: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ﴾ [المائدة: ٧].

وقيل: المراد بالميثاق: العهد الذي أخذه الله على بني آدم حين استخرجهم من صلب أبيهم آدم عليه السلام، وأخذ عليهم العهد أن يؤمنوا به، فعاهدوا الله ﷻ، على ذلك، ولكن الأقرب -والله أعلم- أن المراد العهد الذي عاهدوا به الرسول ﷺ، ولا يمنع أن يكون المراد العهدان:

العهد السابق، والعهد اللاحق[(١)]، وهذا بخلاف المنافقين الذين يبايعون الرسول، وهم ليسوا مؤمنين، ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾: سترة، ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ١ - ٣]، ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، لا منافقين كالذين بايعوا الرسول ﷺ، وشهدوا له بالرسالة نفاقًا وخداعًا.

ثم بيّن سببًا آخر يوجب عليهم الإيمان، قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾، والمنزل هو القرآن الكريم والسنة النبوية، وفيهما البيان الواضح البيّن، والقرآن كله بيّن وواضح، وما كان منه مجملًا أو متشابهًا، فإنه يوضح بعضه بعضًا، ويفسر بعضه بعضًا، فهو بيّن وواضح[(٢)]. فالله أرسل الرسول وأنزل القرآن.

﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ هذه هي الحكمة في إنزال البينات ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ﴾ ليخرجكم بها من ظلمات الكفر والشرك وظلمات الجهل، إلى نور الإيمان والتوحيد، ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم، ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ﴾ [الشورى: ٥٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء: ١٧٤]، فالقرآن نور ﴿يَهْدِي بِهِ

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٢١٨)، وزاد المسير (٨/ ١٦٣)، والقرطبي (١٧/ ٢٣٨)، وابن كثير (٤/ ٣٠٦).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٢١٩)، وزاد المسير (٨/ ١٦٣)، والقرطبي (١٧/ ٢٣٩)، وابن كثير (٤/ ٣٠٦).

ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٦].

﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الطلاق: ١١]، أما الذين لم يؤمنوا، ولم يعملوا الصالحات، فلا يزالون في ظلماتهم، ولا ينتفعون بهذا القرآن، لا يزالون في غيهم وضلالهم؛ لأنهم لم يقبلوا الحق، ولا يريدون الخير، وإنما يريدون ضده، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، ﴿لَرَءُوفٌ﴾ من الرأفة، وهي اللطف، والعناية، والحفظ، والكلاءة، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بكم سبحانه وتعالى؛ حيث لم يترككم على ضلالكم وعلى كفركم وعلى جهلكم، بل إنه سبحانه وتعالى رحمكم، ورأف بكم، فأرسل إليكم الرسول، وأنزل عليكم الآيات البينات، هذا من رأفته ورحمته سبحانه وتعالى بكم.

ثم قال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ما الذي يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله؟ وقد أمركم الله بذلك بقوله: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾، ما الذي يمنعكم من الإنفاق؟ ليس لكم عذر، وليس لكم حجة، ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فهذا المال ليس لكم، وإنما هو لله سبحانه وتعالى، أعطاكم الله إياه ليختبركم ويبتليكم، ولتقدموا لأنفسكم منه ما ينفعكم عند الله، فهو الذي أعطاكم إياه، وهو الذي طلب منكم أن تنفقوا منه، وأنتم ذاهبون وتاركون هذا المال؛ كما تركه من قبلكم، ويعود لله عز وجل مالك الملك.

﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي تؤول إليه الأملاك بعد فناء الملاك، فهو الوارث سبحانه وتعالى، الباقي الذي تؤول إليه الأملاك بعد فناء الملاك، فبادروا ما دام المال بين أيديكم، بادروا بالإنفاق منه، ما الذي يمنعكم، هل تخافون

أن ينفد هذا المال فتفتقروا؟ هذا من الشيطان، فالمال يزيد مع النفقة، قال ﷺ: «مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ»[(١)]، وهو من عند الله ﷻ، فإذا أنفقتم، أنفق عليكم، وأعطاكم، وإذا أمسكتم، أمسك عنكم.

الناس الآن يريدون الاستثمار، ويريدون زيادة المال والأرباح، فلماذا لا يستثمرونها فيما يبقى لهم، وفيما ينمي أموالهم؛ لأن الزكاة تنمي المال، والصدقة تنمي المال، فهي الاستثمار الصحيح، والاستثمار المخلوف، ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

ثم بيّن أجر من آمن وأنفق فقال: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ﴾، المراد بالفتح: صلح الحديبية[(٢)]، سماه الله فتحًا؛ لأن الله نصر به المسلمين، ومكنهم، وكان مقدمة لفتح مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجًا.

فالذين آمنوا وأنفقوا قبل هذاالفتح أعظم درجة من الذي آمنوا وأنفقوا بعده لأن الذين آمنوا قبل الفتح وأنفقوا كانوا في وقت عسرة وفي وقت أذى من المشركين ومضايقة، ومع هذا آمنوا، وكانوا في عسرة وفقر، ومع هذا أنفقوا، أما بعد الفتح، فقد يسر الله ﷻ، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، ولم يضايق أحد عند إسلامه بل خُلّي السبيل لهم يسلمون، وأيضًا توفرت الأموال بعد الفتح، وتوسعت الأرزاق والثروات، فلذلك صار من آمن

---

(١) أخرجه البزار في مسنده (٣/ ٢٤٣)، وأصله عند أحمد في مسنده (٣/ ٢٠٨)، كما أخرجه أبو يعلى في مسنده (٢/ ١٥٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٢٢٠)، وزاد المسير (٨/ ١٦٣)، والقرطبي (١٧/ ٢٣٩)، وابن كثير (٤/ ٣٠٧).

قبل الفتح وأنفق أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد -أي: بعد الفتح-، وقاتلوا.

وهذا فيه أن المؤمنين يتفاضلون، بعضهم أفضل من بعض، الصحابة هم أفضل القرون، وهم يتفاضلون، بعضهم أفضل من بعض، فالذين آمنوا منهم من قبل الفتح، وقاتلوا أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، يعني: جاهدوا في سبيل الله، فهم يتفاضلون بينهم.

ثم قال ﷻ: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، هذا فيه أنه لا يجوز تنقص المفضول فيُبيّن الفاضل، ولكن لا يتنقص المفضول ولهذا قال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ فالذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا وعدهم الله الحسنى، والذين أنفقوا من بعد الفتح وقاتلوا وعدهم الله الحسنى، وهي الجنة[(١)].

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، أي: لا يكن عندكم شك في أن ما تنفقونه، وأن ما تعملونه يضيع ويخفى على الله ﷻ؛ فإن الله خبير به، عليم به، وسيحفظه لكم، ويضاعفه لكم، فلا تخافوا من ضياعه؛ لأنه عند ربكم ﷻ محفوظ لكم، فهذا فيه الحث على الإيمان والإنفاق والجهاد في سبيل الله؛ لأن الله يعلم كل ذلك، وكذلك يعلم من لا يؤمن ومن لا ينفق، فهو عليم بكل شيء، وخبير بكل شيء، وخبير بأعمالكم خيرها وشرها.

ثم قال ﷻ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، هذا فيه الحث على الإقراض، والقرض في اللغة هو: القطع[(٢)]، والمراد به هنا: أن تقتطع شيئًا

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٢٢١)، وزاد المسير (٨/ ١٦٤)، والقرطبي (١٧/ ٢٤١).

(٢) انظر: مادة (قرض) في العين (٥/ ٤٩)، وتهذيب اللغة (٨/ ٢٦٧)، ومقاييس اللغة (٥/ ٧١)، ولسان العرب (٧/ ٢١٦).

من مالك، فتنفقه في سبيل الله، ويكون قرضًا حسنًا، ليس فيه منّة، ليس فيه أذى، ولا طلب زيادة من المقترض، وهل الله ﷻ بحاجة إلى أنه يقترض من عباده؟ العادة أن القرض يكون للمحتاج من الناس، فالقرض هو دفع مال لمن ينتفع به، ويرد بدله.

والقرض مع الله تدفعه في طاعة الله، فيرد عليك بدله وخيرًا منه، وإلا فالله غني عنك، وإنما تقرض لنفسك، وتنفق لنفسك، والله ﷻ غني عنك، فسُمي الإنفاق في سبيل الله قرضًا من باب تطييب النفوس، أنك فيما تنفق تقرضه الله ﷻ، فهذا مما يوثق لك، ويطمئنك على إنفاقك، وأنه لا يضيع أبدًا؛ لأنك تقرض الله، وإلا فالله غني وقادر على أن يغني الفقراء، لكن هذا من باب الابتلاء لعباده.

ومن رحمته أن يمكننا من أن ننفق من هذه الأموال فيما يعود علينا أجره وإلا فالله ﷻ غني عنا وعن صدقاتنا، لا كما يقول اليهود ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، لما سمع اليهودي قوله ﷻ: ﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾ [التغابن: ١٧]، قال: الله فقير، ونحن أغنياء لأنه يقترض منا!، قال الله ﷻ: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ١٨١ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٨٢﴾ [آل عمران: ١٨١ - ١٨٢].

فهم يتهكمون، ويريدون تكذيب الرسول ﷺ، والله يقول: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ﴾، فقال: يضاعفه له، ولم يحدد ﷻ المضاعفة؛ لأنها كثيرة، لا يعلمها إلا هو، فالله كفل للمتصدق أن يضاعف

له الأجر، ولم يطلب القرض سبحانه من حاجة، وانما طلبه ليضاعف لصاحبه الأجر ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾.

هذا وبالله التوفيق وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

الدرس الثالث والثلاثون

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي
مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ
لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ
بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ
وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ
الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ
وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ
الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ
فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

[الحديد: ١٢ - ١٧].

لما أمر الله ﷻ المؤمنين بالإيمان والإنفاق في سبيله بيّن في هذه الآيات جزاءهم في الآخرة بعدما أجمله في قوله ﷻ: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ فصل الله أجرهم في هذه الآيات فقال: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، ﴿يَوْمَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿تَرَى﴾: تبصر المؤمنين والمؤمنات

وهذا فيه أن النساء في الجزاء على الأعمال مثل الرجال، وإن كانوا في الدنيا يتفاوتون في الأحكام، كل صنف له أحكام تليق به، لكن في الآخرة يتساوون في الجزاء ذكورهم وإناثهم.

﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾، يعطيهم الله نورًا تامًا يوم القيامة؛ لأن الناس يوم القيامة يكونون في ظلمة؛ حيث تنطفئ الأنوار، ليس هناك شمس ولا قمر، ويتميز المؤمنون بأن الله يعطيهم نورًا يستضيئون به، كما أنهم في الدنيا كانوا على نور الإيمان وهو النور المعنوي ففي يوم القيامة يعطون النور الحسي.

﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾، أي: أمامهم، يبصرون به طريقهم، ويهتدون به في سيرهم، آمنين مطمئنين، وبأيمانهم فيعطون كتبهم، بأيمانهم إكرامًا لهم

ثم يزاد في جزاء المؤمنين؛ أنهم يبشرون بالجنة، والبشارة هي: الخبر السار الذي يظهر أثره على البشرة[(١)]، ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾، أي: في هذا اليوم، ﴿جَنَّٰتٌ﴾، وليست جنة واحدة، بل هي جنات كثيرة، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: هذا الجزاء والظفر بالجنات وإتمام النور هو الفوز العظيم، الذي فزتم به على الكفار والمنافقين، وليس الفوز بطمع الدنيا أو بملذاتها، ذاك فوز منقطع، إنما الفوز العظيم هو الفوز في الآخرة والفوز هو النجاة سمي فوزًا لأنهم نجوا من النار، وحصلوا على الجنة.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: باقين فيها لا يخرجون منها، ولا يخشون فيها

---

(١) انظر: مادة (بشر) في العين (٦/ ٢٥٩)، ومقاييس اللغة (١/ ٢٥١)، ولسان العرب (٤/ ٦٠).

انقطاعًا، أو مكدرًا، أو عدوًا، أو مرضًا، أو هرمًا، لا يخافون من أي مكدر، وهذا إخبار من الله لنا في هذه الدنيا بهذا من أجل أن ننشط على العمل الصالح، ومتابعة الرسول ﷺ، والعمل بالقرآن؛ حتى نحوز على هذا الثواب وهذا الفوز العظيم، فهذا لا يدرك بالأماني، وإنما يدرك بالعمل.

ثم ذكر حال المنافقين فقال: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾، وهو يوم القيامة اذا اعطى الله المؤمنين النور التام وانقطع نور المنافقين، وبقوا في ظلمة ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾، ﴿ٱنظُرُونَا﴾ أي: انتظرونا، ولا تذهبوا عنا؛ لأجل أن نقتبس من نوركم، فنسير معكم؛ لأنهم هم لم يبقَ معهم نور، فيطلبون من المؤمنين ألَّا يستعجلوا في المسير، وأن ينتظروا؛ حتى يقتبس المنافقون من نورهم، ﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ﴾، قيل لهم من باب التوبيخ: ارجعوا وراءكم إلى المكان الذي فقدتم فيه النور، ﴿فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾، فالتمسوا النور الذي ضاع منكم؛ من باب التبكيت لهم، ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم﴾، أي: في هذه الأثناء ضُرب بين المؤمنين والمنافقين بسور: (حجاب)، ﴿لَّهُۥ بَابٌۢ﴾.

يدخل منه المؤمنون، فإذا دخلوا أغلق، ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾، داخله فيه الرحمة، وهي الجنة داخل هذا السور، ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾، أي خلفه جهنم[(١)].

﴿يُنَادُونَهُمْ﴾، ينادي المنافقون حينئذ المؤمنين، ويستغيثون بالمؤمنين

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٢٢٥)، وزاد المسير (٨/ ١٦٦)، والقرطبي (١٧/ ٢٤٦)، وابن كثير (٤/ ٣١٠).

كي يمدوهم بالنور؛ لأنهم انطفأ نورهم فيقولون للمؤمنين، ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾، في الدنيا، نصلي معكم، ونصوم معكم، ونقاتل معكم، وكانوا كذلك في الدنيا، مع المؤمنينفي الظاهر لكن ليس في قلوبهم إيمان، إنما يتظاهرون بالإسلام، ويعملون الأعمال، لا عن يقين وإيمان، وإنما يعملونها من باب النفاق، والنفاق هو: إظهار الإيمان وإبطان الكفر، هذا النفاق الأكبر، وأما النفاق الأصغر، فهو أن يكون الإنسان مؤمنًا بالله ورسوله، لكن يتصف ببعض صفات المنافقين، فهو مع المؤمنين بايمانه.

فالنفاق نفاقان:

الأول: نفاق اعتقادي، وهذا لا يجتمع معه إيمان أبدًا.

والثاني: نفاق عملي، وهذا معه إيمان، فيكون الإنسان مؤمنًا، لكن عنده خصلة من خصال النفاق، حتى يدعها، ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾، أي: قال لهم المؤمنون كنتم معنا في الدنيا، في الظاهر، ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ بالنفاق.

﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾، تربصتم، التربص معناه: الانتظار[1]، أي انتظرتم بالمؤمنين الدوائر، فإن المنافقين في الدنيا يتربصون بالمؤمنين الدوائر، يتوقعون أن يحل بالمؤمنين نكبات، أو يحل بالمؤمنين مكاره، فيعتزلون المؤمنين، يصيرون مع الكفار، فيكونون مع المؤمنين إذا حصل للمؤمنين خير وفتح ونصر، ويكونون مع الكفار إذا أصيب المؤمنون، وامتحنوا، قال الله فيهم: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣].

---

(١) انظر: مادة (ربص) في العين (٧/ ١٢٠)، وتهذيب اللغة (١٢/ ١٢٧)، ومقاييس اللغة (٢/ ٤٧٧)، ولسان العرب (٧/ ٣٩).

وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١]، هكذا شأن المنافقين، وهذا ظاهر عليهم في كل زمان ومكان.

﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ أي حصل في قلوبكم الريبة، فلم تصدقوا بقلوبكم ما تعملونه بجوارحكم، لأنه ليس عندكم إيمان، بل عندكم الريب والشك في هذا الدين وهذا الرسول وهذا الوعد، فالمنافق ليس عنده يقين، وإنما يعمل الأعمال من باب المجاراة والمجاملة، وإلا فإنه عنده شك وريب في قلبه.

﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾، جمع أمنية؛ لأنكم تقولون: سيغفر لنا، تمنون أنفسكم بالمغفرة، وأنتم لم تفعلوا أسبابها، فكلما عملتم من عمل سيء تقولون: سيغفر لنا، ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، وهو الموت والبعث والنشور والجزاء، وواجهتم ما قدمتم لآخرتكم، فلم تجدوا شيئًا.

وانتقلتم من الدنيا إلى الآخرة، وأنتم على هذه الحال، ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾، الغرور هو الشيطان، هو الذي غركم، وهو الذي خدعكم، وهو الذي يمنيكم، ويزين لكم النفاق، فأطعتموه، هذا مصير المنافقين -والعياذ بالله-، وما يلقونه من الندامة والتبكيت على نفاقهم.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ﴾ يوم القيامة: لا يؤخذ منكم فدية تفتدون بها من العذاب، ولا تشترون الجنة أو النجاة في هذا اليوم بثمن مهما بلغ، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٣٦]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ

كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾ [آل عمران: ٩١]، فلا منجى، ولا نجاة لكم في هذا اليوم.

ولا يقبل منكم توبة وندم في هذا اليوم، ولا يقبل منكم فدية، فلامطمع لكم في النجاة -والعياذ بالله-، فيكونون في الآخرة مع الكفار الخلّص؛ لأنهم كانوا معهم في الدنيا في العقيدة والباطن، فيكونون معهم في الآخرة في الجزاء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾، ليس لكم مأوى تأوون إليه غير النار، ﴿هِيَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي: هي أولى بكم؛ لأنكم من أهلها، ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، الذي تصيرون إليه وتنتهون إليه النار.

هذا مآل المنافقين يوم القيامة، وإن كانوا في الدنيا يتظاهرون أنهم مع المسلمين، يأتي يوم يُعزلون عن المؤمنين، ويكونون مع الكفار في النار - والعياذ بالله -، ثم قال ﷻ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، هذه المواعظ التي ساقها الله، وهذه المشاهد التي أخبر الله عنها فيها مواعظ للقلوب، و اللائق بالمؤمن إذا سمعها أن يخشع قلبه لما يسمع، ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ ما نزل في هذا القرآن من الحق الواضح، فإن من تأمل القرآن بحضور قلب وتدبر، فإنه يخشع قلبه، قال ﷻ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

فعلى المسلم أن يتعلق بهذا القرآن: تلاوة، وتدبرًا، وتأملًا في آياتهوعملا من أجل أن يخشع قلبه، وأما إذا أعرض عن القرآن، أو تلاه

بلسانه بدون حضور قلب، فإنه لا يخشع، ثم حذرهم أن يسلكوا مسلك أهل الكتاب من اليهود والنصاريمع التوراة والإنجيل فقال: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾، وهم اليهود والنصارى، آتاهم الله الكتاب وهو التوراة والإنجيل، ولكنهم لم يتدبروهما، ولم يمتثلوا ما فيهما من الأوامر والنواهي، فكانوا كما وصفهم الله ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥﴾ [الجمعة: ٥]، فليس المقصود أنك تحفظ القرآن عن ظهر قلب، وأنك تقرؤه بتجويد وصوت حسن، ليس هذا هو المقصود، هذا وسيلة إلى التدبر، والتدبر وسيلة إلى الخشوع والعمل، وأما مجرد أن تحفظ القرآن، وتتلوه وتجيد تلاوته، فهذا ليس هو المقصود، هذا كان عند أهل الكتاب من قبل، فلا تسلك مسلكهم مع القرآن.

﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾، وأمهلهم الله وأملى لهم ابتعدوا عن كتاب الله، فقست قلوبهم، وكذلك القرآن من ابتعد عنه، فإنه يقسو قلبه، فينبغي للمسلم أن يكون متصلًا بالقرآن، أن يكون له حزب من القرآن في كل يوم وليلة، ولا ينقطع عن القرآن، فإنه إن انقطع عن القرآن، قسا قلبه، فدل هذا على أن البعد عن القرآن والتقليل من تلاوة القرآن أن ذلك يقسّي القلب، وأن الارتباط بالقرآن تلاوة وتدبرًا وعملًا يليّن القلب.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الزمر: ٢٣]، هذا هو القرآن، ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾، فنهانا الله ﷻ أن نتعامل

مع القرآن الكريم كتعامل اليهود والنصارى مع التوراة والإنجيل، ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، لما قست قلوب اليهود والنصارى، حرفوا كتاب الله، وأدخلوا فيه ما ليس منه، وابتكروا أحكامًا من عند أنفسهم، واتخذوا الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله.

فهذا مما يدل على وجوب الرجوع إلى كتاب الله ﷻ، والارتباط به تعلمًا وتعليمًا، وقراءة وتلاوة، وتدبرًا وعملًا؛ حتى يكون حجة لنا عند الله ﷻ، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء: ٩-١٠]، فالقرآن يبشر وينذر في حين واحد، آيات الوعد إلى جانب آيات الوعيد، ذكر الجنة إلى جانب ذكر النار؛ من أجل أن تتعظ وتتذكر، فإذا جاء وذكر الجنة، ترجو الله، وتسألهوتعمل لها وإذا جاء ذكر النار، تخاف، وتستعيذ بالله منها، وتتجنب الأعمال الموصلة لها.

﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾، فدل على أن البعد عن كتاب الله يقسّي القلب، وأن القرب منه ولهذا قال ﷻ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٤]؛ لأنه كلام الله ﷻ، كله حق وصدق، ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢]، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة: ٢].

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾، كثير من أهل الكتاب فاسقون، خارجون عن طاعة الله، مع أنهم أهل كتاب، لكنهم لم ينتفعوا بكتابهم، فخرجوا عن

طاعة الله ﷻ، ودل هذا على أن من أهل الكتاب من هو مؤمن بالله صادق الإيمان؛ لأن الله قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾، فدل على أن منهم مؤمنون صادقون؛ كما قال ﷻ: ﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٤]، قال ﷻ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ [آل عمران: ١٩٩].

فالذين ماتوا منهم على هذا الإيمان قبل بعثة محمد ﷺ متمسكين بكتاب ربهم هم من أهل الجنة، والذين أدركوا محمد ﷺ، فآمنوا بهوهم مؤمنون بما قبله جمعوا بين الخيرين: الإيمان بالرسل السابقين، والإيمان بخاتم النبيين محمد ﷺ، فالله يؤتيهم أجرهم مرتين، ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [القصص: ٥٤]، فلهم الأجر مرتين: أجر على إيمانهم بالرسل السابقين وأجر على إيمانهم بمحمد ﷺ ولهذا قال الله لهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هذا خطاب للمؤمنين من أهل الكتاب: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ﴾ محمد ﷺ، ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ﴾، فالله لا يظلم أحدًا، فلم يعمم الحكم على أهل الكتاب كلهم، بل استثنى منهم أهل الإيمان وأهل الصدق.

ثم قال ﷻ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ﴾ أي: لا تقنطوا من الهداية والتذكر بالقرآن، إذا راجعتم القرآن وتدبرتموه، فإن الله يحيي قلوبكم بعد موتها، كما أن الله ينزل المطر على الأرض الميتة، فتحيا وتنبت

النبات، فلا ييأس الإنسان من الانتفاع بالقرآن إذا رجع إليه وتدبره، وإن كان من قبل غافلًا أو مفرطًا أو مضيعًا، فإنه إذا رجع إلى القرآن متدبرًا وتاليًا وعاملًا به، فإنه يحيا قلبه، من أراد أن يحيا قلبه، فليرجع إلى هذا القرآن.

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، الله بيّن الآيات القرآنية ووضحها وجلاها لأهل البصائر وأهل العلم؛ لأنه كتاب متشابه، يشبه بعضه بعضًا في أنه كله كلام الله ﷻ، ويشبه بعضه بعضًا في الحسن، والبلاغة والفصاحة، فالقرآن كله متشابه من هذا الوجه: في الحسن والدلالة على الحق، وعدم التناقض لأنه يفسر بعضه بعضًا، ويوضح بعضه بعضًا، والقرآن كله محكم، بمعنى أنه متقن وواضح فلا يؤخذ طرف، ويترك الطرف الآخر، وبعضه محكم، وبعضه متشابه، ﴿مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [آل عمران: ٧]، فالله وصف القرآن بأن كله متشابه، ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣]، ووصف القرآن بأنه كله محكم، ﴿الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [هود: ١]، ووصف القرآن بأن بعضه محكم وبعضه متشابه، فيرد المتشابه إلى المحكم، فيتوضح بذلك، وأما من يأخذ المتشابه ويترك المحكم فهو من أهل الزيغ. ومن يرد المتشابه الى المحكم فهو من أهل الايمان. لكن رد المتشابه الى المحكم يحتاج الى علم وبصيرة ولهذا قال: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ أي: المحكم والمتشابه فيؤمنون به كله، ويجرون فيه الطريقة العلمية.

فإذا رجع إليه المؤمن برغبة وإقبال، فتح الله على قلبه بالإيمان والنور والهداية؛ لأنه حبل الله المتين، والصراط المستقيم، والذكر الحكيم، هو حجة الله بين أيدينا، ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾: تعقلون عن

الله ﷻ ما أراد في كتابه، وتفهمونه فهمًا صحيحًا، هذا هو العقل الممدوح.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يهدي قلوبنا وقلوبكم وقلوب المسلمين للعمل بهذا القرآن، وأن ينفعنا به، وأن يجعله حجة لنا لا حجة علينا، وأن يرزقنا وإياكم تدبره وفهمه والعمل به والارتباط به دائمًا وأبدًا. وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وآله، وصحبه.

الدرس الرابع والثلاثون

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًاۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد: ١٨ - ٢١].

في هذه الآيات الكريمات قسّم الله ﷻ الناس إلى أربعة أقسام: المتصدقون، والصديقون، والشهداء، والكفار، وذكر جزاء كل فريق، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾، أصله المتصدقين، فأدغمت التاء في الصاد، فصارت ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾[1]، من الرجال، ومن النساء، فالذكر

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٢٢٩)، وزاد المسير (٨/ ١٦٩)، والقرطبي (١٧/ ٢٥٢).

والأنثى سواء في الأجر والثواب، وفي العقاب، فالرجال والنساء يكون منهم متصدقون ومتصدقات، كما أنهم يكون منهم مؤمنون ومؤمنات، ومنافقون ومنافقات، ومشركون ومشركات، فهم عند الله سواء، ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧]، ومن عمل غير ذلك فجزاؤه العذاب الشديد، وإنما يفترق الرجال والنساء في أمور الدنيا، فليست المرأة مثل الرجل، ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦] في الاستعداد الجسمي، وفي القوة الفكرية، وفي القدرة على إدارة الأعمال، فهم يفترقون في هذا، وأيضًا يفترقون في العقل، فعقل الرجل أكمل من عقل المرأة، ويفترقون في الأعمال، فالرجل أكثر عملًا من المرأة.

فالمرأة يعتريها الحيض والنفاس والولادة، وهذه أمور فيها مصلحة، لكن الرجل أكمل منها، لأنه لا يعتريه شيء من هذه الأمور، وكذلك الإرضاع، والحمل، والحيض والنفاس، وكذلك الجهاد في سبيل الله، والأسفار، فالمرأة لا تصل إلى درجة الرجل في هذه الأعمال، ولا تتولى الأمور الشاقة كالسلطة والجهاد في سبيل الله، هذه لا تطيقها المرأة، وكذلك العمل خارج المنزل كما يعمل الرجال.

كما أن الرجل لا يقوم بعمل المرأة في البيت، فكذلك المرأة لا تقوم بعمل الرجل خارج البيت، فالذين يحاولون أن يجعلوا النساء كالرجال في الأعمال خارج البيوت عليهم أن يزيلوا من المرأة الحيض والنفاس والحمل والولادة والإرضاع، وأن يزيلوا منها الضعف النفسي والجسمي، فهم يريدون أن يحملوها ما لا تطيق.

وليس هدفهم عمل المرأة، وأنها معطلة كما يقولون إنما هدفهم إزالة الفوارق بين الرجال والنساء وتغيير سنة الله في خلقه حتى يزول الحياء والحشمة والعفة، هذه فكرة أصلها من الكفار، يريدون أن يفسدوا المجتمع المسلم، فهناك سماسرة من أبناء المسلمين مع الأسف، يروجون أفكار الكفار دون أن يشعروا.

أما الأمور التي تطيقها المرأة كالصدقة من مالها إذا كان لها مال، فهي والرجل سواء، ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾، فهي مثل الرجل في الصدقة والثواب؛ لأن هذا شيء تطيقه إذا كان عندها مال.

﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ﴾، والمراد بالقرض أن الإنسان يقتطع، جزءًا من ماله، فيدفعه للمحتاج يقضي به حاجته، ثم يرد بدله، هذا هو القرض وفيه أجر عظيم وثواب؛ لما فيه من مساعدة المحتاجين، والتنفيس عن المكروبين، فالقرض فيه فضل عظيم، والصدقة أفضل منه.

﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾ أي: يضاعف لهم أجر الصدقة وأجر القرض، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة لا يعلمها إلا الله، ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١]، يضاعف لهم الأجر عند الله.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾، هذا الصنف الثاني: الذين آمنوا بالله ورسله، آمنوا بالله ربًا وإلهًا معبودًا، آمنوا بأسمائه وصفاته، والإيمان بيّنه النبي ﷺ: بأنه «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ،

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾، والإسلام بيّنه بقوله: «أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»[(١)]، فالإسلام أركانه ظاهرة، والإيمانه أركانه باطنة، ولابد من اجتماع الأمرين -الإسلام والإيمان-، فلا يصلح إيمان بدون إسلام، ولا يصلح إسلام بدون إيمان.

ولهذا قال أهل السنة والجماعة: (**الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح**)[(٢)]، فصار الإيمان قولًا وعملًا: قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، هذا هو الإيمان الذي ينفع صاحبه يوم القيامة.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾، جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم - من سمى الله منهم، ومن لم يسمِّ- لابد من الإيمان بهم جميعًا، ولهذا قال: ﴿وَرُسُلِهِۦٓ﴾، فلابد من الإيمان بهم جميعًا، فالذي يؤمن ببعضهم ويكفر ببعض هذا كافر بالجميع، ولابد من محبتهم وتوقيرهم، ولابد من معرفة فضلهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾: جمع صدِّيق، والصدِّيق هو: كثير الصدق بحيث

---

(١) أخرجه مسلم (٨).

(٢) انظر: العقيدة للإمام أحمد (ص١١٧)، والإيمان لابن منده (١/ ٣٤١)، واعتقاد أهل السنة للالكائي (٤/ ٨٤٩)، واجتماع الجيوش الإسلامية (ص٨٤)، ومؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ (ص١١).

لا يكذب[١]، بل يلازم الصدق، ولا يكذب، ولهذا في الحديث: «إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا. وَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا»[٢]، فالصدِّيقون كثيرو الصدق مع الله ومع الناس، لا يجرب عليهم كذب أبدًا، وهم أعلى الدرجات بعد النبيين.

فهم صدَقوا مع الله، وصدَّقوا الرسل، وعملوا ظاهرًا وباطنًا، فنالوا هذه الدرجة -درجة الصدِّيقيَّة-، وهي أعلى الدرجات بعد الأنبياء، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩]، فذكر درجة الصديقين بعد النبيين.

﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْۖ﴾، هذا استئناف، وليس معطوفًا على ما سبق، وإنما هو ابتداء الكلام، قيل: المراد بالشهداء: الذين قُتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١]، فهم أحياء حياة برزخية، ليست حياتهم في الدنيا لأنهم قُتِلوا، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ

---

(١) انظر: مادة (صدق) في العين (٥/ ٥٦)، وتهذيب اللغة (٨/ ٢٧٧)، ومقاييس اللغة (٣/ ٣٣٩)، ولسان العرب (١٠/ ١٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

﴿ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟﴾، فهم فارقوا الحياة في الدنيا، لكنهم أحياء عند ربهم يرزقون.

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ١٥٤﴾ [البقرة: ١٥٤]، لا تشعرون بحياتهم، بل هم أحياء عند ربهم حياة برزخية، ولذلك يعاملون معاملة الأموات، فيكفنون بثيابهم ويدفنون، وتتزوج نساؤهم، وتستعد عدة الوفاة بعدهم، وتتزوج، وتورث أموالهم، فهم من جهة الدنيا أموات، لكن من جهة الآخرة أحياء، وقد جاء في الحديث الصحيح أن أرواحهم تكون في أجواف طير خضر، تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش، تأكل من ثمار الجنة، تسرح في أنهارها وأشجارها، ثم تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش(١).

فهم لما بذلوا أجسادهم في الدنيا لله ﷻ، وقُتِلوا، أبدلهم الله بأجساد هذه الطير الخضر، جعل أرواحهم فيها إكرامًا لهم.

وقيل: المراد بالشهداء: الذين يشهدون على الناس يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فالشهداء لهم أجرهم الذي لا يعلمه إلا الله، ولهم نورهم الذي يسعى بين أيديهم وبأيمانهم.

ثم ذكر الصنف الرابع، وهم الذين كفروا: فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (١٨٨٧) من حديث عبد الله رضي الله عنه، ونصه: «أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ».

وَكَذَّبُوٓاْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: النار.

فقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، كفروا بالله ﷻ، هذا يقابل الذين آمنوا بالله ورسله.

﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾، اعلموا: أي تنبهوا، ﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾، أي تصرف كثير من الناس فيه لهو، يلهون به عن ذكر الله ﷻ، ولعب لا فائدة فيه، واللعب ما ذكر في القرآن إلا مذمومًا؛ لأنه يلهي عن ذكر الله، والإنسان ما خلق للعب، وإنما خلق للجد، يعمل لدنياه، ويعمل لآخرته، لم يخلق للعب.وقد صار اليوم مفخرة تصرف فيه الأموال وتضيع فيه الأوقات والقوة والشباب.

﴿وَلَهْوٌ﴾، واللهو هو: ما يشغل عن ذكر الله من الأموال والأولاد(١)، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩] ما قال: لا تطلبوا الأموال والأولاد، بل اطلبوا المال، واطلبوا الأولاد، لكن لا تلهكم عن ذكر الله ﷻ.

﴿وَزِينَةٌ﴾ الناس أكثرهم مغرم بالمظاهر، زينة في اللباس، وزينة في المسكن، وزينة في المركب، فهم مُغْرَونَ بمظاهر الدنيا، فهم دائمًا يسعون لإظهار الزينة، كأنهم مخلدون في هذه الحياة الدنيا، والمراد الزينة التي تشغل عن الآخرة لا الزينة التي هي التجمل المشروع فالله جميل يحب الجمال، ﴿وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ﴾، كل واحد يقول: أنا أحسن منك، أنا أرفع منك

---

(١) انظر: مادة (اللام والهاء وما يثلثهما من حروف العلة) في العين (٤/ ٨٧)، وتهذيب اللغة (٦/ ٢٢٥)، ومقاييس اللغة (٥/ ٢١٣)، ولسان العرب (١٥/ ٢٥٨).

نسبًا، وأنا أكثر منك مالًا وأولادًا، مفاخرة.

والمطلوب من المسلم التواضع، والله لا يحب كل مختال فخور، يفخر على الناس، ويترفع عليهم بماله، وبعلمه، وبنسبه، لا يجوز هذا، لأن المطلوب من المؤمن التواضع؛ لأنه عبد ضعيف، ومن تواضع لله رفعه كما في الحديث[(١)]، وأما المتكبرون المفاخرون، فإنهم يكونون يوم القيامة أمثال الذر يطؤهم الناس[(٢)].

﴿وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ﴾، يفاخر بعضكم بعضًا، ﴿وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾، كل واحد يريد أن يكون أكثر من الآخر مالًا، لا يكفيه ماعنده والمليارات والملايين، يريد أن يكون أكثر من فلان، قال الله ﷻ: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١ - ٢]، تكاثر بالأموال، لم تُنهَ عن طلب المال، لكن التكاثر فيه هذا هو المذموم، عليك بالقناعة، والرفق، والإجمال في الطلب، ولا يكن همك كثرة المال فقط؛ لأن المال يشغلك عن آخرتك، وأنت تذهب وتتركه، أو هو يذهب منك، وتصبح فقيرًا، فلا تشغل نفسك بشيء لا يبقى لك، ولا تبقى له، بل خذ منه قدر الحاجة وما يغنيك عن الناس، وأما الزيادة عن ذلك، فهو ضرر عليك.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٥٨٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ، إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ**».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه الترمذي (٢٤٩٢)، من حديث عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ**».

ثم ضرب لها مثلًا، فقال: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾، المطر إذا نزل على الأرض أنبتت من أنواع النبات، وأجمل النبات، فالله يحيي الأرض بعد موتها بالمطر، فتصبح روضة غناء زاهية، الزهور والطعوم والألوان والروائح.

﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ﴾، قيل المراد بالكفار: الكفار بالله ﷻ، وقيل المراد بالكفار: الزُّراع، لأن الزارع يكفر البذر، يعني: يدفنه، والكفر في اللغة هو الستر، فالزراع يسترون البذور في الأرض، وفي الآية الأخرى ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]، والأظهر والله أعلم أن المراد بهم الكفار في الدين؛ لأنهم هم الذين يعجبون في الدنيا ويتعلقون بها.

﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾، يعني: يتغير بعد النضرة، وبعد البهاء والمنظر الحسن، ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾، هذا تفسير لقوله: ﴿مُصْفَرًّا﴾، ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾، بعد أن كان أخضر(١).

﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾، متكسرًا، ويصبح تبنًا باليًا، تذروه الرياح، وهذا مثل للدنيا ساقه الله في آيات كثيرة مثلما في سورة الكهف، ومثلما في سورة يونس: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ

---

(١) انظر: في التفسير: تفسير الطبري (٢٧/ ٢٣٢)، وزاد المسير (٨/ ١٧١)، والقرطبي (١٧/ ٢٥٦)، وابن كثير (٤/ ٣١٤).
وفي اللغة: مادة (هيج) في العين (٤/ ٦٧)، وتهذيب اللغة (٦/ ١٨٥)، ومقاييس اللغة (٦/ ٢٣)، ولسان العرب (٢/ ٣٩٤).

نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: ٢٤]، ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف: ٤٥]، هذا مثل الدنيا، تزين، وتتجمل، لكن عما قريب تتحول إلى خراب وإلى دمار، كل شيء عليها يفنى: المباني، القصور، المزارع، المساكن، الحيوانات، الآدميون، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]، ثم ذكر الآخرة، فقال: ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ﴾، هذه مقارنة بين الدنيا والآخرة؛ لأجل أن يتنبه المسلم، فلا يغتر بالدنيا، قال تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]، أي: الشيطان.

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لأهل الإيمان، فالمغفرة إنما تكون لأهل الإيمان، فقد يستحق أحدهم دخول النار، فيغفر الله له، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النساء: ٤٨].

﴿وَرِضْوَٰنٌ﴾، قال ﷻ في الآية الأخرى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ﴾ [التوبة: ٧٢]، فرضى الله عن أهل الجنة أكبر مما في الجنة من النعيم(١)، ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٦٥٤٩، ٧٥١٨) واللفظ له، ومسلم (١٣٨، ٢٨٢٩) من حديث أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ -تبَارَكَ وَتَعَالَى- يَقُولُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ؟ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا».

فانظر إلى أي صنف تكون، هل تكون من أهل العذاب الشديد، أو تكون من أهل المغفرة والرضوان؟ مغفرة من الله للمذنبين، ورضوان منه ﷻ للمؤمنين المخلصين الذين ليس لهم ذنوب، ثم أعاد التذكير بالدنيا، فقال: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ والمتاع معناه: الشيء المؤقت، قال الله ﷻ: ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦][(١)].

والغرور هو الخسارة، وأن الإنسان يغتر بالشيء يظنه خيرًا، ثم يتبين له أنه شر.

ثم حث على العمل للآخرة فقال: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، إذا كانت الدنيا هكذا، فلا تغتروا بها، و﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، يعني بالعمل الصالح؛ لأن الله إنما يغفر لأهل الإيمان، أما الكفار، فلا يغفر الله لهم.

كان السلف الصالح إذا سبقهم أحد من إخوانهم الى الخير، أهمهم ذلك همًا شديدًا، والمسابقة إنما تكون إلى شيء يفوت.

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وفي سورة آل عمران: ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، فهي جنة واسعة فالجنة عرضها كعرض السماء والأرض، والنار في أسفل سافلين تحت الأرض السابعة في سجين. فكيف يُزهد في هذه الجنة العظيمة الباقية الطيبة ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أعدت لمن؟ للذين اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا؟! لا، أعدت

---

(١) انظر: مادة (متع) في العين (٢/ ٨٣)، وتهذيب اللغة (٢/ ١٧٣)، ومقاييس اللغة (٥/ ٢٩٣)، ولسان العرب (٨/ ٣٢٨).

للمتقين، ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾، سبق قول الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾، وأيضًا الله أعد لهم الجنة التي عرضها كعرض السماء والأرض، ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ﴾، هذه الجنة العظيمة العريضة من فضل الله ﷻ، وهي رحمة من الله ﷻ.

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾، الذي لا أعظم منه، فهذه المقارنة بين الدنيا والآخرة لمن له عقل، وله إيمان، وله إرادة، وله همة، يشمر ويجد ويجتهد، ويعلم أن الدنيا ليست دار إقامة، وإنما يساق إلى الآخرة، والآخرة هي دار القرار، فيعمر آخرته من دنياه، فمن خرب دنياه، خرب آخرته، خسر الدنيا والآخرة، وأما من عمر دنياه بطاعة الله والعمل الصالح، عمر الله له آخرته. هذه حقيقة الدنيا والآخرة، وفقنا الله وإياكم لصالح القول والعمل. وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه.

الدرس الخامس والثلاثون

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ
إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ
وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ
فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ
وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ
ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى
ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ
ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ
ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ
ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ
نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ
شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

[الحديد: ٢٢ - ٢٩].

هذه الآيات الكريمات هي آخر سورة الحديد، يقول الله ﷻ فيها: ﴿مَآ

أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾، المراد بالمصيبة: ما يحدث مما يكرهه الناس كالجدب، وفساد الثمار، والآفات التي تنزل بالمحاصيل، وانقطاع السبل، وغير ذلك مما يحصل في معايش العباد، في النبات، في الأشجار، في الآبار، التغيرات التي تحصل في الأرض، ولا في أنفسكم من الأمراض، والأسقام، والمصائب، والهموم، والأحزان، هذه كلها مصائب يكرهها الناس، وتؤثر عليهم، وتشق عليهم.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قدرها عليهم لحكمة منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا تحصل عفوًا أو صدفة، وإنما هي مقدرة، ومكتوبة في اللوح المحفوظ، إلا وهي مكتوبة في كتاب، وهذا الكتاب هو اللوح المحفوظ، الذي كتب الله به ما كان وما يكون إلى قيام الساعة، ففي الحديث: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ رَبِّي الْقَلَمَ، قَالَ: لَهُ اكْتُبْ. قَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[(١)]، فكل ما يجري مما يريده الناس ويرغبونه من النعم، ومما يكرهونه من المصائب والنقم، فإنه لابد أن يجري لا مناص منه؛ لأن الله قدره، وكتبه في اللوح المحفوظ.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علم ما كان وما يكون، وهذه مرتبة العلم، ثم كتب ذلك في اللوح المحفوظ، وهذه مرتبة الكتابة، ثم إذا حان وقتها، شاء الله ايجادها وهذه مرتبة المشيئة، وهذه المرتبة الثالثة، ثم أوجدها في وقتها وهذه مرتبة الايجاد، فهذه مراتب الإيمان بالقدر الأربع.

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في السنة (٢/ ٤٠١)، وأبو الشيخ في العظمة (٤/ ١٣٨٠)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (٣/ ٣٣٨)، والتوحيد لابن منده (١/ ٩٣) من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

والإيمان بالقضاء والقدر هو أحد أركان الإيمان الستة كما قال النبي ﷺ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(١)، تعلم أنه مقدر، أن الله قدره مراتب.

الإيمان بالقضاء والقدر أربع مراتب:

المرتبة الأولى هي مرتبة العلم: وهي أن الله علم ما كان وما يكون في الأزل.

المرتبة الثانية الكتابة: أن الله كتب ذلك في اللوح المحفوظ.

المرتبة الثالثة المشيئة: أن الله عند حدوثه شاءه وأراده، فلا يكون شيء إلا بإرادة الله ﷻ ومشيئته.

المرتبة الرابعة الخلق: خلقه وإيجاده.

هذه أربع مراتب، لابد من الإيمان بها، فمن نقص منها مرتبة، لم يكن مؤمنًا بالقضاء والقدر، ثم قال ﷻ: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾، أي: كتابة هذه الأشياء -وإن كانت كثيرة ومختلفة-، فإن كتابتها في اللوح المحفوظ يسيرة على الله، لا يقول أحد: كيف تكون هذه الحوادث من أول الخليقة إلى آخرها مكتوبة في اللوح المحفوظ؟! هذا بمقياس العقول، الله ﷻ لا يقاس بعقول الناس، فهو عليه يسير، لا يشق عليه أبدًا، فلا يستغرب على قدرته شيء ﷻ؛ لأنه لا يقاس بخلقه، ولذلك قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

ثم بيّن الحكمة من إخبارنا بذلك، فقال: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ

---

(١) سبق تخريجه (ص ٤٠٢).

﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾، فإنك إذا علمت أن هذه المصيبة مقدرة، وأنه لابد من حصولها مهما حاولت، فإن هذا يهون عليك وقع المصيبة، فالصبر عند المصائب واجب، والجزع منها محرم، وهو من أمور الجاهلية، فالمؤمن يطمئن، ولا يجزع ويسخط عند المصيبة؛ لأنه يعلم أن هذا بقضاء الله وقدره، وأنه لابد أن يقع عليه، وأنه لا مفر له منه.

وتشكر عند النعمة، وتصبر عند النقمة، هذا هو الإيمان، ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾، يعني: فرح أشر وبطر؛ كما قال المؤمنون لقارون: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص: ٧٦ - ٧٧]، فالمؤمن إن أصابته ضراء صبر، فكان ذلك خيرًا له، وإن أصابته سراء شكر، فكان ذلك خيرًا له، فهو على خير في الحالين[1].

بخلاف غير المؤمن؛ فإنه إن أصابته ضراء، جزع وسخط، وإن أصابته سراء، أشر وبطر وتكبر.

ولا يقل إنسان: الله مقدر عليَّ الذي يحصل. ولا يبذل الأسباب، لا بل يفعل الأسباب الجالبة للخير، ويفعل الأسباب الواقية من الشر، ولكن إذا لم يحصل مقصوده، فإنه يرضى ويسلم؛ كما قال ﷻ: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١].

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٩٩٩)، من حديث صهيب رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ».

«هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ»(١)، هذا هو المؤمن.

ثم قال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، هذا تعقيب في ختام الآية، لا يحب: بمعنى أنه يبغض لأنه إذا انتفى الحب، وُجد البغض، من صفات أفعاله أنه يحب أهل الإيمان وأهل التوحيد، ويبغض أهل الكفر وأهل الشرك وأهل الكبر.

ثم قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾، الذين يبخلون عن الإنفاق في سبيل الله، فلا يخرجون الزكاة والنفقات الواجبة لعوائلهم ولأهل بيوتهم، والنفقة المستحبة على المحتاجين من المسلمين، فهم يبخلون، والبخل آفة وخصلة ذميمة، يبغضها الله، ويبغضها الناس، فالبخيل مُبغض عند الله وعند الناس، حتى عند أولاده يبغضونه، والسخي محبوب عند الله وعند الناس، ويغطي عيوبه بالسخاء.

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾، فلا ينفقون في وجوه الخير، والواجب أنهم إذا أعطاهم الله شيئًا من المال، من الجاه، من العلم، ينفقون مما أعطاهم الله على غيرهم، ويحسنون إلى الناس؛ كما أحسن الله إليهم، ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾، ولا يكفي أنهم يبخلون في أنفسهم، بل يأمرون الناس بالبخل، هؤلاء الله ﷻ يبغضهم ويمقتهم، فالمسلم يكون كريمًا في نفسه، ويحث على الكرم والإنفاق في سبيل الله.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٨/ ١٢٣)، وزاد المسير (٨/ ٢٨٣)، وابن كثير (٤/ ٣٧٦)، كما أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٢/ ٣٤٥) عن علقمة بن قيس النخعي.

فالرزق من الله ﷻ، فأنفق ينفق عليك، ولهذا قال ﷺ لأسماء رضي الله عنها: «أَنْفِقِي، وَلاَ تُحْصِي، فَيُحْصِيَ اللَّهُ عَلَيْكِ، وَلاَ تُوعِي، فَيُوعِيَ اللَّهُ عَلَيْكِ»(١) ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩ - ٢١]، فالمؤمن ينفق مما آتاه الله، لكن من غير إسراف، ومن غير بخل.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾ [الفرقان: ٦٧]، التقتير هو: البخل(٢) ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾.

وقيل: إن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ بدل من قوله: ﴿كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، ولكن الراجح أن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾، مستأنف وليس له علاقة بما قبله(٣).

﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾، ومن يتولى بنفسه، ويعرض عن طاعة الله وعن الإنفاق في سبيل الله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، الله ليس محتاجًا إلى خلقه حينما يحثهم على الإنفاق، وعلى الصدقة، وعلى بذل الخير، ويطلب منهم القرض، وإنما هم الذين يحتاجون إلى هذا؛ لأن ما ينفقون خير لهم، ويعود عليهم بالنفع، فهم المحتاجون لما ينفقون، والله أمرهم بذلك لمصلحتهم،

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٣٣)، ومسلم (١٠٢٩).

(٢) انظر: مادة (قتر) في العين (٥/ ١٢٤)، وتهذيب اللغة (٩/ ٥٩)، ومقاييس اللغة (٥/ ٥٥)، ولسان العرب (٥/ ٧٣).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٢٣٦)، وزاد المسير (٨/ ١٧٣)، والقرطبي (١٧/ ٢٥٨)، وابن كثير (٤/ ٣١٥).

لا لنفع يعود عليه سبحانه وتعالى؛ فإنه غني حميد سبحانه وتعالى.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾، من فضل الله على عباده أنه أرسل إليهم الرسل؛ لتدلهم على الخير، وتنهاهم عن الشر، وتهديهم إلى الجنة.

﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾، أي: المعجزات الباهرة، التي لا يستطيع البشر صنعها، لتدل على صدق الرسل، وأنهم رسل من عند الله، فالبينات هي الأمور الخارقة للعوائد، ولا يقدر عليها إلا الله سبحانه وتعالى، مثل: قلب العصا حية لموسى عليه السلام، ومثل: إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص لعيسى عليه السلام، ومثل: القرآن العظيم لمحمد صلى الله عليه وسلم، فهو أعظم المعجزات، لا يعدله شيء من المعجزات؛ لأنه جاء به رجل أمي لا يقرأ، ولا يكتب، ولا حضر دراسة، ولا قرأ كتبًا، ثم ينزل عليه هذا الكتاب العظيم، الذي أعجز الجن والإنس أن يأتوا بسورة واحدة من مثله، فهو أعظم البينات وأعظم المعجزات ليدل على صدق هذا الرسول صلى الله عليه وسلم، ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٨ - ٤٩].

الكتاب اسم جنس، أي: جميع الكتب؛ كالتوارة، والإنجيل، والزبور، والقرآن، فالكتاب اسم جنس، وهي الكتب التي جاء بها الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- لهداية الخلق.

﴿وَالْمِيزَانَ﴾، أي: وأنزلنا معهم الميزان، هو: العدل الذي لا ميل فيه ولا جور، يعطي بموجبه أصحاب الحقوق حقوقهم، وينصف المظلومين

من الظلمة، فهو عدل[١]، فلا يجوز الظلم والجور بحال من الأحوال، قال النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: «وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»[٢]، المظلوم أيًا كان، لا تظلم الناس.

﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾، أي: أنزل الله الكتاب ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ وهو العدل، فيحكمون بالكتاب المنزل.

ثم قال: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾، أي: خلقنا الحديد، الإنزال يكون من الله ﷻ كإنزال القرآن، ويكون الإنزال من شيء إلى شيء، من الجبل إلى الأرض، كالحديد يؤخذ من المعادن التي في الجبال، فالإنزال هنا المراد به: أن الله أوجد الحديد، وخلقه لهم، وأودعه في الأرض.

﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ وهو السلاح بأنواعه الفتاكة: الأسلحة اليدوية، والأسلحة غير اليدوية، والأسلحة الثقيلة -كما هو معلوم الآن-، هذا من الحديد، ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾، و ما مناسبة ذكر إنزال الحديد مع إنزال الكتاب انها مناسبة عظيمة أن الذي يمتنع من الكتاب، ولا يقبله، فإنه يجاهد بالسيف والسلاح، فالذي لا ينفع معه الكتاب، يستعمل معه الحديد وهو الجهاد في سبيل الله، وإقامة الحدود على من امتنع عن قبول الحق، هذا جزاؤه في الدنيا ولا يترك، ويقال: الناس أحرار؛ كما يقوله المنافقون الآن والكفار: الناس أحرار، ويقولون: حرية الرأي، الرأي والرأي الآخر لا تصادروا الآراء.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٢٣٦)، وزاد المسير (٨/ ١٧٤)، والقرطبي (١٧/ ٢٦٠)، وابن كثير (٤/ ٣١٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٩٥، ٢٤٤٨، ٤٣٤٧).

هذا كلام كفر -والعياذ بالله-، الله يقول: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾، فالذي لا يقبل الكتاب -الذي هو في صالح البشرية، وهو العدل، وهو الرحمة، وهو الحكمة-، هذا ليس له إلا الحديد، فالحديد حماية للكتاب كما قال الشاعر:

وما هو الا الوحي أوحد مرهف تزيل ضباه أخدعي كل مائل

فهذا شفاء للقلوب من العمى وهذا دواء العي من كل جاهل

وذلك لحماية الشريعة من العابثين، وحماية هذا الكتاب وهذا الميزان والعدل من العابثين بهما.

قال الشاعر الآخر:

دعا المصطفى وهو بمكة لم يجب وقد لان منه جانب وخطاب

فلما دعا والسيف سلط بكفه له اسلموا واستسلموا وأنابوا

وقوله: ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾، يعني: وفي الحديد منافع للناس، من المراكب البرية والجوية والبحرية والأواني والقدور والسكاكين، يتخذون منه صناعات، وفوائد كثيرة.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾، ليعلم الله من يجاهد في سبيله، ويبلغ رسالته بالغيب، والغيب: ما غاب عن الناس، فالمسلم لا يرى الله ﷻ، ولا يرى الملائكة، ولا يرى الذين ماتوا، من الرسل، ولكن تصدق بهم، وتؤمن بهم، وتستدل بما ورَّث ﷺ من الكتاب والسنة والعلم النافع والمعجزات.

اعتمادًا على الإيمان بالغيب وهو ما غاب عنك، ولم تره، لكن تصدق به، هذامن الحكمة في إنزال الكتاب والقسط والحديد، فمن نصر الرسل، فقد نصر الله ﷻ، فالذي يؤمن بالرسل ويحبهم ويدافع عنهم، فإن هذا من الإيمان بالله ﷻ؛ لأنهم رسل الله ﷻ، ومن ويطيعهم، فإنه مطيع لله ﷻ.

فلو أن أحدًا سب موسى عليه السلام، أو سب عيسى عليه السلام، أو سب داود عليه السلام، أو سب أحدًا من الأنبياء فإنه يجب عليك النصرلهم، ولا تسكت، بل تدافع عن الرسل بلسانك وقلمك وبالسلاح إذا استدعى الأمر إلى هذا؛ لأن هذا من نصرة الرسل -عليهم الصلاة والسلام-.

فأنت آمنت به إيمانًا يقينًا، لا يتطرق إليه شك، والرسل ما رأيتهم، لكن آمنت بهم؛ لأن الله أخبر أنه أرسل رسلًا مبشرين ومنذرين، ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]، فتؤمن بهم، وتنصرهم وتدافع عنهم أشد مما تدافع عن نفسك وأولادك، ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، فالله ليس بحاجة إلى نصرة، وهو قادر على أن ينصر رسله، وينتقم ممن بغى عليهم، لكنه يمتحنكم أنتم، ويجاهد، ويدافع عن دينه وعن عقيدته ومن والذي يخلد إلى الأرض، ويستسلم، ولا يهتم؟

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾، أي: أنزلنا الكتب على الأنبياء من ذرية نوح ومن ذرية إبراهيم -عليهما السلام-، ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ﴾، أي: من ذرية نوح وإبراهيم، مهتد، هداه الله واتبع الرسل، وآمن بالكتاب، ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾، كثير من ذرية نوح ومن ذرية إبراهيم فاسقون، يعني: خارجون عن طاعة الإيمان، وعن طاعة الله، وعن الهداية، وضررهم على أنفسهم.

وهذا أيضًا فيه فائدة: وهي أنك لا تغتر بالكثرة وما عليه الناس، وإنما تتبع الحق، ولو لم يكن عليه أحد، أو عليه قليل من الناس، فلا تزهد في الحق لقلة أهله، ولا تغتر بالباطل لكثرة أهله فالله قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾، من بعد نوح وإبراهيم عليهما السلام ارسل الله الرسل الذين جاؤوا من بعدهم، ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾، لماذا ذكر عيسى ابن مريم عليه السلام مع أنه داخل في الرسل المذكورين لأنه سيخاطب النصارى، الذين أرسل الله إليهم عيسى عليه السلام، يعني: أتبعنا هؤلاء الرسل بعيسى بن مريم عليه السلام. لها أم، الله قادر على كل شيء سبحانه وتعالى.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾، وهو الكتاب الذي نزل على عيسى ابن مريم عليه السلام، ولا يزال اسم محمد صلى الله عليه وسلم موجودًا، كما قال تعالى عن عيسى ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾.

﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ وهم النصارى، ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً﴾ الرأفة هي المحبة، في قلوبهم، بخلاف اليهود؛ فإن في قلوبهم الحقد على البشرية ورحمة بالضعيف، بخلاف اليهود؛ فإنهم عندهم غلظة وشدة حسد.

(﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾): تعبد، فالرهبانية دوام التعبد والاجتهاد في العبادة، والله ما أمرهم بهذا، لكن هم اجتهدوا، فجاؤوا بالرهبانية؛ ﴿ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ يريدون بذلك رضوان الله سبحانه وتعالى.

ثم قال: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾، هذا معلوم أن الذي يشدد على نفسه، ويشق على نفسه، أنه لا يستمر، وأنه يمل، فلو أنهم اعتدلوا في العبادة،

وتوسطوا، ما حصل منهم ما حصل من الكفر والتفريط، وهذه عادة المتشدد أنه لا يستمر على تشدده فيملون، كالمُنبَتّ؛ كما وصفه النبي ﷺ قال: «**فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى**»[1]، ولهذا قال: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾، إلا بمعنى: لكن، لكن ابتدعوها هم ابتغاء رضوان الله.

وهذا فيه دليل على أن البدع لا تجوز، وإن كانت نية صاحبها حسنة، والواجب الاقتصار على شرع الله ﷻ والاعتدال، ﴿فَمَا رَعَوۡهَا﴾، هذا ذم من وجهين:

الأول: أنهم ابتدعوا.

الثاني: أنهم ما رعوها حق رعايتها ولأن المتشدد يمل ويترك العبادة.

ثم قال: ﴿فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾، ﴿فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: استمروا على طاعة الله واتباع عيسى عليه السلام، آتاهم الله أجرهم.

﴿وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ وهم الذين لم يرعوا اتباع عيسى عليه السلام، وغيروا، وبدلوا، ثم قال ﷻ موصيًا النصارى باتباع محمد ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، يعني: من النصارى، ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾، محمد ﷺ، ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ﴾: نصيبين، ﴿مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾: نصيب على إتباعكم لعيسى عليه السلام وإيمانكم به، والنصيب الثاني على إتباعكم لمحمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾ [القصص: ٥٤]، الذين آمنوا بمحمد من اليهود

---

(١) أخرجه البيهقي (٣/ ١٨). وأخرجه أيضًا: الحاكم في معرفة علوم الحديث (١/ ٩٥)، قال: غريب الإسناد والمتن. والقضاعي (٢/ ١٨٤)، والبغوي في شرح السنة (٤/ ٥١).

والنصارى الله يعطيهم أجرهم مرتين: أجرا على الإيمان السابق، وأجر على إيمانهم بمحمد ﷺ، ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا﴾، هذه فائدة أخرى في اتباع محمد ﷺ أن الله يعطي من اتبعه نورًا يسير عليه في حياته الدنيا وفي الآخرة، يسير على نور يوم القيامة.

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ وهذه ثلاث مزايا: يؤتكم كفلين من رحمته، ويجعل لكم نورًا تمشون به، ويغفر لكم اذا آمنوا بمحمد ﷺ، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ كثير المغفرة، رحيم: كثير الرحمة، هذا إطماع لهم في مغفرة الله ورحمته لو آمنوا بمحمد ﷺ، ثم قال: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي: أن الله ﷻ أعطى هذه الأمة من الفضل ما لم يعطه لغيرها، مع أنها آخر الأمم، فهي أفضل الأممكما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فهم خير الأمم، وأكثر الأمم، وأكثر أهل الجنة، جعل هذا لهذه الأمة المحمدية ليعلم أهل الكتاب أن الفضل بيد الله لأن أهل الكتاب يحسدون هذه الأمة، ولكن لا يقدرون على منع فضل الله عليها، ﴿لِّئَلَّا﴾ (لا) صلة للتأكد ﴿أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ هم اليهود والنصارى والتقدير أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله أي: لا يقدرون أن يمنعوا فضل الله النازل على هذه الأمة(١).

فالله أعطى هذه الأمة من الخيرات ما لم يعطه للأمم قبلها، ولا يقدر أحد

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٢٤٦)، وزاد المسير (٨/ ١٧٩)، والقرطبي (١٧/ ٢٦٧)، وابن كثير (٤/ ٣١٨).

أن يمنع هذا؛ لأن هذا فضل الله يؤتيه من يشاء، وهذا من جهل اليهود والنصارى احتقارهم لهذه الأمة وازدراؤهم لها من أجل الحسد.

﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾، ليس بأيديكم، تعطون من تشاؤون، وتحرمون من تشاؤون، الفضل بيد الله و في ملكه وقدرته ﷻ ومنّه وكرمه، لا أحد يحجر على الله، هذا ملكه، وهذا فضله، وهذا خيره، ما أحد يمنع الله ﷻ.

والله أعطى هذه الأمة هذه الفضائل لعلمه أن هذه الأمة تستحق هذا الشيء وهذا الفضل، وهي وريثة الرسل والكتب السابقة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا﴾ وهم هذه الأمة اصطفاها الله واختارها فهي وريثة فضل الله ﷻ، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾، لا حصر لفضل الله ﷻ، ولا حكر لفضل الله، ففضل الله كثير، ولا يغيض ما عنده ﷻ.

وبهذا انتهى تفسير هذه السورة المباركة، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

الدرس السادس والثلاثون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [المجادلة: ١ - ٤].

هذه السورة العظيمة تسمى سورة «المجادَلة»، لما ذكره الله فيها من حكم الظهار، وما يجب فيه، وفيها: آداب المجالسة، وفيها: الولاء والبراء من الكفار.

وسبب نزول هذه الآيات: ما صح في الأحاديث أن امرأة أنصارية اسمها خولة، أو خويلة بنت ثعلبة، وزوجها أوس بن الصامت الصحابي الجليل، أخو عبادة بن الصامت رضي الله عنهما، وكان شيخًا كبيرًا، وكان لهما أولاد صغار، فحصل بينها، وبين زوجها أوس مشادة بالكلام، وكان رجلًا حادًا،

وكبير السن، فقال لها: «**أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي**».

وكان الظهار في الجاهلية، وفي أول الإسلام طلاقًا، فإذا ظاهر الرجل من امرأته، فإنها تطلق منه، فلما قال لها هذه المقالة، وكان الحكم فيها ما ذكر، اشتد ذلك عليها غاية الشدة؛ لأنها ستفارق زوجها، وحالته كما ذكر من كبر السن، والضعف، وهي تحنّ عليه، وقد عاشت معه، ولها أطفال صغار، يضيعون بينهما، فجاءت إلى النبي ﷺ تسأله، وأخبرته بما حصل فقال: «**مَا أَعْلَمُكِ إِلَّا قَدْ حُرِّمْتِ عَلَيْهِ**»، فاشتد عليها الأمر أكثر، وجلست تشتكي إلى الله حالها، وتقول: ماذا أعمل في صبية صغار إن تركتهم معه ضاعوا، وإن أخذتهم معي جاعوا، وتكرر الشكوى إلى الله، وترفع رأسها بالدعاء إلى الله ﷻ، والرسول ﷺ يقول: «**مَا أَعْلَمُكِ إِلَّا قَدْ حُرِّمْتِ عَلَيْهِ**»، تراجعه، وتكرر عليه، وهو ﷺ يكرر هذه المقالة، فبينما هم كذلك إذ تنزل الوحي على رسول الله ﷺ بهذه الآيات، وحل الله ﷻ مشكلتها، ويسر الله لها، بأن جعل ﷻ الظهار يمينًا مكفرة، تحله الكفارة بعد أن كان طلاقًا[1].

قوله ﷻ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾، قد: حرف تحقيق، ﴿سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ أي: سمع الله شكواها، وقولها، وسمع الله مراجعتها للنبي ﷺ، وما يجيبها به.

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها - وكانت حاضرة- أنها قالت: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتِ الْمُجَادِلَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَا فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ،**

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٢١٩)، وتفسير ابن كثير (٨/ ٧٦)، وتفسير القرطبي (١٧/ ٢٧٠)، ومسند الإمام أحمد (٤٥/ ٣٠٠)، وتاريخ المدينة لابن أبي شيبة (٢/ ٣٩٢)، وصحيح ابن حبان (١٠/ ١٠٧)، والمعجم الكبير للطبراني (١/ ٢٢٥).

تَشْكُو زَوْجَهَا، وَمَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ **الْآيَةَ**»(١).

في هذا إثبات السمع لله ﷻ، فهو يسمع سبحانه وتعالى الأصوات كلها، خفيها، وظاهرها، ﴿قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ﴾، وهي خولة، أو خويلة بنت ثعلبة، وفي هذا فضيلة لها؛ حيث إن الله سمع شكواها، وأنزل فيها قرآنًا، فكانت هذه مفخرة لها رضي الله عنها، وعُرفت بذلك عند المسلمين، وعُرف فضلها بينهم، وهذه ميزة عظيمة، والشدائد أحيانًا تكون سبب خير، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح: ٦].

﴿قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾، أي: تراجعك في زوجها -أوس بن الصامت- في شأن مظاهرته منها، ثم قال الله ﷻ: ﴿وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، حينما قالت: «**أَشْكُو إِلَى اللَّهِ مَا نَزَلَ بِي وَبِأُصَيْبِيَتِي**»(٢).

وفي هذا دليل على أن الرسول ﷺ مبلغ عن الله، وأنه لا يحكم، أو يفتي بشيء حتى ينزل عليه وحي من الله سبحانه وتعالى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾، ختم الآية بقوله: ﴿سَمِيعٌ﴾، وهو اسم من أسمائه سبحانه وتعالى، وجاء فيها سمع، ويسمع، وسميع؛ كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾، ففي هذا: إثبات لصفة عظيمة من صفات الله سبحانه وتعالى، وأنه يسمع الأصوات خفيها، وجليها، ظاهرها، وباطنها.

﴿بَصِيرٌ﴾، يرى سبحانه وتعالى، ويبصر، ولا يخفى عليه شيء في الأرض، ولا في

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٨٨)، واللفظ له، والنسائي (٥٦٢٥).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في تاريخ المدينة (٢/ ٣٩٢).

السماء، ففيها: إثبات البصر لله ﷻ على ما يليق بجلاله كسائر أسمائه، وصفاته.

ثم إنه ﷻ ذكر حل المشكلة فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم﴾، أي: من المسلمين، ﴿مِّن نِّسَآئِهِمْ﴾، أي: من زوجاتهم بأن يقول: أنت عليّ كظهر أمي، أي: يشبهها بأمه في التحريم، وقوله ﷻ: ﴿مِّن نِّسَآئِهِمْ﴾، يخرج بذلك المملوكة فإذا ظاهر منها سيدها فإن فعليه أن يكفر كفارة يمين، لأنه تحريم حلال.

ويؤخذ من قوله: ﴿مِّن نِّسَآئِهِمْ﴾، أنه لو ظاهر منها، أو طلقها قبل أن يعقد عليها، كما لو قال: إن تزوجت فلانة، فهي علي كظهر أمي، أو هي طالق، أن هذا لا يلحقها؛ لأنها ليست من نسائه، حين تلفظ بهذا، بل هي أجنبية.

﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟﴾، اختلف العلماء في معنى العود، وبماذا يحصل العود على قولين:

القول الأول: أنه يعود إلى اللفظ بالظهار، فيظاهر منها مرة ثانية.

القول الثاني: أن العود يراد به الوطء؛ لأنه حرمها، فإذا وطئها، فقد عاد إليها، بعدما حرمها.

فالعود: إما العود إلى التلفظ، وإما العود إلى الفعل، وهو: الوطء، والقول الثاني أظهر(١).

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٢٢٩)، وزاد المسير (٤/ ٢٤٣)، وتفسير ابن كثير (٨/ ٧١)، وتفسير القرطبي (١٧/ ٢٨١).

﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ﴾ أي: لا يصيرها هذا أما له ﴿إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ﴾، اللائي: اسم موصول بمعنى اللاتي، وإن نافية بمعنى ما، فلا تكون أمه إلا من ولدته، أماتشبيهه زوجته بأمه، فهذا خطأ، ولا تكون به أما له.

﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ﴾؛ حيث قالوا: «إنهن أمهاتهم» وهن لسن كذلك وهذا منكر، كيف يجعل من ليست أمًا له أمًا له؟، والزور: الكذب[(١)]، ودل هذا على تحريم الظهار؛ لأنه منكر، وزور، فهو محرم، يأثم به قائله، وتلزمه الكفارة.

قال الله ﷻ: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ ۝٤﴾ [الأحزاب: ٤]، إذن فالظهار محرم، لكن لو وقع فيه الإنسان، فإنه تجب عليه الكفارة، ولا تحرم زوجته عليه، كما كان في أول الأمر.

ولما ذكر الله أنه منكر، وزور، وأن زوجاتهم لسن بأمهاتهم؛ تلطف بهم ﷻ فقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ﴾، أي: لما يحصل، ﴿غَفُورٞ﴾، لما صدر، فهذا تلطف منه ﷻ بعباده، وإطماع لهم في مغفرته، وعفوه؛ لأن المسلم لا يقنط من رحمة الله ﷻ، وإن كان ما فعله منكرًا، وزورًا.

ثم بين الحكم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ﴾ ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾،

---

(١) انظر: مقاييس اللغة (٣/ ٣٦)، ولسان العرب (٤/ ٣٣٧)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٣١٨).

والعود إما إلى اللفظ، وهو قوله: أنت عليّ كظهر أمي، أو العود إلى الفعل، وهو: الوطء، فلا يجوز له ذلك حتى يكفر عن الظهار، فتجب عليه كفارة.

والكفارة مغلظة، وهي: عتق رقبة، فإن لم يجد فيصوم شهرين متتابعين، فإن لم يجد فإنه يطعم ستين مسكينًا، فهذه كفارة الظهار.

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾، أي: عتق رقبة؛ لأن التحرير معناه: العتق، فيحررها من الرق، ويجعلها حرة، ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾، أي: من قبل أن يحصل منه الوطء لها، فلا يطأها حتى يكفّر، فيكون وطؤه لها مرهونًا بأداء الكفارة أولًا. وهي ثلاث خصال:

فالخصلة الأولى: تحرير رقبة، هكذا مطلقة، لكن جاءت في كفارة القتل ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]، فقيدها بالإيمان، فتقاس الرقبة هنا على الرقبة في كفارة القتل، فيشترط أن تكون مؤمنة، فلا يكفي أن يعتق رقبة كافر، حملًا لآية الظهار على آية القتل.

ويشترط في الرقبة مع الإيمان: أن تكون سليمة من العيوب المخلة بالعمل، فلا تكون معيبة بالعمى، أو بالعرج، أو بالمرض الذي لا تستطيع معه أن تعمل لنفسها، وتكتسب.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾، أي: هنا الحكم الذي هو العتق ﴿تُوعَظُونَ بِهِۦۚ﴾، أي: تزجرون به عن الوقوع في الظهار، فإذا تذكر أنه يجب عليه كفارة مغلظة، فإنه يمتنع عن الظهار، وهذا فيه بيان الحكمة من تشريع الكفارة بالظهار، أنها تكون رادعة له قبل أن يفعل هذا الشيء؛ لأنه يتذكر أنه سيترتب على ظهاره كفارة مغلظة فيمتنع.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ أي: يعلم من لم يمتثل للموعظة، ولم تؤثر فيه، ويترك هذا الفعل الذي هو منكر من القول، وزور، فإن الله خبير بعمله، سيعاقبه، ويجازيه، وهذا تهديد بعد تهديد، وكذلك وصفه بأنه منكر، وزور مما يدل على أنه محرم تحريمًا مغلظًا، فيتجنبه المسلم.

الخصلة الثانية: ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ﴾، أي: الرقبة، فإن الله ﷻ سهل عليه، فقال: ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ﴾، أي: فعليه صيام شهرين متتابعين، ستين يومًا متوالية، وهذا زيادة تغليظ عليه، فلا يفصل بينهما بفطر إلا إذا كان فطرًا جائز العذر، كالمسافر، والمريض، فإن لا يقطع التتابع، أو صوم واجب، مثل شهر رمضان، أو فطر واجب، كيومي العيدين، فإن الصيام الواجب، والإفطار الواجب ومن رخص له بالإفطار لمرض، أو لسفر، فإن هذا الإفطارلا يقطع التتابع.

الخصلة الثالثة: ﴿فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ﴾، صيام الشهرين، لكبر، وهرم، أو لمرض مزمن، لا يستطيع صيام الشهرين، فإنه يطعم ستين مسكينًا، لكل مسكين نصف صاع على الصحيح، أي: كيلو ونصف من الطعام.

لم يقل في الخصلة الثالثة: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾، فظاهره أنه لا يشترط تقديم الإطعام على المماسة، وبعضهم يقول: يشترط قياسًا على الخصلتين الأولبين.

﴿ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾، أي: شرعنا لكم هذا الحكم؛ لتؤدوا هذه الكفارة إيمانًا بالله، ورسوله، وامتثالًا لأمر الله، ورسوله، فدل هذا على أن الأعمال من مسمى الإيمان؛ كما هو مذهب أهل السنة، والجماعة، ردًا

على المرجئة الذين يخرجون الأعمال عن مسمى الإيمان.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾، أي: هذه الأوامر هي حدود الله، والحد هو: ما يمنع من مجاوزته، وسُمي حدًا؛ لأنه يحد بالشيء، فلا يُتجاوز[1]، والحدود تأتي بمعنى المباحات، وتأتي بمعنى المحرمات، فإذا كانت الحدود بمعنى المباحات، فلا تُتعدى، ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وإذا كانت الحدود بمعنى المحرمات فلا تُقرب ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ﴾ [البقرة: ١٨٧] أي: اتركوا الوسائل التي تفضي إلى انتهاك الحدود المحرمات.

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾، بالله ﷻ الذين لا يتوقفون عند حدود الله، لهم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: مؤلم شديد الألم لمن تعدى حدود الله، وارتكب ما حرم الله ﷻ -نسأل الله العافية-.

فعلى كل حال هذه الآيات العظيمات فيها فوائد عظيمة، وفيها من أسماء الله، وصفاته: السمع، والبصر، وأنه ﷻ سميع بصير.

وفيها: النسخ، فإن الله نسخ حكم الظهار الذي كان طلاقًا، بأن جعله يمينًا مكفّرة. وفيها: تغليظ الظهار، وأنه محرم شديد التحريم، فالمسلم يتجنبه.

وفيها: أن الظهار إنما يكون من الزوجة، ولا يكون من الإماء المتسرات ولا تكون من الحرة التي ليست في عصمة الزوج، كما لو قال: لو تزوجتها

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٣٥٢)، ولسان العرب (٣/ ١٤٠)، وتاج العروس (٨/ ٦).

فهي كظهر أمي، أو فهي طالق، فليس له عليها ظهار، ولا طلاق؛ لأنها ليست من نسائه.

وفيها أن كفارة الظهار بالترتيب. وفيها أنه يشترط في الصيام التتابع هذا وبالله التوفيق. وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

الدرس السابع والثلاثون

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ
وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ
وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا
يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ
وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ
﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ
وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ
بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا
تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ
﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ
وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ
فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟
ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة: ٥ - ١١].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، أي: الذين يشاقون الله ﷻ، ويخرجون

عن حدوده، وينتهكون حرماته، ويغضبون الله ﷻ، ويحادون الرسول ﷺ، فيعصون أمره، ويرتكبون نهيه، ويخالفونه؛ تبعًا لأهوائهم، ورغباتهم، ويظنون أنهم بذلك حصلوا على الحرية، والسعة، وأن أوامر الشرع فيها تضييق، وفيها تشديد عليهم، فهم فعلوا هذا من أجل التحرر بزعمهم، وإعطاء أنفسهم ما تشتهي، وهذا يشمل كل من خرج عن حدود الله؛ زاعمًا أن شريعة الله فيها ضيق، وفيها حبس للحريات، كما نسمع -الآن- من مقولات الكفار، والمنافقين، والذين في قلوبهم مرض.

فعكس الله ﷻ عليهم مرادهم فقال: ﴿كُبِتُوا﴾، فعاملهم الله بنقيض قصدهم، والكبت هو: التضييق(١)، وإنزال المشقة عليهم؛ عقوبة لهم، أما شريعة الله فإنها شريعة سمحة، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] إنما الحرج، والصعوبة في الخروج من الشريعة، فالذي يخرج عن الشريعة بزعم أنه يريد الخروج من الضيق، ومن حبس الحريات، ومن كذا، وكذا، فالله ﷻ يوقعه في نقيض قصده؛ لأنه ترك الشريعة السمحة الطيبة التي فيها الخير، فخرج إلى ضدها من الكفر، والنفاق، وحصول شهواته المحرمة.

وهذا في الحقيقة هو الكبت بخلاف المؤمنين المتمسكين بالشريعة فهم في راحة بال، واطمئنان، وسعة في الرزق، وبركة، ونجد الخارجين عن الشريعة في كبت، وتضيق على أنفسهم، ولا يهنأون بعيش، وعندهم منغصات، ومكدرات في نفوسهم؛ لذلك ينتحر بعضهم من شدة الضيق

---

(١) انظر: لسان العرب (٢/ ٧٦)، وتاج العروس (٥/ ٥٣)، ومقاييس اللغة (٥/ ١٥٢).

الذي يجده في نفسه، ولو كان عنده سعة من المال والأولاد، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [التوبة: ٥٥]، فأموالهم، وأولادهم زيادة هموم لهم، وهذا شيء واضح أن من خرج عن شريعة الله، وحاد الله ورسوله وقع في كبت، وإن كان يزعم أنه في حرية، وسعادة، فالله ﷻ جعله في كبت نفسي، لا يهنأ له عيش، ولا يهدأ له بال، ويظهر هذا على وجوههم تجدها معبسة مقطبة، وتجد وجوه أهل الإيمان عليها النور، والبهاء، والسرور، فكبتهم الله ﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، من الكفار السابقين، والمنافقين في الأمم السابقة، فقد أهلكهم الله ﷻ ودمرهم، ولم يبق لهم بقية، لما عصوا رسله، وعصوا أمره سبحانه وتعالى، وخرجوا من الدنيا بكفرهم، ونفاقهم إلى النار.

﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾، تدل على ذلك، فإذا قرأت عن قوم نوح، وعاد وثمود، وقوم إبراهيم، والذين من بعدهم تجد سنة الله ﷻ في الماضين لا تتغير في المتأخرين.

وتبين ما أحل الله بالذين يحادون الله، ورسوله في أي وقت، سواء عصوا هذا النبي ﷺ، أو غيره من الأنبياء السابقين، في التاريخ، وفي القرآن وفي السير، الشواهد التي في الأرض من آثارهم، كلها تدل على أنها آيات بينات واضحة.

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ في الآخرة لهم عذاب في جهنم مهين -والعياذ بالله-، كما تكبروا على آيات الله في الدنيا، أهانهم الله في الآخرة، بعكس ما يريدون، فهم في الدنيا في كبت، وفي الآخرة في

عذاب مهين، فما حصلوا من محادتهم لله، ولرسوله، إلا على الشقاء في الدنيا، والآخرة.

ثم قال ﷻ: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾، من قبورهم، ﴿جَمِيعٗا﴾، لا يترك منهم أحدًا، ولا يهرب، أو يتخلف منهم أحد، المؤمن، والكافر، المطيع، والعاصي، يبعثهم الله من الأرض جميعًا، ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾، أي: القبور، ﴿سِرَاعٗا﴾ [المعارج: ٤٣]، ﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗا﴾ [ق: ٤٤]، ويقومون من قبورهم؛ لأن الله ﷻ بعثهم، وأعادهم؛ ليلاقوا حسابهم، وجزاءهم.

وتجتمع أعضاءهم وأجسامهم، ويجمعها الله، ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾ [القيامة: ٣-٤]، فيعيد الله أجسامهم كما كانت في الدنيا، حتى لو مر أحد على واحد منهم حينما يقوم من قبره، وهو يعرفه في الدنيا لقال: هذا فلان، فهم يتعارفون بينهم، ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [يونس: ٤٥]، ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ﴾ [لقمان: ٢٨]، والله ﷻ لا يعجزه شيء.

﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾ أي: يبعثهم؛ ليخبرهم بما عملوا في الدنيا ويجازيهم عليه وهذه هي الحكمة من البعث: من أجل أن يحاسبهم الله على أعمالهم، ويجازيهم عليها، وهذا من أدلة البعث، فإن الله سبحانه وتعالى حكم عدل، لا يمكن أن يعمل العامل في هذه الدنيا، ثم لا يبعث للجزاء فقد يكون من أفسق الناس، أو من أكفر الناس، وأفسدهم في هذه الدنيا، ولا يأتيه عقوبة

في الدنيا ولا يأتيه نقمة، بل يستدرج؛ لأن جزاءه في الآخرة.

وقد يكون من أصلح الناس، وأتقاهم، ولكنه لا يحصل على كل ما يريد، وقد يبتلى بالفقر، والفاقة، والمرض، ولا ينال شيئًا من جزائه في الدنيا؛ لأن الله يوفره له في الآخرة، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ﴾ [المؤمنون: ١١٥ - ١١٦]، أي: تعالى عن هذا العبث، لو أنه تركهم على دنياهم، ولم يبعثهم، ويجازهم، لكان هذا عبثًا منه سبحانه وتعالى، وهو منزه عن العبث.

﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: عن كل ما عملوا ولا يترك منه شيئًا.

﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾، هم نسوا ما عملوا في الدنيا، وظنوا أنه انتهى ومضى، والله عز وجل أحصاه عليهم في كتابهم الذي كتبته عليهم الحفظة الكرام في صحائفهم، وهم يظنون أنه ذهب، ونسي، وليس له تبعة، وليس له أثر، والله عز وجل ما أهمله، بل أحصاه، ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف: ٨٠]، ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية: ٢٩]، اعمل ما شئت، معك الملك يكتب، وأنت تنساه، ولكن الله لا ينساه سبحانه وتعالى، فحاسب نفسك(١).

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، يشاهد ما نفعله، ويراه سبحانه وتعالى أينما كنا في بر، أو بحر، أو ظلام، أو مع الناس، أو خالين عن الناس، فالله شاهد علينا،

---

(١) يروى عن الفاروق عمر رضي الله عنه في ذلك قوله: «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الأَكْبَرِ، وَإِنَّمَا يَخِفُّ الحِسَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا». أخرجه الترمذي (٢٤٩٥).

ويشهد على ما نعمله، ويرسل الحفظة يكتبون علينا.

ثم قال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فهو يرى، ويسمع، ويعلم ﷻ، ما في السماوات العلى، ويعلم ما في الأرضوما تحت الثرى، يعلم ذلك ﷻ، ولا يخفى عليه؛ لذلك أحصى أعمالهم، وإن كانوا هم قد نسوها.

ففي هذا: إحاطة علمه ﷻ بكل شيء في العالم العلوي، والعالم السفلي.

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾، فالمجالس التي يجلس فيها الاثنان، والثلاثة، والأربعة، والخمسة، وما زاد، وما نقص، كل هذه المجالس ليست مهملة، بل إن الله ﷻ مع الجالسين الذين يتناجون بينهم سرًا[(١)]، اثنين كانوا، أو ثلاثة، أو أربعًا، أو أكثر، أو أقل، الله معهم بعلمه وإحاطته، لا بذاته ﷻ؛ لأن الله لا يكون مختلطًا بالخلق، ولكنه يعلم ما يصدر منهم، ويحيط به ﷻ. ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾، يعلم ﷻ ما يتناجون به، وإن أخفوه عن الناس.

﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾، معية إحاطة، وعلم، وإحصاء؛ لأن المعية على قسمين:

القسم الأول: معية إحاطة مع جميع الناس، ومعناها: العلم، فالله مع خلقه بعلمه، مع المؤمنين، والكفار، والأبرار، والفجار، معهم بعلمه، وإحاطته ﷻ، وهو قريب منهم ﷻ.

---

(١) النجوى هي: حديث السر. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ٢٥)، ولسان العرب (١٥/ ٣٠٩)، وتاج العروس (٤٠/ ٣٠).

القسم الثاني: معية خاصة بالمؤمنين، وهي: معية الحفظ، والنصر، والتأييد، والتسديد.

قال الله ﷻ لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، لا تخافا من فرعون، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤] معهم معية نصرة، وإعانة، وحفظ، وهي كلها بنوعيها معية العلم، لا معية الاختلاط، والحلول، كما يقوله أهل الضلال.

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، أحاط بهم في الدنيا، وعلم كل ما صدر منهم، وضبطه عليهم، ولم يترك منه شيئًا ثم يوافيهم به يوم القيامة ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩]، فلا أحد يعذب بغير عمله أبدًا، أو ينقص من عمله الصالح، ولا يزاد عليه من عمل غيره؛ كما جاء في الحديث القدسي من قول رب العزة ﷻ: «**يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ**»(١).

ثم ختم الآية معللا بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء.

قال الإمام أحمد وغيره: «**افْتَتَحَ الْآيَةَ بِالْعِلْمِ، وَاخْتَتَمَهَا بِالْعِلْمِ**»(٢). فدل على أن المراد بالمعية: معية العلم، لا معية المخالطة، والمماسة -تعالى الله عن ذلك-.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٥) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٧٣).

ثم قال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾، هؤلاء هم اليهود الذين عاهدهم رسول الله ﷺ، لما هاجر إلى المدينة، لم ينقطع شرهم عن المسلمين، فكانوا إذا جلس بعضهم إلى بعض، ومر أحد من المسلمين، تكلموا فيه سرًا فيما بينهم، فيسيء ذلك إلى المسلم، ويظن أنهم يدبرون له سوءًا، ويكيدون له، فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك، فلم ينتهوا بل ﴿يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ من المناجاة، والتسار بينهم خفية(١).

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الْآخَرِ، حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُحْزِنَهُ**»(٢).

والنجوى على قسمين: نجوى في الشر، وهذه هي المقصودة هنا، ونجوى في الخير؛ كقوله ﷻ: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]، فإذا كان التسار بين الاثنين في الخير، ولا يضرون مسلمًا، فهذا لا بأس به، وهذه نجوى خير، لكن المقصود هنا النوع الأول، وهو نجوى الشر.

ولهذا قال: ﴿وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾، فلا يتناجون بالخير، إنما يتناجون بالإثم فيما يعود عليهم ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ على غيرهم، فهذه النجوى المذمومة إذا كان فيها إثم، أو عدوان، ويخططون فيه للمسلمين فيما بينهم، ويسرون هذه الخطط.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٢٣٨)، وزاد المسير (٤/ ٢٤٦)، وتفسير ابن كثير (٨/ ٧٣)، وتفسير القرطبي (١٧/ ٢٩١).

(٢) أخرجه مسلم (٣٧).

﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ وهذه خصلة ثانية من سوء أدبهم مع رسول الله ﷺ: أنهم كانوا يقولون إذا حيوه ﷺ: السام عليكم، والسام هو: الموت[(١)]، تنقصًا من رسول الله ﷺ، وبغضًا له، فيدعون عليه بالموت.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «سْتَأْذَنَ رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: بَلْ عَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَا عَائِشَةُ «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ» قَالَتْ: أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ: «قَدْ قُلْتُ وَعَلَيْكُمْ»[(٢)]. أي: وعليكم السام، فهو ﷺ رد عليهم بمثل ما قالوا.

فعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أخذتها الغيرة فقالت: «بَلْ عَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ»، فنهاها النبي ﷺ، فـ «لَيْسَ الْمَرْءُ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلَا بِاللَّعَّانِ، وَلَا بِالْفَاحِشِ، وَلَا بِالْبَذِيِّ»[(٣)].

﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: فيما بينهم أو في خواطرهم، وأفكارهم: ﴿لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾، أي: لماذا لا يعذبنا الله بما نقول، فلمَّا لم يعذبنا، دل على أن هذا ليس رسولًا، فلو كان رسولًا لعذبنا الله.

قال الله ﷻ ردًا عليهم: ﴿حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ﴾ أي: كافيهم جهنم، وهي: النار

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٤٠٤)، ولسان العرب (١٢/ ٣٠٢)، وتاج العروس (٣٢/ ١٩١)

(٢) أخرجه مسلم (١٠).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٦٢)، وأحمد في المسند (٧/ ٦٠)، والبيهقي في الشعب (٩/ ٥٤).

فهم إذا لم يعذبوا في الدنيا، فإن العذاب ينتظرهم في الآخرة، وعذاب الدنيا أهون، وأسهل من عذاب الآخرة، فإذا سلموا في الدنيا فليس هذا من حظهم، وليس من صالحهم.

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾، أي: يعذبون فيها من الصلي، أو التعذيب ﴿فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ بئس المرجع والمآب؛ لأنها مقرهم، والنار بئس المصير، لا خلاص لهم منها، فلو سلم الكافر والمنافق في الدنيا من العقوبة، فلن يسلم منها في الآخرة، إلا إذا كان من أهل الإيمان، فقد يسلم، ويعفو الله عنه.

ثم وجه الله الخطاب إلى المؤمنين؛ ناهيًا لهم عن فعل هؤلاء، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ﴾، دل هذا على أنه لا يُمنع التناجي مطلقًا، ﴿فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾.

﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ أي: بدل أن تتناجوا بالإثم، والعدوان، ومعصية الرسول، تناجوا فيما بينكم بالبر، والتقوى، وتحدثوا بالبر، والتقوى، والموعظة، والتذكير، والتعليم، وذكر الله ﷻ، فالنجوى ليست ممنوعة مطلقًا.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، في حال اجتماعكم، وفي حال تفرقكم، وفي جميع أحوالكم، لازموا تقوى الله ﷻ بفعل أوامره، وخوفه، ورجائه سبحانه وتعالى، وترك نواهيه، ولا تتناجوا بالإثم، والعدوان، ومعصية الرسول، واتقوا عذابه، وغضبه، فلا تتناجوا بمثل ما يتناجى به المنافقون، واليهود.

﴿الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، يوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم، ومنها:

المجازاة على النجوى السيئة، فاتقوا هذا اللقاء مع الله ﷻ الذي يحصي عليكم أعمالكم.

ثم قال ﷻ مبينًا أن النجوى السيئة من الشيطان، وهو الذي يأمر بها هؤلاء ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، فإذا رأوا عدوهم يتناجون حزنوا لذلك، ويخافون أن يكون عدوهم يبيت لهم سوءًا، ويخطط لهم مكرًا.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، يأمر بها أولياءه، ويزينها لهم؛ ﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا﴾ في مكره، وتزيينه.

﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، أي: بأمره ﷻ، وقدره، وقضائه على مقتضى مشيئته، وحكمته، ﷻ، فنواصي العباد بيد الله، الشياطين، والكفرة، والفسقة، والمؤمنون، والصالحون، كلهم نواصيهم بيد الله ﷻ، وقد يسلط الشياطين والجن على بني آدم إما عقوبة، وإما ابتلاء، وامتحانًا، فلا تخافوهم ما دام أنهم لن يضروكم إلا بإذن الله، فليكن خوفكم من الله، لئلا يسلطهم عليكم.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢]، لا على غيره ﷻ، والتوكل من أعظم أنواع العبادة قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، فوض أمورك إلى الله، واجعل خوفك، ورجاءك معلقًا بالله، والعباد نواصيهم بيد الله ﷻ فلن يضرك أحد إلا بإذن الله؛ ولهذا قال النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ**

يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ»(١).

ولما انتهى من النجوى، ذكر أدبًا آخر من آداب المجالس، فقال ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، المشروع أن الإنسان إذا جاء إلى مجلس أنه يجلس حيث ينتهي به المجلس، ولا يقيم أحدًا؛ ليجلس في مكانه، الا إذا قام ذلك الجالس من مكانه عن طيب نفس، و إذا جاء، ولم يجد مكانا يجلس فيه، فإن المؤمنين يُؤمَرون أن يفسحوا له؛ ليوجدوا مكانًا يجلس فيه، لا سيما مجالس العلم، والمجلس الذي عند الرسول ﷺ، فقد كانوا يجتمعون عند الرسول ﷺ، وكل منهم يحرص أن يكون أقرب إلى الرسول ﷺ؛ لحبهم للخير، وحبهم للرسول ﷺ، ومجالسته، فأمرهم الله أن يفسحوا لإخوانهم القادمين.

﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ لأن الجزاء من جنس العمل، فمن أفسح لأخيه، ووسع له، وسع الله عليه، وقوله: ﴿فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ﴾ المراد به عامة في مجالس المسلمين.

﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾، أي: قوموا للصلاة، أو لعمل آخر، كالجهاد والنشز هو: الارتفاع، والقيام من الجلوس(٢)، فلا تبقوا دائمًا جالسين بل إذا حان وقت القيام فقوموا، ولا تتثاقلوا فيبادر المسلم للقيام لللطاعة، والصلاة، والجهاد، والعمل الصالح، وقيل: المراد أنهم اذا كانوا يأتون

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد في المسند (٤/ ٤١٠)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٢٣٨).

(٢) انظر: مقاييس اللغة (٥/ ٤٣٠)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ٥٥)، وتاج العروس (١٥/ ٣٥٣).

يجلسون عند الرسول ﷺ في بيته، والرسول ﷺ تعرض له حاجة، أو يريد الراحة، فإذا انتهى المجلس فلا يجلسون بعد ذلك، بل يقومون؛ كي لا يشقوا على الرسول ﷺ[(١)]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ۚ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

ثم قال ﷻ: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، يرفع الله أهل الإيمان، وأهل العلم على غيرهم درجات لا يعلمها إلا الله ﷻ، فهذا فيه فضل العلم، وأن الله يرفع به العالم درجات لا يعلمها إلا هو، ولكن العلم لابد أن يكون مع الإيمان، ومع العمل؛ ولهذا قال: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، فيكون مع العلم إيمان بالله، ويكون معه عمل بالعلم، أما العلم الذي ليس معه عمل فهذا إنما هو حجة على صاحبه يوم القيامة.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، فيه الحث على العمل الصالح، ولا سيما العمل بالعلم الذي تلقيتموه من الرسول ﷺ، أو من غيره من ورثة الرسول ﷺ من العلماء[(٢)]، وفيه: الترغيب في العلم تعلمًا، وتعليمًا، وعملًا، وأن الله ﷻ

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٢٤٦)، وزاد المسير (٤/ ٢٤٨)، وتفسير ابن كثير (٨/ ٧٩)، وتفسير القرطبي (١٧/ ٢٩٩).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود (٣٦٤١) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ».

خبير بعمل العالم، فإن عمل بعلمه، وأخلص لله، فإن الله يرفعه درجات، وإن لم يعمل بعلمه، ولم يتق الله فيه، فإنه يكون حجة عليه، والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه.

الدرس الثامن والثلاثون

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ
وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۝١٢ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ
لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا
تَعۡمَلُونَ ۝١٣ ۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ
عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝١٤ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٥
ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝١٦ لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ
أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١٧﴾ [المجادلة: ١٢ - ١٧].

ذكر ﷻ في هذه الآيات النجوى مع الرسول ﷺ، فإنهم كانوا يناجون الرسول ﷺ بالاستفتاء منه ويسألونه عن الأحكام الشرعية فيما أشكل عليهم، ويكون ذلك سرًا بينهم، وبينه ﷺ، ولكن لما كثر هذا مع الرسول ﷺ وأثقلوا عليه في المناجاة، وكثرة الأسئلة، أراد الله ﷻ أن يضع حدًا تقل به مناجاة الرسول، وتخف عنه، فأمر من يريد أن يناجي الرسول ﷺ أن يقدم صدقة قبل أن يناجيه.

فقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾، أي: إذا أردتم مناجاته في

أمر من الأمور، ﴿فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ أي: صدقة على مسكين، فكان في ذلك تقليل من إشغال الرسول ﷺ، وتخفيف عنه.

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾، أي: الصدقة قبل مناجاة الرسول خير لكم أيها المؤمنون، فلا تكرهوا، هذه الصدقة؛ لأنها خير، ففيها خير لكم وأجر للمتصدق، ونفع للفقراء وتخفيف عن الرسول وأطهر من إثم النجوى؛ لأن النجوى -كما سبق- يكون فيها شيء من التحرج، ومن حصول التضايق من المسلمين، إذا رأوا من يسر إلى الرسول ﷺ ظنوا أن هذا ضدهم، وأنه يخبر الرسول ﷺ عن شيء حدث منهم، فهذه الصدقة تطهر هذه الظنون، وهذه التحرجات التي تحصل.

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟﴾، فليس كل الناس يقدرون على التصدق، ففيهم فقراء، وهم يحتاجون إلى السؤال، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: فلا يجب عليكم التصدق؛ نظرًا لعذركم؛ لأنكم لا تجدون ما تتصدقون به، فلا تحرموا من مناجاة الرسول ﷺ، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لكم؛ حيث لم يؤاخذكم في هذه الحالة على عدم التصدق، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بكم، فهو يشرع لكم من الأحكام ما يناسب الأحوال من غير إحراج للمسلمين.

وهذا فيه: التخفيف عن ضعفاء المسلمين، بأنه لا يلزمهم أن يقدموا صدقة قبل مناجاتهم للرسول ﷺ؛ نظرًا لعسر حالهم، وضيق معيشتهم.

ثم قال الله ﷻ: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾، أي: خفتم من التصدق؛ لأن الإنسان سيحتاج إلى السؤال، وكلما أراد السؤال يتصدق، وهذا يثقله، فخافوا من ذلك؛ لأن هذا الحكم شديد عليهم.

﴿أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ﴾، للرسول ﷺ، ﴿صَدَقَٰتٍ﴾، بالجمع نظرا لكثرة السائلين، ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟﴾، أي: لم تقدموا؛ لأنهم لما شرع هذا لم يتصدق أحد منهم، وتوقفوا عن السؤال ويقال: إلا علي بن أبي طالب رضي الله عنه فإنه فعل ذلك، فكان يتصدق قبل مناجاته للرسول ﷺ.

﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ وهذا دليل على أن توقفهم، وتأخرهم عن الصدقة فيه إثم، لكن الله ﷻ تاب عليهم، ولم يؤاخذهم، فهذا فيه الحث على المبادرة لفعل الأوامر الصادرة عن الله، ورسوله، وعدم التلكؤ، والتأخر في تنفيذها ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، فنسخ الله ﷻ الأمر بالصدقات، وأباح للمسلمين أن يسألوا الرسول ﷺ عما أشكل عليهم من غير تقديم صدقة؛ لأن المقصود حصل، وعرف الناس أنهم يثقلون على الرسول ﷺ بكثرة الأسئلة فقللوا منها، وحصل التخفيف عن الرسول ﷺ، وتنبه المسلمون إلى ذلك، فنسخ الله ذلك في أن الله سبحانه وتعالى تاب عليهم.

فهذا فيه النسخ في القرآن الكريم، وهو: إزالة الحكم الشرعي الثابت بدليل بحكم آخر بدليل متراخ عنه، وقد وقع في مواضع من القرآن الكريم أن الله ﷻ ينسخ بعض الآيات، فمنه ما ينسخ إلى بدل، ومنه من ينسخ إلى غير بدل، ومنه ما ينسخ إلى أخف، ومنه ما ينسخ إلى أثقل، فالنسخ له أقسام يعرفها الأصوليون.

﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، التي هي الركن الثاني من أركان الإسلام، ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، التي هي الركن الثالث من أركان الإسلام[1]، أمر بهاتين العبادتين

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٨)، واللفظ له، ومسلم (٢١) من حديث =

العظيمتين؛ لأن الصلاة عبادة بدنية، والزكاة عبادة مالية، فمن اهتم بالصلاة وحافظ عليها حافظ على ما سواها من العبادات البدنية(١)؛ لأنها تسهل على المسلم فعل الطاعات، وتبغض إليه فعل المنكرات، ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، والزكاة تسهل على الإنسان التصدق بالمال، فإذا أدى الزكاة الواجبة، سهل عليه التصدق، والتبرع في وجوه الخير.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، عمومًا في كل ما أمر به، وهذا فيه طاعة الرسول ﷺ، مثل طاعة الله، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، والرسول يطاع استقلالًا، ويطاع -أيضًا- مع طاعة الله ﷻ، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧].

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، بيّن ﷻ أنه لا يخفى عليه شيء من أعمال عباده، إن هم أطاعوه، أو عصوه، وهذا فيه تحذير للمؤمن أن يتساهل، أو يخالف في شيء من طاعة الله، وطاعة رسوله؛ لأن الله خبير بذلك، وفيه: ترغيب، فإذا عرف المسلم أن الله خبير بعمله، هان عليه العمل، ووثق لحصول الجزاء، والثواب عليه، وأمن على عمله من أن يضيع؛ لأن الله

= ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ».

(١) كما جاء عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: «كَتَبَ إِلَى عُمَّالِهِ إِنَّ أَهَمَّ أَمْرِكُمْ عِنْدِي الصَّلَاةُ مَنْ حَفِظَهَا أَوْ حَافَظَ عَلَيْهَا حَفِظَ دِينَهُ وَمَنْ ضَيَّعَهَا فَهُوَ لِمَا سِوَاهَا أَضْيَعُ» انظر: الموطأ (١/ ٦)، والسنن الكبرى للبيهقي (١/ ٦٥٤).

خبير به ﷻ، أيًا كان هذا العمل، صغيرًا كان، أو كبيرًا فإن الله خبير به، عليم به.

فقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، عام لجميع الأعمال صغيرها، وكبيرها، ظاهرها، وباطنها، لا تخفى على الله ﷻ ولا تضيع، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦]، ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]، فالله لا يضيع الحسنات أبدًا، وإن كانت قليلة، والسيئات ان كانت دون الشرك فهي تحت عفوه ﷻ، إن شاء عذب بها، وإن شاء عفا عنها، إذا كانت تقبل العفو، وكانت دون الشرك.

ثم وجه اللوم، والتوبيخ إلى المنافقين، وهم: الذين يظهرون الإسلام، ويبطنون الكفر؛ ليعيشوا مع المسلمين، وينتفعوا بذلك، ويسلموا على دمائهم، وأموالهم

فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾، اي: قد رأيت، ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا﴾، وهم: اليهود والنصارى، فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾، وهم: اليهود. ﴿وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾، يحلفون أنهم آمنوا بالله، ورسوله وهم ليسوا كذلك.

ثم بين ﷻ جزاءهم، فقال: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابًا شَدِيدًاۖ﴾، في الآخرة، والعذاب شاق، ومؤلم، فكيف إذا كان شديدًا، فهذا أخوف -والعياذ بالله-.

﴿إِنَّهُمۡ﴾، أي: المنافقون، ﴿سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، وعملهم أنهم:

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾، أي: سترة يتترسون من ورائها[(١)]، ويخادعون بها، وجنة يستترون، ويخفون من ورائها كذبهم، وغشهم، وخديعتهم، فما كل من حلف يصدق، قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ﴾ [القلم: ١٠]؛ لأن كثرة الحلف تدل على الاستهانة باليمين، أما المؤمن فلا يكثر من الأيمان، ولا يحلف إلا عند الحاجة، ولا يحلف إلا وهو صادق، وإذا صدرت منه اليمين، فإنه يكون عندها، ولا يتهاون بها؛ عملًا بقوله: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾ [المائدة: ٨٩].

ثم قال: ﴿لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ﴾، في يوم القيامة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾، أي: المخلدون فيها، فهم مصاحبون للنار، لا يخرجون منها، كما يصاحب الإنسان في الدنيا رفيقه، أو محبوبه، فهم في يوم القيامة يصاحبون النار، لا مخرج لهم منها -والعياذ بالله-، وتلازمهم دائمًا، وأبدًا، فماذا حصلوا عليه من عملهم هذا ﴿وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء: ٣٩] لكنهم حرموا من هذا -والعياذ بالله-؛ بسبب شكهم، وريبهم، وترددهم، فحرموا من هذه الصفات العظيمة المنجية من عذاب الله.

فعلى المسلم أن يحذر من النفاق، والنفاق قد لا يكون نفاقًا اعتقاديًا، قد يكون نفاقًا عمليًا، لا يخرج من الملة، لكنه ينقّص الإيمان، وذلك بأن

---

(١) انظر: مقاييس اللغة (١/ ٤٢٢)، ولسان العرب (١٣/ ٩٤)، وتفسير الطبري (٢٣/ ٣٩٤).

يتصف المسلم بصفة من صفات المنافقين، أو بأكثر من صفة.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا» يعني: النفاق العملي، لا النفاق الاعتقادي، «إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»(١).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ»(٢).

فعلى المسلم أن يحذر من النفاق الاعتقادي، والنفاق العملي، وقد تكثر فيه هذه الصفات فيكون منافقًا خالصًا، وتجره إلى النفاق الأكبر، إذا تساهل فيها، فلا يتساهل المسلم في صفات المنافقين، ويحذر منها غاية الحذر.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤، ٢٤٥٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣، ٢٦٨٢، ٢٧٤٩، ٦٠٥٩)، واللفظ له، ومسلم (١٠٧، ١٠٩).

الدرس التاسع والثلاثون

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ
الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ
حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾
كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ
إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ
وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ
أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ١٨ - ٢٢].

لا زالت الآيات في ذكر المنافقين، وما أعد الله لهم من الجزاء، ومما يلقونه يوم القيامة، والله ﷻ إنما ذكر صفات المنافقين، وقصتهم، وكررها في القرآن لأمرين:

الأمر الأول: أن يتوب من أراد الله له التوبة منهم من النفاق.

الأمر الثاني: تحذير المؤمنين من النفاق، وتحذيرهم من الثقة بالمنافقين

فهؤلاء قوم اتخذوا المخادعة، والمراوغة، والكيد للمسلمين، والالتجاء للكفار عند عندما يصيب المؤمنين شدة.

ويظنون أنهم سيحمونهم، وينصرونهم، فهم مذبذبون لا إلى الكفار، ولا إلى المسلمين، يجعلون مع المسلمين يدًا، ويجعلون مع الكفار يدًا؛ لأنهم لا يثقون بالله ﷻ، وقد ذكر الله ﷻ أن من صفاتهم القبيحة: أنهم يحلفون على الكذب، وهم يعلمون كذبهم فلا يوقرون اليمين بالله ﷻ، فهم يحلفون بالله، ويتنقصون الله ﷻ، وهم يعلمون أنهم كاذبون.

قال ﷻ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾، من قبورهم، ويلقون الله ﷻ؛ لمحاسبتهم مع الناس، ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾؛ لأن من عاش على شيء مات عليه، وبعث عليه يوم القيامة(١)، فيحلفون لله ﷻ كما يحلفون لكم في الدنيا.

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي: يظنون أن هذا الحلف ينفعهم عند الله، كما كان ينفعهم عند المؤمنين، لكن الله ﷻ يعلم ما في قلوبهم، وإن حلفوا، وتظاهروا بالجحود، والإنكار، فإن ذلك لا ينفعهم عند الله؛ ،فالله ﷻ لا يُخدع، ولا يروج عليه الكذب؛ لأنه يعلم ما في الصدور، وما في القلوب.

والمشركون -أيضًا- ذكر الله ﷻ أنهم يوم القيامة يحلفون جهد أيمانهم

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أحمد في المسند (٢٢/ ٢٧١) من حديث جَابِرٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ مَاتَ عَلَى شَيْءٍ بَعَثَهُ اللهُ عَلَيْهِ».
قال الإمام ابن كثير رحمه الله: (فَإِنَّ الْكَرِيمَ قَدْ أَجْرَى عَادَتَهُ بِكَرَمِهِ أَنَّهُ مَنْ عَاشَ عَلَى شَيْءٍ مَاتَ عَلَيْهِ، وَمَنْ مَاتَ عَلَى شَيْءٍ بُعِثَ عَلَيْهِ). انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٧٥).

أنهم لم يشركوا بالله في الدنيا، فالله ﷻ يعلم أعمالهم، ويعلم ما هم عليه، فلا تنفعهم الأيمان فالمشركون يحلفون أنهم ما كانوا مشركين، والمنافقون يحلفون أنهم ما كانوا منافقين، ولكن هذا لا ينفعهم عند الله ﷻ.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾، حكم الله عليهم حكمًا مؤكدًا بـ «إنَّ» وبـ «ألا» أنهم هم الكاذبون، فلم تنفعهم أيمانهم عند الله ﷻ.

ثم بين ﷻ السبب الذي حملهم على هذا الكذب، وهذه الأيمان الفاجرة وهو أن الشيطان استحوذ عليهم، أي: تسلط عليهم، وتمكن منهم فصاروا من جنده.

﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾، وإذا نسوا ذكر الله، قلّ الإيمان في قلوبهم، وقلت خشية الله في قلوبهم، فلا يمتنعون من الكذب، ومن الأعمال الرديئة؛ لأنهم لا يذكرون الله إلا قليلًا، فذكر الله يعصم الإنسان من الشيطان.

فإذا ذكر المسلم ربه انطرد عنه الشيطان، ولا يتمكن منه، أما إذا غفل عن ذكر الله قرب منه الشيطان، والشيطان وسواس خناس، وسواس مع الغفلة، وخناس مع ذكر الله[1]، هذه عملية الشيطان مع بني آدم، فهم لما قلّ ذكر الله

---

(١) كما جاء عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤] قَالَ: (الشَّيْطَانُ جَاثِمٌ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، فَإِذَا سَهَى وَغَفَلَ وَسْوَسَ، فَإِذَا ذَكَرَ اللَّهَ خَنَسَ).
أخرجه أبو داود في الزهد (١/ ٢٩٥)، واللفظ له، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٩٠)، والبيهقي في الشعب (٢/ ٧٤)، وأبو يعلى في مسنده (٧/ ٢٧٨) عن رسول الله ﷺ بلفظ «إِنَّ الشَّيْطَانَ وَاضِعٌ خَطْمَهُ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، فَإِنْ ذَكَرَ اللَّهَ خَنَسَ، وَإِنْ نَسِيَ الْتَقَمَ قَلْبَهُ فَذَلِكَ الْوَسْوَاسُ الْخَنَّاسُ».

عندهم تسلط عليهم الشيطان، فهذا فيه فضيلة ذكر الله ﷻ، وأن ذكر الله يطرد الشيطان.

﴿أُولَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾، أي: جنده، وجماعته، فالشيطان له حزب، والله ﷻ له حزب، وله جند، فلينظر المسلم مع أي الجندين هو، هل هو مع جند الشيطان، وحزبه؟ أو مع جند الله، وحزبه ﷻ.

ثم سجل عليهم الخسارة فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ الخاسرون في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ۝٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ۝٢١﴾، المحادة معناها: المشاقة لله، ورسوله[(١)] بأن يكونوا في حد، والله في حد آخر، أي: أنهم في جانب، والله، ورسوله في جانب آخر، فينحازون إلى الشيطان، فالذين يحادون الله، ورسوله، يعاقبهم الله بالإذلال، والإهانة وعدم وصولهم إلى مقاصدهم، فهم لهم مقاصد، والله ﷻ يكبتهم، ولا يصلون إلى مقاصدهم، ومن أعظم مقاصدهم: الإضرار بالمسلمين والمؤمنين، ولكن الله ﷻ يكبتهم، ويكفي المسلمين شرهم، فلا تحزنوا من مكرهم، وكيدهم؛ لأنهم مكبوتون، ولا يصلون إلى نتيجة، ﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾، من الأمم السابقة، كبتهم الله، لما كفروا بالله ﷻ وشاقوا الأنبياء، وعصوهم، كبتهم الله ونصر الله أنبياءه، وأتباعهم من قوم نوح، وعاد، وقوم هود، وسائر الأمم الكافرة ما حصلوا على طائل؛ لأن الله ﷻ كبتهم، وأذلهم، وأخزاهم، فهذا مصير

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٣٥٣)، ولسان العرب (٣/ ١٤٠).

كل من يحاد الله، ورسوله، فلا تغتروا بهم، ولا تحزنوا من أفعالهم؛ لأنهم مكبوتون مهما حاولوا، ومهما كادوا من الكيد؛ لأنهم حادوا الله، ورسوله.

وإن كان عندهم قوة دنيوية، وشوكة، وأموال، وأولاد، فإن ذلك لا ينفعهم عند الله ﷻ، ولا يجعلهم أعزة، بل يجعلهم ذليلين دائمًا، وأبدًا.

ثم قال ﷻ: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾، كتب الله في اللوح المحفوظ أن الغلبة لله ولرسله، وأن الذلة والصغار على من خالفهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ لا أحد يتغلب عليه، وما عاداه ضعيف، فكيف يتغلب الضعيف على القوي.

ثم قال ﷻ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ﴾ هذا فيه وجوب الولاء، والبراء، الولاء لله، ولرسوله، وللمؤمنين، والبراءة من الكفار، والمشركين، وهو باب، وأصل عظيم من أصول العقيدة، فالذي ليس عنده ولاء، ولا براء، وكل الناس عنده سواء فليس بمؤمن.

فالمنافقون ليس عندهم ولاء، ولا براء، أما المؤمنون فعندهم ولاء، وبراء، فالذين ينادون -الآن- بإلغاء باب الولاء، والبراء من العقيدة، هم من هذا الصنف، من المنافقين -نسأل الله العافية-.

ويقولون: كل الناس سواء في الإنسانية، والآدمية، ولا يجوز كره الآخر حتى ما يقولون: كره الكافر، يقولون كره الآخر، وهذا من تحريف الكلم عن مواضعه، وكره الآخر يريدون به: هدم الولاء، والبراء، ولا يكون هناك كره للكفار، بل إن المؤمنين يؤاخون الكفار -نسأل الله العافية-، وماذا يصنعون بهذه الآيات؟

هذه هي المحادة لله، ولرسوله، لكنهم مكبوتون؛ لأن القرآن سيبقى، والسنة سيبقيان والولاء والبراء سيبقيان، ما بقي على الأرض مؤمن رغم أنوفهم، وإنما يظهرون العداوة لله، وللمؤمنين، وخسارة ذلك عليهم، وضرره عليهم.

فالمؤمن لا يحب الكافر؛ لأن الله لا يحب الكافر، والمؤمن يحب من أحبه الله، ويبغض من أبغضه الله، ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١]، فهذه الآيات مع سورة الممتحنة كلها في الولاء والبراء.

فإذا وجدت من يحب من حاد الله، فإنه ليس بمؤمن.

﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾، لو كان الكفار أقرب الناس إليهم، فكيف إذا لم يكونوا من أقاربهم، فالذين يوالون الكفار من اليهود، والنصارى -الآن- وعبدة الأوثان، هذا دليل على أنه ليس عندهم إيمان، فإذا كان الكافر القريب لا تجوز مودته من قريبه، فكيف تجوز موالاة الكافر البعيد؟.

قيل: إن هذه الآية نزلت في أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه لما قتل أباه يوم بدر، وكان أبوه مع الكفار، يقاتل الرسول صلى الله عليه وسلم.

فالإنسان يقدم من يحبه الله، ورسوله، ولو كانوا بعيدين عنه، ليسوا من أقاربه، وليسوا من بلده، بل لو كانوا في أول الخليقة، فالمؤمنون أخوة من أول الخليقة إلى آخرها ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠]، فهم يوالون أولياء الله قديمًا، وحديثًا، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، أخوة في الله عز وجل، لا أخوة في النسب، والأخوة في الله أقوى من الأخوة في النسب.

والآية دليل على أن موالاة الكفار، ومحبتهم، ولو كانوا أقارب، أنها تتنافى مع الإيمان بالله، واليوم الآخر.

فليحذر المسلم من هذا، أو أن تروج عليه هذه الدعاية الخبيثة التي تريد القضاء على الولاء والبراء، وأن يكون الناس سواء وليس هناك ولاء ولا براء ثم قال ﷻ: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ وهذا دليل على أن الإيمان يتنافى مع محبة الكفار.

فأهل الولاء، والبراء كتب الله في قلوبهم الإيمان، أي: ثبته، فلا يتزحزح، ولا يتغير، ﴿وَأَيَّدَهُم﴾، أي: قواهم، ﴿بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾، والروح يراد بها القوة، ويراد بها القرآن، والوحي، ويراد بها جبريل عليه السلام.

فالله أيدهم بقوة إيمان منه سبحانه وتعالى، وهذه الهداية العظيمة التي ميزوا بها بين المؤمن، والكافر، إنما هي هداية من الله ﷻ؛ لأنه منحهم الهداية، والإيمان، وأيدهم بروح منه.

﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾، هذا جزاؤهم في الآخرة: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، فهم لا ينزلون بها يومًا، أو يومين، أو بضعة أيام، فهم خالدون باقون، لا تسلب، ولا يأخذها أحد منهم، بل هي باقية، ولا تفنى.

ثم أعلى من ذلك قوله: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾، فلا يسخط عليهم أبدًا.

والرضا ضد البغض والسخط، فهم رضوا بما أعطاهم، وما أحد يستقل ما أعطاه، بل عنده ما أعطاه، لم يعطه أحد غيره، فتلذ أعينهم، وتقر نفوسهم، حتى أن كل أحد منهم ما يرى أن أحدًا أفضل منه بما أعطاه الله سبحانه وتعالى

بخلاف الدنيا، فالناس يتنافسون، ويتاشحون، وكل لا يقنع بالذي معه، أما في الجنة فما أحد يرى أن أحدًا أحسن منه؛ ولذلك لا يدب إليه حسد، ولا بغضاء، ولا شحناء، كل رضي بما أعطاه الله(١).

ورضى الله لا يعدله شيء، بل هو أكبر من النعيم الذي حلوا فيه، قال الله ﷻ بعدما ذكر الجنة، ونعيمها: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ﴾ [التوبة: ٧٢]، أي: أكبر من الجنة.

وكل هذا النعيم حاصل لهم؛ بسبب الإيمان، وبسبب الولاء، والبراء في هذه الدنيا، أنهم صاروا مع الله ﷻ، وعادوا أقرب الناس إليهم في الله، ولم تأخذهم العصبية، والحزبية في أن يحبوا أعداء الله، بل أحبوا الله، وأحبوا فيه ﷻ، فمدار حبهم، وبغضهم هو لله ﷻ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ﴾، هذا في مقابل حزب الشيطان، فالله له حزب، وهم: هؤلاء أهل الإيمان، وأهل الولاء، والبراء وأهل الطاعة، هم حزب الله، وهم أيضًا جند الله، قال ﷻ: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣]، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦].

﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، فحصر الفلاح فيهم فقط؛ لأنهم حزب

---

(١) ومما يدل على رضاهم أجمعين ما أخرجه مسلم (٩) من حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى؟ يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا».

الله. فلينظر الإنسان من أي الحزبين هو، الذي يفكر في هذه الدنيا لن يكون من حزب الله في الآخرة، إلا إذا كان من حزب الله في الدنيا، ففكر هل أنت من حزب الله، أم من حزب الشيطان؟، لابد أنك من أحد الفريقين، لا تخرج من هذا، ما يوجد أحد لا يكون من الحزبين أبدًا، أنت مع أحد الحزبين، فانظر ما دمت في زمن الإمكان، انظر مع أي الحزبين أنت.

﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، والفلاح هو: السعادة، والخير[1]، بخلاف الخسار فهو الشقاء، والشر[2].

وصلى الله، وسلم، وبارك على عبده، ورسوله، محمد ﷺ.

---

(١) وتدل على الفوز والنجاح والبقاء. انظر: مقاييس اللغة (٤/ ٤٥٠)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٤٦٩)، ولسان العرب (٢/ ٥٤٧)، وتاج العروس (٧/ ٢٤- ٢٥).

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٩٢)، ولسان العرب (١/ ٢٢٦)، وتاج العروس (١١/ ١٦٤).

الدرس الأربعون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم
مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَۚ
يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ
ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا
قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ
أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٖ قَدِيرٞ ۝٦﴾ [الحشر: ١ - ٦].

هذه السورة العظيمة تسمى سورة الحشر لأن فيها قصة بني النضير من اليهود(١)، وذلك أن اليهود كانوا يعلمون أنه سيبعث نبي في آخر الزمان، وأنه سيهاجر إلى المدينة؛ لما يجدونه في التوراة من ذكر هذا النبي ﷺ،

---

(١) وكان ابن عباس رضي الله عنهما يسميها بسورة: (بني النضير). انظر: زاد المسير (٤/ ٢٥٣).

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وهم يعرفونه بأوصافه ﷺ كما يعرفون أبناءهم، فدفعتهم هذه المعرفة، وهذا التوقع ببعثة هذا الرسول ﷺ، أن جاءوا إلى المدينة، واستوطنوها، ينتظرون خروجه ﷺ[1]. قال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وهم ثلاث طوائف: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، ولهم مزارع وقصور، وحصون في المدينة، فلما بعث الله محمدًا ﷺ، وهاجر إلى المدينة، ورأوه أنكروه ﷺ وقالوا: «**مَا هَذَا بِالنَّبِيِّ الَّذِي وُعِدْنَا بِهِ، وَمَا هَذِهِ الصِّفَاتُ**»، والسبب في ذلك: أنهم حسدوه ﷺ، ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: ١٠٩]، واستكبارًا عن الحق؛ لأنهم يريدون أن تكون النبوة في بني إسرائيل[2]، وإلا فهم يعرفون أنه هو النبي الذي سيبعث.

فلما كانت النبوة في محمد ﷺ، وهو من بني إسماعيل بن إبراهيم، وهم -أعني: اليهود- من أولاد إسرائيل، وهو: يعقوب عليه السلام، وهم يريدون أن تكون النبوة في بني إسرائيل، ولا تكون في بني إسماعيل، ولاتكون في العرب، حسدوه ﷺ، وحسدوا العرب على بعثة هذا الرسول منهم.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٣/ ١٦٥)، وزاد المسير (٢/ ١٦٠)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٩٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢/ ٣٣٦)، وتفسير ابن كثير (١/ ٢٦٥).

فحملهم هذا على الكفر به ﷺ، وهم يعلمون حقيقته، وأنه رسول الله، ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البقرة: ٨٩]، يقولون: «**أما والله لو قد جاء النبي الذي بشر به موسى، وعيسى، أحمد، لكان لنا عليكم**[(١)]»، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾، لما جاء هذا الرسول النبي الأمي العربي كفروا به، وهم يعلمون، ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩ - ٩٠].

فبين ﷻ أن الذي حملهم على هذا هو: الحسد، والبغي، ويريدون حصر فضل الله على حسب أهوائهم، فناصبوا النبي ﷺ العداوة، وجحدوا رسالته، إلا قلائل منهم، آمنوا بمحمد ﷺ، كعبد الله بن سلام رضي الله عنه، وغيره من اليهود الذين عرفوه، وآمنوا به ولم يكابروا.

فلما هاجر النبي ﷺ، ورأى منهم هذه المقابلة الشنيعة، هادنهم ﷺ، وصالحهم على ألا يقاتلهم، ولا يقاتلوه، وأن يبقوا في ديارهم، ويدافعوا مع المسلمين من غزى المدينة، ولكنهم لم يفوا بالعهد، ونقضوه باختلاف طوائفهم، كعادتهم في نقض العهود ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [البقرة: ١٠٠]، فنقضوا العهد مع النبي ﷺ، فمكن الله نبيه ﷺ منهم، وانتقم الله منهم، فأما بنو قينقاع، فإنهم لما انتصر المسلمون في بدر، حنقوا على المسلمين، وأخذوا يؤذونهم، فظهرت منهم بوادر نقض العهد، وبوادر الشر على المسلمين، فغزاهم رسول الله ﷺ في

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢/ ٣٣٦).

مساكنهم قريبًا من المدينة، فلما حاصرهم أصابهم الرعب الشديد، فطلبوا من النبي ﷺ الأمان على أن يرحلوا من المدينة، ويأخذوا معهم ما خفّ من أموالهم، فأعطاهم النبي ﷺ ذلك، وأمّنهم، إلا أنه استثنى السلاح الذي معهم، فأخذوا من أموالهم إلا السلاح، وخرجوا إلى أذرعات في أرض الشام، فهذا شأن بني قينقاع(١).

أما بنو قريظة: فإنهم لما حصل من بعض المسلمين أن قتل صحابي رجالًا من قبيلة بينهم، وبين النبي ﷺ عهد، وهو لم يكن يعلم بالعهد، فتحمل النبي ﷺ ديتهم بموجب العهد، وخرج ﷺ إلى بني النضير يطلب منهم الإعانة على الدية، بموجب العهد الذي بينهم، فقالوا له: نَفْعَلُ، يَا أَبَا الْقَاسِمِ، مَا أَحْبَبْت، قَدْ أَنَى لَك أَنْ تَزُورَنَا، وَأَنْ تَأْتِيَنَا، اجْلِسْ حَتّى نُطْعِمَك وَرَسُولُ اللهِ ﷺ مُسْتَنِدٌ إلَى بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِهِمْ، فجلس النبي ﷺ في المكان الذي قالوا له أن يجلس فيه هو، وأصحابه، ثم ذهبوا، وتآمروا على قتله ﷺ، فدبروا أن رجلًا منهم يأخذ حجرًا كبيرًا، فيصعد، ويسقط الحجر على رأس الرسول ﷺ من وراء الجدار، فأوحى الله إلى نبيه ﷺ مكيدتهم، وما يدبرون وأمره أن يغادر المكان.

فقام ﷺ، ورجع إلى المدينة، ولما رأى أصحابه أنه رجع رجعوا إلى المدينة، وسلم الله رسوله ﷺ منهم، ولم يتمكنوا من قتله، وبذلك انتقض عهدهم، وخانوا الله، ورسوله، فغزاهم النبي ﷺ في مكانهم، وهو قريب

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٨/ ٨)، ومغازي الواقدي (١/ ١٨٠)، والأموال لابن زنجويه (٢/ ٤٦٦).

من المدينة، لم يتخذوا مطايا، أو خيلًا ؛ كما قال الله ﷻ : ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ [الحشر: ٦]، لأنه قريب، حاصروهم، وقطعوا بعض النخيل من نخيلهم؛ نكاية بهم.

ثم ألقى الله الرعب في قلوبهم، فطلبوا من النبي ﷺ أن يؤمنهم على دمائهم، وأموالهم، ونسائهم، وأن يرحلوا من المدينة، فأعطاهم النبي ﷺ الأمان على أن يتركوا السلاح، ويأخذوا معهم ما يستطيعون حمله من أموالهم، فخرجوا، وحملوا معهم ما حملوا، حتى إنهم كانوا ينقضون بيوتهم، ويأخذون أخشابها، ويحملونها معهم، وينقضون الأبواب، ويحملونها معهم؛ لئلا ينتفع بها المسلمون.

وذهب بعضهم إلى اليهود الذين في خيبر، وبعضهم ذهب إلى أذرعات بأرض الشام، وكفى الله المسلمين شرهم، وأنزل في قصتهم هذه السورة وسميت سورة الحشر(١).

وأما بنو قريظة فسيأتي ذكرهم، وذكر الله قصتهم في سورة الأحزاب؛ لأنهم تآمروا مع الأحزاب الذين غزوا رسول الله ﷺ، ونقضوا العهد، فحاصرهم النبي ﷺ إلى أن نزلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه، فحكم فيهم: بأن تقتل مقاتلهم، وتسبى ذراريهم، ونساءهم، وأموالهم.

فأهلكهم الله على يد رسوله ﷺ، وأصحابه؛ لخيانتهم للعهد، وكفرهم

---

(١) انظر القصة بتمامها: مغازي الواقدي (١/ ٣٦٣- ٣٦٤)، وتفسير الطبري (٢٣/ ٢٥٩)، وزاد المسير (٤/ ٢٥٣)، وتفسير ابن كثير (٨/ ٨٧)، وتفسير القرطبي (١٨/ ٦).

برسول الله ﷺ، وهم يعلمون أنه رسول الله، فهذه نهاية اليهود في المدينة[١].

قوله ﷻ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾، التسبيح هو: التنزيه[٢]، أي: نزه الله ﷻ عن العيوب، والنقائص ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، من المخلوقات، بل السماوات، والأرض سبحت لله ﷻ؛ كما قال ﷻ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] أي: لا تفهمون تسبيحهم، فكل المخلوقات تسبح الله ﷻ، وتنزهه عما لا يليق به، وأعظم ذلك الشرك، تنزه الله عن الشريك، وعن الولد، وعن الشبيه، والنظير.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾، من العزة، أي: القوي الذي لا يغالب[٣]، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأمور في مواضعها اللائقة بها[٤].

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: من اليهود الذين كفروا بالرسول ﷺ ﴿مِن دِيَٰرِهِمْ﴾، من منازلهم، وحصونهم في المدينة، ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾، أي: إلى بلاد الشام؛ لأن بلاد الشام هي أرض الحشر، يجمع

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٠/ ٢٤٤ - ٢٤٦)، وتفسير ابن كثير (٦/ ٣٥٦)، وتفسير القرطبي (١٦/ ٣٢٠)، وصحيح البخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (٦٤).

(٢) انظر: مقاييس اللغة (٣/ ١٢٥)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٣٣١).

(٣) انظر: تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج (١/ ٣٣)، وتفسير أسماء الله الحسنى للسعدي (١/ ٢١٤).

(٤) انظر: تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج (١/ ٥٢)، وتفسير أسماء الله الحسنى للسعدي ١/ ١٨٦).

الناس، ويحشرون فيها عند قيام الساعة.

﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟﴾، ما ظن المسلمون أن اليهود يخرجون من ديارهم؛ لأنهم متمكنون، وأغنياء، وأقوياء، فما كان المسلمون يتصورون أن اليهود يجلون من المدينة، ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وظن اليهود أن حصونهم تمنعهم؛ لأنهم قد أعدوا حصونًا قوية، ومتينة، ولكن الله ﷻ لا يمنع منه شيء، فلا تمنع منه الحصون، والدروع، والقوة، فإذا أراد ﷻ أحدًا، فإنه لا يمنعه شيء من إيصال العذاب، والعقوبة إليه.

﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾، أي: أنزل بهم عذابه، ونقمته، والإتيان من الله يختلف باختلاف المواقع، والسياق، والمراد بالإتيان هنا: أنه أتاهم بعذابه؛ كقوله ﷻ: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ [النحل: ٢٦]، ليس المراد: جاء بأسه ﷻ، أما الإتيان في قوله ﷻ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢﴾ [الفجر: ٢٢]، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، فهذا إتيانه بذاته ﷻ، لفصل القضاء بين عباده يوم القيامة، وليس المراد: يأتي أمره، كما تقوله المؤولة؛ وإنما هو إتيان حقيقي على ما يليق بجلاله ﷻ.

﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾، من وجه ما كانوا يؤمّلون أنه سيأتيهم عذابه ﷻ، ولم يحتسبوا له، ويستعدوا لصده، ومقابلته؛ لأن الله ﷻ لا يغالب، ولا تمنع منه الحصون، والأغلاق، والأبواب، والدروع، والمدرعات، والطائرات النفاثة، والمدافع القوية.

﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾، وهو الرعب الذي جعله الله لرسوله ﷺ؛

حيث قال ﷺ: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ»(١).

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾، وعند ذلك طلبوا من النبي ﷺ الأمان على أنفسهم، وأن يمكنهم من الرحيل، وأن يأخذوا معهم من أموالهم ما شاءوا، فأعطاهم النبي ﷺ ذلك.

كانوا ينقضون المباني، ويأخذون الأخشاب، والأبواب، ويذهبون بها إلى الشام، محمولة على الإبل؛ طمعًا فيها، وحسدًا للمسلمين أن ينتفعوا بها من بعدهم.

﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي: خربوا بيوتهم التي بنوها، وتعبوا فيها بأيديهم هم أنفسهم، وهذا من آيات الله تبارك وتعالى؛ حيث ظنوا أنها مانعتهم من بأس الله، فصاروا هم الذين يهدمونها.

﴿وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾، لما مكنهم الله سبحانه وتعالى منهم.

﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾، هذا أمر من الله لجميع الخلق إلى يوم القيامة أن يعتبروا بهذه القصة العظيمة، أي: اتعظوا، وتذكروا، ﴿يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي: العقول، والمراد بالأبصار هنا: العقول؛ فاعتبروا بهذه القصة، وخذوا منها موعظة، في أن الله لا يغلبه شيء، ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]، فلا يغتر أحد بقوته، ولا يظن أنه يفوت الله سبحانه وتعالى، وكذلك الذين كذبوا هذا الرسول في الماضي، أو يكذبونه في المستقبل أو يحقرون من شأنه في أي وقت، فإن الله توعدهم بهذا

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٣٣٥، ٤٣٨) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، ومسلم (٧، ٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ عَلَى الْعَدُوِّ».

الوعيد، أن ينزل بهم مثل ما أنزل بأسلافهم؛ لأن هذا الرسول ﷺ منصور، ومنصورة سنته، ودينه محفوظ، لا يغير، ولايبدل، فاعتبروا يا كل من تريدون الكيد للإسلام، والمسلمين، أو تتنقصون هذا الرسول، أو تستهزؤون به، اعتبروا بمن قبلكم أن يحل بكم ما حل بهم.

ثم قال ﷻ: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾، لولا: حرف امتناع لوجود، أي: امتنع تعذيب الله لهم في الدنيا؛ لوجود أن الله كتب عليهم الجلاء من المدينة إلى أرض الشام، لولا ذلك لأهلكهم الله في مكانهم عن آخرهم، ولعذبهم الله في الدنيا بإنزال العذاب المهلك لهم في بيوتهم، لكن الله قدر ﷻ عليهم الجلاء، وهو شديد عليهم، لأنه فيه: مفارقة الأوطان، والأموال، فهو عقوبة، ولكن هناك عقوبة أشد منها.

ولذلك قال: ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾، هذا وعيد لهم، بأنهم ينتظرهم عذاب أشد من عذاب الدنيا.

ثم بين ﷻ السبب فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: خالفوا أمر الله، وأمر رسوله، فكانوا في شق، والله، ورسوله في الشق الآخر.

﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، ويشاق رسوله، واكتفى بذكر من يشاق الله؛ لأن من يشاق الله، فهو مشاق للرسول ﷺ؛ كما قال ﷻ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٣]، وهذا وعيد لكل من يشاق الله، ورسوله، أن يأخذه الله بالعذاب العاجل، والآجل.

ثم قال ﷻ: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾، اللينة: النخلة، أو نوع من

النخل[١]، وكان بعض الصحابة قد شرعوا في قطع نخيلهم، وإحراقها؛ نكاية بهم، فتوقف بعض المسلمين من قطع النخيل، فأخبر الله أن ذلك كان بأمر الله فقال: ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، أي: بشرعه ﷻ، فالذين قطعوا النخيل ما اعتدوا في ذلك، ما دام أنه نكاية بالعدو، وقد أذن الله بذلك، فليس ذلك تصرفًا من عندكم، وقد أقرهم الله على قطع النخيل، وعلى تركها.

﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾، أي: ليخزي بقطع النخيل الفاسقين، وهي محببة إليهم، وتعبوا فيها، ويستثمرونها، فإذا قطعت، وهم ينظرون، كان ذلك عذابًا، وخزيًا لهم، والفاسقون هم: الخارجون عن طاعة الله ﷻ، فالفسق فسقان:

النوع الأول: فسق يخرج من الملة، وهو: فسق الكفر؛ كقوله ﷻ عن إبليس: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠].

النوع الثاني: فسق دون الكفر، كالذين يرتكبون الكبائر من الذنوب دون الشرك، فهؤلاء فسقة، لكنه فسق لا يخرج من الدين، والمراد بالآية الفسق الأول، وهو: الفسق الكفري المخرج من الملة؛ لأن الله قال في مطلع السورة: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ ففسقهم فسق كفر.

ثم قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾، الفيء لغة: الشيء الذي يرجع[٢]، والفيء هنا هو: المال الذي يحصل عليه المسلمون من أموال

(١) انظر: مقاييس اللغة (٥/ ٢٢٣)، ولسان العرب (١٣/ ٣٩٥)، وتاج العروس (٣٦/ ١٣١).

(٢) انظر: مقاييس اللغة (٤/ ٤٣٥)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٤٨٢)، ولسان العرب (١/ ١٢٦)، وتاج العروس (١/ ٣٥٥).

الكفار بدون قتال، بأن يحصلوا عليه بمصالحة بينهم، وبين الكفار، أو الكفار يتركونه، ويجلون، فيكون للمسلمين، وسُمي فيئًا؛ لأنه في الأصل للمسلمين؛ لأن الله خلق الدنيا، وما فيها للمسلمين، والكفار تبع لهم، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ [الأعراف: ٣٢]، فالله خلق هذه المنافع للمؤمنين وإنما الكفار تبع للمؤمنين، وفي يوم القيامة تكون خالصة للمؤمنين، والكفار ليس لهم منها شيء، وتكون لهم النار -والعياذ بالله-؛ ولذلك سمي مال الكفار الذي يستولي عليه المسلمون بالقتال بالفيء؛ لأنه رجع إلى أصله؛ حيث رجع للمسلمين.

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، محمد ﷺ، ﴿مِنْهُمْ﴾، أي: من بني النضير، ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ لأنهم لم تحتاجوا إلى الخيل، والإبل في غزوهم؛ لأنهم كانوا قريبين من المدينة، فذهبوا إليهم على أقدامهم، لم تحصلوا على مالهم بسبب الجهاد، وإنما هم تركوه؛ فزعًا، وخوفًا، أو بموجب المصالحة بينهم، وبين الرسول ﷺ.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، يعطي السلطة لرسله على الكفار، فهذا من تسليط رسول الله ﷺ على هؤلاء اليهود فكانت أموالهم خاصة لرسول الله ﷺ، ينفق منها على نفسه، وينفق على مصالح المسلمين، ولم يقسمها بين الصحابة، إنما الذي يقسم بين الصحابة هو ما ذكره الله بعد هذه الآية. وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

الدرس الحادي والأربعون

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾ [الحشر: ٧ - ١٠].

هذه الآيات في بيان مصارف الفيء، والفيء هو: ما أرجعه الله إلى المسلمين من أموال الكفار بغير قتال، وتقدم في الآيات السابقة أن ما أفاء الله على رسوله ﷺ من بني النضير، أنه خاص بالرسول ﷺ، يتصرف فيه، لأن الرسول ﷺ ينتابه أمور كثيرة من النفقات، وليس له دخل ﷺ يقابل ما يقوم به من الإنفاق للوفود، وللضيوف، وللمؤلفة قلوبهم، فأعطاه الله أموال

بني النضير؛ ليستعين بها على مهامه في تبليغ الرسالة، وهو لم يوفر شيئًا ﷺ، وإنما كان ينفق على أهل بيته، وينفق على غيرهم من هذا الفيء الخاص.

ثم قال الله ﷻ: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾، أي: من الفئ العام، لا من بني النضير فقط.

بيّن الله ﷻ مصارف الفيءالعام فجعلها خمسة أسهم:

السهم الأول: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾، ويصرف في مصالح المسلمين.

السهم الثاني: ﴿وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾، أي: قرابة الرسول ﷺ؛ وذلك لأن الله حرم عليهم الصدقات، فأعاضهم الله، فجعل لهم نصيبًا من الفيء بدلًا من الزكاة، وقرابته هم: بنو هاشم، وبنو المطلب أبناء عمهم؛ لأنهم ما فارقوا الرسول ﷺ حتى في أصعب المواقف، فدخلوا معه الشعب، والحصار، وصبروا؛ لذلك أشركهم الله مع بني هاشم دون غيرهم من بني عبد مناف.

السهم الثالث: ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾: جمع يتيم، وهو: من مات أبوه وهو دون البلوغ[1]، أما من بلغ فإنه يزول عنه اليتم؛ لقوله ﷺ: «**لَا يُتْمَ بَعْدَ احْتِلَامٍ**»[2] فهذا اليتيم الذي لم يبلغ الحلم، وليس له مال، يعطى من الفيء.

السهم الرابع: ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾، وهم: الفقراء من المسلمين، فإذا ذكر

---

(١) انظر: مقاييس اللغة (٦/ ١٥٤)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ٢٩٢)، وتاج العروس (٤٠/ ٣٠٠).

(٢) جزء من حديث أخرجه أبو داود (٢٨٧٣)، واللفظ له، والبيهقي في الصغرى (٢/ ٢٩٨)، والطبراني في الكبير (٤/ ١٤) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

المسكين دخل فيه الفقير، وإذا ذكر الفقير دخل فيه المسكين، وإذا ذكرا جميعًا، فيراد بالفقراء من ليس عندهم شيء، والمساكين من عندهم بعض الكفاية، فالمسكين أحسن حالًا من الفقير، لكنه ليس عنده ما يكفيه، أما الفقير فإنه لا يكون عنده شيء[١].

السهم الخامس: ﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾، وهو: المسافر المنقطع الذي نفذت نفقته، أو سرقت، أو ضاعت، ولم يبق معه شيء يبلغه في سفره، فيعطى من الفيء، كما أنه يعطى من الزكاة.

فهذه مصارف الفيء العام بيّنها الله ﷻ، ولما بيّنها قال: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ﴾، أي: أن الله ﷻ وزع الفيء بنفسه، ولم يكله إلى غيره؛ منعًا أن يكون للأغنياء دون الفقراء.

ثم قال ﷻ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾، أي: ما أعطاكم الله على يد الرسول من المال فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا، وكذلك ما آتاكم الرسول من الأحاديث ومن الأوامر فامتثلوه، وما نهاكم عنه فانتهوا، وهذه قاعدة عامة في سنة الرسول ﷺ، أنه يجب فعل ما أمر به ﷺ، وترك ما نهى عنه.

عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ**

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٣٨٥، ٣/ ٤٦٢)، ولسان العرب (٥/ ٦٠)، وتاج العروس (٣٥/ ٢٠٠).

كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ، وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ»(١).

فهذه قاعدة عامة؛ لأن سنة الرسول ﷺ وحي من الله، فهو لا يأمر إلا بأمر الله، ولا ينهى إلا عما نهى الله عنه، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢]، فيما أمر به، وفيما نهى عنه.

فلا يسوغ لأحد يبلغه أمر الرسول ﷺ، ولا يمتثل، ولا يفعل، أو يبلغه نهي الرسول ﷺ فيخالفه، قال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، فيدخل في هذا جميع الأوامر، وجميع النواهي التي وردت بها السنة عن رسول الله ﷺ.

وفيه دليل على الاحتجاج بالسنة، وأنها في المنزلة الثانية بعد القرآن، فأصول الأدلة: الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس، وهناك أدلة مختلف فيها عند الأصوليين.

ولما أمرهم بطاعة الرسول ﷺ فيما أمر، وفيما نهى، حذرهم من المخالفة في ذلك، فقال ﷻ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، اتقوا غضبه، وعقابه لمن خالف أمر الرسول ﷺ ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وهذا عام في العقائد والأحكام والمعاملات والأخلاق وفي هذا رد على

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٠).

من ينادون بحرية الرأي واتباع الآراء المخالفة لهدي الرسول ﷺ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، لمن عصى الله، ورسوله، فإن عقابه سبحانه وتعالى شديد لا يوصف، فهذا فيه التحذير من مخالفة أوامر الله، وأوامر رسوله ﷺ، وارتكاب ما نهى الله عنه، ورسوله في جميع الأمور.

ثم قال ﷻ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾، فالفقراء من المهاجرين، والأنصار أولى من غيرهم أن يعطوا من الفيء، والمهاجر هو: من ترك بلده، وانتقل منه؛ فرارًا بدينه إلى بلد آخر، يأمن فيه على دينه؛ ولذلك قال العلماء: الهجرة هي: الانتقال من بلد الكفر إلى بلد الإسلام؛ من أجل الدين، أما الهجرة من أجل التجارة، أو من أجل الأقارب، أو من أجل أطماع الدنيا، فهذه تسمى هجرة لغوية، وليست هجرة شرعية، وليس له فيها أجر، إنما الهجرة التي فيها الأجر، والمشهورة في القرآن، والسنة هي: الانتقال من بلد الكفر إلى بلد الإسلام؛ فرارًا بالدين.

فقال الرسول ﷺ: «**فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»(١).

والهجرة باقية إلى أن تقوم الساعة، وليست منسوخة، أما قوله ﷺ: «**لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ**»(٢). فالمراد: لا هجرة من مكة؛ لأنها صارت بلد إسلام؛ ولهذا قال: «**بَعْدَ الفَتْحِ**»، أي: بعدما فتحت مكة، وصارت بلدًا للمسلمين.

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (١) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري (٢٧٨٣، ٢٨٢٥، ٣٠٧٧، ٣١٨٩)، واللفظ له، ومسلم (٤٤٥، ٨٥، ٨٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وفقراء المهاجرين هم: الذين أخرجوا من ديارهم، فما خرجوا هم؛ لأنهم يحبون ديارهم، ويحبون مكة بخاصة وإنما أخرجهم الكفار، وضايقوهم، ومنعوهم من إقامة دينهم، فاضطروهم إلى الخروج.

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾، ما هاجروا لطلب الدنيا، أو لأن البلد الآخر أحسن من جهة الرفاهية، ومن جهة المساكن، ما هاجروا من أجل هذا الغرض، وإنما ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أجرًا، وثوابًا من الله سبحانه وتعالى، ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾، إرضاء لله سبحانه وتعالى.

﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ وخرجوا -أيضًا- لهذا الغرض، ينصرون دين الله عز وجل، وينصرون الرسول ﷺ، ويحمونه من كيد الكفار، فهذه نيتهم، وقصدهم من الهجرة، وهذا ثناء من الله عليهم، وشهادة من الله لهم بهذه الصفات العظيمة.

ولذلك قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ الذين اتصفوا بهذه الصفات فهم الصادقون بنياتهم، ومقاصدهم، لم يخرجوا رياء، ولا سمعة، ولا طمعًا في دنيا، ولا رفاهية، بل خرجوا لهذه الأغراض العظيمة، فدل ذلك على صدقهم مع الله سبحانه وتعالى، فشهد الله لهم بالصدق.

ثم قال في الأنصار: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ﴾ أي المدينة دار الهجرة، أي: سكنوها، ﴿وَٱلْإِيمَٰنَ﴾، وسبقوا إلى الإسلام في بيعة العقبة الأولى، والثانية، وكان المسلمون قلة في هذا الوقت.

﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: من قبل المهاجرين، فهم سكنوا المدينة قبل المهاجرين، ومنهم من آمن قبل بعض المهاجرين.

﴿يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ﴾، هذه صفة ثانية، فهم يرحبون، ويفرحون بهم، ولا يتضايقون منهم، كما قال رأس المنافقون، وعدو الله، عبدالله بن أبي: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ﴾، هذه مقالة المنافقين، أما الأنصار ﵃ يحبون من هاجر إليهم، ويفرحون بهم فرحًا شديدًا، ويواسونهم في أموالهم ومساكنهم.

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً﴾، صفة ثالثة، لا يجدون حسدًا للمهاجرين، بل يحبونهم، ولا يحسدونهم على ما فضلهم الله به، فإن الله فضل المهاجرين على الأنصار.

وكذلك، ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾؛ صفة رابعة، لأنهم يبذلون المال، وإن كانوا محتاجين إليه لأنفسهم، ويقدمون حاجة المهاجرين على حاجة أنفسهم، وهذه صفة عظيمة، وهي: صفة الإيثار على النفس، وتدل على قوة الإيمان، وقوة المحبة للمؤمنين، بخلاف الأثرة، فالأثرة[1]: أن يأخذ الإنسان المال لنفسه، ويحرم المحتاجين، أما الإيثار[2] فهو: أن يقدم حاجة أخيه على حاجة نفسه، وهذا يدل على قوة الإيمان.

﴿وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ﴾ أي يؤثرون اخوانهم، ولو كان فيهم فقر، وحاجة فهم يقدمون حاجة إخوانهم على حاجتهم؛ من أجل قوة المحبة، ومن أجل صدق الإيمان بالله ﷻ، فهذه صفات الأنصار ﵃.

ورد في سبب النزول: أن ضيفًا نزل على رسول الله ﷺ، فبعث إلى نسائه

(١) انظر: لسان العرب (٤/ ٨)، وتاج العروس (١٠/ ١٧).
(٢) انظر: لسان العرب (٤/ ٧)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٢٢).

هل عندهم من شيء فقلن: «مَا مَعَنَا إِلَّا المَاءُ»، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يَضُمُّ أَوْ يُضِيفُ هَذَا»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ: أَنَا، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى امْرَأَتِهِ، فَقَالَ: أَكْرِمِي ضَيْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: مَا عِنْدَنَا إِلَّا قُوتُ صِبْيَانِي، فَقَالَ: هَيِّئِي طَعَامَكِ، وَأَصْبِحِي سِرَاجَكِ، وَنَوِّمِي صِبْيَانَكِ إِذَا أَرَادُوا عَشَاءً، فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَا، وَأَصْبَحَتْ سِرَاجَهَا، وَنَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا، ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا فَأَطْفَأَتْهُ، فَجَعَلاَ يُرِيَانِهِ أَنَّهُمَا يَأْكُلاَنِ، فَبَاتَا طَاوِيَيْنِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «ضَحِكَ اللَّهُ اللَّيْلَةَ، أَوْ عَجِبَ، مِنْ فَعَالِكُمَا» فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾»[(١)]، والآية عامة في الأنصار كلهم، وإن كان هذا سبب نزولها.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾، والشح هو: الحرص الشديد الذي يحمل صاحبه على الطمع[(٢)]، فبدل أن يبذل يأخذ ما في أيدي الناس؛ بسبب الشح، وضيق النفس؛ لأن الغنى غنى النفس، وليس الغنى كثرة المال، فإذا ضاقت النفس، وجشعت، فهذا هو الشح، والشحيح لا يغنيه شيء، ولهذا قال ﷺ: «لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ، وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ»[(٣)]، فكم من غني بنفسه، وإن كان ماله قليلًا، وكم من فقير في نفسه وإن كان له المليارات، والملايين، فمن وقي الشح ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٩٨)، واللفظ له، ومسلم (٢٠٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: مقاييس اللغة (٣/ ١٧٨)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٤٤٨)، ولسان العرب (٢/ ٤٩٥)، وتاج العروس (٦/ ٤٩٧).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٤٦)، واللفظ له، ومسلم (١٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والأنصار كذلك وقاهم الله شح أنفسهم، فجادوا على إخوانهم المهاجرين فقاسموهم أموالهم، وبيوتهم، حتى قيل: إن سعد بن الربيع قال لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما: «يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ، إِنِّي مِنْ أَكْثَرِ الْأَنْصَارِ مَالًا، وَأَنَا مُقَاسِمُكَ وَلِي امْرَأَتَانِ، فَأَنَا أُطَلِّقُ لَكَ إِحْدَاهُمَا فَإِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا فَتَزَوَّجْهَا، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ وَلَكِنْ دُلَّنِي عَلَى السُّوقِ، فَدَلَّهُ فَلَمْ يَرْجِعْ يَوْمَئِذٍ حَتَّى أَصَابَ شَيْئًا مِنْ سَمْنٍ وَأَقِطٍ قَدْ رَبِحَهُ فَبَاعَ وَاشْتَرَى حَتَّى أَصْبَحَ مِنْ أَغْنَى النَّاسِ رضي الله عنهما»(١).

ومفهوم الآية أن الذي لا يوق شح نفسه ليس من المفلحين، بل هو من الخاسرين -والعياذ بالله-؛ ولهذا قال ﷺ: «وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ»(٢).

فالشح آفة خطيرة؛ ولهذا من وقيها، وعوفي منها فهو المفلح، وإن كان ماله يسيرًا.

وَقَالَ أَبُو الْهَيَّاجِ الْأَسَدِيُّ: رَأَيْتُ رَجُلًا فِي الطَّوَافِ يَدْعُو: «اللَّهُمَّ قِنِي شُحَّ نَفْسِي. لَا يَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ شَيْئًا، فَقُلْتُ لَهُ؟ فَقَالَ: إِذَا وُقِيتُ شُحَّ نَفْسِي لَمْ أَسْرِقْ وَلَمْ أَزْنِ وَلَمْ أَفْعَلْ. فَإِذَا الرَّجُلُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ»(٣).

---

(١) أخرجه النسائي في السنن (٩٩٤٢)، وعمل اليوم والليلة (١/ ٢٢٤)، وأبو يعلى في مسنده (٦/ ٤٤٧)، والخرائطي في مكارم الأخلاق (١/ ١٩١).

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم (٥٦) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٢٨٦)، وتفسير ابن كثير (٨/ ١٠٢)، وتفسير القرطبي (١٨/ ٣٠).

ثم قال في التابعين: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾، أي وللذين جاءوا من بعد المهاجرين والأنصار، وهم: التابعون، وأتباع التابعين إلى يوم القيامة، ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾، هؤلاء يعطون من الفيء؛ لأنهم أخوة لمن سبقهم من المهاجرين، والأنصار، يستغفرون لهم، ويتعوذون بالله من الغل عليهم، وبعضهم فهم الفئة الثالثة من أهل الفيء، ودل هذا على أن من يبغض صحابة رسول الله ﷺ، أو يسبهم، أو يلعنهم، أو يتكلم فيهم، أنه ليس له من الفيء شيء، وهذا ينطبق على الرافضة الذين يسبون صحابة رسول الله ﷺ، بل يلعنونهم، ويكفرونهم.

فهؤلاء ليس لهم من الفيء شيء، وفي الآية الأخرى لما ذكر المهاجرين، والأنصار قال ﷻ: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]، فالذي يغيظه صحابة رسول الله، ويبغضهم، فهذا دليل على كفره، فالذين يسبون الصحابة، وينشرون الأكاذيب فيهم، هذا دليل على أنهم ليس في قلوبهم إيمان، وبالتالي لا يستحقون ما يستحقه المسلمون -نسأل الله العافية-؛ ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «**وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: سَلَامَةُ قُلُوبِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ لِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ**»(١).

سلامة قلوبهم من قوله: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وسلامة ألسنتهم من قوله: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾، هذا من أصول أهل السنة، والجماعة، ومن أصول الشيعة العكس مسبة أصحاب

---

(١) انظر: العقيدة الواسطية (١/ ١١٥).

الرسول، ولعنهم، وتكفيرهم إلى آخره.

والعجيب أن الذين يبغضون الصحابة، ويتكلمون فيهم، يعتمدون على أكاذيب في التاريخ، وعلى روايات لا أصل لها، ويتركون القرآن والسنة، فالقرآن أثنى على المهاجرين، والأنصار، وفي السنة أثنى الرسول ﷺ على صحابته، ونهى عن سبهم، فيتركون الأدلة الصحيحة في الكتاب، والسنة، ويذهبون إلى أخبار مكذوبة، مدسوسة، وينشرونها، ويتدارسونها، ويظهرونها -والعياذ بالله-.

وهذا يدل على حقدهم على المسلمين؛ لأن الصحابة هم الواسطة بيننا، وبين الرسول ﷺ، وهم الذين حملوا إلينا القرآن، والسنة، وهم الذين جاهدوا في سبيل الله حتى نشروا هذا الدين في المشارق، والمغارب، وهم الذين علموا الأمة أمور دينها، فهم الأساتذة لهذه الأمة، فما يبغضهم إلا عدو للإسلام، والمسلمين؛ لأنهم هم الذين قاموا بهذا الدين بعد رسول الله ﷺ، وحافظوا عليه، ودافعوا عنه.

﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، من عموم المؤمنين قديمًا، وحديثًا والصحابة على وجه الخصوص.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾، ختم الآية باسمين من أسمائه ﷻ، يدلان على الرأفة، والرحمة.

فالله يرأف ويرحم من رأف بالصحابة والمؤمنين لأن الجزاء من جنس العمل. ومن أصول أهل السنة والجماعة أيضا الإمساك عن الخوض فيما شجر بين الصحابة وعدم الخوض لأنهم إما مجتهدون مصيبون مأجورون.

وإما مخطئون مغفور لهم ولهم من الفضائل العظيمة ما يغطي ما عند بعضهم من الأخطاء إن وجدت. نسأل الله أن يرزقنا محبتهم والاقتداء بهم وأن يجمعنا بهم في جنات النعيم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

الدرس الثاني والأربعون

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

[الحشر: ١١ - ١٧].

لما ذكر الله ﷻ ما حصل لبني النضير، وأنهم خانوا العهد مع رسول الله ﷺ، ذكر ما حصل من المنافقين، موالتهم ومناصرتهم، فقال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾، والنفاق هنا هو: إظهار الإسلام، وإبطان الكفر، فأظهروا الإسلام تقيّة، وأبطنوا الكفر بالله حقيقة ﷻ، فهم في الظاهر مع

المسلمين، ولكنهم في الباطن مع الكفار، وهذا شأن المنافقين في كل زمان، ومكان.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، هذا استفهام تعجب من حالهم، وذلك كما حصل من عبد الله بن أبي بن سلول -رئيس المنافقين-، ومن معه مع بني النضير، أنهم غرروا باليهود، وخدعوهم، فهم: ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، سماهم إخوانهم في الكفر مع أنهم يدعون الإسلام، فليست المسألة، أو القضية قضية إظهار الإسلام مع ارتكاب ما يناقضه من نفاق، وردة، وغير ذلك، وليست العبرة بالتسمي بالإسلام، وإنما العبرة بالحقيقة، فالذي يكون مسلمًا ظاهرًا، وباطنًا، هذا هو المسلم الصحيح، وأما الانتساب للإسلام في الظاهر، وفي بطاقة الشخصية يجعل الديانة مسلمًا، وهو يرتكب شيئًا من نواقض الإسلام في الظاهر كترك الصلاة، واعتناق المبادئ الهدامة، أوفي الباطن، وذلك بالنفاق، والملق الكاذب، فهذا لا عبرة في تسمّيه بالإسلام.

ومن ذلك أنهم قالوا لإخوانهم: الذين كفروا من أهل الكتاب من اليهود؛ وهناك من أهل الكتاب من هو مؤمن بالله، ورسله؛ كما قال ﷻ: ﴿۞ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقال ﷻ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ [آل عمران: ١٩٩].

فالله لا يظلم أحدًا، بل إنه سبحانه وتعالى يستثني أهل الإيمان من كل أمة، فالذين كفروا بعيسى عليه السلام، وكفروا بمحمد ﷺ، وقتلوا بعض الأنبياء، وكذبوا

بعضهم، هؤلاء حكم الله عليهم بالكفر، وإن كانوا ينتسبون إلى أهل الكتاب، كالذي ينتسب إلى الإسلام، وهو لا يحقق هذا الانتساب، فالعبرة ليست بالانتساب لا إلى أهل الكتاب، ولا إلى المسلمين، وإنما العبرة بالحقيقة.

فالمراد بكفار اهل الكتاب هنا أي: بنو النضير، يقول لهم المنافقون: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾، أي: إن أجليتم من المدينة، فسنجلوا معكم، ولا نبقى بعدكم، ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾، لا نطيع محمدًا، أو غيره مفارقتكم ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾، إن قاتلكم محمد، والمسلمون، فسننصركم، ونقاتل معكم.

قال الله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، فشهد الله ﷻ، وهو خير الشاهدين، أن هؤلاء المنافقين لكاذبون في هذه المقالات، وإنما هي خداع، ومكر، وهم أقل من أن يحققوا هذه الوعود؛ لأن النفاق الذي فيهم يقعد بهم، ويجبنهم عن الوفاء بهذه العهود.

ثم بيّن ﷻ حقيقة قولهم، وأنهم لا يوفون بما قالوا، وبيّن ﷻ كذبهم فيما قالوا، وفيما وعدوا، فقال: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا﴾، أي: إن أجلوا من المدينة ﴿لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾، وهذا تحقق، فلما أجلي بنو النضير لم يجلوا معهم، بل بقوا في المدينة، فأين وعدهم؟، ﴿وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ ولما قاتل رسول الله ﷺ، والمسلمون، بني النضير لم يأت المنافقون، وينضموا اليهم ويقاتلون معهم.

﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ﴾، لو قُدِّر، وفرض أنهم نصروهم،

وجاءوا معهم لانهزموا إذا رأوا المسلمين؛ لجبنهم، وخوفهم من المسلمين أن يبطشوا بهم، ويولون الدبر، والمقاتل لا يولي العدو الدبر، بل يوليه الوجه، ويقاتل، هذا هو المؤمن الصادق؛ ولذلك الصحابة ﷺ ما كانوا ينهزمون في المعارك، وما كانت الطعون، والجراحات إلا في وجوههم ما منهم أحد جرح من خلفه، إنما يقع الطعن، والضرب في نحورهم، وفي وجوههم؛ لصمودهم في القتال؛ ولهذا يقول زهير بن أبي سلمى في وصفهم:

لَا يَقَعُ الطَّعْنُ إِلَّا فِي نُحُورِهِمُ ... وَمَا لَهُمْ عَنْ حِيَاضِ الْمَوْتِ تَهْلِيلُ(١)

هذه صفة الصحابة ﷺ، أما هؤلاء، فإنهم يولون الأدبار؛ كما قال ﷻ في الكفار: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]، من الجبن، والخوف؛ ولهذا قال الله للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥ - ١٦]، والفرار من الزحف من أكبر الكبائر(٢).

ولكن المنافقين لا يأنفون من ذلك، فهم ينهزمون؛ لأنهم يكرهون الموت، وليس عندهم إيمان بما عند الله للشهداء، والمجاهدين في سبيل

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٥١٣)، والروض الأنف (٧/ ٣٨٠).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (١٤٥) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ وَأَكْلُ الرِّبَا، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصِنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ».

الله، بل هم يحبون الحياة، ويكرهون الموت، ولا يؤمنون بما بعد الموت، ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾، لا ينصر القوم الذين معهم منافقون؛ ولهذا قال ﷻ لما تأخر المنافقون عن الرسول ﷺ في غزوة تبوك، قال الله ﷻ: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٧]، فالله أقعدهم، ومنعهم من الخروج مع رسوله؛ لأنهم يفسدون في الجيش، ويخذلون، ويرجفون، وهذا شأنهم. كما حصل منهم في وقعة أحد والأحزاب.

ثم بيّن ﷻ السبب الذي من أجله ينهزمون، ويولون الأدبار إذا تقابلوا مع جيش المسلمين، قال ﷻ: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾، لأنتم أيها المسلمون أشد رهبة في صدور المنافقين من الله، فهم يرهبونكم، ولا يرهبون الله ﷻ، أما الذي يرهب الله، ويخافه، فإنه يصمد في القتال، ولا ينهزم، فله إما النصر، وإما الشهادة، فهم ينهزمون؛ لأنهم يخشون الناس، ولا يخشون الله ﷻ؛ كما قال ﷻ: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾ [النساء: ١٠٨].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾، هذا هو السبب في كونهم يرهبون من المسلمين، ولا يرهبون من الله ﷻ، أنهم لا يفقهون، ولا يفهمون، والفقه هو: الفهم[1] في الدين وفي كلام الله ورسوله.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة (٤/ ٤٤٢)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٤٥٦)، ولسان العرب (١٣/ ٥٢٢)، وتاج العروس (٣٦/ ٤٥٦).

فهم لا يفهمون كلام الله، وكلام رسوله ﷺ، فهذا فيه مدح الفقه في كلام الله، وكلام رسوله، وأن عدم الفقه فيهما من صفات المنافقين؛ لأنهم لا يهمهم القرآن، والسنة، ولا يهمهم حفظ النصوص، ولا فقهها؛ لذلك جعل الله في قلوبهم الخوف؛ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، فكلما سمعوا شيئًا ظنوا أنهم مقصودون بهذه الصائحة، والهائعة، فيأخذهم الجبن.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا﴾، أيها المسلمون إذا اجتمعتم على قتالهم، فإنهم يرهبونكم، ﴿إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾، في قلاع عليها أسوار، ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾، يختفون من ورائها، وتقيهم من القذائف، والرماية، ولا يبرزون في ساحة القتال؛ لما فيهم من الجبن، والرعب، أما أهل الإيمان، فإنهم يبرزون في ساحة القتال، ويلقون عدوهم؛ ليقاتلوهم، ويضربوا رقابهم، والعدو يضرب في رقابهم، ولا يهمهم ذلك؛ لأنهم في سبيل الله عز وجل، وعندهم طمع فيما عند الله سبحانه وتعالى.

أما المنافقون، فإنهم لا يبرزون في ساحات القتال، وإن قاتلوا فلابد أن يكونوا في قرى، وقلاع حصينة لئلا يصل إليهم أعداؤهم؛ لأنهم ليس عندهم إيمان يتحصنون به، ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾، وهذه صفة قبيحة فيهم -أيضًا- أنهم متنازعون متباغضون فيما بينهم، متعادون، ومختلفون، بخلاف أهل الإيمان، فإنهم يد واحدة متحابون، متناصحون فيما بينهم، وهؤلاء بأسهم بينهم ليس بأسًا خفيفًا يمكن علاجه، وتلافيه، لكنه شديد.

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾، يجتمعون بأبدانهم، لكن لا يجتمعون بقلوبهم، والعبرة باجتماع القلوب على المحبة، والتعاون، والنصيحة،

فتكون قلوب المؤمنين متصافية فيما بينهم، ولو حصل شيء من سوء التفاهم أصلحوه، وأزالوه، أو يتسامحون فيما بينهم، أما المنافقون فإن بينهم تصدعًا لا يمكن أن يستدرك، فالاجتماع إنما هو اجتماع القلوب، لا اجتماع الأبدان، ولا يكون اجتماع القلوب إلا بالعقيدة الصحيحة، والإيمان بالله ﷻ، فهو الذي يجمع القلوب، لا يجمع القلوب طمع الدنيا، أو الدعايات، والمدح، والثناء، والكلام، هذا لا يجمع القلوب إنما يجمعها الإيمان بالله، والعقيدة الصحيحة؛ كما قال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٢ - ٦٣]، فالذي جمعهم: أن الله ألف بين قلوبهم، ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، فالذي يجمع القلوب، هو: الإيمان بالله ﷻ، والعقيدة الصحيحة التي جمعت بين المهاجرين، والأنصار، جمعت بين الأعداء؛ كما قال ﷻ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فالعقيدة تؤلف بين القلوب المتنافرة، والمتعادية.

فاجتمع في ظل هذه العقيدة الفارسي، والرومي، والحبشي، والعربي، وهي عقيدة جمعت بين أبي بكر، وعمر، وسلمان الفارسي، وبلال الحبشي وصهيب الرومي رضي الله عنهم، جمعت بين قلوبهم، فأصبحوا إخوانًا متحابين.

وبهذا يبطل قول بعض الجماعات، والحزبيات الذين مهمتهم التجميع، وكثرة العدد بدون عقيدة صحيحة، فيجمعون بين المبتدع، والسني، الشيعي وبين الفرق المختلفة في عقيدتها، ويقولون: نجتمع على ما اتفقنا عليه،

ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه.

وهذه قاعدة خرقاء مزيفة، ليست صحيحة؛ وإن كانوا يسمونها القاعدة الذهبية لأنه لا يمكن الاجتماع الصحيح إلا بالعقيدة الصحيحة الصافية الصادقة، أما الاجتماع على غير العقيدة فإنه اجتماع خيالي، بل هو هزيمة؛ لأنهم إذا جاء البأس، والشدة تفرقوا، كما أن المنافقين إذا جاءت الشدة ولوا الأدبار، وانهزموا؛ لأنهم ليس عندهم عقيدة، فهذا هو المدار الذي يجمع الناس، ويؤلف بين القلوب، ويجعل المؤمنين جسدًا، وبنيانًا واحدًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴿٤﴾﴾ [الصف: ٤].

وقد وصف الله المنافقين بعدم العقل وبين سبب تفرقهم فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾، فعملهم هذا يخالف العقول السليمة، والفطر المستقيمة؛ ولهذا يقول المتنبي:

الرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ هُوَ أَوَّلٌ وَهْيَ المَحَلُ الثَّانِي[1]

فالعقول السليمة عليها مدار كبير، وهؤلاء ليس لهم عقول، ولا إيمان - نسأل الله العافية -، فلا شيء يجمعهم، وإن اجتمعوا في الظاهر، فهم متفرقون في الباطن؛ لأن كلًا منهم له نزعة، وهوى، ورغبة، أما المؤمنون فرغبتهم واحدة، وهدفهم واحد؛ فلذلك نصرهم الله سبحانه وتعالى.

لهم ضرب الله لهم مثلين: مثلًا بالذين من قبلهم، ومثلًا بالشيطان.

---

(١) انظر: شرح ديوان المتنبي للواحدي (١/ ٢٩٦).

المثل الأول: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، قيل: إنهم بنو قينقاع، وقيل: إنهم أهل بدر؛ ولهذا قال: ﴿قَرِيبٗا﴾، أي: فئة قريبة، ما هي بعيدة(١)، ﴿ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ﴾، أي: عاقبة أمرهم الذي هو الكفر، والخديعة، والمكر ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، ذاقوا وبال أمرهم في الدنيا، ولهم عذاب أليم في الآخرة.

فمثل هؤلاء مثل من قبلهم في الزمان القريب الذي لم ينسوه مع بني قينقاع وبني النضير فبنو النضير أصابهم ما أصاب بني قينقاع؛ حيث أجلوا من المدينة، وصارت أموالهم فيئًا لرسول الله ﷺ، وللمسلمين، فهذا وبال أمرهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب أليم، وقيل: إن المراد أهل بدر من المشركين الذين، جاءوا بخيلائهم، وكبريائهم، وغطرستهم، وكانت العاقبة أن الله نصر المسلمين عليهم، وأخذوا ما معهم من الأموال، والسلاح، وأسروا منهم من أسروا، وقتلوا زعماءهم، فهذه عاقبة أمر المشركين في بدر(٢).

فهؤلاء عاقبتهم ستكون مثل عاقبة المشركين في بدر، أو مثل عاقبة بني قينقاع وبني النضير في المدينة، لو أنهم يعتبرون، ويتعظون.

والمثل الثاني: في الشيطان؛ حيث يأتي الإنسان فيأمره بالكفر، ويأمره بالمعصية، ويزين له الكفر، والمعاصي، والشهوات المحرمة، فإذا أوقعه

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٢٩٣)، وزاد المسير (٤/ ٢٦١)، وتفسير ابن كثير (٨/ ١٠٤) وتفسير القرطبي (١٨ / ٣٦).

(٢) المصدر السابق نفسه.

فيها تبرأ منه، وأخذ يلومه؛ فهو في الأول يقوده، ويرغبه، فإذا وقع أخذ يحزنه، ويحسره على ما فعل قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ﴾، أي: الإنسان، قال الشيطان: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾، تبرأ منه، كذلك شأن المنافقين مع اليهود، غروهم، وخدعوهم، ثم تبرءوا منهم، وتخلوا عنهم لما جاءت الأزمة، فهؤلاء مثلهم مثل الشيطان.

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا﴾، وهو خلود مؤبد، ليس دخول النار للكافر دخولًا مؤقتًا، كالعاصي من المؤمنين يدخل النار مؤقتًا، ثم يخرج منها، أما الكافر، والمشرك، والشياطين، فإنهم خالدون مخلدون في النار.

﴿وَذَٰلِكَ﴾، أي دخول النار، والخلود فيها ﴿جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ليس هذا مقتصرًا على الشيطان، والإنسان الذي حصل منهما ذلك، بل هذا جزاء الظالمين عمومًا وهم الذين كفروا بالله، وأشركوا به، وعصوا أمره، فإنهم ظالمون، إما ظلم الشرك، وإما ظلم النفس، وهذا جزاء الظالمين: أن كل من أطاع الشيطان، وعصى الرحمن، فإن هذا مآله - والعياذ بالله -، والشيطان يدعو إلى النار، والله ﷻ يدعو إلى الجنة، والمغفرة بإذنه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ﴾ [البقرة: ٢٢١]، فالمؤمن يتذكر هذا، ويفرق بين ربه ﷻ الذي يريد له الخير، ويدعوه إلى الجنة، وبين الشيطان الذي هو عدو له يدعوه إلى النار.

هذا وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

الدرس الثالث والأربعون

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ
خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ
﴿٢٠﴾ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ
ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ
ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ
ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا
يُشۡرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ١٨ - ٢٤].

لما ذكر الله ﷻ في أول هذه السورة قصة اليهود، وما جرى منهم من الخيانة، وما عاقبهم الله به من تسليط رسوله ﷺ عليهم، وإجلائهم، وقتلهم، وسلب أموالهم؛ عقوبة لهم على خيانتهم لله، ولرسوله، وذكر ما حصل من المنافقين من الانضمام إلى اليهود، وإعطائهم المواعيد الكاذبة؛ ختم هذه السورة ﷻ بندائه لأهل الإيمان، بأن يتقوا الله، ولا يكونوا مثل

هؤلاء الكفرة من أهل الكتاب، والمنافقين.

فقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، والتقوى: مصدر اتقى، يتقي، تقاة، وتقوى، بمعنى: أنه اتخذ وقاية تقيه من المكروه[١]، فالإنسان في هذه الحياة يتوقى الأشياء التي تضره، وهذا شيء بطبيعة الإنسان، إذن لماذا لا يتوقى ما هو أخطر، وهو عذاب الله ﷻ في الآخرة، بأن يتخذ من طاعة الله، وطاعة رسوله ما يقيه من غضب الله، وعقابه، وذلك بفعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه، فإن هذا هو الذي يقي العبد من العذاب يوم القيامة، لا تقيه الدروع، والحصون، والأموال، والأولاد، والجنود، لا تقيه يوم القيامة، لا يقيه إلا تقوى الله، فليتخذ هذه الوقاية؛ استعدادًا لما يلاقيه في الدار الآخرة، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾، اللام لام الأمر، ﴿نَفْسٌ﴾، أي نفس، تنظر أعمالها التي قدمتها للآخرة، فإن كان خيرًا فليتزود الإنسان منه، وإن كان شرًا فليتب إلى الله ﷻ، ما دام يمكنه التوبة في هذه الدنيا، وليحاسب نفسه على عمله؛ لأنه لا يجد يوم القيامة إلا ما قدم لنفسه من خير، أو شر.

وسمى الله يوم القيامة غدًا، وهو: ما بعد اليوم؛ لقربه، وقرب وقوعه، وذلك لأنه ليس بين الإنسان، وبين أن يلقى عمله إلا أن يموت[٢]، والموت

---

(١) انظر مادة (وقى): مقاييس اللغة (٦/ ١٣١)، وتاج العروس (٤٠/ ٢٢٦).

(٢) كما جاء عن النبي ﷺ أن من فعل خيرًا لم يحل بينه وبين الجنة إلا الموت.
عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ دُبُرَ كُلِّ =

لا يعلم وقته إلا الله ﷻ، فإذا مات الإنسان انقطع عمله[١]، فلينظر ما قدم لغده.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، كرر التقوى؛ لأهميتها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ مطلع عليكم عالم بأعمالكم، لا يخفى عليه شيء، ولا يضيع لديه شيء، كل عمل مسجل، ومحفوظ، وستلاقيه يوم القيامة؛ كما جاء في الحديث القدسي من قول رب العزة ﷻ: «**يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ**»[٢]. فأنت وإن غفلت، ونسيت، فإن الله لا ينسى، بل يحصي أعمال عباده، ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٦﴾ [المجادلة: ٦].

ثم قال ﷻ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ﴾، لما أمر بالتقوى نهى عن ضدها وهو: أن ينسى العبد ربه، ولا يذكره، ولا يخاف منه، ولا يرجوه، فهذا هو النسيان، فليس المراد النسيان الذي لا يؤاخذ صاحبه، بل المراد: النسيان الذي هو الإهمال، وعدم المبالاة، وإلا فهو لم ينس، ويذهل، وإنما هذا

= صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ، إِلَّا الْمَوْتُ». أخرجه الطبراني في الكبير (٨/ ١١٤)، وفي مسند الشاميين (٢/ ٩)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (١/ ١١٠)، والبيهقي في الشعب (٤/ ٥٦).

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أحمد في المسند (١٣/ ٥١٥)، واللفظ له، وابن حبان في صحيحه (٧/ ٢٨٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يَتَمَنَّ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ وَلَا يَدْعُ بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ، إِنَّهُ إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ، وَإِنَّهُ لَا يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ عُمْرُهُ إِلَّا خَيْرًا**».

(٢) أخرجه مسلم (٥٥) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ.

اهمال متعمد منه، وعدم مبالاة في حق الله سبحانه وتعالى.

﴿نَسُوا اللَّهَ﴾، أي: نسوا حق الله عليهم، فعاقبهم الله عز وجل، بأن أنساهم أنفسهم، فلم يقدموا لها خيرًا، ﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فكما أنهم نسوا حق الله عليهم أنساهم الله حق أنفسهم على الله وذلك بالعمل الصالح الذي به سعادتهم، ونجاتهم، وفلاحهم في الدار الآخرة، فعاشوا في هذه الدنيا مضيعين لدينهم، مضيعين لطاعة الله، مرتكبين محارم الله؛ لأنهم نسوا أن يقدموا لأنفسهم ما يقيهم من عذاب الله سبحانه وتعالى، وهذا دليل على أن الإنسان يعمل لنفسه، فإن عمل صالحًا فلنفسه، وإن أساء فعليها.

﴿أُولَٰئِكَ﴾، أي: الذين نسوا الله، فعاقبهم الله، وأنساهم أنفسهم، ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، أي: الخارجون عن طاعة الله، وهذا يفسر قوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾، بأن خرجوا عن طاعته، وفسقوا عن أمره، وفي الآية حصر الفسق فيهم.

ثم قال سبحانه وتعالى مبينًا الفرق بين من أطاع الله، وعمل لنفسه في هذه الدنيا، ومن عصى الله، ونسي حقه، فقال: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾، هؤلاء في نعيم دائم، وهؤلاء في عذاب دائم، ولا يستوي النعيم والعذاب؛ كما قال عز وجل: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥]، ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، هذا استفهام إنكار،

ونفي، فلا يستوي المؤمن، والكافر، والمطيع، والعاصي، في الدنيا، ولا يستويان في الآخرة، فالذي يسوي بين الكافر، والمؤمن، ليس في قلبه إيمان، وليس عنده عقل، وتمييز يميز به بين المتضادات، كالدعاية التي نسمعها -الآن- من أنه لا فرق بين بني الإنسان، وأن الناس سواء، كلهم بنوا آدم، نعم كلهم بنو آدم، لكن بينهم فرق عند الله، وعند أهل الإيمان، والعقول.

فلابد أن يفرق بين المؤمن، والكافر في الولاء، والبراء، والمحبة، والبغضاء، والكراهية، ومن لا يميز بين المؤمن، والكافر، فليس له دين، وهذا من الإلحاد، الطمس لهذا الدين، وخلط بين الكفر، والإيمان -والعياذ بالله-.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾، أي: الناجون من عذاب الله يوم القيامة، فالفوز هو: النجاة، ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، والفوز مأخوذ من المفازة، وهي: المهلكة التي قلّ من ينجو منها؛ لأنها مهلكة، ليس فيها أنيس، وليس فيها طعام، ولا شراب، فيهلك الإنسان في المفاوز(١)، فمن نجا من المفازة يقال له: فاز، ومن هلك فيها، فإنه خاب، وخسر، وهلك.

وإذا كان أصحاب الجنة هم الفائزون، فأما أصحاب النار فهم الخاسرون الذين خسروا أنفسهم، وأهليهم يوم القيامة، ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]، هؤلاء الذين

---

(١) انظر: لسان العرب (٢/ ٥٤٧)، وتاج العروس (١٥/ ٢٧٣).

انحصرت فيهم الخسارة التي لا تعوض.

ثم ضرب الله مثلًا لهذا القرآن الذي أنزل فيه المواعظ، والترغيب، والترهيب، وفيه الأوامر، والنواهي، والحكم، والأمثال، فقال ﷻ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾، فالجبل الأصم الصلب لو خوطب بهذا القرآن ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾، أما قلب ابن آدم فإنه لا يتأثر بالقرآن، إلا من كان عنده إيمان، وخوف، وخشية من الله ﷻ، أما الفاجر، والكافر، فإنه لا يلتفت إلى هذا القرآن، فقلبه أشد من الجبل؛ لأن الجبل وهو حجارة صماء، يتصدع من خشية الله، ويخشع، أما قلب هذا الإنسان الفاجر فهو أقسى من الجبل -نسأل الله العافية-.

والجبال لها إدراك، والمخلوقات لها إدراك، تعرف به ربها، وتخاف من الله سبحانه وتعالى، إلا هذا الإنسان الفاجر، فإن قلبه صار أقسى من الحجر، ثم قال الله ﷻ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾، فهذا مثل ضربه الله في قسوة قلب الفاجر الذي لا يتأثر بالقرآن الذي هو كلام الله ﷻ، وقد قال الله ﷻ: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧]، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦].

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي ضربناها رجاء أن يتفكروا في هذا القرآن، وفي آيات الله سبحانه وتعالى، فيقبلوا على هذا القرآن تلاوة، وتدبرًا، وعملًا؛ لأنه هو سبيل النجاة، وهو الصراط المستقيم، وهو حبل

الله المتين، وهو المخرج من الفتن، وهو البيان، والحل لمشاكل الناس، صالح لكل زمان، ومكان، ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢].

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فالمسلم إذا سمع القرآن فإنه يتذكر، ويتفكر في آيات الله، ويرجع إلى ربه ﷻ، ويحذر من صفات الفاسقين، والكفار، والمنافقين، ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦].

فالإنسان لا ييأس، بل يرجع إلى كتاب الله، ويحيي قلبه بذكر الله، ويراجع هذا القرآن، ويكثر من ذكر الله ﷻ، فيحيا قلبه، ويلين.

ثم ختم السورة بأسمائه ﷻ التي تدل على عظمته، وجلاله ﷻ، فقال ﷻ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿ٱللَّهُ﴾، هذا الاسم لا يسمى به غيره؛ ولهذا ما سمى أحد نفسه الله أبدًا، حتى الكفرة، والمشركون، وفرعون، ما قال: أنا الله، إنما قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، فلا يتسمى أحد بهذا الاسم.

فالله علم على ذاته ﷻ، لا يتسمى به غيره، قيل: إنه جامد، وقيل: إنه مشتق من الألوهية، والله هو: المألوه المعبود، والألوهية هي: العبادة، وأصلها من الوله، وهو: المحبة؛ لأن المؤمن يحب الله ﷻ، ويعبده[(١)].

﴿ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود بحق سواه، فلا إله، أي: لا معبود

---

(١) انظر: تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي (١/ ١٦٤)، وتفسير الطبري (١/ ١٢٣).

بحق إلا هو ﷻ، وهذه الكلمة هي: كلمة الإخلاص التي فيها النفي، والإثبات، نفي الألوهية عما سوى الله، وإثباتها لله وحده، فكل معبود سواه، فعبادته باطلة.

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ﴾، فعلمه محيط بما يشاهد، وما غاب من الأمور الماضية، والمستقبلة، وأمور الآخرة، والعوالم الخفية التي لا نراها، فهي في عالم الغيب، والذي نراه هو أقل القليل مما لا نراه، ولكن الله يعلمه ﷻ، يعلم ما ظهر، وما غاب، وخفي، ولا يخفى عليه شيء، ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِۖ﴾ أي: ما يشاهد، ويُرى.

ودلت الآية على أن هناك أشياء غائبة عنا لا نراها، وهي موجودة، فليس كل موجود نراه، وأيضًا نحن لا نعلم الماضي، وما حصل، ولا نعلم المستقبل، وما يحصل، وإنما هذا إلى الله ﷻ، فهو محيط علمه ﷻ بكل شيء، أما علمنا فهو محصور في القليل، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٨٥].

﴿هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾، اسمان من أسمائه ﷻ يتضمنان صفة من صفاته، وهي: الرحمة، فالرحمن، والرحيم اسمه، والرحمة صفته ﷻ.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، كرر هذا توكيدًا، ﴿ٱلۡمَلِكُ﴾، مالك الملك، فالملك لله ﷻ، ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [الحديد: ٢].

وهو ملك الدنيا، والآخرة، ففي الدنيا قد يعطي الله ﷻ شيئًا من الملك لبعض عباده، أما الآخرة فليس فيها ملك إلا الله ﷻ، ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ [غافر: ١٦]، أي: يوم القيامة ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾، [غافر: ١٦]، انتهت الملوك،

وآل الملك إلى الله ﷻ، وأما ما يعطاه الإنسان في هذه الدنيا فهو عارية، ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٦].

و﴿ٱلْمَلِكُ﴾، من أسماء الله ﷻ، الملك، وقد يسمى الإنسان ملكًا، لكنه ملك مقيد، وملكه إنما هو مستعار، ليس له، سيؤخذ منه، أو هو سيؤخذ من ملكه، وينتهي[١].

﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾، صيغة مبالغة من القدس، وهو: الطهر، والقدوس، أي: الطاهر في أسمائه، وصفاته ﷻ، من التقديس، وهو: التطهير[٢].

﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾، أي: السالم من النقائص، والعيوب، والآفات، السالم في نفسه، والمُسَلِم لغيره[٣].

﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾، **الإيمان في اللغة**[٤]: التصديق، فمعنى المؤمن هنا، أي: المصدق، الذي يصدق رسله، ويشهد لهم بالصدق، والرسالة[٥].

---

(١) انظر: تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج (١/ ٣٠، ١/ ٦٢)، وتفسير أسماء الله الحسنى للسعدي (١/ ٢٣٣، ٢٣٤)

(٢) انظر: تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج (١/ ٣٠)، وتفسير أسماء الله الحسنى لسعدي (١/ ٢٠٨).

(٣) انظر: المصدر السابق.

(٤) انظر: مقاييس اللغة (١/ ١٣٥)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٦٩)، وتاج العروس (٣٤/ ١٨٦).

(٥) انظر: تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج (١/ ٣١)، وتفسير أسماء الله الحسنى للسعدي (١/ ٢٣٩).

أما الإيمان في الشرع فهو: قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، وليس هو الصدق، أو التصديق فقط، بل حقيقة شرعية، وليست حقيقة لغوية.

﴿ٱلۡمُهَيۡمِنُ﴾، من الهيمنة، وهي: الاطلاع، فهو المطلع على كل شيء، على أعمال عباده خيرها، وشرها، لا يخفى عليه شيء والمتصرف فيها(١).

﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾، القوي الذي لا يغالب، من العزة، وهي: القوة، والغلبة(٢).

﴿ٱلۡجَبَّارُ﴾، الذي يجبر عباده المنكسرين، ويقهر الجبابرة، والطغاة، والمتكبرين، فهو الجبار ﷻ الذي له الجبروت، والقوة، والغلبة(٣).

﴿ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ﴾، الذي له الكبرياء، والعظمة، والكبرياء في حق الله مدح(٤)؛ لأنها كبرياء بحق، أما الكبرياء في حق المخلوق فهي ذم؛ لأنه ضعيف، ولا يجوز له أن يتكبر، فتكبر المخلوق لما كان بغير حق صار مذموما، أما الكبرياء لله فهي علامة كمال؛ لأنها كبرياء بحق.

ثم ختم الآية بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾، التسبيح معناه: التنزيه(٥)،

---

(١) انظر: تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج (١/ ٣٢)، وتفسير أسماء الله الحسنى للسعدي (١/ ٢٣٩).

(٢) انظر: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، أول السورة.

(٣) انظر: تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج (١/ ٣٤)، وتفسير أسماء الله الحسنى للسعدي (١/ ١٧٦ - ١٧٧).

(٤) انظر: تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج (١/ ٣٥)، وتفسير أسماء الله الحسنى للسعدي (١/ ٢٣٥).

(٥) انظر: قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾، في أول السورة.

أي: تنزه ﷻ عما لا يليق به من النقائص، والعيوب، ومنها: الشرك، فإن الشرك تنقص لله ﷻ؛ حيث يسوى المخلوق الضعيف العاجز بالخالق في العبادة، ويعدل بالله ﷻ، فهذا تنقص لله، نزه نفسه عنه.

﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾، من الأصنام، والأنداد، والأوثان، وسائر المعبودات فالعبادة حق لله ﷻ، لا يجوز أن تعطى لغيره، ولا أن يدعى معه أحد، أو يذبح، وينذر لغيره، ولا يجوز أن يرجى، أو يخاف إلا الله ﷻ، فنزه نفسه عن الشرك؛ لأنه نقص عظيم، وظلم، والظلم هو: وضع الشيء في غير موضعه، فالعبادة من المشرك وضعت في غير موضعها، وهذا أعظم الظلم ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣].

﴿ٱلۡخَٰلِقُ﴾، الذي يقدر الأشياء، والخلق هو: التقدير[(١)].

﴿ٱلۡبَارِئُ﴾، الذي يوجدها، وينشئها بعدما يخلقها، ويقدرها، فالبرأ، وهو: الخلق يأتي بعد التقدير الذي هو الخلق[(٢)].

﴿ٱلۡمُصَوِّرُۖ﴾، الذي وضع الأشكال على ما هي عليه، الإنسان، والحيوان والأشجار، والأحجار، كل شيء جعل الله له شكلًا خاصًا به، ولا أحد يستطيع أن يغير هذه الأشكال، فهو المصور ﷻ، الذي صور الأشياء على هيئاتها، وأشكالها، ومقاديرها، لا تبديل لخلق الله[(٣)]. وأما فعل

---

(١) انظر: مقاييس اللغة (٢/ ٢١٣)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٧٠)، ولسان العرب (١٠/ ٥٨)، وتاج العروس (٢٥/ ٢٥١).

(٢) انظر: تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج (١/ ٣٧)، وتفسير أسماء الله الحسنى للسعدي (١/ ١٧٠).

(٣) انظر: المصدر السابق.

المصورين من الخلق فهو محاكاة لما صوره الله وفي الحديث: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللهِ»(١).

ثم أجمل فقال: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، ذكر هذه الأسماء، لا لأنها هي الوحيدة لله ﷻ، بل له أسماء حسنى لا يحصيها إلا هو سبحانه وتعالى، فليست أسماؤه محصورة في هذه الأسماء، وإنما له أسماء كثيرة لا يعلمها إلا هو(٢)، وكلها أسماء حسنى؛ لأن كل اسم منها يدل على صفة كمال، وليست أسماء مجردة، فلذلك صارت حسنى.

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾، أي: ينزهه عن الشرك، والنقائص، والعيوب، فالمشرك والمعطل للأسماء والصفات لم يسبح الله ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فكل المخلوقات تنزه الله ﷻ عن الشرك، والنقائص، والعيوب؛ لأن الله فطرها على ذلك، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، فالحصى، والجبال، والطير، وكل شيء يسبح بحمد الله ﷻ، وله لغة يعلمها الله سبحانه وتعالى، أما نحن فلا نفقه هذه الأمور، ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، من الجن، والإنس، والحيوانات،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٥٤)، ومسلم (٢١٠٧).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه أحمد في المسند (٧/ ٣٤١)، وابن حبان في صحيحه (٣/ ٢٥٣)، والطبراني في الكبير (١٠/ ١٦٩)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٩٠) من دعاء النبي ﷺ «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي». الحديث.

والأشجار، والأحجار، والجبال، والرمال، والبحار، والجن، والإنس، وكل المخلوقات تسبح الله ﷻ إلا هذا المشرك الخبيث، فإنه لا يسبح الله، وإنما يجعل له شريكًا -تعالى الله عن ذلك-. وكذلك المعطل لأسماء الله وصفاته لم يسبح الله.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾، الذي لا يرام، القوي الذي لا يغالب، ولا يُمانع سبحانه وتعالى ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها، فلا يضع العذاب إلا فيمن يستحقه، ولا يضع النعيم إلا لمن يستحقه، ولا يضع الدين إلا فيمن يستحقه، ولا يضع الكفر، والشرك إلا فيمن يستحقه.

ومن معنى الحكيم: المحكم الذي يتقن الأشياء، من أحكم الشيء، أي: أتقنه[(١)]، فهو يتقن ما خلقه سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [السجدة: ٧]، ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، فهذا من حكمته سبحانه وتعالى.

وبذلك انتهى تفسير هذه السورة العظيمة، وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

(١) انظر: لسان العرب (١٢/ ١٤٠)، وتاج العروس (٣١/ ٥٢١).

الدرس الرابع والأربعون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟
بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى
سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ
مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ
وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ
بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ
قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ
وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ
ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟
وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟
ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾ [الممتحنة: ١ - ٦].

هذه السورة العظيمة تسمى «سورة الممتحنة»، والامتحان معناه: الاختبار(١)، ....

---

(١) انظر: مقاييس اللغة (١/ ٢٩٣)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٤١٠).

أي: المختبرة، التي تبين أولياء الله حقيقة من أعداء الله[١] ويجوز الفتح، فيقال: «سورة الممتحَنة» على أن المراد: المرأة اذا جاءت مهاجرة[٢]، ولها زوج من الكفار.

قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ﴾ [الممتحنة: ١٠]، فيكون معنى الممتحَنة، أي: المرأة، فإنها إذا جاءت مهاجرة تاركة زوجها، فإنها تتمتحن في صحة إيمانها، وصدق قصدها.

وهذه السورة من أولها إلى آخرها في الولاء، والبراء، الولاء لأولياء الله، والبراء من أعداء الله، وهناك آيات، وأحاديث كثيرة في الولاء، والبراء[٣]، والولاء، والبراء أصلان ثابتان من أصول العقيدة، موالاة أولياء الله، ومعاداة أعداء الله، وأوثق عرى الإيمان: الحب في الله، والبغض في الله[٤]، فإنما تنال ولاية الله بذلك[٥].

---

(١) من باب إضافة الفعل إلى السورة؛ كما يقال في سورة «براءة» الفاضحة بسبب كشفها عيوب المنافقين. انظر: تفسير القرطبي (١٨/ ٤٩).

(٢) من باب إضافتها إلى المرأة التي نزلت فيها وهي: أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط. انظر: السابق نفسه.

(٣) انظر في معنى الولاء والبراء: الدلائل في حكم موالاة أهل الشرك (ص ١١ - ١٢)، والجموع البهية للعقيدة السلفية (١/ ٣٢٢ - ٣٢٥)، ورسالة الولاء والبراء في الإسلام لمحمد بن سعيد القحطاني.

(٤) كما في الحديث الذي أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٧٠)، وأحمد في المسند (٣٦/ ٥٦٣) بلفظ: «**أحب الأعمال إلى الله**»، والبيهقي في الشعب (١/ ١٠٤).

(٥) كما في الحديث الذي أخرجه البيهقي في الشعب (١٢/ ٧٣)، وفي الآداب (١/ ٧٢) =

فالولاء، والبراء باب عظيم من أبواب العقيدة، وهذه السورة، وأمثالها تدمغ هؤلاء الذين يحاولون طمس هذا الأصل، ويسمونه كره الآخر، أو الكراهية، ويصفون من يعتقده، ويعمل به، بأنه متشدد، وإرهابي...، إلى غير ذلك.

فالذي يعتقد هذا الأصل العظيم ليس متشردا ولا إرهابيا وإنما هوموحد سني متمسك بما جاء في الكتاب والسنة. واذا قالوا فيه متشدد قلنا وأنتم متساهلون ومضيعون لأصل من أصول عقيدة الاسلام وعن طريقكم يدخل العلمانيون واللبراليون اليوم وقد قال الله تعالى: **(من عاد لي وليا فقد آذنته بالحرب)** ومن والى أهل الايمان وأبغض الكفار فهو ولي الله.

قال الله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾، سبب نزول

= من حديث عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«يَا عَبْدَ اللَّهِ، أَيُّ عُرَى الْإِسْلَامِ أَوْثَقُ؟» قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: «الْوِلَايَةُ فِي اللَّهِ، الْحُبُّ فِي اللَّهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ»**.

و كما أخرج أبو داود (٤٦٨١) من حديث أَبِي أُمَامَةَ ﷺ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **«مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ»**.

ومعلوم أن من كمل إيمانه وصل إلى درجة الولاية -والله أعلى وأعلم-.

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: **«مَنْ أَحَبَّ في اللهِ، وَأَبْغَضَ في اللهِ، وَوَالى في اللهِ، وَعَادَى في اللهِ، فَإِنَّمَا تُنالُ وَلايةُ اللهِ بِذَلِكَ، وَلَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الإيمَانِ وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُه وَصَوْمُهُ حَتَّى يكونَ كَذَلِكَ. وَقَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مؤاخاةِ النَّاسِ عَلَى أمرِ الدُّنْيا، وَذَلِكَ لا يُجْدِي عَلَى أَهْلِهِ شيئًا»**. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ. أخرج نحوه ابن أبي شيبه في مصنفه (٧/ ١٣٤)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٥/ ٩٣٥، ٩٣٦) موقوفًا على ابن عباس ﷺ. وأخرجه أبو نعيم في الحلية عن ابن عمر ﷺ قال: قال لي النبي ﷺ: **«أَحَبَّ في اللهِ، وَأَبْغَضَ في اللهِ...»** الحديث.

هذه السورة العظيمة قصة حاطب بن أبي بلتعة ﵁، فقد حصل منه خطأ في الاجتهاد، وذلك أنه لما خرج النبي ﷺ بأصحابه، المهاجرين، والأنصار ومنهم حاطب غازين أهل مكة الذين أخرجوهم من ديارهم، وأموالهم، وأولادهم، وهم مسيطرون على حرم الله، يتحكمون فيه، ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

خرج رسول الله ﷺ في شهر رمضان في السنة الثامنة من الهجرة، يريد فتح مكة المشرفة، وكان ﷺ إذا أراد غزوة ورّى بغيرها[(١)]، وكان في هذه الغزوة في غاية السرية؛ لئلا يصل الخبر إلى قريش، فكان ﷺ متكتمًا غاية التكتم؛ لأجل أن يفجأ قريشًا قبل أن تستعد للقتال، وبينما هم في الطريق كتب حاطب بن أبي بلتعة ﵁ كتابًا إلى أهل مكة بمسير الرسول ﷺ إليهم، وأعطاه لامرأة تذهب به، فنزل الوحي على رسول الله ﷺ بخبر الكتاب، فأرسل النبي ﷺ في طلب المرأة عليًا، وخالد بن الوليد ومعهما ثالث من الصحابة[(٢)]، وقال: «**انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ**[(٣)]، **فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً**[(٤)]،

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٣٧)، واللفظ له، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٢٣٥)، وابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٤٢٢) من حديث عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ أَبِيهِ ﵄: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَرَادَ غَزْوَةً وَرَّى غَيْرَهَا، وَكَانَ يَقُولُ: «الْحَرْبُ خَدْعَةٌ**».

(٢) في بعض الروايات أن الثلاثة: علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود ﵃. انظر: صحيح البخاري (٣٠٠٧، ٤٢٧٤، ٤٨٩٠)، وفي روايات أخرى أن الثالث أبو مرثد الغنوي ﵁.
انظر: صحيح مسلم (١٦١)، وصحيح البخاري (٣٩٨٣، ٦٢٥٩).

(٣) مَوضِع بِقرب حَمْرَاء الْأسد. انظر: فتح الباري (١/ ١١٥).

(٤) قيل: اسْم الظعينة سارة على الْمَشْهُور وَكَانَت مولاة عَمْرو بن هَاشم بن الْمطلب =

وَمَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ مِنْهَا»، يقول علي رضي الله عنه: «فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى بِنَا خَيْلُنَا[١] حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى الرَّوْضَةِ، فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ»، فَقُلْنَا: «أَخْرِجِي الكِتَابَ»، فَقَالَتْ: مَا مَعِي مِنْ كِتَابٍ، فَقُلْنَا: لَتُخْرِجِنَّ الكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ، فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا[٢]، فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا فِيهِ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى أُنَاسٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ[٣] يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا حَاطِبُ مَا هَذَا؟»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لاَ تَعْجَلْ عَلَيَّ إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ، وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ، أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي، وَمَا فَعَلْتُ كُفْرًا وَلاَ ارْتِدَادًا، وَلاَ رِضًا بِالكُفْرِ بَعْدَ الإِسْلاَمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ صَدَقَكُمْ». قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، قَالَ: «إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»[٤].

= وَقيل: اسْمهَا كنُود، وتكنى أم سارة سَمَّاهَا كنودًا البلاذري وَغيره وَقَالُوا: أَنَّهَا مزينة. انظر: فتح الباري (١/ ٢٩١)

(١) أي: تباعد وتجري. انظر: فتح الباري بتعليق مصطفى البغا (٦/ ١٤٤).

(٢) أي: شعرها المضفور، وهو جمع عقيصة. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/ ٥٦).

(٣) ذكر أن الْمَكْتُوب إِلَيْهِم هم صَفْوَان بن أُميَّة وَسُهيْل بن عَمْرو وَعِكْرِمَة بن أبي جهل. انظر: فتح الباري (١/ ٢٩١)

(٤) أخرجه البخاري (٣٠٠٧، ٣٩٨٣، ٤٢٧٤، ٤٨٩٠، ٦٢٥٩، ٦٩٣٩)، واللفظ له، ومسلم (١٦١).

وحاطب رضي الله عنه من أهل بدر[(١)]، وأهل بدر لهم مزية على غيرهم، والحسنات تمحو السيئات؛ كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]. وقد وصفه النبي ﷺ بأنه صدق لما اعتذر إليه مما حصل منه وهذا دليل على فضله وقوة إيمانه رضي الله عنه ولكن كثير من الجهال المتعالمين اليوم يتناولونه بالذم وقد عذره النبي ﷺ وذكر أنه بدري وأنه صدق وعفا عنه.

فهذا حاصل القصة، والرسول ﷺ عذر حاطبًا رضي الله عنه لما صدقه، ولم يكذب، وكان قد فعل هذا عن اجتهاد، لا عن شك، أو ريب، أو ردة عن الإسلام، بل كان مؤمنًا صادق الإيمان؛ ولذلك نادى - الله عز وجل- الجيش كلهم بما فيهم حاطب رضي الله عنه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، فناداهم باسم الإيمان، ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى﴾، هذا دليل على أن اتخاذ عدو الله وليًا ينافي الإيمان، على أن من والى الكفار، فإنه الموالاة تتنافى إما مع كمال الإيمان[(٢)]، وإما مع الإيمان أصلًا[(٣)]، فإذا صدر هذا من مؤمن فهذا ينافي كمال الإيمان، وإذا صدر من منافق فإنه ينافي الإيمان كله. وحاطب رضي الله عنه ذكر أنه لم يفعل ما فعل عن موالاة لهم وانما فعله عن اجتهاد أخطأ فيه وعذره رسول الله ﷺ لسابقته في الاسلام وجهاده في سبيل الله.

---

(١) حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه صحابي جليل شهد بدرًا وقصته أخرجها البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤)، وانظر تفسير القرطبي (١٨/ ٥٢)، وأحكام القرآن للجصاص (٥/ ٣٢٥)، والدرر السنية في الأجوبة النجدية (١/ ٤٧٣).

(٢) أي: يكون مؤمنًا ناقص الإيمان، والإيمان يزيد وينقص.

(٣) أي: يصير بموالاته كافرًا ولا إيمان له.

﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى﴾، وعدو الله هو: عدو الله، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨]، ﴿وَعَدُوَّكُمْ﴾، وعدو المؤمنين هو: الكافر-أيضًا-، فالكافر عدو لله، وعدو للمؤمنين، فلا يليق بنا أن نحبه، وأن نواليه، ونتولاه، وهو عدو لله، عدو للمؤمنين، والولاية هي المحبة، والنصرة[1]، فإذا اجتمعت المحبة للكفار، والنصرة لهم، ارتد الإنسان عن دينه، أما إذا أحبهم، ولم يناصرهم، فهذا خطر على دينه لأن محبتهم وسيلة لنصرتهم.

وقوله ﷻ: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾، تفسير لقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾، أي: تظهرون لهم المودة، ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾، لما نهى عن موالاتهم، بين الأسباب التي تقتضي ذلك، فقال ﷻ: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾، والحق هو الذي بعث الله به رسوله ﷺ فكفروا به، وجحدوه، وهم يعلمون أنه حق[2]، لكن حملهم الكبر، والحسد، والحمية لدين الجاهلية على الكفر به.

هذه جريمة واحدة، والثانية ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾، يخرجون الرسول، وإياكم من مكة، فهم الذين أخرجوا الرسول ﷺ، وأخرجوا أصحابه، والسبب هو ﴿أَن تُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج: ٨].

---

(١) الوِلاية بالكسر السلطان، والوِلاية بالفتح والكسر النصرة، والْوَلِيُّ ضد العدو، يقال منه تَوَلَّاهُ، وكل من وُلِيَ أمر واحد فهو وَلِيُّه، والمَوْلَى المُعْتِق والمُعْتَق. انظر: مختار الصحاح (ص٣٠٦)، ولسان العرب (١٥/ ٤٠٦)، والمصباح المنير (٢/ ٦٧٢).

(٢) مصداق ذلك قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ١٤٤] وقوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

ثم قال ﷻ: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى﴾، أي: إن كان قصدهم من الخروج مع رسول الله ﷺ الجهاد في سبيل الله، فهذا يمنعكم من مودة الكفار، وجواب الشرط محذوف، أي: فلا توالوهم.

ثم قال الله ﷻ معاتبًا للمؤمنين: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾، بأن تواصلوهم بالمودة سرًا. والله ﷻ لا يخفى عليه شيء، ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾، فما خفي على الناس فإن الله ﷻ يعلمه، وكل هذا عتاب لما حصل من حاطب رضي الله عنه مما اجتهد فيه.

ثم قال ﷻ: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ﴾، أي: يواد الكفار، ولم يقل: ومن فعله منكم، بعدما أنزل الله القرآن فيه، وتبين لكم أن هذا حرام، لا تجوز معاودته فمن عاوده، ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، أي: عن الطريق وهو طريق الإيمان ولم يقل: ومن فعله، حتى لا يقال: إن حاطبًا رضي الله عنه قد ضل سواء السبيل؛ لأنه فعل شيئًا من ذلك اجتهادًا منه.

ثم واصل سبحانه وتعالى بيان الأسباب التي تقتضي من المسلمين ألا يتخذوا الكفار أولياء، وهو أولًا: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾، أن يستولوا عليكم، وتكونوا في قبضتهم، وتحت سلطتهم، فلن يرفقوا بكم، ولن يخفوا ما عندهم من العداوة، ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾، فهل توادونهم وهم كذلك؟

ثانيًا: ﴿وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾، بالضرب، والقتل، والتعذيب، ﴿وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾، وهو السب، والشتم[1]، وهذه طبيعة الكفار دائمًا، وأبدًا،

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٣١٦)، وزاد المسير (٤/ ٢٦٨)، وتفسير ابن كثير (٨/ ١١٥) وتفسير القرطبي (١٨/ ٥٥).

والواقع خير شاهد على ذلك، فلما استولوا على المسلمين في بعض بلادهم في هذا الزمن، ماذا صنعوا من الأفاعيل المنكرة؟ ماذا صنعوا من الوحشية؟ ماذا صنعوا من التدمير؟ ماذا صنعوا من الفتك، وسفك الدماء؟ ماذا صنعوا من تهجير المسلمين من بلادهم، وبيوتهم، وإجلائهم؟ هذا شيء واضح، وهذا مصداق قوله ﷻ: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢﴾.

وحتى لو أظهروا لنا التملق، والتسامح والدبلوماسية، فلا يتخلون عن طبيعتهم، إنما هذا لحاجتهم إلينا، ولأجل أن يخدعونا، فلا نغتر بما يظهرون، قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝١١٩ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ [آل عمران: ١١٩ - ١٢٠]، إذا أفاض الله عليكم بالمال، والغنى، والغيث، يستاءون من ذلك، ولا يريدون أن يرزق المسلمون، يريدون أن يمنعوا عنهم الرزق.

فالمراد بالحسنة: ما يعطيه الله للمسلمين من الخير، من السعة، ومن الغيث، ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾، وهي: الجدب، والقحط، والفقر، والفاقة، يفرحون بها[1]، ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، فهذا شأن الكفار مع المسلمين في الحرب، والسلم، فلا نغتر بهم أبدًا، فهم يبيتون لنا العداوة، ويبيتون لنا التربص،

(١) انظر: تفسير الطبري (٧/ ١٥٥)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٩٤)، وتفسير القرطبي (٤/ ١٨٣).

والانتظار؛ ليبطشوا بنا، فلا نحسن بهم الظن، بل نكون على حذر منهم، ولا نواليهم، أو نحبهم، أما أن نتعاهد، ونتواثق معهم إذا اقتضت مصلحة المسلمين ذلك، فلا بأس به؛ لأنه ليس من الموالاة، وإنما هو من التعامل وتبادل المصالح.

ثم أعظم مما ذكر من أفعالهم السيئة، ﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾، يريدون أن يسلبوا دينكم، ودنياكم، وراحتكم، وخيراتكم، ولذلك يرسلون الإرساليات، والدعاة، ويبثون الشبهات، والاعتراضات على الإسلام، ويجندون من المنافقين من أبناء المسلمين من يخدمهم؛ لأنهم يريدون أن يرتد المسلمون عند دينهم، فما يكفيهم أخذ ما بأيدي المسلمين، بل يريدون أن يردوهم عن دينهم، ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء: ٨٩]، ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ﴾ [البقرة: ٢١٧]، فهذه سجايا الكفار مع المسلمين.

وكيف نثق بهم، وهم أعداء لله، وأعداء الله أعداء لنا بلا شك، فكيف نثق بهم، وننخدع بتملقاتهم، ودبلوماسياتهم الكاذبة، لكن لا مانع أن نتعاهد معهم، ونتبادل معهم التجارة، والمصالح، لكن لا نحبهم، ولانواليهم، بل نكون على حذر منهم، ويقظة، ولايكون ذلك على حساب ديننا.

ثم قال ﷻ: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾، أي: الذين تداهنون الكفار من أجلهم، فلن ينفعوكم، ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾، وذلك ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ [عبس: ٣٤-٣٦]، ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ

فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠١]، فيوم القيامة هو ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩].

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، فيوم القيامة، ليس إلا الأعمال، وليس فيه قرابة، ولا خلة، ولا شفاعة، ولا مال، إنما هو العمل، فإن كان صالحًا نفعك عند الله، وإن لم يكن لك مال، ولا أولاد، وإن كان عملك غير صالح فلو كان لك أموال الدنيا، والأولاد الكثيرون، فإن هذا لا ينفعك عند الله ﷻ، فعلق قلبك بالله، وتوكل عليه، ولا تساوم على دينك، ولا تداهن في دينك، بل احتفظ بدينك، وتوثق به، ولا تتنازل عنه لأي سبب كان، ومهما كلفك الأمر.

ثم بعد هذه الزواجر العظيمة، والتحذيرات، ذكر لنا القدوة الذي نقتدي به في الولاء، والبراء، وهو: إبراهيم الخليل عليه السلام، أبو الأنبياء، وخليل الرحمن، الذي اتخذه الله خليلًا(١)، فهو قدوتنا، لا نقتدي بغيره إلا بنبينا ﷺ، بل نقتدي به عليه السلام؛ حيث أمر رسولنا ﷺ باتباعه ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، الأسوة معناها: القدوة(٢) وذلك في باب الولاء، والبراء، وفي الدين كله؛ لأن القدوة على قسمين: قدوة حسنة(٣)، . . . .

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٣) من حديث جُنْدَبٍ رضي الله عنه، قَالَ: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ، وَهُوَ يَقُولُ: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ اللهِ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا . . . » الحديث.

(٢) انظر: مقاييس اللغة (١/ ١٠٥)، وتاج العروس (٣٧/ ٧٥).

(٣) وهو من يطابق قوله فعله، وحاله مقاله، كما أمر الله ﷻ نبيه ﷺ بعدما ذكر جملة من الأنبياء ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾.

وقدوة سيئة[(١)]، وإبراهيم عليه السلام قدوة حسنة، ﴿فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾، أي: الذين اتبعوه، وآمنوا به عليه السلام، ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فصارحوهم بذلك، قولًا، وإعلانًا، ولم يظهروا مودتهم مداهنة وتملقًا، أو إعجابًا بما عندهم من زهرة الدنيا.

فأين الذين يقولون: لا تعلنوا هذا، ولا تنفروا الناس، لا تفعلوا كذا؛ حتى لا تشوهوا الإسلام، ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ﴾، والبراءة معناها: المزايلة، والانقطاع[(٢)]، أي: قطع صلة المحبة، والنصرة للكفار.

﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، هذا فيه دليل على أن البراءة تكون من الكفار، ومن دينهم، ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ﴾، فبدأ بالبراءة منهم، ثم تبرؤا من دينهم فقالوا: ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

ثم قالوا لهم: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾، أي: تبرأنا منكم، واعتقدنا كفركم، وبطلان ما أنتم عليه، وهذه ملة إبراهيم عليه السلام، وهذا إظهار الدين، ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ﴾، أي: ظهر وبان، فلا تكون العداوة، والبغضاء سرية، بل تكون العداوة ظاهرة، نصارحهم بها ونعلنها.

﴿أَبَدًا﴾، أي: عدواة مؤبدة، ما دامتم على الكفر فإن العداوة باقية،

(١) وهو على الضد تمامًا مما سبق والقدوة السيئة دمار على البلاد، والعباد؛ كما قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾ [هود: ٩٦ - ٩٩].

(٢) انظر: مقاييس اللغة (١/ ٢٣٦)، وتاج العروس (١/ ١٤٨).

إلا إذا تغير وضعكم وذلك ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾، فإذا آمنوا بالله وحده، صاروا إخواننا في الدين؛ كما قال ﷻ: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

وتأمل قوله: ﴿تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾؛ لأن هناك من يؤمن بالله، ويؤمن بغيره معه، وهو: المشرك، فإنه يؤمن بالله، ويحبه، ويعبد الله، لكنه يشرك معه غيره، فيعبد غير الله مع الله، ويتقرب إلى غير الله كما يتقرب إلى الله، فهذا لا ينفعه تقربه إلى الله(١).

ثم استثنى ﷻ مسألة وهي: أن قد يقول قائل: أليس إبراهيم عليه السلام قال لأبيه: لأستغفرن لك، فهذا معناه: أنه يجوز أن نستغفر للمشركين، فاستثنى الله ﷻ: ذلك وبين سببه وبين رجوع إبراهيم عليه السلام عنه فقال: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٤].

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾، تبرأ إبراهيم عليه السلام من أنه يملك له من الله من شيء، لكنه يستغفر له، فإن قبل الله استغفاره وإبراهيم عليه السلام قال لأبيه: ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾، بل وقالها النبي ﷺ

---

(١) لأن الشرك هو الذنب الأوحد الذي لا يغفره الله إلا إذا تاب صاحبه منه؛ كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ومن تمام غنى الله أنه إذا أشرك عبد في عمله غير الله، تركه الله، وما عمل؛ كما أخرج مسلم (٤٦) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**».

لقبيلته، ولعمه، وعمته، وبنته.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: «لَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، **دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قُرَيْشًا، فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ وَخَصَّ، فَقَالَ: «يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بنِ كَعْبٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا فَاطِمَةُ، أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا»**[(١)].

فلا يتعلق الإنسان بالأولياء، والصالحين، أو يتعلق بأبيه، أو جده، أنه عالم، أو أنه صالح، وأنه مؤمن، وأنه ولي من أولياء الله، فلا يتعلق بشيء من ذلك، ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾، ثم دعا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾، اعتمدنا عليك، وفوضنا أمورنا إليك، ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾، أي: رجعنا، وتبنا إليك، ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾، أي: المرجع يوم القيامة إليك، لا إلى غيرك.

فكل الناس يصيرون إلى الله، مؤمنهم، وكافرهم، عربيهم، وأعجميهم، أولهم، وآخرهم، كلهم يصيرون إلى الله، لا مفر لهم من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فليفعلوا ما شاءوا، فإن مصيرهم إلى الله، والله سيحاسبهم، وما دام الأمر كذلك، فاستعد للوقوف بين يدي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأصلح أعمالك، وتب إلى الله من

---

(١) أخرجه مسلم (٣٤٨، ٣٥٠).

السوء، ومن الكفر، والشرك، والذنوب؛ لأن مصيرك إلى الله ما فيه مفر، فالعادة أن المجرم يهرب، وقد يجد من يجيره، ومن يمنعه، أو يختفي، ولا يدرى أين ذهب، لكن الله ما عنه مهرب ﷻ، ولا ملجأ، ولابد من المصير إليه ﷻ.

ثم قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، خافوا أن يفتنوا عن دينهم، والإنسان لا يبرئ نفسه، أو يعجب بنفسه، أو يأمن من الانتكاسة، ويأمن من الردة، لا، لا يأمن من ذلك، ولا من الزيغ، فليكن على حذر، فقولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، قيل معناه: لا تسلط علينا الكفار فيفتنونا، ويصرفونا عن ديننا، وقيل معناه: لا تنصر الكفار علينا، فيزيد كفرهم، ويقولوا: لو كانوا على حق لما انتصرنا عليهم، فيكون هذا فيه فتنة للكفار؛ حيث إنهم يعجبون بكفرهم[1]؛ كما قال موسى عليه السلام لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [يونس: ٨٤ - ٨٦].

وتأمل قوله ﷻ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، بعد قوله: ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ﴾ ولم يقل: واغفر لنا إنك أنت الغفور الرحيم؛ لأن الدعاء فيه ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، فالله ﷻ جعل قلوب العباد بين إصبعين من أصابعه يقلبها كيف يشاء[2]، فاسم الله العزيز يناسب هذا الدعاء؛ لأنه القادر على

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٣١٩ - ٣٢٠)، وتفسير ابن كثير (٨/ ١١٦)، وتفسير القرطبي (١٨/ ٥٧).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (١٧) من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، =

تصريف القلوب. وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

= كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ».
وكان من دعائه ﷺ: «اللهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ». أخرجه مسلم (١٧).

الدرس الخامس والأربعون

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
(٧) لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ
وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ
وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٩)
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ
عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا
جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ
وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠)﴾ [الممتحنة: ٧ - ١٠].

لما ذكر الله سبحانه وتعالى في مطلع السورة النهي عن موالاة الكفار، وأمر بعداوتهم؛ لأنهم أعداء لله، فقال: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾، وذكر ملة إبراهيم عليه السلام، والذين آمنوا معه، وهي: البراءة من المشركين؛ ذكر لنا ذلك لنقتدي بهم، ذكر بعد ذلك أن المؤمنين لا ييئسون، ولا يقنطون من هداية هؤلاء، وانضمامهم إلى المسلمين فقال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾.

﴿مَوَدَّةً﴾ إذا آمنوا، وأسلموا تعود المودة التي نهى الله عنها؛ لأن الحكم يدور مع علته، فإذا وجد الكفر، وجدت البغضاء بين المؤمنين، وبين الكفار، وإذا زال الكفر، جاءت المودة وزالت العدواة.

وهذا وعد من الله ﷻ، وتوقع بالنسبة للمسلمين، فالمسلمين يتوقعون أن تزول هذه الغمة، وإلا فإن الله يعلم ﷻ ما يكون، إنما التوقع من المؤمنين ألا يقنطوا.

وهذا فيه دليل على أنه لا يحكم بخاتمة أحد، لا بالإيمان، ولا بالكفر؛ لأن القلوب بيد الله، والأعمال بالخواتيم[1]، وربما يكون كافرًا عدوًا لله، ولرسوله، وعدوًا للمؤمنين، ويهديه الله ﷻ فيصبح وليًا لله، ورسوله، وللمؤمنين؛ كما قال النبي ﷺ: «**إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ**».

فالأمر بيد الله ﷻ، ولا يحكم على العواقب والخواتيم إلا الله ﷻ، وقد وقع ما أخبر الله ﷻ به في هذه الآية، فقد اهتدى كثير من كفار مكة، ودخلوا في الإسلام، وحسن إسلامهم، وكانوا من قبل من صناديد الكفر، ومن ألد الأعداء لله، ولرسوله ﷺ، وللمؤمنين، فالله ﷻ هداهم، فبعد صلح الحديبية، أسلم كثير من الكفار، وهاجروا إلى المدينة، مثل عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، وجماعة من أكابر كفار مكة. فهذا وعد الله ﷻ، وقد تحقق.

(١) كما أخرج البخاري (٦٦٠٧) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ وَإِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ**».

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾، على أن يهدي الضال، ويضل المهتدي؛ لأن القلوب بيد الله ﷻ، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، يغفر لمن تاب، ومن أسلم، وإن كان حصل منه وقت الكفر جرائم.

فهذا دليل على أن الإسلام يجب ما قبله[١]، وأن التوبة تجب ما قبلها[٢]، ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، هذه عامة، في كل ما سلف.

و﴿غَفُورٌ﴾ كثير المغفرة، والغفر في اللغة: الستر، بمعنى: أنه يستر هذه العيوب بالإيمان، والإسلام، فتختفي كأن لم تكن، وهذا من لطفه ﷻ، ﴿رَّحِيمٌ﴾، بعباده، ومن رحمته: أنه يهدي من يشاء، ومن يعلم أنه يستحق الهداية، ويصلح لها، فإن الله يرحمه، ويهديه، ثم بين أن معاداة المؤمنين للكفار لاتمنع التعامل معهم في المصالح، ومكافأة من أحسن منهم إلى المسلمين.

فقال ﷻ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾، ما حرم الله من موالاة الكفار في الآيات السابقة، سبب حرجًا لكثير من المسلمين؛ لأن لهم أقارب من الكفار في مكة، وفي غيرها؛ فتحرجوا ماذا يعملون مع أقاربهم؟، هل يقاطعونهم نهائيًا؟، وفي هذا حرج، ومشقة؛ لأن منهم من هم أقارب، وأولاد، وآباء، وإخوان، وأرحام

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (١٩٢) في قصة إسلام عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه اشترط أن يغفر الله فقال النبي ﷺ له: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ، كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ».

فأصابهم الهم، والتضايق، ماذا عملون مع أقاربهم من الكفار الذين في مكة، وغيرها[١]؟

ففرج الله عنهم فقال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾، أن تقابلوا فعلهم، وجميلهم بالجميل؛ لأن دين الإسلام دين الوفاء، فمن لم يصدر منه في حق المسلمين إساءة، ولم يحاول صد المسلمين عن الإسلام.

﴿لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ ولم يحملوا السلاح عليكم، وإنما هم مسالمون، ويدخل في هذا المعاهدون الذين بينهم، وبين المسلمين عهد على وضع الحرب، ويدخل فيها الأقارب من الكفار الذين لم يحصل منهم ما يوجب عداوتهم، ومقاطعتهم، فقد جاءت أم أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما إليها في المدينة بعد صلح الحديبية، وهي كافرة، وبنتها رضي الله عنها مسلمة، تطلب منها الصلة، والمساعدة؛ لأنها محتاجة، وفقيرة، فسألت أسماء رضي الله عنها رسول الله ﷺ، فقالت: **«يَا رَسُولَ اللهِ، قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي، وَهِيَ رَاغِبَةٌ[٢]، أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ: «نَعَمْ، صِلِي أُمَّكِ»**[٣].

فهذه الصلة من باب الإحسان، والبر، فحتى الوالد إذا كان كافرًا، فإنه

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٣٢٢)، وتفسير ابن كثير (٨/ ١١٨)، وتفسير القرطبي (١٨/ ٥٨).

(٢) قيل: راغبة في العطاء، وقيل: راغبة في الإسلام وقيل: راغبة عنه، أي: باقية على الكفر. انظر: فتح الباري (٥/ ٢٣٤).

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٢٠، ٥٩٧٩)، ومسلم (٥٠)، واللفظ له.

يجب على ولده أن يبر به؛ كما قال ﷻ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ﴾ [لقمان: ١٥]، وهذا من أسباب محبة الناس للإسلام، وقبولهم له، أنه دين رحمة، ودين بر، وإحسان.

﴿أَن تَبَرُّوهُمۡ﴾، أي: تحسنوا إليهم بالقول، وبالفعل من الصلة الدنيوية بالعطاء بالإحسان إليهما، والبر ضد الإثم.

﴿وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ﴾، أي: تعدلوا، أي: اعدلوا في حقهم، ولا تظلموهم؛ كما قال ﷻ: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٨]، ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٢]، ﴿وَتُقۡسِطُوٓاْ﴾، فالمقسط هو: العادل، والقاسط هو: الجائر قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا﴾ [الجن: ١٥].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾، يحب العادلين؛ لأنه عدل يحب العادلين.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﵄، يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ ﷻ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا»(١).

﴿يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾، هذا فيه وصف الله ﷻ بأنه يحب، كما أنه يبغض، ويكره؛ كما جاءت بذلك الأدلة، وهذا من صفات أفعاله ﷻ، أنه يحب

(١) أخرجه مسلم (١٨).

الأعمال الصالحة، ويحب المؤمنين[١]، ويبغض الأعمال السيئة، ويبغض الكافرين.

﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾، أي: من أجل أن يخرجوكم من الدين، ﴿وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾، كما حصل من أهل مكة، حينما أخرجوا المسلمين من ديارهم، ومن بيوتهم، ومساكنهم، وأموالهم، وأولادهم، حتى هاجروا إلى المدينة فارين بدينهم من الكفار، فهؤلاء لا تجوز مواصلتهم، ولا البر بهم، والإحسان إليهم، ﴿وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾ [الممتحنة: ٩]، أي: أعانوا من يخرجكم، واتفقوا مع من يخرجونكم، ويضايقونكم، وصاروا لهم ظهرًا، ولو لم يباشروا الإخراج، بل ظاهروا، من فعله وأعانوا الذين يخرجون المسلمين، ولو بالكلام، أو بالفعل، فقد حرم الله عليكم أن تولوهم بالمحبة بالقلوب، والنصرة بالقول والفعل.

﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾، بأي نوع من الولاية ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ﴾، بالنصرة، والمحبة، والمدح، والثناء، والتزكية لهم ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، حصر الظلم فيهم، فهم أشد الناس ظلمًا.

والظلم: وضع الشيء في غير موضعه، فهم ظالمون؛ لأنهم وضعوا الولاية في غير موضعها؛ لأن الولاية إنما تكون للمؤمنين، ولا تكون الولاية للكافرين أبدًا، ثم لنعلم أن الإحسان الدنيوي إليهم وأن المعاملة معهم بالتجارة، والإيجار، وإبرام العهود معهم، والمواثيق، وتبادل المنافع،

---

(١) انظر في إثبات صفة المحبة: الاقتصاد في الاعتقاد للمقدسي (١/ ١١٩)، وشرح الواسطية للهراس (١/ ١٠٢)، وللعثيمين (١/ ٢٢٤ - ٢٣٠).

فليس ذلك من الموالاة، بل هذا من تبادل المصالح.

ومقابلة الإحسان بالإحسان لمن لم يسئ إلينا، فلنتنبه لذلك؛ لأن فيه من لبس بين الأمرين، وظن أن المعاهدات معهم، وعقد الذمة، والبيع، والشراء منهم، واستيراد بضائعهم، وتمكينهم من الاتجار في بلادنا، واتجارنا في بلادهم، ظنوا أن هذا من المولاة؛ لأنهم لا يفقهون، ولا يفهمون، ولذلك اعتدوا على المعاهدين، والمستأمنين في بلادنا؛ لأنهم لا يفقهون، ولا يميزون بين ما يحل، وما يحرم، ولا يميزون بين الموالاة المحرمة، والمعاملة المباحة؛ ولذلك وقعوا فيما وقعوا فيه، لذا يجب التنبه إلى هذا الأمر، فالأمور لها ضوابط، ولها فقه، فلايعرف هذه الأمور، ما يجوز، وما لا يجوز مع الكفار، إلا العلماء، وليس كل من كان فيه حماس، ومحبة للخير، ودين، يصدر الأحكام عن جهل.

وهذا يكون نقضًا ويظن أنه من الجهاد، وهذا من مقاطعة الكفار؛ فهو خلط بين الأمور بجهله، وربما يكون غير جاهل، ولكن يريد التلبيس على الناس؛ لأن هناك من ليسوا جهالًا، عندهم علم، لكنهم يريدون التلبيس على الناس؛ لأنهم أهل ضلال.

ثم قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾، ومناسبة هذه الآية لما قبلها، أنه لما تم الصلح بين النبي ﷺ، وبين المشركين في الحديبية، وكان من جملة بنوده: «أَنَّهُ لا يَأْتِيكَ مِنَّا أَحَدٌ وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا، وَخَلَّيْتَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ»(١)، وفي رواية: «فَاشْتَرَطُوا عَلَى

---

(١) القصة بتمامها أخرجها البخاري (٢٧١١، ٢٧٣١، ٤١٨٠).

النَّبِيِّ ﷺ أَنْ مَنْ جَاءَ مِنْكُمْ لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكُمْ، وَمَنْ جَاءَكُمْ مِنَّا رَدَدْتُمُوهُ عَلَيْنَا»(١).

أي: أن من جاء يريد اللجوء إلى المسلمين من عند الكفار، يرده المسلمون إلى الكفار؛ وفاء بالعهد، وأن من ذهب من المسلمين إلى الكفار لا يردونه.

والنبي ﷺ وافق على هذا، فشق ذلك على بعض الصحابة، وجاء ناس من المسلمين بعد عقد الصلح؛ فارين بدينهم، يريدون أن يلجأوا عند المسلمين، فردهم النبي ﷺ؛ وفاء بالعهد، فشق ذلك على المسلمين، أو على بعض المسلمين، كيف أن من جاءنا من إخواننا نرده إليهم، ومن جاءهم من إخواننا لا يردونه عليهم، وظنوا أن هذا فيه غضاضة على المسلمين.

ولما اشترطوا هذا الشرط على النبي ﷺ قال له الأصحاب رضي الله عنهم: **«يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَكْتُبُ هَذَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِنَّهُ مَنْ ذَهَبَ مِنَّا إِلَيْهِمْ فَأَبْعَدَهُ اللهُ**(٢)، **وَمَنْ جَاءَنَا مِنْهُمْ سَيَجْعَلُ اللهُ لَهُ فَرَجًا وَمَخْرَجًا»**(٣).

فلما انبرم هذا الصلح بين رسول الله ﷺ، والمشركين، جاء نساء من المسلمات فارات من الكفار، وكان بموجب العقد أن يردهن رسول الله ﷺ؛ لأنه عام، فأنزل الله هذه الآية مبينة أن النساء لسن مثل الرجال، ولا يشملهن الرد، فهذه الآية مخصصة.

﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ﴾، ما جئن لطلب دنيا، أو للرفاهية،

---

(١) أخرجه مسلم (٩٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أي: أبعده الله في النار؛ لأنه لا خير فيه.

(٣) أخرجه مسلم (٩٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

أو طمعًا في أزواج يتزوجنهن، وإنما جئن مهاجرات فارات بدينهن، فلايقبلن مباشرة؛ لأنه ربما تأتي من لا تريد الهجرة، وإنما تريد غرضًا آخر، فقال ﷻ: ﴿فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ﴾، أي: اختبروهن حتى تعرفوا صدق إيمانهن، فحلفوهن بالله، وناقشوهن في سبب مجيئهن مناقشة دقيقة؛ حتى يتبين لكم السبب، هل هو الهجرة، أو غير الهجرة، فإذا كان الهجرة فلا تردوهن إلى الكفار.

﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ﴾، بعد الاختبار ﴿فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ﴾، مثلما يرجع الرجال، ﴿لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ﴾، فلا يجوز التزاوج بين المسلمين والكفار، لا يجوز للكافر مطلقًا، سواء كان كتابيًا، أو غير كتابي أن يتزوج مسلمة؛ لقوله ﷻ: ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ﴾ [البقرة: ٢٢١]، ولا يجوز للمسلم أن يتزوج كافرة ما عدا الكتابية؛ لقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ﴾ [البقرة: ٢٢١]، وهذه خصصتها آية المائدة ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [المائدة: ٥]، أي: فهن حلال لكم، ثم علل عدم رد المهاجرات إلى الكفار فقال: ﴿لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ﴾، فينفسخ عقدها من زوجها الكافر بمجرد إسلامها، ثم تبقى في العدة، فإن أسلم، وهي في العدة رجعت إليه، وإن أسلم بعد العدة لم ترجع له إلا بعقد، وإن استمر كافرًا، ولم يسلم، فإنها لا ترد إليه بحال.

وهنا تعرض مسألة مهمة ألا وهي: نفقته عليها، فالكافر أنفق عليها، وأعطاها صداقًا وهي فصلت منه، فالإسلام دين عدل، ليس دين ظلم.

فقال ﷻ: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟﴾، على زوجاتهم من هؤلاء النسوة وأنفقوا من الصداق.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾؛ لأنها انفصلت من زواج الكافر، فإذا أتمت العدة، فيجوز للمسلم أن يتزوجها، ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، أي: الصداق؛ لأن الصداق حق للمرأة.

قال تعالى: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، أي: إذا أصدقتموهن بمهور أمثالهن، ثم قال ﷻ: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾، فإذا أسلم الرجل، وزوجته كافرة، فإنه لا يمسكها؛ لأنه لا يجمع بين زوج مسلم، وكافرة، أو بين زوجة مسلمة، وزوج كافر، فمن أسلم، وتحته زوجة كافرة، فإنها حينئذ تنفصل منه، فإن أسلمت، وهي ما زالت في العدة، ترجع إليه، وإن خرجت من العدة، ولم تسلم، فإنها تبين منه سواء كانت كافرة أصلية، أو ارتدت عن دين الإسلام.

فالمرأة التي تترك الصلاة متعمدة، أو تنكر الصلاة، أو ترتكب ناقضًا من نواقض الإسلام، فهذه ترتد، ولا تبقى عند المسلم، ولايجوز للمسلم أن يمسكها، وكذلك الزوج إن كان مسلمًا، فارتد، فإن زوجته تحرم عليه، وتبين منه.

ولما خلص الله المسلمة من الكافر، وخلص المسلم من الكافرة بالفراق قال: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟﴾، فمن كفرت امرأته، وذهبت إلى الكفار، فإنه يعطى من بيت المال ما أنفق على امرأته التي كفرت، وخرجت من عصمته.

﴿وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ﴾، والكفار - أيضًا - يطلبون منكم ما أنفقوا على زوجاتهم اللاتي أسلمن، وهاجرن وخرجن من زواجهم بهن، فهم يسألون المسلمين، ويطلبون من المسلمين، كما قال ﷻ: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ﴾، وهذا من العدل الإلهي.

ثم قال الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِۖ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۚ﴾، أي: هذا الذي فرضته لكم من بينونة المسلمة من الزوج الكافر، سواء كان كافرًا أصليًا، أو مرتدًا، هو حكم الله ﷻ الذي لا اعتراض عليه، ولا يقال معه لماذا؟، فلا اعتراض عليه ﷻ في حكمه بين المسلمين والكفار، وبين المسلمين بعضهم مع بعض، فإن حكمه صادر عن علم، لا عن جهل، وعن حكمة، وهي: وضع الأمور في مواضعها اللائقة بها، وأما حكم البشر فإنه عرضة للخطأ، فقد يكون عن جهل، وقد يكون غير موافق للحكمة، أما حكم الله ﷻ فلا اعتراض عليه؛ لأنه صادر عن حكيم خبير، عليم حكيم سبحانه وتعالى، ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، فالذين يعترضون على أحكام الله بآرائهم، هؤلاء ملاحدة، لا يؤمنون بالله، لأنهم يتهمون الله ﷻ بالجور، وعدم العدل، فالواجب التسليم لحكم الله ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٥].

هذا وبالله التوفيق. وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

الدرس السادس والأربعون

﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾ [الممتحنة: ١١ - ١٣].

تقدم بيان الحكم في الكافرة تسلم وتهاجر إلى المسلمين وهي تحت كافر، وفي هذه لآية بيان العكس فيما إذا ارتدت المسلمة، وذهبت إلى الكافر وهي تحت زوج مسلم.

فقوله تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾، أي إذا ذهبت زوجة مسلم إلى الكفار مرتدة، فإنها يفسخ نكاحها منه، ويعطه المسلمون ماأنفق عليها في زواجه منها، فحينها يعطى المسلم مهره، وهي تنفسخ منه بكفرها، وفرارها إلى الكفار.

وعطى أزواجهن ﴿مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ﴾، في زواجهم منهن من غير زيادة، ولا نقصان.

ثم قال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، أمر بتقواه ﷻ في هذه الأمور؛ لأنها أمور مهمة جدًا، وهي: أمور النساء اللاتي يأتين من الكفار إلى المسلمين، وأمور المسلمات اللاتى يأتين الكفار من نساء المسلمين.

فيجب على المسلمين أن يتقوا الله، وأن يعدلوا، ولا يعتدوا في هذه الأحكام، بل ينفذونها كما أمرهم الله ﷻ، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾، فالإيمان بالله يقتضي تقواه ﷻ، وهذا دليل على أن الإيمان ليس مجرد الاعتقاد بالقلب، كما يقول: المرجئة، وإنما الإيمان يكون بالاعتقاد، ويكون بالنطق باللسان، ويكون بالعمل، فهذه أحكام شرعية فعلها إيمان بالله ﷻ.

ثم قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، خطاب للنبي ﷺ بعد خطاب المؤمنين في أمر النساء، وهكذا يخاطب الله نبينا، باسم النبي، أو الرسالة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١]، ولم يقل: يا محمد، فهذا من إجلال هذا الرسول ﷺ، بينما يخاطب الله الأنبياء السابقين بأسمائهم: يا نوح، يا موسى يا عيسى، أما هذا النبي ﷺ فإن الله لم يخاطبه باسمه، وإنما يخاطبه باسم النبوة، أو باسم الرسالة؛ تكريمًا له ﷺ؛ ولذلك يقول ﷻ للمؤمنين ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾ [النور: ٦٣]، فلا يقال: يا محمد، وإنما يقال: يا رسول الله، يا نبي الله، هكذا كان الصحابة ﷺ يخاطبونه.

وأما قوله ﷻ: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ﴾ [محمد: ٢]، وقوله ﷻ: ﴿مُّحَمَّدٞ

﴿رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ [الفتح: ٢٩]، فهذا من باب الإخبار، لا من باب النداء، ففي باب الإخبار يأتي اسمه ﷺ، وأما في باب النداء، فلا ينادى باسمه، وإنما ينادى بصفته عليه ﷺ، فهذا من الأدب مع رسول الله ﷺ.

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾، كان المسلمون إذا دخلوا في الإسلام بايعوا النبي ﷺ على السمع، والطاعة، وعلى الجهاد في سبيل الله، وعلى أمور ذكرت في باب البيعة للرسول ﷺ(١).

والنساء إذا أسلمن تبايع مثل ما يبايع الرجال، لكن بيعتهن بالكلام، فالصحابة ﵃ كانوا يبايعونه بالمصافحة، أما النساء فإنما كان النبي ﷺ يبايعهن بالكلام لا بالمصافحة، وما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة لا تحل له، بل كان يبايع النساء بالكلام، فلا تجوز للرجال مصافحة النساء إلا إذا كانت المرأة تحل له، أو من محارمه، أما أن تكون أجنبية منه فلا يحل للرجل أن يصافح المرأة(٢)؛ لأن ذلك سبب للفتنة.

وهذا من آداب المرأة في الإسلام: أنها تبايع بالكلام، ويبايعها الرسول ﷺ بالكلام من غير مصافحة، وكذلك السلام، إذا أرادت أن تسلم على

---

(١) ومن ذلك ما أخرجه البخاري (٧١٩٩)، ومسلم (٤١)، واللفظ له من حديث عبادة بن الصامت ﵁ قال: «**بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَعَلَى أَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَعَلَى أَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بِالْحَقِّ أَيْنَمَا كُنَّا، لَا نَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ**».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ٢١٢) عن مَعْقِلِ بْنَ يَسَارٍ ﵁ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَأَنْ يُطْعَنَ فِي رَأْسِ أَحَدِكُمْ بِمِخْيَطٍ مِنْ حَدِيدٍ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمَسَّ امْرَأَةً لَا تَحِلُّ لَهُ**».

الرسول، أو تسلم على قريبها، أو تسلم على أي أحد من المسلمين، فلابأس، لكن بالكلام فقط، ولا مصافحة بين الرجال، والنساء الأجانب لا في البيعة، ولا في السلام، إنما يكون هذا بالكلام، فليت المسلمين يعرفون هذا؛ لأننا نرى من يصافح النساء، ولا يجد في هذا غضاضة، ولعل ذلك عن جهل منهم، أو مجاملة وهذا لا يجوز.

﴿يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، يبايعن على التوحيد، وعدم الشرك، ﴿لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ﴾ في عبادته، وفي دعائه، وفي أي نوع من أنواع العبادة، لا يشركن مع الله أحدًا في عبادته، و﴿شَيْـًٔا﴾: نكرة في سياق النفي فتعم كل شيء، فلا يجوز أن يُشرك مع الله أحد، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا ولي من الأولياء، ولاحجر، ولا شجر، ولا جن، ولا إنس، ودل على أن البداية في البيعة تكون بالعقيدة، فأول شيء يبدأ بالعقيدة في الدعوة إلى الله، وفي البيعة على الإسلام؛ لأنها هي الأصل، والأساس، فالنساء تبايع الرسول ﷺ على التوحيد أولاً.

﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾، والسرقة هي: أخذ المال من حرزه خفية عن صاحبه، والسرقة كبيرة من كبائر الذنوب، وهي عدوان، وأكل للمال بالباطل؛ ولذلك جعل الله عقوبتها من أشد العقوبات، فاليد التي تمتد للسرقة تقطع، قال ﷻ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة: ٣٨]، ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ﴾، وأتت البيعة على عدم السرقة بعد البيعة على عدم الشرك بالله ﷻ، فهذا مما يدل على احترام الأموال.

﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ ، حتى من زوجها ، لا تسرق منه إلا في حالة ما إذا كان بخيلًا ، ولا يعطيها ما يكفيها ، فلها أن تأخذ من ماله ما يكفيها ؛ لأن هذا أخذ لحقها وليس سرقة ، وكذلك إن كان لها أولاد ، تأخذ ما يكفي وأولادها.

عَنْ عَائِشَةَ ﵂ ، قَالَتْ : «دَخَلَتْ هِنْدٌ بِنْتُ عُتْبَةَ امْرَأَةُ أَبِي سُفْيَانَ ﵄ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ ، لَا يُعْطِينِي مِنَ النَّفَقَةِ مَا يَكْفِينِي وَيَكْفِي بَنِيَّ إِلَّا مَا أَخَذْتُ مِنْ مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمِهِ ، فَهَلْ عَلَيَّ فِي ذَلِكَ مِنْ جُنَاحٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «خُذِي مِنْ مَالِهِ بِالْمَعْرُوفِ مَا يَكْفِيكِ وَيَكْفِي بَنِيكِ»(١).

وهذا لا يعد سرقة ؛ لأنه أخذ بالحق ، ليس أخذًا بالباطل ، وقاسوا على هذا مسألة الظفر ، إذا استولى ظالم على مال الإنسان ، وقدر صاحب هذا المال على أخذه من الظالم ، فإنه يأخذ حقه ما لم يترتب على هذا فتنة أكبر ، وشر أكبر.

﴿وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ ؛ لأن الزنا من أعظم الكبائر قال تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: ٣٢].

﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ ؛ لأنهم كانوا في الجاهلية يقتلون أولادهم ؛ خشية الفقر ، قال ﷻ : ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١] ، ومن أكبر الكبائر بعد الشرك : قتل الولد خشية أن يطعم مع والده.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابن مسعود ﵁ ، قَالَ : «قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَيُّ الذَّنْبِ

---

(١) أخرجه مسلم (٧، ٨، ٩).

أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَأْكُلَ مَعَكَ» قَالَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ» وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقَ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾ [الفرقان: ٦٨](١).

فالزنا من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله ﷻ، وهو يتفاوت بعضه أشد من بعض، فالزنا بزوجة الجار أشد، والزنا بذات المحرم أشد.

وقوله: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾، سواء بعد ولادتهم، أو أثناء الحمل، فلايجوز للمرأة أن تقتل ما في بطنها، أو أن تتهرب من الحمل، فإذا أحست في بطنها الحمل، فإنها لا تتخلص منه؛ لأن الحمل له حق في البقاء، وإذا نفخت فيه الروح صار نفسًا يحرم قتلها، وفيه الدية، والكفارة، أما قبل أن تنفخ فيه الروح ففيه إثم؛ لأنه أمانة في رحم المرأة، فلا يجوز لها أن تعتدي عليه، أو تتخلص منه، إلا إذا قرر الأطباء أن في بقائه خطرًا على حياتها؛ حيث لو بقي سبب موتها، ففي هذه الحالة يجوز التخلص منه.

﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ﴾، البهتان هو: الكذب ﴿يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ ومعناه: أنها لا تدخل على الزوج أولادًا ليسوا من نسله، وتغره في ذلك.

﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ۙ﴾، لا يعصين الرسول ﷺ في معروف، وهذا

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٧، ٦٠٠١، ٦٨١١، ٧٥٢٣)، واللفظ له، ومسلم (١٤١، ١٤٢).

كما في قوله ﷺ: «الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ»[(١)]، أي فيما شرعه الله ﷻ.

فالرسول ﷺ لا يأمر إلا بمعروف، فلماذا قال الله ﷻ: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾؟، هذا من باب تعليم الناس أنه لاتجوز الطاعة في المعصية.

ثم قال ﷻ: ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾، أي إذا توافرت هذه الشروط، فالرسول ﷺ يبايع النساء بالكلام -كما سبق-، لا بالمصافحة.

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾، أمره الله أن يستغفر لهن، ففيه أن الرسول، والمؤمنين يستغفرون لإخوانهم، وأخواتهم مع أنفسهم ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠].

فهذا إكرام لهؤلاء النسوة اللاتي يبايعن الرسول ﷺ، فقد أكرمهن الله باستغفار رسوله ﷺ لهن، ومن استغفر له الرسول غفر الله له، وهذا دليل على أن التوبة تجب ما قبلها[(٢)]، فالبيعة توبة، تجب ما قبلها من الكفر، ومن الشرك، ومن الذنوب، والمعاصي.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، تعليل للأمر بالاستغفار بأن الله كثير التوبة وكثير الرحمة.

ثم ختم السورة بما بدأها به فقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، وفي بدايتها يقول ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾، وفي هذه الآية يناديهم فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٤٣٤٠، ٧١٤٥، ٧٢٥٧)، واللفظ له، ومسلم (٣٩، ٤٠) من حديث علي رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه (ص ٥٢٨).

غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، والتولي سبق أنه المحبة لهم، والنصرة لهم على المسلمين.

﴿لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، استحقوا غضب الله، فالكافر مغضوب عليه سواء كان كتابيًا يهوديًا، أو نصرانيًا، أو وثنيًا.

فالواجب أن تحب من يحبه الله، وأن تبغض من يبغضه الله، هذا هو مقتضى الإيمان، وهذا هو الولاء، والبراء الذي هو أصل من أصول العقيدة التي يحاول الكفار، وأذنابهم أن يقضوا عليه، وأن يخفوه، وكل هذا من المحادة لله، ولرسوله، والتكذيب لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

فالواجب: التنبه لهذا الأمر الذي يحيكون حوله؛ لإزالته، وعدم الفوارق بين المسلمين، والكفار، يقولون كلهم بنو آدم، حتى قالوا: إن الأديان سواء دين اليهود المغضوب عليهم، ودين النصارى الضالين، ودين الإسلام كلهم سواء عندهم.

﴿لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، لا بالمحبة، ولا بالنصرة، ولا بالثناء عليهم، ومدحهم.

﴿قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾، الكافر ليس له في الآخرة من خلاق، ولا نصيب، هو آيس من الآخرة، لأنه لا يؤمن بالبعث، وليس له في الآخرة إلا النار -والعياذ بالله-، فهو آيس من الجنة، ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾، قيل معناه: أنه قد يئس الكفار الذين غضب الله عليهم في الحياة كما يئس أمواتهم.

فالكفار الأحياء ما داموا على كفرهم، فإنهم قد يئسوا من الآخرة، إلا أن

يتوبوا إلى الله، وإذا ماتوا على الكفر تحقق يأسهم من الآخرة، فالكفار أحياء، وأمواتًا يئسوا من الآخرة.

وقيل معنى الآية: أن الكفار الأحياء أيسوا من موتاهم أن يعودوا إليهم، لا في الدنيا، ولا في الآخرة؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث، فيعتبرون الموت نهاية، ولا يرجون أنهم يبعثون يوم القيامة، ويجتمعون معهم في الجنة، والنعيم، فهم آيسون من ذلك.

فهذه سورة فيها أحكام عظيمة، كلها من بدايتها إلى نهايتها في الولاء، والبراء، وكيف يتعامل المسلمون مع الكفار، وما هو التعامل الذي يكون ولاء، والتعامل الذي لا يكون ولاء، كل هذا مذكور في هذه السورة العظيمة.

وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

الدرس السابع والأربعون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣
إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤ وَإِذْ قَالَ
مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟
أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى
رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم
بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦﴾ [الصف: ١ - ٦].

هذه السورة العظيمة تسمى سورة (الصف)؛ أخذًا من قوله ﷻ: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾.

قال ﷻ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾، أي: نزه، فالتسبيح هو: التنزيه، أي: نزه الله ﷻ ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من المخلوقات، فكلها تنزه الله ﷻ، ناطقها، وصامتها ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾.

فالمخلوقات كلها تسبح الله: السماوات، والأرض، والجبال، وكل

المخلوقات، ما فيه روح، وما ليس فيه روح.

فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهُ ... أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاحِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ واحِدُ(١)

وقال الشاعر:

تَأَمَّلْ فِي نَبَاتِ الْأَرْضِ وَانْظُرْ ... إِلَى آثَارِ مَا صَنَعَ الْمَلِيكُ
عُيُونٌ مِنْ لُجَيْنٍ شَاخِصَاتٌ ... بِأَحْدَاقٍ هِيَ الذَّهَبُ السَّبِيكُ
عَلَى قُضُبِ الزَّبَرْجَدِ نَاطِقَاتٌ ... بِأَنَّ اللهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ

فجميع المخلوقات تسبح الله، وتنزهه عن الشرك، والنقائص، والعيوب ولا يزال التسبيح مستمرًا لله ﷻ من مخلوقاته في كل لحظة، وكل حين، وفي كل حالة، فلا تنفك المخلوقات عن التسبيح لله ﷻ.

ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾، أي: القوي الذي لا يرام ﷻ، له العزة، والقوة، والمنعة، فهو: قوي، ومنيع، ولا أحد يتغلب عليه ﷻ، بل هو الغالب القاهر.

---

(١) هذه الأبيات منسوبة لأبي العتاهية الشاعر المشهور إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان أبو إسحاق العنزي، ولد سنة ثلاثين ومائة، أصله من عين التمر وهي بليدة بالحجاز، ومنشؤه الكوفة، ثم سكن بغداد، وكان يقول في الغزل والمديح والهجاء، ثم تنسك وصار قوله في الوعظ والزهد، وأبو العتاهية لقب، توفي سنة ثلاث عشرة ومائتين انظر: تاريخ بغداد (٦/ ٢٥٠)، وبغية الطلب في تاريخ حلب (٤/ ١٧٤٩)، والمنتظم (١٠/ ٢٣٦)، ووفيات الأعيان (١/ ٢١٩)، والوافي بالوفيات (٩/ ١١١)، والبداية والنهاية (١٠/ ٢٦٥)، والمستطرف في كل فن مستظرف (١/ ١٦).

﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾، مع عزته فهو حكيم.

والحكيم له معنيان: حكيم بمعنى محكم، أي: متقن، فهو متقن لمخلوقاته، ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧].

ومن معاني الحكيم: الذي يضع الأشياء في مواضعها، فالله ﷻ وضع كل شيء في موضعه اللائق به، فلا يستدرك على الله ﷻ شيء، ولا تدرك العقول أسرار خلقه سبحانه وتعالى، ولا تحيط العقول بمخلوقاته، وحكمته سبحانه وتعالى.

ثم نادى الله سبحانه وتعالى المؤمنين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، آمنوا بقلوبهم ونطقوا بألسنتهم، وعملوا بجوارحهم، هذا هو الإيمان في الشريعة: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان، يزيد بالطاعة، وينقص بالعصيان، وأما الإيمان بمعنى التصديق، فهذا الإيمان اللغوي.

ناداهم بهذا الوصف؛ لأنهم أهل الامتثال لأوامر الله سبحانه وتعالى، فإيمانهم يقتضي أنهم يصغون لنداء الله، ويفعلون ما أمرهم به؛ فلهذا ناداهم بهذا الوصف الكريم.

﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾، سبب نزول هذه الآية[١]: أن جماعة من الصحابة تذاكروا فقالوا: «وَاللهِ لَوْ أَنَّا نَعْلَمُ مَا أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ لَعَمِلْنَاهُ»، فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ﴾، فلا شك أن القتال مكروه للنفوس؛ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٌ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡۖ

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٣٥٤)، وزاد المسير (٤/ ٢٧٧)، وتفسير ابن كثير (٨/ ١٣٣).

وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦].

فلما أمر الله بالقتال شق ذلك على بعض المسلمين، وقالوا: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [النساء: ٧٧-٧٨]، أي: حيث وجدتم، فالموت لابد منه، قاتلت، أو لم تقاتل، ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ﴾ [النساء: ٧٨]، أي: لو كنتم في بروج محصنة قوية لدخل عليكم الموت؛ لأنه لا يحجبه شيء، فكونك تموت في سبيل الله خير لك، عن أن تموت موتًا عاديًا.

قال الشاعر(١):

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَوْتِ بُدٌّ فَمِنَ الْعَارِ أَنْ تَمُوتَ جَبَانَا

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ﴾، فيه وصف الله ﷻ بأنه يحب بعض الأشخاص، ويحب بعض الأعمال، ويبغض بعض الأشخاص، ويبغض بعض الأعمال، فالله يحب، ويبغض، ويكره، ويسخط، ويمقت، هذه صفات لأفعاله سبحانه وتعالى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ﴾، الكفار، ﴿فِى سَبِيلِهِۦ﴾؛ لأجل نصرة التوحيد، وإبطال الشرك بالله ﷻ ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٣٩]. والذي يقاتل في سبيل الله هو من يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، أما من يقاتل؛ طمعًا في المال، أو حبًا للشجاعة، أو رياءً، فهذا ليس في سبيل الله.

---

(١) انظر: شرح ديوان المتنبي للواحدي (١/ ٣٣٣).

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ﷺ، قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ، فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»[(١)].

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: بغضًا، وكراهية عند الله، فالمقت هو: أشد البغض[(٢)]، وفيه أن الله كما يحب، فإنه يبغض، ويمقت.

﴿أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾، أخذ منه بعض العلماء وجوب الوفاء بالوعد فإذا وعدت، فيجب عليك الوفاء؛ لأن الله ذم الذين لم يفوا بوعدهم، وهذا أحد الأقوال في المسألة: أن الوعد يجب الوفاء به مطلقًا، إذا كان وعد خير، وطاعة.

قال الشاعر:

لاَ تَقُولَنَّ إِذَا مَا لم تُرِدْ ... أَنْ تُتِمَّ الوَعْدَ فِي شَيءٍ نَعَمْ
حَسَنٌ قَوْلُ نَعَمْ مِنْ بَعْدِ لاَ ... وقَبِيحٌ قَوْلُ لاَ بَعدَ نَعَمْ
إِنَّ لاَ بَعْدَ نَعَمْ فاحِشَةٌ ... فَبِلَا فَابْدَأ إِذَا خِفْتَ النَّدَمْ
فَإِذا قُلْتَ نَعَمْ فاصبرْ لَهَا ... بِوفاءِ الوَعْدِ إِنَّ الخُلْفَ ذَمّْ

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٣، ٢٨١٠، ٣١٢٦، ٧٤٥٨)، واللفظ له، ومسلم (١٤٩، ١٥٠، ١٥١).

(٢) انظر: مقاييس اللغة (٥/ ٣٤١ - ٣٤٢)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ٣٤٦)، ولسان العرب (٢/ ٩٠)، وتاج العروس (٥/ ٩٥).

وأعْـلـمَ أنَّ الـذَّمَّ نَـقْـصٌ لـلـفَـتَـى ... وَمَـتَـى لاَ يَـتَّـقِ الـذَّمَّ يُـذَمّْ

القول الثاني: أن الوفاء بالوعد مستحب، وليس واجبًا؛ لأنه تبرع من الإنسان لم يوجبه الله عليه، ولم يأمره به، وإنما هو نفسه وعد، فيستحب منه الوفاء بالوعد، ولا يجب عليه مطلقًا.

والقول الثالث: أنه إذا ترتب على الوعد غرامة، وجب الوفاء به، وإذا لم يترتب عليه غرامة، فإنه يستحب الوفاء به، كما لو قال لشخص -مثلًا-: تزوج، وأنا أدفع الصداق عنك، ثم تزوج هذا الإنسان، ودفع غرامة، فإنه يجب على من وعده، أن يفي بوعده، وينجز ما وعده؛ لأن هذا فيه غرامة، وإن كان الوعد ليس فيه غرامة، فيستحب الوفاء به.

ثم بين ﷻ أحب الأعمال إليه، فقال الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ﴾، يقاتلون العدو الكافر؛ لنصرة دين الإسلام، وإعلاء كلمة الله ﷻ.

وقوله: ﴿صَفًّا﴾، هذا فيه تنظيم القتال، فالمقاتلون يكونون صفًا واحدًا؛ لأن هذا أهيب للعدو، وفيه تقوية لهم، أما إذا تفرقوا، فإنه قد يتخللهم الخوف، لكن إذا صفوا صفًا واحدًا فإن هذا أثبت لقلوبهم، وأرهب لعدوهم.

﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾، مصفوف بالحجارة، أو بالطوب، أو باللبن، ومعروف أن اللبن يتقارب، ويشد بعضه بعضًا، وليس فيه فتحات، ولا فرج ولا خلل، ولا ميل، فهو يدل على القوة، والبنيان معروف أنه إذا لم يعتدل سقط، فلابد أن يكون معتدلًا، فإذا صف المسلمون للقتال، فإن هذا يرهب

عدوهم، كذلك إذا صفوا للصلاة فإن هذا يطرد عنهم الشيطان، وكان النبي ﷺ يصف أصحابه للقتال، ويعتني بذلك، ولا يسمح لأحد أن يتقدم، ولو بصدره، أو يتأخر وكذلك في الصلاة.

هذا الذي يحبه الله ﷻ، وفيجب على من وعد أن يفعل ما يحبه الله أن يفي بذلك، فإن الله ذم اليهود؛ لإخلافهم ما وعدوه، قال ﷻ في اليهود: ﴿أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ [البقرة: ١٠٠]، وقال ﷻ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، وقال في المنافقين: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة: ٧٥ - ٧٧].

فيجب على المسلم أن يفي مع الله ﷻ بوعوده، وعهوده، وعقوده، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾ [المائدة: ١]، ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

ثم قال ﷻ مذكرًا بما حصل من الأمم السابقة، أنهم لم يفوا مع أنبيائهم، ولا بوعودهم، وعهودهم، محذرًا لنا من صنيعهم، قال ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ هو موسى بن عمران عليه السلام، أول أنبياء بني إسرائيل، وكليم الله، آذاه قومه بأنواع من الأذى، وكابد معهم من المشاق الكثير، وكلما أمرهم بأمر تلكئوا، وتعنتوا عليه، وله معهم مواقف كثيرة ذكرها الله في القرآن.

منها: أنه لما أمرهم الله ﷻ أن يسيروا مع موسى؛ لفتح بيت المقدس، وتخليصه من العماليق الكفرة الجبابرة، قالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ [المائدة: ٢٢]، أي: إذا خرجوا فسندخل، ومعلوم أنهم ليسوا بخارجين، من غير قتال، ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة: ٢٤]، فهل هناك أشد من هذا الأذى[1].

ومنها: لما اختار موسى منهم السبعين رجلًا، وذهب بهم لموعد الله، أن يعطيه التوراة المكتوبة بألواحها، ذهبوا معه، فلما وصلوا إلى الموعد، قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، فأخذتهم الصاعقة، وماتوا عن آخرهم، ثم أحياهم الله ﷻ، فهذا من مواقفهم الشنيعة مع موسى عليه السلام.

ومنها: لما قتل قتيل، وجهل قاتله، وطالب قومه بالقصاص، وهو لا يعلم القاتل، أمرهم الله أن يذبحوا بقرة، ﴿قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]، ثم أخذوا يتعنتون في الأسئلة، ما لونها؟، ما هي؟، وما ذبحوها إلا في الأخير، ﴿وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١]، فهذا من إيذائهم، وتعنتهم على نبيهم، فلما ذبحوها أمرهم الله أن يأخذوا جزءًا منها، فيضربوا به القتيل، فضربوه به، فنطق وقال: قتلني فلان، فهذه بعض مواقفهم مع موسى عليه السلام، بل هذا من مواقفهم؛ لأن لهم مواقف كثيرة.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ١٧٥)، وزاد المسير (١/ ٥٣٣)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٦٧)، وتفسير القرطبي (٦/ ١٢٧).

ومنها: أنهم آذوا موسى عليه السلام، حتى إنهم عابوه في جسمه؛ لأنه عليه السلام كان يغتسل مستترًا، وهم كانوا يغتسلون علانية، ويكشفون عوراتهم، فقالوا: ما فعل هذا إلا لأن فيه عيبًا يستتر من أجله، فعابوه، فبرأه الله من هذا العيب الذي وصفوه به، ولهذا قال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾، أي: قد علمتم أن الله، أرسلني عز وجل إليكم، ومع ذلك يؤذونه، مع أن المفترض أن الرسول لا يؤذى، بل يوقر، ويحترم، ويكرم؛ لأنه رسول من عند الله، بل يطاع، ويتبع، ويحب غاية المحبة، ويكون أحب من النفس، والولد، والوالد، والناس أجمعين، ولكنهم خالفوا هذا.

قال الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟﴾، أي: انصرفوا عن الحق الذي جاء به موسى، وهم يعلمون أنه رسول الله، عوقبوا بأن ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: صرفها، فلا تقبل الحق بعد ذلك، وهذه عقوبة من الله أن كل من عرف الحق، وتركه؛ رغبة عنه، فإنه يعاقب في قلبه -والعياذ بالله-؛ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾، أي: في قلوبهم، ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، في أبدانهم.

وفي هذا دليل على أن العبد يحرم الهداية بسبب فيه هو، والله عز وجل لا يهدي القوم الفاسقين، ولا يهدي القوم الظالمين، ولا يهدي القوم الكافرين، فالعلة في العبد نفسه.

وفيه أن من بلغته سنة الرسول صلى الله عليه وسلم، فعليه أن يقبلها، ويمتثلها، ولا يتلكأ،

هذا هو الواجب؛ ولهذا قال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦]، فهو حري أن يعاقب، فلا يقبل الحق بعد ذلك، ويفسد قلبه، فإذا فسد قلبه، فإنه لا فائدة منه.

فعلى المسلم أن يحذر من هذه الأمور، فيحترم كتاب الله، ويحترم سنة رسول الله، ويعظم الكتاب، والسنة، ويمتثل ما أمر الله به، ورسوله، ويجتنب ما نهى عنه الله، ورسوله، من غير اعتراض، أو تلكؤ؛ لئلا يصاب بهذه المصيبة.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾، أي: عاملًا بالتوراة التي بأيديكم، وتؤمنون بها، فهو يعمل بالتوراة، وجاء على وفق ما فيها، ومن علامات صدق الرسول: أن يسير على سيرة من قبله من الرسل، ويأتي بما كان عليه من قبله من الرسل، ولا يخالفهم في أمور العقيدة، وأمور التوحيد، أما الشريعة فقد تختلف، فينسخ الله ما يشاء ﷻ، ويشرع ما يشاء.

وقيل معناه ﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾: أن وصف عيسى عليه السلام مذكور في التوراة، فجاء مطابقًا لما عندهم في التوراة، فلا مجال لإنكاره، فهو مثبت في التوراة التي بين أيديهم(١).

التوراة هي: كتاب موسى عليه السلام، والإنجيل هو: كتاب عيسى عليه السلام، والزبور هو: كتاب داود عليه السلام، وقد ذكر الله لنا أسماء بعض الكتب، فنؤمن

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٣٥٩)، وتفسير ابن كثير (٨/ ١٣٥).

بها بأعيانها، وما لم يذكر الله اسمه نؤمن به جملة، فنؤمن أن لله كتبًا كثيرة، منها ما سمى الله، فنؤمن به بعينه، وما لم يسم الله فنؤمن به جملة.

﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾، فهو مصدق لمن مضى، ومبشر لمن يأتي، وهكذا الرسل -عليهم الصلاة، والسلام- يتبع متأخرهم متقدمهم، ويبشر أولهم بآخرهم، فهم كسلسلة الواحدة، والرسول الذي يأتي بعد عيسى هو: محمد ﷺ، وقد جاء الرسول ﷺ، كما أخبر به المسيح، فبعث الرسول محمد ﷺ بعد فترة من الرسل؛ لأن المدة بين عيسى عليه السلام، وبعثة محمد ﷺ فترة طويلة.

﴿اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾، وهذا من أسماء نبينا محمد ﷺ، أحمد، ومحمد، وله أسماء غير ذلك منها الماحي، والحاشر، والعاقب[1]، وسمي أحمد ﷺ؛ لكثرة محامده، وكثرة حمده لله، وكثرة حمد الناس له، والثناء عليه، فهو أحمد بمعنى: حامد، وأحمد بمعنى: محمود، ولما صرح لهم باسمه، كان هذا يوجب على بني إسرائيل أن يؤمنوا بمحمد ﷺ؛ لأن نبيهم أخبر به، وببعثته، فيجب عليهم أن يؤمنوا به؛ تصديقًا لما أخبر به نبيهم، ولما يجدونه في التوراة، والإنجيل من صفاته ﷺ.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾، أي: جاء محمدٌ (فهو مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل) اليهودَ، والنصارى بالبينات، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم،

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٥٣٢، ٤٨٩٦)، واللفظ له، ومسلم (١٢٤، ١٢٥) من حديث جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ وَأَنَا المَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِي الكُفْرَ، وَأَنَا الحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا العَاقِبُ». وفي رواية مسلم «وَالْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ».

وأنه موجود عندهم في التوراة، والإنجيل، يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويعرفونه باسمه، وأوصافه ﷺ، ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾ [البقرة: ١٤٦]، ﴿ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ومع هذا لما جاءهم بالبينات من الله ﷻ، ما جاءهم بآيات غامضة، بل بآيات واضحة توافق ما عندهم من أوصافه ﷺ، ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ أي ما جاء به سحر مبين، وهو آيات بينات، ومع هذا قالوا: سحر، وهم يعلمون أنه ليس سحرًا، ولكن من باب المكابرة، والحسد، فهم بذلك كفروا بنبيهم عيسى؛ لأنهم كذبوه فيما بشرهم به، وكفروا بمحمد ﷺ.

والسحر كفر(١)، والنبي لا يأتي بالكفر، قال ﷻ: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فالأنبياء برأهم الله من السحر، والكهانة، وما يأتون به فهو وحي منزل من الله ﷻ وكيف يكون ما جاء به محمد ﷺ سحراً.

والذي حملهم-أي: اليهود- على مقالتهم هذه، ورميهم الأنبياء بالسحر والأباطيل: الكبر، والحسد، فحسدوا محمدًا ﷺ وهم يعلمون أنه رسول الله، لا لشيء إلا لأنه من العرب، وهم يريدون أن تكون النبوة في بني إسرائيل، ويحجرون على الله ﷻ فضله ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ

---

(١) لذلك جاء في الحديث الذي أخرجه الترمذي (١٤٦٠)، واللفظ له، والحاكم في المستدرك (٤/ ٤٠١)، والطبراني في الكبير (٢/ ١٦١) من حديث جُنْدُبٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ».

مِن فَضۡلِهِۦۖ﴾ [النساء: ٥٤].

وهكذا الحسد يحمل الإنسان على الكفر، وعلى القتل؛ كما حمل أحد ابني آدم على قتل أخيه.

وحمل إبليس على الكفر، حسد آدم وقانا الله شر الحسد. وصلى الله على نبينا محمد، وآله، وصحبه.

الدرس الثامن والأربعون

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ
(٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ (٨) هُوَ ٱلَّذِىٓ
أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ
(٩) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ
وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١٢)
وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٣) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ
كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت
طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ (١٤)﴾

[الصف: ٧ - ١٤].

قال الله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أي لا أحد أظلم ممن يكذب على الله سبحانه وتعالى، فهم لما كفروا بمحمد ﷺ، وما جاء به كذبوا الله سبحانه وتعالى، وافتروا عليه الكذب، وحملهم على هذا: أنهم يدعون إلى الإسلام الذي جاء به الأنبياء، ومنهم: موسى، وعيسى، وأنبياء بني إسرائيل، فهم يدعون

إلى ما جاءت به رسلهم؛ لأن الإسلام دين الأنبياء جميعًا، الذي جاء بعبادة الله وحده لا شريك له، بما شرعه، وأنزله، فكان الواجب عليهم أن يصدقوا، فلم يحملهم على هذا التكذيب مبرر، إلا أنهم يُدعون إلى الإسلام، فهل الذي جاء بالإسلام الذي جاءت به الرسل ساحر؟، وهل الإسلام سحر؟، فهذا ينجر على جميع الأنبياء، والمرسلين، وعلى جميع الكتب؛ لأن القرآن واحد من كتب الله، بل هو أعظمها.

فإذا كان القرآن سحرًا، فجميع الكتب الإلهية تكون سحرًا؛ لأنها كلها من عند الله، وكلها متفقة على دعوة واحدة، وعلى دين واحد هو: الإسلام، وإخلاص العبادة لله ﷻ.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، حكم ﷾ أنه لا يهدي من تكبر عن الحق وظلم، وجار، وحسد؛ عقوبة له، فقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، سبب لقوله: ﴿لَا يَهۡدِي﴾، الله ﷻ يهدي من يريد الحق، لكنه لا يهدي من تمرد عن الحق، ولم يقبله.

ثم قال ﷾ مبينًا مقصودهم بهذا الكلام، فقال: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾، أي: أن قولهم: «هذا سحر مبين»، وهم يعلمون أنه حق، وليس بسحر، إنما يحاولون أن يطفئوا نور الله الذي أنزله على محمد ﷺ، وهو: القرآن، فالقرآن نور(١)؛ لأنه هداية للخلق، وتفصيل للناس، وتوضيح للحق، ورد للباطل فهو نور.

---

(١) قال الإمام الطبري ؒ في تأويل قوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]: هذا القرآن نور من عند الله، أنزله إلى خلقه يستضيئون به. انظر: تفسير الطبري (١٩/ ١٨٨). =

فالنور يكون حسيًا، ويكون معنويًا، فالقرآن نور معنوي؛ لأنه يدل الناس على الطريق الصحيح، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، وهم يريدون أن يطفئوا هذا النور، وأن يقضوا على القرآن بأفواههم، فمثلهم مثل الذي ينفخ على الشمس، أو على القمر، ليطفئ القمر، أو الشمس، وهذا مستحيل.

ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾، فهذه الأفاعيل لا تضر القرآن، ورسول القرآن، وهذه الأمة، فالرسول نور، وسراج منير، والقرآن نور، ولا أحد يستطيع أن يطفئ هذا النور مهما فعل؛ لأنه نور الله حيث أضافه إليه، أما لو كان نورًا لمخلوق لأمكن أن يطفئ.

والله لا يغلبه أحد، ولا يقدر أن يطفئ نوره أحد، ولو حاولوا أن يقطعوه فإن الله سيتمه، ويوصله، ويمده، ولا أحد يستطيع أن يقف في طريقه، أو أن يخفيه، أو أن يتغلب عليه؛ لأن الله وعد بإتمامه[1]، وإكماله، والله لا يخلف وعده، فقد تحقق وعد الله، وأتم هذا النور الذي جاء به محمد ﷺ فبلغ المشارق والمغارب، ولا يزال، -والحمد لله- يتجدد، ويظهر.

وهو محفوظ بحفظ الله، لا يبدل، ولا يغير، ولا يحرف، بل هو باق كما أنزله الله على رسوله ﷺ؛ لأن الله تعهد بحفظه، فقال: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ

= ومن دعاء النبي ﷺ: «أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ نُورَ صَدْرِي»... الحديث. أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (١/ ٣٠٠)

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود (٢٦٤٩) من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مَا بَيْنَ صَنْعَاءَ وَحَضْرَمُوتَ مَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ تَعَالَى، وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَعْجَلُونَ».

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: ٩].

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ظهوره فكراهتهم له لا تمنع إتمامه، وظهوره، مهما حاولوا، وكادوا، فهم ما تركوا شيئًا، ولا أبقوا ممكنًا للقيام في وجه هذا القرآن، وهذه الرسالة المحمدية، ولكن -والحمد لله- لم يحصلوا على مقصودهم، فالإسلام ظاهر، والقرآن -ولله الحمد- يعلو صوته، ويبلغ المشارق، والمغارب، ولا أحد يستطيع أن يمنعه.ويسمعه العالم من خلال وسائل الإعلام.

وذلك لأنه ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾، الله ﷻ هو الذي أرسل رسوله، والرسول ما جاء من عنده، وما أرسله أحد غير الله ﷻ، وما دام أن الله هو الذي أرسله، فلن يستطيع أحد أن يمنع ما جاء به، أو يقف في طريق الدعوة إليه، مهما حاول.

﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾، والهدى هو: العلم النافع، ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾، هو: العمل الصالح(١)، فهذا الرسول ﷺ جاء بهذين الأمرين: بالعلم النافع، والعمل الصالح، وهما قرينان، لا يفترقان أبدًا، فلا ينفع العلم بدون عمل، ولا ينفع العمل بدون علم، بل لابد من العلم، والعمل(٢).

ثم قال ﷻ: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، أي ليعلو دين محمد ﷺ، على سائر الأديان، وها هو الإسلام -ولله الحمد- ظاهر على جميع الأديان،

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٢/ ٢٦٠)، وتفسير ابن كثير (٤/ ١٢٠).

(٢) ويروى في ذلك عن سُفيَان الثَّوْرِيِّ قوله: «الْعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ، فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَلَ». انظر: جامع بيان العلم وفضله (١/ ٧٠٦).

ظهر بالجهاد، وظهر بالدعوة إلى الله، وظهر بالتعليم، ونشر العلم.

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾، ظهوره، فالمشركون يكرهون هذا الدين، وبمقتضى كراهتهم له يبذلون الغالي، والرخيص؛ لمنع هذا الإسلام من الانتشار، والقضاء عليه، ولكن لم يزده ذلك إلا ظهورًا، ووضوحًا -ولله الحمد- رغم كثرة الأعداء، والمعارضين، والمبغضين له، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، حتى الذين عادوا الرسول، وعادوا القرآن في مكة في آخر الأمر -هداهم الله-، وحملوا هذا الدين، ونشروه بعدما كانوا معارضين له، فصاروا دعاة إليه، ومجاهدين في سبيله؛ لأنه حق، والحق يعلو، ولا يعلى عليه.

ثم نادى الله بعد ذلك عباده المؤمنين بألا يأخذوا مأخذ اليهود، والنصارى مع أديانهم، وأنبيائهم، فقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ١٠﴾، يعرض عليهم ﷻ، فيقول: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ فهذا عرض، وتشويق، ﴿عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، فالتجارة التي تنجي من عذاب أليم، وكل يريدها.

والتجارة تجارتان: تجارة دنيوية، وتجارة أخروية، فالتجارة الدنيوية بالمال، والنقود، والمظاهر، والتجارة الأخروية بالأعمال الصالحة، والطاعات، فأنت تتاجر مع الله ﷻ بأعمالك الصالحة طلباً للأجر، كما أن أهل الدنيا يتاجرون بأموالهم الدنيوية؛ طلبًا للأرباح.

و هذه التجارة ليست من نوع التجارة المعروفة الدنيوية، هذه تجارة تنجي من عذاب أليم، في حين أن التجارة الدنيوية قد تهلك صاحبها، وتوقعه في العذاب الأليم.

ولما أجملها ﷻ، فتطلعت الأنظار إليها، قال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، مع أنه ناداهم، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ لأن الإيمان يزيد، ويتجدد، فالمؤمن يزيد إيمانه. فلابد أن يراعي الإنسان إيمانه، ويحافظ عليه، والإيمان بالله هو: الإيمان بربوبيته، وأنه رب العالمين، مالك الملك، ذو الجلال، والإكرام، والإيمان بألوهيته، وذلك بأن يعبده وحده، لا شريك له، وبما شرع لعباده، والإيمان بأسمائه، وصفاته التي وصف، وسمى بها نفسه، أو وصفه، وسماه بها رسوله ﷺ، هذا كله يدخل في الإيمان بالله، وكذلك الإيمان بالملائكة، والكتب، والرسل، واليوم الآخر، والإيمان بالبعث، والإيمان بالقدر، كل هذا يدخل في الإيمان بالله ﷻ.

﴿وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي تجاهدون أعداء الله، والمجاهدة تكون بالسلاح، وتكون بالأموال، والإنفاق في سبيل الله، وإعداد العدة للمسلمين وتكون بالدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويكون الجهاد لأعداء الله المنافقين برد شبهاتهم، وبيان أباطيلهم، وجدالهم، ودحض شبهاتهم.

﴿ذَلِكُمْ﴾، أي: الإيمان بالله، ورسوله، والجهاد في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من الدنيا، ومن التجارة الدنيوية، ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تدركون ذلك، فلا يدرك هذا إلا من يعلم بما جاء في الكتاب، والسنة، ويتفقه في دين الله، أما الجاهل، فإنه لا يدرك هذا، أو لا يدركه بتمامه، بل يدرك بعضه، إنما يدرك هذا الذي يتعلم ما أنزل الله ﷻ.

ثم بين ﷻ ثمرة هذه التجارة، وفائدتها، فقال: ﴿تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾،

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، وظاهر الآية: أنه يغفر الذنوب: الكبائر، والصغائر.

﴿وَيُدْخِلْكُمْ﴾، يوم القيامة، ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ جنات كثيرات، والجنات جمع: جنة، والجنة هي: البستان الملتف، سمي جنة؛ لأنه يجن من كان خلفه، تجري الأنهار من تحت قصورها، وبساتينها، وفيها مناظر عجيبة، وفيها أنهار تجري، ولا تنقطع أبدًا، فيجتمع فيها بهاء الخضرة، والنضرة، وبهاء الأنهار التي تجري فيها.

﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾، ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾، هذه المساكن الطيبة في جنات عدن، والعدن: الإقامة[1]، أي: جنات إقامة من عدن بالمكان إذا أقام فيه، وسميت جنات عدن؛ لأنها لا تفنى، ولاتزول، خلاف مساكن الدنيا، وقصورها، وأنهارها، فإنها تزول، وتنقطع، وتفنى.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، فالذي يحصل على هذه التجارة، ومرابحها هو الفائز، ومن عداه فهو الخاسر، وإن جمع الدنيا كلها.

ثم قال ﷻ: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾، أي: بشارة أخرى تحبون حصولها، ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، على أعدائكم، ومن حاول إيذائكم، ينصركم الله عليه، ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾، للإسلام، فينتشر هذا الإسلام، ويفتح الله به القلوب، والبلاد، وقد انتشر حتى بلغ المشارق، والمغارب، فتحقق قول الله ﷻ: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾.

ثم قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ليست هذه البشارة خاصة بالمجاهدين،

---

(١) انظر: مقاييس اللغة (٤/ ٢٤٨)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ١٩٢)، ولسان العرب (١٣/ ٢٧٩)، وتاج العروس (٣٥/ ٣٨١).

لكن لعموم المؤمنين حتى ولو لم يجاهدوا، فلهم حظ أوفر من هذه البشارة؛ فكل مؤمن له حظ من هذه البشارة، وإن لم يبلغ إلى درجة المجاهدين.

ثم قال ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾، نادى الله المؤمنين مرة ثانية بأن يكونوا من أنصار الله، فينصرون دين الله، ورسوله، والله ﷻ ليس بحاجة إلى النصرة، وإنما ينصر الدين وينصر المسلمين، فمن نصر الإسلام والمسلمين فقد نصر الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ [محمد: ٧]، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠]، والمراد: نصر الدين، فمن نصر الدين، ونصر المؤمنين، فقد نصر الله سبحانه وتعالى.

﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، الحواريون هم: خواص الأتباع(١)، وعيسى عليه السلام لما ضايقه اليهود، وأرادوا قتله، وتآمروا عليه، نادى في أصحابه، فقال: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، أي: من ينصرني، فقال الحواريون: نحن أنصار الله، فتعهدوا بأن ينصروا الله سبحانه وتعالى؛ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٥٢ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ۝٥٣﴾ [آل عمران: ٥٢ - ٥٣]، فالله أمر هذه الأمة أن ينصروا هذا الرسول محمدًا ﷺ، وقام بهذه النصرة صحابة رسول الله ﷺ

---

(١) ويقال لهم: الحواريون؛ لأنهم كانوا يحورون الثياب، أي: يبيضونها هذا هو الأصل ثم قيل لكل ناصر: حواري، وقيل: هم خلصان الأنبياء.
انظر: مقاييس اللغة (٢/ ١١٦)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٤٥٨)، ولسان العرب (٤/ ٢٢٠)، وتاج العروس (١١/ ١٠٣).

من المهاجرين، والأنصار الذين اتبعوه بإحسان.

ولما جاء اليهود؛ ليقتلوه، ودخلوا عليه المكان، وعنده أتباعه، رفعه الله من بينهم، ولم يشعروا بذلك، وأخذوا رجلًا وقع شبه المسيح عليه، فقتلوه، وصلبوه، وهو غير عيسى، وهذا من مكر الله بهم، ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [آل عمران: ٥٤ - ٥٥]، فلم يدركوا ما أرادوا -والحمد لله-، ونجى الله رسوله عيسى عليه السلام، ورفعه إليه[1].

كما تآمرت قريش في مكة على رسول الله ﷺ يريدون قتله لئلا يلحق بأصحابه في المدينة، فترصدوا له، فخرج من بينهم، وهم لا يشعرون، وهاجر إلى المدينة، ونصره الله عليهم، ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠].

﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وهم الذين اتبعوا المسيح عليه السلام، ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌۖ﴾، وهم الذين كفروا بالمسيح، فكانت العاقبة للمؤمنين، ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: أمددناهم، وقويناهم على عدوهم من الكفار ﴿فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾، منتصرين عليهم.

وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٦/ ٤٥٤)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٩٨)، وتفسير القرطبي (٦/ ٩).

الدرس التاسع والأربعون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾ [الجمعة: ١ - ٥].

هذه السورة هي إحدى السور التي افتتحها الله ﷻ بالتسبيح، وجاء لفظ التسبيح في أولها بصيغة المضارع ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾، وفي السور الأخرى جاء بلفظ الماضي ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ [الصف: ١]، وجاء بلفظ الأمر، ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ [الأعلى: ١]، فهذا يشمل جميع الأوقات، في الماضي، والحاضر، والمستقبل. والتسبيح معناه التنزيه، أي: تنزيه الله سبحانه وتعالى عما لايليق به من الصفات، والأفعال، فهو: المنزه سبحانه وتعالى من كل وجه، ولايلحقه ذم، ولانقص، ولا عيب؛ لأنه كامل بذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله سبحانه وتعالى.

فالذي يصف الله بالنقص، لم يسبحه، والذي يشرك بالله، ويدعو معه غيره، لم يسبح الله، ولم ينزهه عما لا يليق به، والذي ينفي أسماءه، وصفاته، أو شيئًا منها، لم يسبح الله، ولم ينزهه عن النقص، والذي يصف الله بالعجز، لم يسبحه ﷻ؛ ولهذا قال ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الزمر: ٦٧]، فكل من صدر منه شيء فيه تنقص لله ﷻ، فإنه لم يقدره قدره، ولم يعرف عظمته، ولم يسبحه.

قال ﷻ: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، من المخلوقات الناطقة، والصامتة والحية، والجامدة، كلها تسبح الله ﷻ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۗ﴾ [الإسراء: ٤٤].

فكل المخلوقات تسبح الله تسبيحًا لا يعلمه إلا الله ﷻ، ولها إدراك، ولها منطق، يليق بها، فهي تسبح الله ﷻ، وتنزهه عما لا يليق به، ومع هذا يسيء ابن آدم في حق الله ﷻ، ويتنقصه، مع أن جميع المخلوقات: الحجر، والشجر، والجبال، والنجوم، والأفلاك، والسماوات، والأرض وكل المخلوقات تسبح الله ﷻ.

﴿ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾، هذه أربعة أسماء من أسمائه ﷻ، و﴿ٱلْمُلْكُ﴾، هو: الذي بيده ملكوت السماوات، والأرض، ومن فيهن، بيده الملك، وهو على كل شيء قدير، فهو المالك المطلق الذي لا نفاد، ولا زوال لملكه[1] ﷻ، ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ

---

(١) انظر: تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج (١/ ٣٠)، (١/ ٦٢)، وتفسير أسماء الله الحسنى للسعدي (١/ ٢٣٣ - ٢٣٤).

ﭐلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٦]، فهو مالك الملك سبحانه وتعالى.

وأما ملوك الدنيا، فإن ملكهم زائل، علاوة على أنه ملك موهوب لهم من الله، ثم هو -أيضًا- عارية يزول، إما بموت الملك، وإما بسقوطه، والتغلب عليه، يقول الشاعر(١):

وَمَنْ تَكْسُ تَاجَ المُلْكِ تَنْزِعْهُ غداً ... بِأَيْدِي المَنَايَا أَوْ بِأَيْدِي عِدَائِهِ

فملك المخلوقين زائل، وملك الله عز وجل هو الباقي المستمر، فهو الملك الحقيقي سبحانه وتعالى.

﴿ٱلۡقُدُّوسُ﴾، صيغة مبالغة من التقديس، وهو: التنزيه عن كل عيب، ونقص.

﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾، من العزة، وهو: القوي الذي لا يغلبه شيء سبحانه وتعالى.

﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾، الذي يضع الأمور في مواضعها، فهو سبحانه وتعالى يضع كل شيء في موضعه، أما الذي يضع الأشياء في غير مواضعها، فليس حكيمًا.

ومن حكمته سبحانه وتعالى العظيمة: أنه بعث في الأميين رسولًا منهم، قال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ﴾، أي: أرسل، ﴿فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾، جمع: أميّ، والأميّ في الأصل هو: الذي لا يقرأ، ولا يكتب(٢)، والمراد بالأميين هنا: العرب لأنه

---

(١) انظر: ديوان ابن مشرف لأحمد بن علي بن مشرف قصيدة: «إِيَّاكَ وَالدُّنْيَا الدَّنِيَّةَ إِنَّهَا».

(٢) والمراد بالأمي: أنه على أصل ولادة أمه، لا يقرأ، ولا يكتب، فهو على جبلته الأولى، وقيل للعرب: أميين؛ لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة، أو عديمة.
انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٦٨)، ولسان العرب (١٢ / ٣٤).

ليس لهم كتاب، قبل القرآن، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾ [سبأ: ٤٤].

فكانت العرب تابعة لأهل الكتاب، وكان بعضهم تابعًا للوثنيين، وعبدة الأصنام، وهم كثيرون، فكانوا ضائعين، بعد أن كان أولهم على ملة إبراهيم عليه السلام، لكن فشا فيهم الشرك، وفشت فيهم الأخلاق الرذيلة، فصاروا ضائعين، منهم من يعتنق اليهودية، ومنهم من يعتنق النصرانية، ومنهم من يعتنق المجوسية، ومنهم من يعتنق الوثنية، فكانوا ضائعين بين العالم.

بينما اليهود عندهم كتاب التوراة، والنصارى عندهم كتاب الإنجيل.

إلى أن ﴿بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، هو: محمد ﷺ، و﴿مِّنْهُمْ﴾: أي من نسبهم، وجنسهم، وهكذا يرسل الله عز وجل إلى كل أمة رسولًا منها؛ لأنه لو جاءهم رسول لا يعرفونه ما اتبعوه، فمن حكمته سبحانه وتعالى: أنه يرسل الرسل من جنس المرسل إليهم؛ لأن هذا أقرب إلى استجابتهم له وانتفاعهم به.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ﴾ [إبراهيم: ٤]، فهذا من حكمته سبحانه وتعالى، ذلك العرب رسولهم منهم، ومن نسبهم، يتكلم بلسانهم، ويعرفونه، ويعرفهم، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الشعراء: ١٩٨-١٩٩]، فمن حكمته سبحانه وتعالى: أن جعل هذا الرسول من الأميين، وهو ﷺ أمي، كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

وهذا من أعظم معجزات الرسول ﷺ، أن جاء بالقرآن الذي لا يستطيع

البشر كلهم ولا الجن، والإنس، أن يأتوا بسورة منه، أو من مثله، فلو كان يقرأ، ويكتب، لقال الكفار إنه قرأ من الكتب السابقة، فجمع هذه الأمور لنا، فلما كان أميًا، لا يقرأ، ولا يكتب، وجاء بهذا الكتاب العظيم، دل ذلك على صدق رسالته ﷺ.

﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، ولم يكن يقرأ، أو يكتب، ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨]، فالقرآن هو أعظم معجزة له ﷺ، دالة على صدق رسالته ﷺ؛ ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، أي: يطهرهم من الأخلاق الرذيلة التي كانوا عليها في الجاهلية؛ لأنهم كانوا أمة مهينة بين الأمم، لا قيمة لها، متدنسة بالوثنية، ومتدنسة بكل سوء، وهذا الرسول طهرها في عقيدتها، وفي معاملتها، وفي أخلاقها، ومآكلها ومشاربها، فزكاها، وطهر أموالها من الربا، والرشوة، والمكاسب الخبيثة، وطهر نفوسها بالعبادات والتوحيد والإخلاص من الشرك والوثنية.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾، مما عليم من القرآن، حتى أصبحوا متعلمين، يقودون العالم بالعلم، بعد أن كانوا أميين، وبقي هو على أميته، وكان ﷺ يتلقى القرآن من ربه ﷻ بواسطة جبريل عليه السلام، ثم يعلمه لأصحابه، آيات، وسورًا حتى تكامل القرآن عند وفاته ﷺ، فحفظوه من الرسول ﷺ وكتبوه كما تلقوه عنه، وفي تعليم الرسول ﷺ لهم، وتلقيهم عنه لهذا القرآن وحياً من الله، خروجاً لهم من الجهالة وتضليلاً.

﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾، الحكمة هي: السنة، وهي: الأحاديث النبوية[1]، وهي مفسرة للقرآن، وموضحة له، وقيل: الحكمة الفقه في الدين.

وعن مُعَاوِيَةَ رضي الله عنه، قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**».

فالحكمة تطلق على السنة النبوية، وتطلق على الفقه في الدين، وفهم الآيات، والأحاديث على الوجه الصحيح، ومنها يتكون العلم فليس العلم حفظ النصوص فقط.

فأصبحوا علماء بعد أن كانوا أميين، وأصبحوا يعلمون الناس، ويعلمون الأمم، والأجيال، وهذه أعظم نعمة من الله سبحانه وتعالى، فبعد أن كانوا متأخرين صاروا في المقدمة، وأساتذة العالم، وسادوا العباد، والبلاد، وفتحوا القلوب بالعلم، وفتحوا البلاد بالجهاد في سبيل الله حتى دخلت دولة الفرس ودولة الروم تحت حكمهم بسبب أهليتهم للقيادة، وهذا بفضل الله سبحانه وتعالى، ثم ببركة هذا القرآن العظيم، وهذه السنة النبوية.

﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ﴾، أي: من قبل أن يبعث هذا الرسول ﷺ، وقبل أن ينزل هذا القرآن العظيم ﴿لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، كانوا تائهين في العالم ليس لهم قيمة، يتخطفهم الناس، وهم فيما بينهم يتحاربون، ويتقاتلون، ويسبي بعضهم بعضًا، ويأكل قويهم ضعيفهم، ويتغلب عليهم جبابرتهم،

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٧/ ٣٦٩)، وتفسير ابن كثير (٢/ ١٣٩)، وتفسير القرطبي (٢/ ١٣١).

وطواغيتهم، ويتسلط عليهم طواغيت الإنس، والجن، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ [الأنفال: ٢٦]، من دول الروم، والفرس، فهم في ضلال في عقائدهم، وفي دنياهم؛ لأنه ليس عندهم كتاب، والهدى إنما هو في الكتاب، فكانوا في جاهلية جهلاء، وفي ضلالة عمياء؛ ولهذا قال: ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، فأخرجهم الله من هذا الضلال إلى الهداية، ومن الجهل إلى العلم، ومن الظلمات إلى النور، ومن الكفر والشرك إلى الإيمان، والتوحيد هذه نعمة عظيمة من بعثة هذا الرسول ﷺ، وإنزال هذا الكتاب العظيم، الذي أورثه الله هذه الأمة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢]، أي: اخترناهم وهم: هذه الأمة.

ولما ذكر الله ﷻ منته على هذا الجيل الذي بعث فيهم الرسول ﷺ، ذكر أن نعمته متواصلة على من بعدهم إلى أن تقوم الساعة فقال: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾، أي سيلحقون بهم في العلم والإيمان والدعوة والجهاد.

فهذا القرآن، وهذا الدين محفوظ، إن تولى عنه قوم، يسر الله له قومًا آخرين، يقومون به وقيل: المراد بقوله: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ﴾، أي: من العجم(١)، سيلحقون بالعرب في هذا الدين، ويسلمون، ولا مانع من المعنيين.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: «كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، إِذْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٣٧٤)، وزاد المسير (٤/ ٢٨١)، وتفسير ابن كثير (٨/ ١٤٢) وتفسير القرطبي (١٨/ ٩٣).

الْجُمُعَةِ، فَلَمَّا قَرَأَ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ [الجمعة: ٣] قَالَ رَجُلٌ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ يَا رَسُولَ اللهِ فَلَمْ يُرَاجِعْهُ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى سَأَلَهُ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، قَالَ: وَفِينَا سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ قَالَ: فَوَضَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ عَلَى سَلْمَانَ، ثُمَّ قَالَ: «لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا، لَنَالَهُ رِجَالٌ مِنْ هَؤُلَاءِ»(١).

وصدق رسول الله ﷺ، فكم من عالم متبحر في الحديث، والفقه، واللغة العربية، والعلوم الشرعية من الفرس، وغيرهم؛ لأن هذا الدين ليس خاصًا بالعرب، إنما هو دين العالمية، من دخل فيه، وتمسك به ساد، ومن تركه هلك.ولكن مسلمو العرب صاروا معلمين لغيرهم.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾، أي الله هو: العزيز القوي الذي لا يغالب، وإذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون، ولا يمنعه أحد، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، الذي يضع الأمور في مواضعها، ومن حكمته: بعثة هذا الرسول ﷺ في العالم، وإنزال هذا القرآن عليه.

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾، هذا تذييل للآيات فالذي أعطى هذه الأمة بعد و إن كانت أمية، لاتقرأ، ولا تكتب هو الله تفضلاً منه.

ثم حذر الله ﷻ أن يحمل هذا الكتاب بدون عمل به، كما حصل من الأمم السابقة التي حملت الكتب، ولم تعمل بها، فهذا تحذير من الله لنا؛ لأن هذا القرآن يحتاج منا إلى عمل، ولا يكفي أن نحمله، ونرتله، ونحسن أصواتنا

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٩٧)، ومسلم (٢٣١)، واللفظ له، وانظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٣٧٥)، وتفسير ابن كثير (٨/ ١٤٢)، وتفسير القرطبي (١٨/ ٩٣).

به، وفقط، بل لابد من العمل، إنما تعلم القرآن، والتلاوة، وتحسين الصوت بالتلاوة وسيلة للعمل، وليست هي الغاية، فهذا القرآن يحتاج إلى حمل صحيح بالعمل به، لا حمل إثقال فقط.

فهذا تحذير لنا أن نحمل القرآن، ولا نعمل به، كما حصل من اليهود، والنصارى، مع التوراة والإنجيل قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾، وهي: الكتاب التي أنزل على موسى، وهي أعظم الكتب بعد القرآن، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]، والإنجيل تابع للتوراة، ومصدق، ومكمل لها.

فحذرنا الله من أن نسلك مسلك اليهود، والنصارى مع كتابنا، فيقتصر على مجرد حمل فقط، دون عمل به، وتدبر له كحالة هؤلاء ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٧٨﴾ [البقرة: ٧٨] أي: تلاوة فقط، فلا نكن مثلهم، همنا التلاوة فقط، وتحسين الأصوات، والمباهاة بحفظ القرآن، وتجويده، إنما يكون هذا وسيلة إلى العمل، ولا تتخذ تلاوة القرآن لتتكسب بها كما يفعله بعض القراء.

﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ﴾ سواء من اليهود، والنصارى، أو من هذه الأمة.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، لم يعملوا بها، وإنما اكتفوا بحملها وتلاوتها، وترديدها بدون عمل.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا يوفقمن هذه صفته لأنه ظالم، والقبول لا يحصل للظالمين الذين زهدوا في العلم، وزهدوا في القرآن، وزهدوا في السنة، وإن كانوا يحملونهما، لكن لا يهديهم الله؛ لأن قلوبهم

فسدت -نسأل الله العافية-.

فالجزاء من جنس العمل، وما ظلمهم الله؛ لأنهم لما كانوا ظالمين، لم يوفقهم الله للعمل، والهداية، وحرمهم الله بسبب ظلمهم.

فليحذر المسلم من هذا المسلك مع القرآن العظيم، إذا حمل القرآن فليكن خير حامل؛ ليكون حجة له يوم القيامة، قال تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣]، قوة بتدبر، وعمل، وجد.

هذا - وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه.

الدرس الخمسون

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [الجمعة: ٦ - ١١].

لما ذكر الله ﷻ أن اليهود حملوا التوراة، ثم لم يحملوها، وشبههم بالحمير تحمل أسفارًا، وهم مع ذلك، ومع هذه المهانة، والذلة، يدعون لأنفسهم الدعاوى العريضة الكبيرة، فيزعمون أنهم يحبون الله، وأن الله يحبهم، وأنهم أبناء الله، وأحباؤه.

وسموا أنفسهم شعب الله المختار، وأن الناس خدم لهم، فلما كانوا يدعون أنهم أولياء الله دون غيرهم، تحداهم الله ﷻ بهذه الآية، فقال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟﴾، أي: دانو بدين اليهود، ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ

﴿أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾، أنكم أبناء الله، وأحبابه، وأن الجنة لكم دون غيركم، فادعوا على أنفسكم بالموت؛ لأجل أن تصلوا إلى هذه الكرامة، فإن الحبيب يحب لقاء حبيبه، ومن أحب الله أحب الله لقاءه[١]، وأنتم تزعمون أن الجنة تنتظركم، وأنها لكم، فلماذا تبقون في هذه الدنيا، وأنتم أمامكم الجنات، والنعيم؟ اطلبوا من الله أن يميتكم حتى تصلوا إلى هذه الأمنية، وهذه الكرامة.

﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: ادعوا على أنفسكم بالموت، إن كنتم صادقين فيما ادعيتم، فإن لم تفعلوا فإنكم غير صادقين، وهم يعلمون ذلك، ويعلمون ما عند الله لهم من العذاب، والنيران؛ لأنهم كفروا بالله، وعصوا رسله، وفعلوا الأفاعيل القبيحة، فهم يعلمون مصيرهم، ومستقبلهم؛ فلذلك لم يتمنوا الموت؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾، والسبب: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: أنهم يعرفون ما قدمت أيديهم للآخرة من الكفر، وأذية الأنبياء، والأعمال المشينة؛ لذلك يكرهون الموت؛ لأن الموت يوصلهم إلى ما يكرهونه.

كما قال الله ﷻ: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا﴾ [البقرة: ٩٤- ٩٥] فأخبر ﷻ أنهم لا يمكن أن يتمنوا الموت، وهم يعرفون مصيرهم، ومآلهم، ويعرفون أفعالهم، بل إنهم يودون طول الحياة،

---

(١) كما في الحدث الذي أخرجه مسلم (١٦)، عَنْ عَائِشَةَ ﵂، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ، أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ، كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ، وَالْمَوْتُ قَبْلَ لِقَاءِ اللهِ»**.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [البقرة: ٩٦]، أحرص على البقاء في الدنيا من المشركين الذين يعبدون الأوثان.

فما فائدة الحياة الدنيا إذا لم تكن على عمل صالح، وإن طالت، بل إن طولها أشقى للعبد؛ لأنه يزيد من الكفر، والمعاصي، والذنوب، هذا قول جمهور المفسرين في الآية، وقيل: إن الله ﷻ قال لهم: إن كنتم تزعمون أنكم على حق، وأن محمدًا، والمسلمين على ضلال، فتعالوا ندعوا بالموت على الضال منا، وهذا من باب المباهلة بأن يدعى على الضال من الفريقين بالموت العاجل، وهذا اختيار الإمام ابن كثير رحمه الله، فإنه يرى أن هذه الآية، وآية البقرة من المباهلة.

والمباهلة أن يدعا بالموت، أو اللعنة على الكافر من الفريقين.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، من الفريقين، وإن تمنوا لأنفسهم الأمنيات، والدعاوي، فإن الله عليم بأحوالهم، ولا ينفعهم تمنيهم، ودعاواهم؛ لأن الله ﷻ لا يروج عليه الدعاوى، والكذب، وهو عليم بالظالمين من الفريقين من المسلمين، أواليهود وسيجازي الظالمين بما يليق بهم.

ثم قال ﷻ لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾، لما لم يدعوا على أنفسهم بالموت كراهية له، ورغبة في الحياة الدنيا، فإن الموت آت عليهم، ولابد، ولا نجاة لهم منه، وهو ملاقيكم.

ومن العادة أن ما تفر منه يكون خلفك، ولكن الموت تفر منه، وهو أمامك، وربما تسرع إليه بنفسك؛ لأنه أمامك، ومحيط بك مهما حاولت، وهذا تهديد، ووعيد لهم، ثم إن المسألة ليست موتًا، وتنتهي، بل هناك

ما هو أشد، وهو أن المرد إلى الله ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ينبئكم بأعمالكم، ويجازيكم عليها، ولا يمكنكم الحيل، والاعتذارات، والتخلصات؛ لأن الله يعلم أحوالكم، ولا ينفعكم الكذب، والتزوير، ولا تنفعكم الدعاوى؛ لأن الله ﷻ لا يخفى عليه شيء، ولا يروج عليه الكذب، والاحتيال، والبهرجة.

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: فيخبركم بأعمالكم في الدنيا دقيقه، وجليله، ظاهره، وخفيه.

ثم في آخر السورة خاطب الله المؤمنين خاصة، ودعاهم للاستعداد لهذا اليوم فقال ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾، هذا نداء من الله للمؤمنين خاصة؛ لأنهم هم الذين يمتثلون أوامر الله، ويصغون لندائه ﷻ بموجب الإيمان، فالإيمان يقتضي منهم الاستجابة لله، ولرسوله، وفعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه.

ودعاهم لصلاة الجمعة لأن صلاة الجمعة فريضة حتمية على كل مسلم، وكذلك سائر الصلوات الخمس، لكن خصت الجمعة؛ لأهميتها، والمراد: بالنداء النداء الثاني الذي عند جلوس الإمام على المنبر، وهو الذي كان على عهد النبي ﷺ، وصاحبيه، أبي بكر، وعمر رضي الله عنهما.

وفي خلافة عثمان رضي الله عنه كثر الناس في المدينة، وتوسعوا، وكثر فيهم طلب الرزق، والبيع، والشراء، والزرع، وغير ذلك، فكانوا ينشغلون عن الذهاب إلى الجمعة، فعثمان رضي الله عنه أمر بالنداء الأول؛ من أجل أن يتنبه الناس مبكرين، ويستعدوا لصلاة الجمعة، وأقره المهاجرون، والأنصار

على ذلك، فهو من سنة الخلفاء الراشدين[١]. وقد قال رسول الله ﷺ: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْأُمُورَ الْمُحْدَثَاتِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[٢].

فالأذان الأول يوم الجمعة من سنة الخلفاء الراشدين، وهو باق، ومشروع، والغرض منه: تنبيه الناس في أعمالهم؛ لحضور صلاة الجمعة؛ لأن صلاة الجمعة تؤدى في مكان واحد، خلاف غيرها من الصلوات، فإنها تؤدى في الحارات، والأمكنة المتفرقة، فلما كانت صلاة الجمعة تؤدى في مكان واحد خصت بهذا.

ويجب أن يكون بين الأذانين فترة؛ ليتمكن الناس من الاستعداد، والحضور، فيكون الأذان مبكرًا.

كما أن الله شرع النداء الأول لصلاة الفجر، قبل طلوع الفجر، لا لأجل أن يصلوا الفجر، وإنما لأجل أن يتأهبوا لصلاة الفجر، فيستيقظ النائم، والمتهجد ينهي تهجده، فيستعد الناس، وهذا كان على عهد رسول الله ﷺ.

وأما من يقول من المتعالمين أن النداء الأول يوم الجمعة بدعة، فإنه لا يعرف السنة من البدعة؛ لأن البدعة ما لم يكن من سنة الرسول ﷺ، وسنة

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٩١٢) من حديث السَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ رضي الله عنه، قَالَ: «كَانَ النِّدَاءُ يَوْمَ الجُمُعَةِ أَوَّلُهُ إِذَا جَلَسَ الإِمَامُ عَلَى المِنْبَرِ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ رضي الله عنهما، فَلَمَّا كَانَ عُثْمَانُ رضي الله عنه، وَكَثُرَ النَّاسُ زَادَ النِّدَاءَ الثَّالِثَ عَلَى الزَّوْرَاءِ». قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: «الزَّوْرَاءُ: مَوْضِعٌ بِالسُّوقِ بِالْمَدِينَةِ».

(٢) جزء من حديث أخرجه الترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، واللفظ له، من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

الخلفاء الراشدين، وما يروى عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال النداء الأول يوم الجمعة بدعة، فإنه يريد بذلك البدعة اللغوية، لا الشرعية، إن صح عنه ذلك، كما قال أبوه رضي الله عنه في صلاة التراويح خلف إمام واحد نعمت البدعة هذه[١] - ذكر ذلك الحافظ ابن رجب في شرح الأربعين النووية.

فجاء الله بهذه الأمة، واختار لها يوم الجمعة، الذي هو سيد الأيام، وأفضل الأيام، فحسد اليهود المسلمين على ذلك، مما خصهم الله من الخير؛ لعلمه سبحانه وتعالى بأهليتهم لذلك، وتقواهم، وصلاحهم، واستقامتهم، فهذا اختيار الله لنا، فعلينا أن نشكر الله سبحانه وتعالى على هذه النعمة، وأن نعرف قدره، وأن نتفرغ فيه؛ لأداء صلاة الجمعة، ونتهيأ لها، وفي يوم الجمعة ساعة يستجاب فيها الدعاء[٢]؛ كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم، فهذا من خصائصه، وله خصائص كثيرة ذكرها ابن القيم رحمه الله في كتابه «زاد المعاد»، تزيد على أربعين خاصية[٣].

فهو يوم عظيم، وموسم كريم، ينبغي للمسلم أن يعرف قدره؛ ولهذا يشرع

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٢٥٠)، والبيهقي في الصغرى (١/ ٤٨١)، وفي شعب الإيمان (٣/ ١٧٧)، وأبو النعيم في الحلية (٩/ ١١٣). وأخرجه البخاري (٢٠١٠) من حديث عبد الرحمن القاري. ولفظه: «نِعْمَ البِدْعَةُ هَذِهِ».

(٢) انظر: كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٩٣٥، ٥٢٩٤)، واللفظ له، ومسلم (١٣) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ أَبُو القَاسِمِ صلى الله عليه وسلم: **«فِي الجُمُعَةِ سَاعَةٌ، لاَ يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ قَائِمٌ يُصَلِّي، فَسَأَلَ اللَّهَ خَيْرًا إِلَّا أَعْطَاهُ»**.

(٣) انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد للإمام ابن القيم رحمه الله «فصل في خواص يوم الجمعة» (١/ ٣٦٣).

الاغتسال عند الذهاب للصلاة، والتطيب، والتزين باللباس[١]؛ لأنه يوم عيد، واجتماع للمسلمين على العبادة، وعلى ذكر الله ﷻ، وأن يبكر لصلاة الجمعة؛ ليحصل على أجر التبكير والحضور، **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه: **أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ** ﷺ **قَالَ: «مَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الجُمُعَةِ غُسْلَ الجَنَابَةِ ثُمَّ رَاحَ، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الخَامِسَةِ، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً، فَإِذَا خَرَجَ الإِمَامُ حَضَرَتِ المَلَائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ»**[٢]. ثم بعد ذلك تنتهي الساعات.

فيستحب له التنظف، والتطيب، والتزين باللباس، والتبكير لحضور الصلاة، أما من يفرطون في هذا اليوم، ويعتبرونه يوم عطلة، ويخرجون للنزهات، والاستراحات، ويضيعونه، فهؤلاء لم يعرفوا قدر هذا اليوم إلا أنه يوم عطلة، وقد جاء الوعيد الشديد في حق من ترك صلاة الجمعة.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنهم، **أَنَّهُمَا سَمِعَا رَسُولَ اللهِ** ﷺ، **يَقُولُ عَلَى أَعْوَادِ مِنْبَرِهِ: «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمُعَاتِ، أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، ثُمَّ لَيَكُونُنَّ مِنَ الْغَافِلِينَ»**[٣].

عَنْ أَبِي الْجَعْدِ الضَّمْرِيِّ رضي الله عنه، **وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ** ﷺ

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه النسائي (١٣٨١) من حديث أَوْسِ بْنِ أَوْسٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: **«مَنْ غَسَّلَ وَاغْتَسَلَ، وَغَدَا وَابْتَكَرَ، وَدَنَا مِنَ الْإِمَامِ وَلَمْ يَلْغُ كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ عَمَلُ سَنَةٍ صِيَامُهَا وَقِيَامُهَا»**.

(٢) أخرجه البخاري (٨٨١)، واللفظ له، ومسلم (١٠).

(٣) أخرجه مسلم (٤٠).

قَالَ: «مَنْ تَرَكَ ثَلَاثَ جُمَعٍ تَهَاوُنًا بِهَا، طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ»[١].

فليحذر المسلم من هذا، وليعرف قدر هذا اليوم العظيم، ويستغله في طاعة الله ﷻ، ولا يعتبره يوم عطلة، وكسل، ومنهم من يأتي متأخراً ولا يحضر إلا عند الصلاة، ولا يحضر الخطبة، ومنهم من يفوته معظم الصلاة، ومنهم من تفوته الصلاة كلها، كل هذا من الكسل، وعدم الرغبة في الخير.

وقوله: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾، يدل على أن المسلمين يبيعون، ويشترون، ويطلبون الرزق، ولكن إذا سمعوا النداء، تركوا البيع، وأقبلوا على الصلاة، فإذا باع، أو اشترى بعد الأذان الثاني فبيعه باطل، ولا يصح؛ لأن الله نهى عنه، والنهي يقتضي الفساد، فكل شيء له وقت، وطلب الآخرة له وقت، وبذلك تنتظم مصالح الدنيا، والدين.

﴿ذَٰلِكُمۡ﴾، أي: ترك البيع، والسعي؛ لذكر الله، ﴿خَيۡرٌ لَّكُمۡ﴾ من البيع، ومن التجارة، ومن طلب الدنيا، ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ فضل الجمعة، ولا يعلم هذا إلا من عنده علم، وفقه في دين الله، ويفرق بين عمل الدنيا، وعمل الآخرة، أما الجاهل، فإنه لا يدرك هذا؛ لأنه غافل من الغافلين، أما من عنده علم، وفقه في دين الله، فإنه يحتسب، ويحسب أوقاته، ويرتبها، فدل على أن الذي لا يقبل على صلاة الجمعة، ولا يحضر الخطبة، أنه جاهل، لقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾، صلاة الجمعة، ﴿فَٱنتَشِرُوا۟ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، لا تبقوا

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥٠٢)، والنسائي (١٣٦٩).

في المسجد؛ لأن المهمة انتهت، وأنتم بحاجة إلى طلب الرزق، والذي يبقى في المسجد يعطل طلب الرزق، ﴿وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾، أي: الرزق، وفضل الله هو: الرزق بالبيع، والشراء، وغيرها.

﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾، بالتسبيح، والتكبير، والتحميد، وغير ذلك، فلا يغفل الإنسان عن ذكر الله ﷻ، سواء كان يبيع، أويشتري، ويشتغل بأي شغل من طلب الرزق، فإنه يذكر الله سبحانه وتعالى، ولا يعطل الذكر، وذكر الله لا يعطله عن طلب الرزق.

﴿لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾، أي: رجاء الفلاح، والفلاح ضد الخسار، فذكر الله من أسباب الفلاح، والغفلة عن ذكر الله من أسباب الخسار.

ثم قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، سبب نزول الآية: أن المسلمين كانوا في فقر، وفاقة، ثم جاءت عير من الشام عليها بضائع، وهم بحاجة، فسمعوا بها، وكانوا في المسجد جالسين يستمعون الخطبة من الرسول ﷺ، فلما سمعوا بقدوم العير، خرجوا إليها، ولم يبق مع الرسول ﷺ إلا اثنا عشر رجلًا، منهم: أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فعاب الله عليهم ذلك[1].

﴿ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾، أي: للتجارة ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ﴾، أي: تخطب على المنبر فعاب الله ذلك عليهم، ووبخهم سبحانه وتعالى، لكنهم فعلوا هذا؛ لشدة الحاجة، وشدة الفاقة، كل يريد أن يأخذ من هذه العير شيئًا، يدفع به حاجته.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٣٨٦ - ٣٨٨)، وتفسير ابن كثير (٨/ ١٤٩)، وتفسير القرطبي (١٨/ ١١٠).

وهذا -والله أعلم- كان في أول الأمر، لما كانت الخطبتان بعد الصلاة، وكان النبي ﷺ يصلي الجمعة أولًا، ثم يخطب كما في العيد، والاستسقاء، ثم بعد ذلك قدمت الخطبتان على الصلاة.

قال الله ﷻ: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، من الأجر، والثواب، والرزق في الدنيا، والثواب والأجر في الآخرة، ﴿خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، فيطلب الرزق من الله ﷻ مع أداء ما أوجب الله من عبادته وحده لا شريك ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ١٧].

ودينينا -والحمد لله- لا يمانع في طلب الرزق، إذا كان لا يشغل عن أداء الواجبات، بل يأمر بذلك، ويحث عليه، فديننا جامع بين مصالح الدين، والدنيا، فهذه سورة عظيمة، وفيها أحكام عظيمة، وتسمى سورة «الجمعة»؛ لأن الله ذكر الله فيها يوم الجمعة، وصلاة الجمعة.

وكان النبي ﷺ يقرأ في صلاة الجمعة في الركعة الأولى بهذه السورة، ويقرأ في الثانية سورة «المنافقون»، لأن المنافقين يحضرون هذه الصلاة، وأحيانًا يقرأ في الأولى ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١] وفي الثانية ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١]. فيستحب قراءة هاتين السورتين في صلاة الجمعة، أو سورة «الأعلى»، و«الغاشية»؛ اقتداء بالرسول ﷺ.

وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

الدرس الحادي والخمسون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾﴾ [المنافقون: ١ - ٦].

هذه السورة العظيمة، ذكر الله فيها حال المنافقين، وصفاتهم؛ من أجل أن يحذرهم المسلمون في كل زمان، ومكان؛ ولهذا كان ﷺ يقرأ في صلاة الجمعة في الركعة الأولى بسورة «الجمعة»؛ ليذكر المؤمنين بالاهتمام بصلاة الجمعة، ويقرأ في الركعة الثانية سورة «المنافقون»؛ لأجل أن يوبخهم؛ لأنهم يحضرون، فلعلهم يتوبون، أو يتوب من شاء الله منهم.

فهي سورة عظيمة، والنفاق هو: إظهار الخير، وإبطان الشر، وهو ينقسم إلى قسمين:

الأول: نفاق اعتقادي، وهو كفر أكبر يخرج من الملة.

الثاني: نفاق عملي، وهو لا يخرج من الملة، ولكنه ينقص الإيمان(١)، فمن اتصف بصفة من صفات المنافقين نقص إيمانه، وإذا تكاثرت فيه صفات المنافقين نقص إيمانه نقصًا نقصًا عظيمًا. **عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا»** يعني: النفاق العملي، لا النفاق الاعتقادي، **«إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»**.

فالمؤمن يحذر أن تكون فيه صفة من صفات المنافقين، والنفاق لم يحدث إلا بعد الهجرة، وما كان في مكة نفاق؛ لأن المسلمين في مكة كانوا مضطهدين، ولا يؤمن إلا من هو صادق في إيمانه، ويصبر على الاضطهاد، والبلاء، فلم ينجم النفاق في مكة، وإنما نجم بعد الهجرة.

لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وبايعه أهل المدينة من الأوس، والخزرج، وظهر الإسلام، كان هناك من الأوس، والخزرج من لم يقبلوا الإسلام، ولكنهم لجؤوا إلى النفاق، بأن يظهروا الإسلام؛ لأجل أن يسلموا على دمائهم، وأموالهم؛ وهم كفار في الباطن.

---

(١) انظر: معارج القبول (٣/ ١٠٢٠)، وشرح كشف الشبهات للشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ (١/ ١٢٩)، وإعانة المستفيد (١/ ٢٠٠) للمؤلف-حفظه الله-.

فأنزل الله ﷻ فيهم ما يفضحهم من الآيات، والسور؛ كما في أول سورة «البقرة»، وكما في سورة «التوبة»، وكما في هذه السورة.

وفي هذه السورة يقول الله ﷻ لنبيه محمد ﷺ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾، فقد كانوا يأتون إلى مجلس الرسول ﷺ؛ لينافقوا، ويتملقوا، ويدفعوا الشبهة عنهم، فكانوا يحضرون في مجلسه ﷺ، ولكن صدق القائل: «**كاد المريب أن يقول: خذوني**»، فكانوا إذا أتوا قالوا للرسول: نشهد إنك لرسول الله، ولم يطلب منهم الرسول ﷺ ذلك؛ لأنهم مسلمون، والمسلم لا يحتاج إلى أن يقول للرسول: أشهد أنك رسول الله؛ لأنه مسلم من الأصل.

فلما كانوا مستوحشين من حالهم، أرادوا أن ينفوا هذه التهمة عن أنفسهم، فقالوا ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾، فالشهادة يمين.

قال الله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾، ليس هناك حاجة لأن يقولوا هذا؛ لأن رسالة النبي ﷺ ثابتة، والمؤمنين يعتقدونها، فلا حاجة أنهم إذا لقوا الرسول نشهد إنك لرسول الله، والله يشهد أنهم في قولهم هذا كاذبون، ففضحهم الله ﷻ، ثم بين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غرضهم من هذه الشهادة، ولماذا يشهدونها عند لقاء الرسول ﷺ، فقال ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾، أي: شهاداتهم، وفي قراءة: [اتخذوا إيمانهم جنة]، أي: سترة، يستترون بها أمام الناس، وأمام المسلمين؛ لأجل أن يسلموا على أموالهم، وعلى دمائهم، ويبقوا مع المسلمين؛ لأنهم ليس فيهم شجاعة، وقوة يقاومون بها المسلمين، فلجأوا إلى هذه الحيلة.

﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، صدوا غيرهم عن سبيل الله؛ لأنهم يفتون في عضد من يريد الإسلام، وفي عضد المسلمين، ويشككونهم في الإسلام، ويظهر ذلك في مجالسهم الخاصة، ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]، إذا خلوا إلى شياطينهم من اليهود يقولون لهم: إنا معكم، إنما نحن مستهزؤون بالمسلمين في إظهارنا الإسلام.

﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، هذا ذم من الله لعملهم، الذي يتلون، ويتغير من مكان إلى آخر، أما المؤمن فثابت على إيمانه في أي مكان، وأي زمان، ومع من كان، فهو دومًا ثابت لا يتغير.

أما هؤلاء فإنهم يتلونون، ويتغيرون حسب الظروف، وإذا حصل للمسلمين مصيبة، يفرحون بذلك، ويبثون دعاية ضد المسلمين في كل المواقف، فهذا ديدنهم ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، من النفاق، وإظهار غير ما في حقيقتهم، ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة: ٩ - ١٠].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا﴾، أي: سبب سوء أعمالهم، ووقاحة أفعالهم: أنهم آمنوا، ثم كفروا أي ارتدوا، وقيل معناه: أنهم آمنوا في الظاهر، ثم كفروا بالباطن، وقيل معناه: أنهم يظهرون الإسلام إذا كانوا مع المسلمين، ثم يكفرون إذا كانوا مع الكفار، فهم تبع الأحوال، والمتغيرات.

﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، فلا تقبل الحق بعد ذلك، ولا تقبل الهدى،

ولا يصل إليها نور، فقلوبهم مطبوع عليها بطابع يمنع وصول الخير إليها؛ عقوبة لهم على ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾، أي لما طبع الله على قلوبهم صاروا لا يفهمون الكلام، ولا يعرفون معنى ما يسمعون، ولا ينتفعون، مع أنهم يحضرون، ويسمعون القرآن، وكلام الرسول ﷺ، ومع هذا لا ينتفعون.

قال الله ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ [محمد: ١٦]، فيحضرون خطبة الجمعة مع الرسول ﷺ، وإذا خرجوا من خطبة الجمعة، يسألون أهل العلم، كابن مسعود، وغيره: ماذا قال محمد آنفًا؟ كأنهم لم يحضروا؛ لأنهم لا يفقهون -والعياذ بالله-، فالنفاق سبب في الطبع على القلوب، ونزع الفقه منها، فيصبح المنافق يسمع، ولا يفهم، ولا يتأثر، ولا يستفيد، وهذا حرمان من الله ﷻ.

ثم ذكر سبحانه وتعالى صفاتهم الظاهرة، وخبث قلوبهم، فمناظرهم بهية، وجميلة، ولكن قلوبهم فاسدة قبيحة، ولا ينفع جمال الظاهر مع خراب الباطن، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾، كانوا ذوي هيئات، وجمال، كرئيسهم عبدالله بن أبي بن سلول، كان بهي المنظر، جميلًا جسيمًا، وكذلك غيره منهم.

﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ أي: عندهم فصاحة، ومنطق بليغ، فإذا سمعهم السامع، يعجبه كلامهم من فصاحتهم، وبلاغتهم، فعندهم جمال الصورة، وعندهم بلاغة في النطق، والفصاحة.

ثم شبههم الله فقال: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾، يحضرون عند الرسول ﷺ ويستندون على الحيطان، ويستمعون، ولكن لا يفهمون، فهم مثل الخشبة

اليابسة، لا يؤثر فيها الكلام، والوعظ، والخشب المسندة لا تفقه، ولا تعي مع أنهم رجال، ولهم عقول، ولهم مظاهر جميلة، وعندهم فصاحة، لكن لا يفقهون القرآن، والسنة(١).

ثم ذكر صفة ثالثة من صفاتهم: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾، عندهم خوف، ورعب دائمًا، كلما سمعوا صوتًا مرتفعًا ظنوا أنه يعنيهم؛ كما يقال: يكاد المريب أن يقول: خذوني فالله عاقبهم بالرعب.

وقيل: أنه كلما نزلت سورة، أو آية ظنوا أنها تعنيهم، وأن الله كشف أمرهم، كما قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٤]، فهم دائمًا في خوف من أن ينزل بهم قرآن، أو أنهم يعاقبون، ويصاح بهم، وينتبه لهم المسلمون، فيبطشون بهم(٢)، فهم دائمًا في قلق.

ثم وصفهم الله ﷻ بصفة خامسة فقال فيهم: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾، فحصر العداوة فيهم؛ لشدة عداوتهم، فهم أشد عداوة للمسلمين من الكفار

---

(١) يقول الطبري رحمه الله: «كأن هؤلاء المنافقين خُشُب مسنَّدة لا خير عندهم، ولا فقه لهم، ولا علم، وإنما هم صور بلا أحلام، وأشباح بلا عقول».
انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٣٩٥).

(٢) قال الإمام الطبري رحمه الله: (أنهم من خُبثهمْ، وسوء ظنهم، وقلة يقينهم يحسبون كلّ صيحة عليهم، لأنهم على وجل أن يُنزل الله فيهم أمرًا يهتك به أستارهم، ويفضحهم، ويبيح للمؤمنين قتلهم). انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٣٩٥).
وقيل: (لا يسمعون صوتاً إلا ظنوا أنهم قد أُتوا لما في قلوبهم من الرعب أن يكشف الله أسرارهم). انظر: زاد المسير (٤/ ٢٨٨).

الأصليين، وأشد ضررًا على المسلمين من الكفار؛ لأن المسلمين يعرفون الكفار، ويأخذون حذرهم منهم، وأما هؤلاء المنافقون، فإنهم يدعون الإسلام، ويخالطون المسلمين، ويترابطون معهم، والمسلمون لا يأخذون حذرهم منهم على أنهم من المسلمين؛ ولذلك قال: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ لأنهم عدو باطني.

ثم قال الله ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿فَٱحْذَرْهُمْ﴾، احذر من المنافقين، ولا تنخدع بهم، لا تفض إليهم بأسرارك، وتأتمنهم، لاتولهم عملًا من أعمالك.

وهكذا يجب على المسلمين، وعلى أولياء الأمور خصوصًا، أن يحذروا من المنافقين غاية الحذر؛ لأنهم جواسيس للكفار، ولأنهم يخذّلون المسلمين، ويرجفون بهم، ولأنهم يأخذون أسرار المسلمين، ويبثونها لعدوهم.

ثم قال الله ﷻ: ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾، أي: لعنهم الله، فالقتل معناه: اللعن(١)، فهذا وعيد شديد، وعقوبة عظيمة لهم، ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾، ما هو السبب الذي حملهم على هذه الجرائم؟، فالقرآن واضح، والسنة واضحة، ومعالم الحق واضحة، فليس لهم عذر في أن يلجئوا إلى ما لجئوا إليه، إلا أن قلوبهم مملوءة بالكفر -والعياذ بالله-، والحقد، والبغضاء للمسلمين.

ثم ذكر -أيضًا- من صفاتهم، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ﴾، إذا حصل منهم خطأ، أو ذنب، فإن الواجب عليهم التوبة إلى الله في أنفسهم وأن يطلبوا من الرسول ﷺ أن يستغفر لهم؛ لأن الرسول

---

(١) انظر: لسان العرب (٣٠/ ٢٣٤).

مجاب الدعوة، فإذا استغفر النبي ﷺ لأحد من المسلمين غفر الله له، أما المنافقون، فإن الله لا يغفر لهم، ولو استغفر لهم الرسول؛ لأنهم ليسوا محلًا للمغفرة، ﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾، تكبرًا، ووامتناعًا عن المجيء للرسول ﷺ، وعن استغفاره؛ لأنهم لا يؤمنون به.

﴿ورَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾، يصدون عمن يخاطبهم بهذا، ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾، صدوا صدود استكبار، وإعراض، وليس صدودًا عارضًا لأمر من الأمور.

ثم إن الله يأس رسوله أن يقبل استغفاره لهم، مع أنه ﷺ حريص على أن يستغفر لهم، ولغيرهم من أمته؛ لشفقته، ورحمته ﷺ.

قال الله له: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠].

عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه، أَنَّهُ قَالَ: «لَمَّا مَاتَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ، دُعِيَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؛ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَثَبْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتُصَلِّي عَلَى ابْنِ أُبَيٍّ وَقَدْ قَالَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟ أُعَدِّدُ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: «أَخِّرْ عَنِّي يَا عُمَرُ» فَلَمَّا أَكْثَرْتُ عَلَيْهِ، قَالَ: «إِنِّي خُيِّرْتُ فَاخْتَرْتُ، لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي إِنْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ يُغْفَرُ لَهُ لَزِدْتُ عَلَيْهَا». من شدة حرصه ﷺ على أمته.

﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾، والسبب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، أي: الخارجين عن طاعة الله، والمنافقون خارجون عن طاعة الله ﷻ، فهم فاسقون فسقًا أكبر.

وهكذا من عرف الحق، ولم يقبله، فإنه يعاقب بحرمانه، قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، فالله ﷻ لا يهدي المنافقين؛ لأنهم عرفوا الحق، ورفضوه عن معرفة، فعاقبهم الله بحرمانهم من الهداية، والهداية إنما تكون لمن يطلبها، ويحبها، فهذا هو الذي يهديه الله، وأما الذي يعرض عنها، ويرفضها، ولا يقبلها، فإن الله يحرمه منها؛ عقوبة له نسأل الله العافية من النفاق والشقاق وسوء الأخلاق وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

الدرس الثاني والخمسون

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٧ - ١١].

لما ذكر الله سبحانه وتعالى في أول السورة صفات المنافقين، ذكر في هاتين الآيتين بعض مقالاتهم، فذكر مقالتين قالهما رئيسهم -عبدالله بن أبي بن سلول-، ونسب ذلك إليهم جميعاً؛ لأنه رئيسهم، وهم ينقادون له، فكأنهم قالوهما.

قال الله عز وجل: ﴿هُمُ﴾: أي: المنافقون، ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾، أي: لا تتصدقوا على فقراء المهاجرين حتى يتفرقوا عن الرسول صلى الله عليه وسلم؛ لأنه غاظهم اجتماع المسلمين حول رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزعموا أن ذلك بسبب صدقاتهم، وأن المهاجرين جاءوا من أجل

صدقاتهم، فأرادوا أن يمنعوا هذه الصدقات، أو المعونات عنهم؛ من أجل أن يفتقروا، عن رسول الله ﷺ، ورد الله عليهم بقوله: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾، فالرزق من عند الله، لأنه بيده خزائن السماوات، والأرض المملوءة بأرزاقه ﷻ، فإن منعتم ما عندكم، فإن الله غني حميد، يعوضهم، ويعطيهم من فضله، ثم إن المهاجرين ما جاءوا طلباً لما عندكم وإنما جاءوا طلباً لثواب الله ومحبة الرسول ﷺ ورغبة فيما عند الله من أجر الجهاد والهجرة وفراراً بدينهم.

ثم قال ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾، لا يفهمون أن الرزق من عند الله، وأن الله ﷻ هو الذي ينفق على عباده، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: ٦]، ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [العنكبوت: ٦٠].

فإن منعتم ما تعطونه لهؤلاء، فلن يمنع الله عنهم الرزق، وسيعوضهم خيرًا مما عندكم، فهذا فيه رد عليهم، وبيان أنهم لا يفهمون الأسرار الكونية، ولا يفقهون أسباب الرزق، وكون الإنسان لا يفقه يجعله يصدر منه مثل هذه المقالة؛ لأنه لا يفهم أن الأرزاق بيد الله، وأن الله عنده خزائن السماوات، والأرض، يملكها ﷻ، ويرزق عباده، ولا ينقص ذلك مما عنده شيئًا إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾، مع أنهم يظنون الآن أنهم مثقفون، وأنهم متحضرون، فهذا وصف للمنافقين عمومًا في كل زمان، فالمنافقون لا يفقهون في كل زمان، وفي كل مكان، وإن زعموا أنهم فاهمون، ومتثقفون، فهم لا يفقهون؛ لأن الله حرمهم من الفقه بسبب نفاقهم.

ثم ذكر المقالة الثانية الصادرة من عبد الله بن أُبي فقال تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾، أي: رجعنا من الغزو؛ لأنهم كانوا مع رسول الله ﷺ في غزوة بني المصطلق، أو المريسيع، ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

وسبب ذلك أنه: حصلت مشادة في تلك الغزوة بين شاب من المهاجرين، وشاب من الأنصار، فلطم المهاجري الأنصاري، فقال الأنصاري يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، كل منهما ينادي جماعته، من باب الحمية، فسمع النبي ﷺ ذلك فقال: **«مَا بَالُ دَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَسَعَ**(١) **رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ**(٢)**، فَقَالَ: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ»**(٣).

فالمسلمون إخوة، المهاجرون، ليس بينهم عصبيات، ولا قبلية؛ لأنهم إخوة، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، دون نظر لأنسابهم ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قَالَ: «خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ خُطْبَةَ الْوَدَاعِ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ**

---

(١) أي: ضربه برجله أو بصدر قدمه، أو بيده على مؤخره. انظر: مقاييس اللغة (٥/ ١٧٧)، والنهاية في غريب الحيث والأثر (٤/ ١٧٣)، ولسان العرب (٨/ ٣٠٩)، وتاج العروس (٢٢/ ١٢٢).

(٢) قيل: أحدهما كان غفاريًا، والآخر جهنيًا، فظهر الغفاري على الجهني. انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٤٠٤).

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٠٥) واللفظ له، ومسلم (٦٣) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣](١).

فلا يليق بالمسلمين أن تسري بينهم هذه العصبية لقبائلهم، أو لأقاربهم، أو لبلدهم، وإنما يجب عليهم أن يكونوا إخوة، فالنبي ﷺ أنكر هذه المقالة، ووصفها بأنها من رواسب، ودعاوى الجاهلية، والله ﷻ ذم الجاهلية، وأمر بترك ما هي عليه من العصبية، والافتخار، والحمية الجاهلية، وتبرج الجاهلية ودعوى الجاهلية وربا الجاهلية وحكم الجاهلية. فكل ماينسب إلى الجاهلية مذموم يجب تركه والابتعاد عنه.

وكل ما ينسب إلى الجاهلية فإنه مرفوض، ولايجوز إحياؤه؛ لأن الله عوض المسلمين بالإسلام، والذي يحيي شيئًا من أمور الجاهلية مذموم؛ لأنه يريد أن يعود بالناس إلى الجاهلية.

وإنما الأنساب تعرف؛ لأجل التواصل فقط، والتراحم، لا لأجل الافتخار، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

فالواجب على المسلمين أن يعتزوا بإسلامهم، ولا يعتزوا بأنسابهم، وقبائلهم، وبلادهم، وإنما يعتزون بدينهم ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وكذا لا يعتزون بآثار الجاهلية وينقبون عنها باسم إحياء الآثار.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣٨/ ٤٧٤)، وابن عساكر في معجمه (٢/ ٨٣٤)، والبيهقي في الشعب، واللفظ له (٧/ ١٣٢).

والمنافقون يفرحون بالأحداث التي تحصل بين المسلمين، ودائمًا يغذونها؛ لتكون فتنة، ويبحثون عنها، وينشرونها؛ لأجل أن يفرقوا بين المسلمين، هذه صفاتهم في كل زمان، أما أهل الإيمان فإنهم يسترون هذه الأمور، ولا يظهرونها، ويصلحون بين الناس، ولذلك قال عبدالله ابن أبي لما بلغه قول المهاجري: «ما مثلهم، أي: مثل المهاجرين، إلا كما قيل: «سمن كلبك يأكلك». هكذا يقول -قبحه الله-، ويعني: أننا أنفقنا عليهم، وآويناهم، وهم أرادوا أن يترفعوا علينا. فنحن معهم كمن يغذي الكلب ليأكله وكذب في هذا فإن الكلب أوفى منه.

ثم قال: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ﴾، أي: من المدينة، ويعني بذلك نفسه؛ لأنه سيد قومه، ﴿مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾، يعنى بذلك رسول الله ﷺ.

قال الله ﷻ ردًا عليه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: أما المنافقون فلهم الذلة؛ لأن العزة إنما هي في الإيمان، لا بالنفاق، وقال الله ﷻ: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، فالإسلام يعلو، ولا يعلى عليه، والعزة الحقيقية إنما هي للمسلمين الصادقين لا للمنافقين الكاذبين.

وعبدالله بن أُبي بن سلول وكان لابن أُبي ابن، اسمه عبدالله بن عبدالله بن أبي بن سلول، وكان مؤمنًا صادق الإيمان، فلما بلغه هذا الكلام عن أبيه، اخترط السيف، وتعجل حتى أناخ على مجامع طرق المدينة، وجاء الناس يدخلون، فلما جاء أبوه ليدخل قال له: «دونك»، قال له: «مالك»؟ قال: **«وَاللَّهِ لَا تَدْخُلُهَا حَتَّى يَأْذَنَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَعْلَمَ الْيَوْمَ مَنِ الْأَعَزُّ مِنَ الْأَذَلّ»، فَقَالَ لَهُ: أَنْتَ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ، أَنَا مِنْ بَيْنِ النَّاسِ»،**

فَانْصَرَفَ عَبْدُ اللَّهِ حَتَّى لَقِيَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَاشْتَكَى إِلَيْهِ مَا صَنَعَ بِهِ ابْنُهُ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى ابْنِهِ أَنْ خَلِّ عَنْهُ، فَدَخَلَ فَلَبِثَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَلْبَثَ»(١).

وهذا من مصداق قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، فقد هيأ الله هذا الشاب المؤمن؛ لينتصر لرسول الله ﷺ، وأن يمنع أباه المنافق من الدخول حتى أذن له رسول الله ﷺ؛ ليعلم لمن العزة، وعلى من المذلة، وأذن له الرسول الكريم ﷺ؛ لأنه حليم.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وصفهم كما وصفهم بعدم العلم، فهم لا علم، ولا فقه، ولا عقول، وهذا ذم لهم، فلا يعلمون أن العزة لله، وأن العزيز من أعزه الله، وأن الذليل من أذله الله، وهذا بسبب نفاقهم، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾، فسبب أنهم لا يفقهون هو: أنهم آمنوا، ثم كفروا، فطبع الله على قلوبهم.

ثم إنه ﷻ لما ذكر صفات المنافقين، وأقوالهم، نادى المؤمنين؛ إكرامًا، وتشريفًا لهم، ولأجل أن يخالفوا المنافقين، فقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، هذا نهي من الله ﷻ أن يتلهى الإنسان بأمواله، وأولاده عن ذكر الله، وعن الصلاة، والزكاة، والتسبيح، والتهليل، والتكبير، فذكر الله يشمل جميع الطاعات القولية، والفعلية، فكلها ذكر لله ﷻ.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٤٠٣)، وتفسير ابن كثير (٨/ ١٥٧)، وتاريخ المدينة لابن شبة (١/ ٣٦٧).

فالمؤمن يجمع بين طلب الأموال، والأولاد، وطلب الآخرة، لايجعل كل همه طلب الدنيا، والأولاد، ولا يترك الدنيا؛ لأنه بحاجة إليها، وبحاجة إلى الأموال، والأولاد، فالله لم يذم طلب الأموال، وطلب الأولاد، وإنما ذم التلهي بذلك، وإلا فهو ﷻ أمر بطلب الرزق(١)، وأمر بطلب الأولاد(٢)، وهم نعمة من الله ﷻ، وإنما المذموم الانشغال بذلك عن طاعة الله ﷻ.

فقال هنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾، وقال ﷻ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [النور: ٣٦-٣٧]، فهم يبيعون، ويشترون، ويزرعون، ويطلبون الرزق، لكن إذا حانت الصلاة أقبلوا عليها.

فإذا سمعوا النداء أقبلوا عليه، ثم أدوا العبادة، ورجعوا إلى طلب الرزق، كما قال ﷻ: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾ [التوبة: ٢٤]، فالإنسان بحاجة إلى هذه الأمور، لكن لا تشغله عن دينه، ودينه لايمنعه منها، بل الدين يأمر بتحصيل هذه الأمور بالطرق المباحة، لكن المنهي عنه هو

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ١٥﴾ [الملك: ١٥].

(٢) كما في قوله تعالى في بيان دعاء نبيه زكريا عليه السلام: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩﴾ [الأنبياء: ٨٩].

الانشغال، والتلهي بها عن ذكر الله.

وذكر الله يشمل الذكر بالقول: كالتسبيح، والتكبير، والتهليل، ويشمل الذكر بالعمل: كالصلاة، والصيام، وسائر العبادات، كلها ذكر لله ﷻ، ثم قال: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾، أي: من يتله بالأموال، والأولاد عن ذكر الله، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، فحصر الخسارة فيهم، ولا تنفعهم أموالهم، ولا أولادهم، ولو جمعوا الأموال كلها، وصار لهم من الأولاد الكثرة، ما داموا منشغلين بذلك عن ذكر الله، فإنها لا تنفعهم، بل تكون خسارة عليهم في النهاية؛ والفلاح ضد الخسارة، فالذي يجمع بين طلب الرزق، والعبادة وذكر الله، هو المفلح، والذي ينشغل بالدنيا عن الدين، هذا هو الخاسر، وإن جمع أموال الدنيا، وإن كانت له الأرصدة الضخمة، والأموال الطائلة، فهو خاسر، ما دام أنه مفلس من طاعة الله، ومن ذكر الله ﷻ.

ثم قال ﷻ: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾، أمر الله بالإنفاق من الأموال، فلا تجمع الأموال، وتكدسها، فالله ما أعطاك إياها لتخزنها، إنما أعطاك؛ لتنفق منها في وجوه الخير.

فالرزق عطاء من الله، وإذا أنفقت منه أخلف الله عليك خيرًا مما أنفقت عاجلًا، وآجلًا، ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]، أما إذا بخلت، فإن الله يمسك عنك، لأن الجزاء من جنس العمل فلا تظن أن الإنفاق يضر المال، بل يزيده، وينميه.

فكثير من الناس يطلب الرزق، ويكثر، ويقول هذا تأمين لمستقبلي، كأنه سيعيش للدنيا مدة طويلة، فهو يؤمِّن هذه المدة، وهو ما يدري لعلها ساعة،

أو دقيقة، ولا يؤمِّن مستقبله الحقيقي الذي هو الدار الآخرة، فينفق في سبيل الله، فهذا هو تأمين المستقبل الصحيح الذي يبقى.

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ فهناك غاية تنتهي إليها حياتك، ويتوقف عملك، وينتقل هذا المال منك إلى غيرك، وأنت الذي تعبت فيه، وأفنيت حياتك؛ للحصول عليه، فصار لغيرك، ولم تقدم لنفسك منه شيئًا، هذا هو الحرمان، والموت آت بلا شك، ولا ريب، ما من أحد يقول: ربما أن يتركني الموت.

﴿فَيَقُولَ رَبِّ﴾، ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: أخرتني إلى مدة قصيرة، لأجل أن يعمل عملًا صالحًا.

﴿فَأَصَّدَّقَ﴾؛ لأنه لم يعمل بقول الله ﷻ: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾، ومضى عليه العمر، وهو ما أنفق، فيريد أن يتدارك لما رأى الموت، يريد أن يستدرك ما أهمله.

﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، قال بعض المفسرين: فأصَّدَّق يخرج الزكاة، وأكن من الصالحين: أي: أحج؛ لأنه أمضى حياته، وما أخرج الزكاة، ولا حج حجة الإسلام؛ لأنه مشغول بهذا المال، والظاهر أن الآية عامة، أي: أنفق، والزكاة من الإنفاق، ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، أي: أعمل الأعمال الصالحة، وأول ذلك الحج؛ لأنه ركن من أركان الإسلام على الغني.

قال الله ﷻ ردًا عليه: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾، أي نفس إذا جاء أجلها فلن يؤخرها الله عن هذا الأجل، وما من ميت يموت إلا وندم،

فإن كان صالحًا يندم ألا يكون قد ازداد من الأعمال الصالحة، وإن كان مسيئًا ألا يكون تاب إلى الله ﷻ؛ لأن الإنسان إذا نزل به الموت، وحضر، يرى أعماله، ويرى خاتمته، ويرى ما أمامه من جنة، أو نار.

فالعمل ينتهي بنزول الموت حتى لا يقبل منه التوبة، فلو تاب إذا بلغت روحه الغرغرة، لا تقبل توبته.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ﭬ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ لَيَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ، مَا لَمْ يُغَرْغِرْ»(١)، أي: تبلغ روحه الغرغرة.

ثم قال: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، من خير أو شر، فلا تظن أن ما عملته سيغيب ولا تراه، أو ينسى، ولا توافى به.

﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، قليلًا كان، أو كثيرًا، صالحًا، أو فاسدًا، كل يحضر عندك، والله ﷻ لا ينساه.

هذا ما وجه الله به عباده المؤمنين، ما داموا على قيد الحياة، وأن لايكونوا كالمنافقين الذين ضيعوا حياتهم في الكفر، والنفاق، والغرور، وهذه سنة الله ﷻ في القرآن: أن يذكر آيات الوعد، وآيات الوعيد، ويذكر التخويف، ويذكر الترغيب، هذا إلى جانب هذا؛ لئلا ييئس الإنسان؛ لأنه إذا سمع التخويف وحده ربما ييأس، أو إذا سمع الترغيب وحده ربما يطمع، ويغتر بالوعد.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٣)، وأحمد في المسند (١٠/ ٤٦١)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٣٩٤)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٨٦).

فالله يجمع بينهما لكي يكون المؤمن بين الخوف، والرجاء، لا يرجو رجاء يأمن معه من مكر الله، وغضبه، ولا يخاف خوفًا يقنط معه، وييأس من رحمة الله، بل يكون بين الخوف، والرجاء.

وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

الدرس الثالث والخمسون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
(١) هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٤) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم
بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦) زَعَمَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلْنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨)﴾ [التغابن: ١-٨].

ابتدأ الله هذه السورة العظيمة «سورة التغابن» بإخباره سبحانه وتعالى أن كل شيء في السموات، والأرض يسبح الله جل جلاله، أي: ينزه عن النقص، والعيب، والعجز؛ لأنه سبحانه وتعالى هو الكامل، الذي له صفات الكمال من كل وجه.

فقوله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾، بلفظ المضارع الذي يفيد الحال، والاستقبال، ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، من المخلوقات كلها، الناطقة، والصامتة،

لكن منها ما نفهم تسبيحه، وشيء لا نفهم تسبيحه، وكل شيء يسبح الله ﷻ بلغته، وقوله، ونطقه اللائق به، وإن كنا لا نفهم تسبيح كثير من المخلوقات، قال ﷻ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤].

وليس معنى أننا لا نفهم تسبيح هذه الأشياء، أنها لا تسبح، و﴿مَآ﴾، عامة، للعاقل، وغير العاقل، وكل المخلوقات تسبح الله ﷿.

﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، المبنية، وهي: السبع الطباق، وما فيها من الملائكة التي لا يعلمها إلا الله ﷻ، فالعالم العلوي كله يسبح الله ﷻ.

﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾، أي: يسبح لله ﷻ ما في الأرض من جميع المخلوقات وما في البحار، وكل شيء في الأرض يسبح لله ﷿، وينزهه عن النقص، والعيب.

وفي هذا ردٌّ على الذين يتنقصون الله ﷻ، ويصفونه بالعجز، وعدم القدرة على البعث من القبور، فهو ﷻ نزه نفسه عن ذلك.

قال ﷻ: ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ ولما أخبر ﷻ أن جميع ما في السموات، وما في الأرض يسبحه، أخبر أنه له الملك جميعه، فهو المالك المطلق لكل شيء، وأما المخلوق فإنه يملك ملكًا ممنوحًا له، ومؤقتًا، أما ملك الله ﷿ فهو دائم، وشامل لكل شيء.

﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ﴾ أي: جميع الثناء له ﷻ؛ لأنه المنعم بجميع النعم، قال ﷻ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ [النحل: ٥٣]، فالحمد المطلق له ﷻ؛ لأن النعم كلها منه ﷿، ومن عداه فإنه يحمد بقدر ما له من الفضل، ولكن

الحمد المطلق هو لله ﷻ.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، قادر على كل شيئ، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

ثم قال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ﴾، فمن قدرته على كل شيئ ﷻ أنه خلق بني آدم، وأوجدهم بعد أن لم يكونوا شيئًا، ولا أحد ينكر هذا، حتى الكفار لاينكرون أن الله هو الذي خلقهم، قال ﷻ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف: ٨٧].

فالله ﷻ اختص بالخلق، ولا أحد يخلق معه ﷻ، قال ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾، أي: بعدما خلقكم انقسمتم فريقين: منكم كافر بالله ﷻ الذي خلقه، ورزقه، ومنكم مؤمن به ﷻ، وموحد له، وعابد له.

وكل من الإيمان، والكفر مقدرٌ لله ﷻ، فهو الذي قدر الإيمان، والكفر، وخلق الكفر، وخلق الإيمان، قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزمر: ٦٢].

وهو خالق الخير، والشر، وخالق الطيب، والخبيث؛ لحكمة منه ﷻ، فالناس إما أن يكونوا من الكفار، وإما أن يكونوا من المؤمنين، وقدم الله ﷻ الكافر على المؤمن، لأن أكثر الناس كفار، والمؤمنون هم القلة التي منَّ الله ﷻ عليها بالإيمان، فالكفر، والإيمان خلقهما الله ﷻ، وقدرهما، ولكن العباد هم الذين يفعلون باختيارهم الكفر والإيمان بذلك،

فالكافر يكفر بإرادته هو، ومشيئته، واختياره، والمؤمن يؤمن بإرادته هو، ومشيئته، واختياره؛ لأن الله ﷻ أعطى كلًا قدرته، وإرادته، واختياره، وليس العبد مجبورًا على الكفر، وليس مجبورًا على الإيمان، بل إن هذا يرجع إلى اختيار العبد، ومشيئته؛ لأن الله ﷻ أعطاه ذلك، وأقدره عليه.

ثم قال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، أسند الله الخلق إليه ﷻ، وأسند العمل إلى العباد، فالكفر هو عملهم؛ لأنهم فعلوه باختيارهم، وإراداتهم، ومشيئتهم، والإيمان بعملهم -أيضًا-، وكسبهم، وإرادتهم.

﴿بَصِيرٌ﴾: أي: يبصر أعمالكم، وتحركاتكم، وسكناتكم، لا تخفون عليه ﷻ، فمهما عملت، فإن الله ﷻ يبصرك في أي مكان، ولا تظن أنك تخفى على الله ﷻ في أي مكان كنت، وإن كنت تخفى على الناس، فإنك لا تخفى على الله ﷻ، ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٨].

ثم قال ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾، هذا تعميم بعد تخصيص، فهو ﷻ خلق الإنسان، وخلق ما هو أعظم من الإنسان، وهو السماوات، والأرض.

قال ﷻ: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٥٧﴾ [غافر: ٥٧].

﴿بِٱلۡحَقِّ﴾، فهو ﷻ لم يخلق السماوات، والأرض عبثًا، لا نتيجة، ولا ثمرة له، وإنما خلقهما بالحق، لا بالباطل، ولا بالعبث، واللعب، قال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ

كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص: ٢٧]، وقال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الأنبياء: ١٦].

فخلق الله ﷻ السموات، والأرض لحكمة، ولغاية، ولمصالح العباد، ولتكون أدلة على وحدانيته ﷻ، وعلى قدرته، قال ﷻ: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف ١٠٥].

ينظرون إلى الأرض، وينظرون إلى السماء، ولا يعتبرون لخلقتها، وعجائبها، ويستدلون بذلك على قدرة الله ﷻ، ويشكرونه على فضله، وإحسانه.

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾، أي: جمل أشكالكم، فالصورة هي: الشكل الذي يكون عليه الشيء، فصورة كل شيء شكله الذي يكون عليه، وقد أحسن صور المخلوقات، والدواب، هي: وصورة الإنسان هي أجمل الصور؛ كما قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار: ٦-٨].

فلو نظر الإنسان إلى صورته، وشكله لتعجب من ذلك، لكنه غافل حتى عن نفسه، قال ﷻ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١].

ثم قال ﷻ: ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾: ليس خلق هذا الإنسان على هذا الشكل، والتركيب العجيب عبثًا، بل إنه سيصير إلى الله ﷻ، ويحاسبه، ويجازيه، فالإنسان لم يخلق ليشرب، ويملك على هذه الأرض، ويتسلط، ثم يذهب، وينسى. أبدًا.

فهذا الإنسان الذي اعتنى الله ﷻ به هذه العناية، وأنعم عليه هذه النعم، وسخر له كل شيء، له شأن عند الله ﷻ، ويصير إلى الله، ويبعثه الله بعد الموت، ويجازيه على أعماله، وتصرفاته.

﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾: أي: مصير كل المخلوقين، الكفرة، والمؤمنين، كلهم يصيرون إلى الله ﷻ، المحسن، والمسيء، كلهم مردهم إلى الله ﷻ.

ثم قال ﷻ: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ﴾، علمه ﷻ محيط بكل شيء. فهو عال فوق مخلوقاته وعلمه في كل مكان كما قال الشاعر: ومن علمه لم يخل في الأرض موضع.

﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾، أي: تخفونه.

﴿وَمَا تُعۡلِنُونَۚ﴾، تظهرونه، فيستوي في علمه ﷻ ما يسرّ، وما يعلن؛ لأن علمه محيط بكل شيء، ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، أي: بما في قلوبكم، ولا أحد يعلم ما في قلبك، وما تسره في نفسك إلا الله ﷻ.

فهو ﷻ عليم بما في صدور العالم، وما يسرون فيها، وما يفكرون فيه، وما ينوونه في قلوبهم، يعلم الله ﷻ ذلك، فينبغي للمسلم أن يحسن نيته، وقصده، وتفكيره؛ لأن الله ﷻ يعلم ذلك.

ثم قال ﷻ مذكرًا لعباده أحوال من كذب من الأمم السابقة، وكفر بالله ﷻ، وماذا حلَّ بهم.

قال ﷻ: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ﴾: أي: قد أتاكم، فهذا استفهام تقرير.

﴿نَبَأُ ٱلَّذِينَ﴾: أي: خبر الذين من قبلكم، وصل إليكم أخبار الأمم الماضية حتى كأنكم تشاهدونها مما قصه الله ﷻ في كتابه، وما تتناقلونه أنتم فيما بينكم، وما تشاهدونه من آثار الأمم الماضية من مساكنهم، وآثارهم في الأرض، وأن الله ﷻ قد أحلَّ بهم العقوبة، فخذوا حذركم من أن يحلَّ بكم ما حلَّ بهم، والسعيد من وعظ بغيره، ولا يعتبرونها مجرد آثار للنزهة والافتخار بها للسياحة.

فهذا فيه الحث على التدبر لأحوال الماضين، والاعتبار بآثارهم، كما قال الله ﷻ: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [غافر: ٨٢]. فلا تأمنوا أن يحلَّ بكم ما حلَّ بهم.

﴿فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ﴾، أذاقهم الله ﷻ عقوبته؛ بسبب أعمالهم، فما ظلمهم الله ﷻ.

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، في الدنيا مما حلَّ بهم من الهلاك، والدمار، وخراب الديار، وفي الآخرة من دخول النار، فاحذروا أن يصيبكم مثلما أصابهم. ثم بين سبب ذلك فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ﴾، أي: بسبب أنه، ﴿كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾، أي: بالبراهين، والأدلة الواضحة الدالة على وجوب عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه، فكل الرسل جاءوا بهذا، وهو: الأمر بعبادة الله ﷻ، وترك عبادة ما سواه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ فكفروا بالرسل، وكفروا

بآيات الله سبحانه وتعالى، فاحذروا أن تكفروا برسولكم ﷺ، وتكفروا بآيات ربكم عز وجل فيحل بكم ما حلَّ بهم.

﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾، أبَوْا أن يطيعوا الرسل، ويستجيبوا لهم، وقالوا: ليس لهم فضل علينا، هم من جنسنا، ولماذا يخصون بالرسالة دوننا مع أنهم مثلنا؟، فتكبروا على رسلهم، أن ينزل الله عليهم ملائكة، أو نرى الله بأعيننا.

قال سبحانه وتعالى: ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفرقان: ٢١].

وهذا من العجيب أنهم يستبعدون الرسالة أن تكون في البشر، ولا يستبعدون أن تكون العبادة للحجر، فهم يعبدون الأحجار، والأشجار، وهي دونهم.

وقالو: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾: استفهام استنكار، فقد واجهوا الرسل، وقالوا لهم: ما أنتم إلا بشر مثلنا؟، فأجابوهم بأن: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [إبراهيم: ١١].

ومن حكمته عز وجل: أن يكون الرسول من جنس المرسل إليه، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ [إبراهيم: ٤]. ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء: ٩٥].

فلو جاءهم رسول ليس منهم، لقالوا: ما نعرفه، ولا نصدقه، فهم دائمًا، وأبدًا يصرون على الكفر، واقتراحهم أن يكون الرسول من غير جنس البشر، إنما هو من باب الكبر، والتعنت؛ لأنه لو جاءهم رسول لا يعرفونه، لقالوا: هذا ما نعرفه فكيف نصدقه، وقال ﷻ: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩].

﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا﴾، كفروا بالرسل، وأعرضوا عنهم، ولم يلتفتوا لهم.

﴿وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾، عن عبادتهم له؛ لأنهم إنما يضرون أنفسهم، ولا يضرون الله ﷻ شيئًا.

فلو أن أهل الأرض كفروا جميعًا، ما نقص ذلك من ملك الله ﷻ شيئًا، ولو آمنوا جميعًا ما زاد ذلك في ملكه ﷻ شيئًا، وإنما هذا يرجع إلى العباد، كفرهم ضرره عليهم، وطاعتهم نفعها لهم.

﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾، الله ﷻ غني عن عبادتنا لكنه يأمرنا بالعبادة لمصلحتنا نحن؛ لأن مصلحتنا في عبادة الله.

وهو مع غناه حميد، أي: محمود ﷻ على أقداره، وأفعاله، وتدبيراته، محمود على كل حال، وعلى كل شيء ﷻ، لا يقول ولا يفعل إلا ما يحمد عليه.

ثم قال ﷻ: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا﴾، فالكفار ينكرون البعث، كما ينكرون الرسل ويقولون: كيف إذا مات الإنسان، وصار ترابًا، يعود من جديد؟

فهم يعجزون الله ﷻ، الذي هو على كل شيء قدير، فكما خلقهم أول

مرة من عدم، فهو قادر على أن يعيدكم، من باب أولى، قال ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٧﴾ [الروم: ٢٧].

فهم لم يتعجبوا من إيجادهم في الأول من غير شيء، قال ﷻ: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ﴾ [الرعد: ٥].

فهم يظنون أن الله ﷻ لا يقدر على إعادتهم من التراب، ولم ينظروا في خلق السموات والأرض، فالذي خلق السماوات، والأرض على عظمهما قادر على أن يخلق هذا الإنسان، ويعيده؟، وذلك أهون عليه ﷻ، وكل شيء عليه هين، ولكن هذا في نظر العقول.

و كلمة «زعم» تدل على الكذب، أي: أنهم كذبوا في قولهم، وبئس مطية الكذب زعموا كما في المثل.

وقوله: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾، يدل على أن من أنكر البعث فهو كافر؛ لأن الإيمان بالبعث أحد أركان الإيمان الستة؛ كما ثبت في الحديث الصحيح أن «**الْإِيْمَان أن تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وِالْيَوْم الْآخِر وَالْقَدْرِ كُلِّهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»(١).

قال الله ﷻ لرسوله ﷺ: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾.

أمره أن يقسم به على أنه يبعثهم، وهذه إحدى الآيات الثلاث التي أمر الله ﷻ، رسوله ﷺ أن يقسم على وقوع البعث.

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٥٠، ٤٧٧٧) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

الأولى: في قوله ﷻ: ﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥٣﴾ [يونس: ٥٣].

والثانية: في قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ﴾ [سبأ: ٣].

والثالثة: هذه الآية، وهي قوله ﷻ: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧].

﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ﴾ فالحكمة من البعث، والنشور، هي: الجزاء على أعمالكم التي عملتموها، في الدنيا هل تظنون أن ذلك ينسى، ويذهب؟! كلا.

﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، فالبعث يسير على الله، وإن كنتم تظنون أنه مستحيل؛ لأنه لا يعجزه شيء ﷻ.

قال ﷻ: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: ولما انقطعت حجتكم، فصدقوا به وأعملوا له.

فالإيمان بالبعث يقتضي العمل له، وأما الذي يؤمن بالبعث، ولايعمل له، فهذا كافر بالله والذي يؤمن بالله يلزمه الإيمان برسوله والذي يكفر بالرسول كافر بالله.

﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ﴾، وهو القرآن المنزل على الرسول فمن لم يؤمن بالقرآن فهو كافر بالله ورسوله، لأن القرآن نور يضيء الدنيا، ويخرج الله ﷻ به الناس من الظلمات إلى النور، من الكفر إلى الإيمان، ومن الشرك إلى التوحيد، من المعصية إلى الطاعة، من الضلال إلى الهدى، فالقرآن نور، قال ﷻ: ﴿وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

وفي ذلك دليل على أن القرآن منزل من عند الله ﷻ وهو كلامه غير مخلوق، وليس من كلام الرسول ﷺ، وإنما هو كلام الله ﷻ منه بدأ، وإليه يعود.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾، فلا تظنوا أن أعمالكم ستهمل، أو تضيع، بل ستواجهون به يوم القيامة؛ لأن الله ﷻ خبير به، وبصير به.

ولو نسيتموه، فإن الله ﷻ لا ينساه، قال ﷻ: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٦﴾ [المجادلة: ٦].

هذا وبالله تعالى التوفيق، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وآله، وصحبه.

الدرس الرابع والخمسون

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠) مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٢) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)﴾ [التغابن: ٩ - ١٨].

أي اذكروا ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾، وهو يوم القيامة.

يجمع الله الأولين، والآخرين فيه في صعيد واحد، هو أرض المحشر،

ولا يغيب أحد عن هذا الجمع، فلا يظن أحدٌ من الكفار، أو الملاحدة الطغاة الجبابرة الكفرة، أنه سيتخلف عن هذا الجمع، أو سيترك، ويهرب.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ أي: التغابن بين الناس، فيصبح بعض الناس مغبونًا، وبعضهم غابنًا، فالمؤمن غابن؛ لأنه في هذا اليوم يسعد، ويفلح، ويدخل الجنة، وأما الكافر - والعياذ بالله - يخيب، ويخسر، ويدخل النار. فيصبح مغبوناً وقد بين ذلك بقوله: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾، هؤلاء هم الغابنون؛ بسبب ما قدموا لأنفسهم.

فإن كان عمله فيه شرك فهو باطل، وكذا إن كان فيه بدعة فالبدعة مردودة.

لحديث عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عنَ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»(١). وفي رواية: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(٢).

﴿يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾؛ لأن العمل الصالح يكفر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به السيئات الصغائر. لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾ [هود: ١١٤].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «**الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧)، واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم (١٨).

(٣) أخرجه مسلم (١٦).

قال ﷻ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٣١].

وعَنْ مُعَاذٍ رضي الله عنه، قَالَ: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوْصِنِي بِوَصِيَّةٍ، قَالَ: «اتَّقِ اللهَ حَيْثُ مَا كُنْتَ»، قَالَ: قُلْتُ: زِدْنِي، قَالَ: «أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا»، قَالَ: قُلْتُ: زِدْنِي، قَالَ: «خَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»(١).

فالأعمال الصالحة يكفر الله ﷻ بها الذنوب الصغائر، وأما الكبائر فلا تكفر إلا بالتوبة، فإن تاب منها قُبلت توبته، ومحيت ذنوبه، وإن كانت كبائر، حتى ولو كانت من الكفر، والشرك، فمن تاب منها تاب الله ﷻ عليه، قال ﷻ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وأما من مات، ولم يتب من الكبائر التي هي دون الشرك، فإنه تحت مشيئة الله ﷻ، فإن شاء الله غفر له، وإن شاء عذبه.

﴿وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، ليست جنة واحدة، بل جنات متعددة، وأهلها فيها على درجات على حسب أعمالهم، ومنازلهم.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا﴾، أي: من تحت أشجارها، وقصورها.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، خالدين دائمين فيها، لا يخافون أن يموتوا، ولا يخافون أن يخرجوا منها، أو تغتصب منهم، بخلاف من كان في الدنيا في المسرات، وفي قصور، وفي بساتين، وملذات، فهو غير خالد فيها، كل

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (١٠/ ٣٨٠)، واللفظ له، وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٢١١)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٤٥).

لحظة يتوقع أن يزول منها، أو تزول عنه، ما فيها خلود، وهو خائف، ولو كان في قصور، وبساتين، ومناظر، ومآكل، ومشارب طيبة، هو خائف من الموت، ومن المرض، خائف من العدو، هذا في الدنيا، أما في الآخرة، أهل الجنة ما عندهم خوف، قال ﷻ: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: النجاة التي ينجوها من النار ويدخل الجنة دار القرار قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

ثم ذكر الله الصنف الثاني وهو: الفريق المغبون، قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، كفروا بالله ﷻ، ولم يؤمنوا به، سواء جحدوا وجود الرب ﷻ، كالدهرية، والملاحدة، أو أنهم أقروا بوجود الرب، ولكنهم أشركوا، ولم يعبدوه، ولم يوحدوه بالعبادة. أو جحدوا أسماء الله وصفاته وعطلوه.

﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، فبالإضافة إلى الكفر كذبوا بآيات الله ﷻ القرآنية، والوحي المنزل على الرسل كما قال ﷻ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾ [ق: ٥].

فعاندوا الرسل، وقالوا: ما هم إلا بشرٌ مثلنا، فكيف نطيع من هم مثلنا، قال ﷻ: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟﴾ [التغابن: ٦]. فهذا استكبار.

فكفروا بما مع الرسل من الآيات، والآيات هي: العلامات الدالة على

صدقهم، وكذلك الآيات الكونية التي تدل على وحدانية الله ﷻ، وعلى ربوبيته كذبوا بها، وقالوا: هذه مظاهر طبيعية، ولا يقولون: إن هذه آيات الله، وهي تدل على عظمته، قدرته.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾، أي: الملازمون لها؛ لأن الصاحب يلازم صاحبه.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾، ليس لهم طمع في الخروج منها، قال ﷻ: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، فالكافر، والمشرك، لاطمع لهما في الخروج من النار، قال ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

أما من دخل النار من عصاه المسلمين، والموحدين، فإنه يخرج من النار؛ كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة[(١)]، من أنهم يخرجون من النار، ويدخلون الجنة في المآل والعاقبة.

﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾: «﴿وَبِئۡسَ﴾» كلمة ذم، أي: بئس مصيراً لهم لأنها دار العذاب، والنكال، ودار الآلام، والأسقام، والأحزان.

فكيف نقرأ هذه الآيات، وأمثالها، ولا نتأثر بها؟، كيف لا نخاف من الله ﷻ؟، كيف لا نبادر بالتوبة، والعمل الصالح؟، هذا من عجائب قسوة القلوب، ولا حول، ولا قوة إلا بالله.

---

(١) انظر: صحيح البخاري (٨٠٦، ٦٥٦٠، ٦٥٧٣، ٧٤٣٧، ٧٤٣٩)، وصحيح مسلم (٢٩٩، ٣٠٤).

ثم قال ﷻ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾، المصائب هي: ما تكره النفوس مما يخالف رغبتها من الوقائع(١)، قال ﷻ: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ﴾ [البقرة: ١٥٥].

فالمصيبة قدرها الله للابتلاء، والامتحان، من يصبر ويرجع إلى ربه، ويتوب، له الرضى، ومن يجزع، ويتسخط، ويغضب على ربه ﷻ، فعليه السخط(٢).

﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾، أي: بقدر الله ﷻ، وقضائه.

﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾، من يعلم أن المصيبة من الله، وأنها بسبب ذنوبه، وأن الله ﷻ قدرها عليه(٣)، ثم يتوب، فإن الله ﷻ يتوب عليه، وتصبح المصيبة خيرًا له؛ لأن الله يهدي قلبه للحق، واليقين، فهي للإيمان بالله ﷻ، وللصبر على المصيبة فيهدي الله قلبه.

---

(١) انظر: لسان العرب (٨/ ٢٤٥)، وتاج العروس (٢١/ ٤٧٧).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه ابن ماجه (٤٠٣١) من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «عِظَمُ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ».

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود (٤٧٠٠) من حديث أَبِي حَفْصَةَ، قَالَ: قَالَ عُبَادَةُ ابْنُ الصَّامِتِ لِابْنِهِ: «يَا بُنَيَّ، إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»، يَا بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي».

قَالَ الْأَعْمَش عَنْ أَبِي ظَبْيَان قَالَ: كُنَّا عِنْد عَلْقَمَة فَقُرِئَ عِنْده هَذِهِ الْآيَة: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾، فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: «هُوَ الرَّجُل تُصِيبهُ الْمُصِيبَة، فَيَعْلَم أَنَّهَا مِنْ عِنْد اللَّه فَيَرْضَى وَيُسَلِّم».

وفي الآية الأخرى، قال ﷻ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد: ٢٢].

فقوله: ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾، أي: بقضاء، وقدر مكتوب في اللوح المحفوظ.

﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾، أي: قبل أن تقع، وتحصل، وتخلق.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، فكتابة المقادير، وخلق المصائب يسير على الله ﷻ.

ثم قال ﷻ: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]، أي أخبرناكم بذلك، ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾؛ لتعلموا أن هذا من قضاء الله، وقدره، وأنه لابد من نفوذه وأنه بسبب ذنوبكم، ولكيلا لا تفرحوا بما آتاكم من النعم، فتبطروا، وتفخروا، وتتكبروا، بل اشكرون الله ﷻ.

فالمؤمن يصبر عند المصيبة، ويشكر عند النعمة، أما غير المؤمن، فإنه يجزع عند المصيبة، ويبطر عند النعمة.

ومفهوم الآية أن من لا يؤمن بالله ﷻ عند نزول المصيبة، فإن الله يضل قلبه؛ ولذلك يلوم نفسه، ويلوم الناس، ويجزع، ويسخط، أويحلق شعره من المصيبة، وقد ينتحر، فالذي ليس عنده إيمان إذا أصابته شدة، أو ضائقة

فإنه يقتل نفسه من الجزع فيزاد بلاء على بلاء، ويبادر بنفسه إلى النار، كما في الحديث(١).

وأما المؤمن فإنه يرضى، ويقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، كما قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة: ١٥٧-١٥٦].

قال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾، يعلم تصرفاتكم عند المصائب، ويعلم من يصبر، ومن يجزع، ويسخط، ويجازي ﷻ كلًّا بعمله.

ثم قال ﷻ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، ولا سيما عند حصول المصائب فهذا أمرٌ منه ﷻ بطاعة الله، وطاعة رسوله ﷺ، وهذا دليل على أن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله ﷻ، ودليل على أن الرسول ﷺ يطاع فيما أمر به طاعة مستقلة، فقد يأمر الرسول ﷺ بشيء لم يرد في القرآن، وينهى عن شيء لم يرد في القرآن، فتجب طاعته ﷺ؛ لأنه لا ينطق عن الهوى، بل هو مبلغ عن الله ﷻ، فلا يأمر، وينهى إلا بأمر الله ﷻ، ولم لم يكن في القرآن(٢).

---

(١) إشارة إلى الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٤٦٣، ١٣٦٤)، واللفظ له، ومسلم (١٨٠) من حديث جُنْدُب بن عبد الله ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ بِهِ جُرْحٌ، فَجَزِعَ، فَأَخَذَ سِكِّينًا فَحَزَّ بِهَا يَدَهُ، فَمَا رَقَأَ الدَّمُ حَتَّى مَاتَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: بَادَرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ، حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٥٩٤٨، ٥٩٤٣، ٥٩٣١)، ومسلم (١٢٠)، واللفظ له من حديث عَبْدِ اللهِ ابن مسعود ﷺ، قَالَ: «لَعَنَ اللهُ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ، وَالنَّامِصَاتِ وَالْمُتَنَمِّصَاتِ، وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللهِ» قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ لَهَا: أُمُّ يَعْقُوبَ وَكَانَتْ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَأَتَتْهُ فَقَالَتْ: مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ لَعَنْتَ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ، =

وفي هذا دليل على إن سنة رسول الله ﷺ حجة، وهي وحيٌ من الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣-٤].

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾، عن طاعة الله ﷻ، وطاعة رسوله ﷺ ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، فالرسول ﷺ لا يهدي القلوب، بل هداية القلوب بيد الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾ [القصص: ٥٦].

الرسول ﷺ يهدي هداية الدلالة، والإرشاد، قال ﷻ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]: أي: تدل، وترشد، وهذا هو البلاغ.

ثم قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود بحق سواه ﷻ، وما عداه من المعبودات، كالأصنام، والأوثان، وسائر المعبودات، فإن عبادتها باطلة، وهناك معبودات كثيرة، ولكن كلها باطلة، والمعبود الحق هو: الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٦٢﴾ [الحج: ٦].

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، لأنه الإله الحق، والرب الحق فتفوض إليه الأمور، والتوكل على الله ﷻ من أعظم أنواع العبادة، مع اتخاذ الأسباب النافعة، فيجمع المسلم بين الأخذ بالأسباب النافعة، والتوكل على الله ﷻ ولايعتمد على التوكل، ويضيع الأسباب، أو يعتمد على الأسباب ويضيع

= وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ، لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللهِ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: «وَمَا لِي لَا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ وَهُوَ فِي كِتَابِ اللهِ» فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ لَوْحَيِ الْمُصْحَفِ فَمَا وَجَدْتُهُ فَقَالَ: «لَئِنْ كُنْتِ قَرَأْتِيهِ لَقَدْ وَجَدْتِيهِ، قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]».

التوكل، بل يجمع بينهما، وهذا سبيل المؤمنين.

وأما الكافرون، فلا يتوكلون على الله ﷻ، وإنما يتوكلون على أصنامهم ومعبوداتهم التي لا تغني عنهم شيئًا، والملاحدة يتوكلون على دنياهم، وإمكانياتهم، وما معهم من الصناعات، والمهارات، وهي لا تغني عنهم شيئًامهما بلغت، ولكن الذي يعتمد على الله، ويتوكل على الله، ويفوض أمره إلى الله ﷻ، مع اتخاذ الأسباب النافعة فهذا هو الناجح في دنياه، وآخرته.

ثم نادى المؤمنين خاصة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، ليحذرهم مما يضرهم من الفتن.

﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ﴾، أي: بعض أزواجكم، وبعض أولادكم.

﴿عَدُوّٗا لَّكُمۡ﴾، أي: يفعل بكم ما يفعل العدو، فيأمرونكم بمعصية الله ﷻ، ويأمرونكم بما يريدون من الشهوات المحرمة، والحرية البهيمية، ويطلبون منكم أن تسمحوا لهم وتمكنوهم بما يغضب الله ﷻ من المعاصي ويسمونه بالترفيه، والحرية، فهؤلاء أعداء لكم، وإن كانوا أولادكم، وأزواجكم.

وذكر أن سبب نزول الآية: أن ناسًا من المسلمين أرادوا الهجرة مع إخوانهم إلى المدينة، فتعلق بهم أولادهم، وأزواجهم؛ ليمنعوهم من الهجرة، فأنزل الله ﷻ هذه الآية(١).

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٤٢٣)، وتفسير ابن كثير (٨/ ١٣٩)، وتفسير القرطبي (١٨/ ١٤٠).

وهذا مثال لما يحصل من الأولاد، والأزواج، من الفتنة وإلا فإن الآية عامة، فالذي يطيع زوجته، وأولاده في معصية الله ﷻ، داخل في هذا.

يقولون: له احضر لنا مثل ما عند فلان من القنوات الفضائية، والإنترنت، وما فيها من الشرور، والسينما، والفتن الحادثة، فإن أطاعهم، فإنه قد أطاع عدوه، ما أرادوا له الخير، بل أرادوا له ما يريد له العدو، فليحذر الإنسان من هذا.وتقول له زوجته اتركني أذهب إلى الأسواق وإلى الحفلات المشتملة على المنكرات أو اسمح لي بالاختلاط مع الرجال أو اسمح ألبس ما أشاء من الملابس القصيرة وغير ساترة اتركني أفعل ما يفعل الناس. فالله حذر من فتنة هؤلاء.

فقال: ﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾، احذروا من عداوتهم فإنها أشد من عداوة غيرهم، هذا الصنف فلا تطيعوهم في معصية الله ﷻ، ولا ترضوهم بسخط الله ﷻ فإن ذلك أصلح لكم، ولهم.

و إذا أطعتموهم فيما يغضب الله ﷻ، فهذا ضررٌ عليكم، وعليهم، وأنت الراعي، والمسئول، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾، فيه إرشاد أن لا تشتد على زوجك، وأولادك، وإنما تأخذهم باللين، وبالسياسة، والحكمة.

وتعفوا عنهم فيما يحصل منهم إساءة إليك، أما ما يغضب الله ﷻ فلا تعف عنهم، ولا تطعهم فيه.ولكن خذهم بالرفق.

ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، يجازيك الله ﷻ، فإذا غفرت لهم عن حقك غفر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لك، وإذا عفوت عنهم عن حقك عفا الله عنك.

ثم بين سبب التحذير من هؤلاء فقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، أي: اختبار، فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يعطيك الولد؛ ليختبرك، هل تطيع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فيه، أو تعصي الله فيه؟.

وكذلك المال، هل يحملك حب المال على أن تطلبه من أي وجه محرم، من الربا، والسرقة، والخيانة، والرشوة، والقمار، والمكاسب المحرمة، أو أنك تقتصر على ما أحلَّ الله لك من المكاسب الطيبة، ولا تنخرط مع الناس فيما هم فيه من الباطل، والجشع والطمع، والمعاملات المحرمة؟

والمال فتنة من ناحية تصرفك فيه، هل تتصرف فيه تصرفًا شرعيًا، فتخرج الزكاة، والنفقة الواجبة عليك، تتصدق منه، وتنفق منه أو أنك تبخل به، وتمنع الزكاة، والحقوق الواجبة في مالك، تأكل أموال الناس، تجحد حقوق الناس؟.

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، لكن هذه الفتنة تسهل بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، إذا تذكرت أن الله ﷻ عنده أجرٌ عظيم، فإذا تذكرت ما عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وسهل عليك التصرف فيه على الوجه الشرعي، وهان عليك ما تقاسيه من أولادك من التربية، فإذا صبر فإن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عنده أجرٌ عظيم له.

ثم قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾، الإنسان ضعيف، ولا يحيط بكل أوامر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فقد يصيبه مرض، وعجز، فيجب عليه أن يؤدي ما يستطيع،

وهذا من رحمة الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال ﷻ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾ [الطلاق: ٧].

عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ، وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ**»(١).

لأن ترك الشيء أسهل من الفعل؛ فلذلك قال ﷺ: «**وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**»، أما الترك فهو سهل، «**مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، فَاجْتَنِبُوهُ**».

﴿وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾، اسمعوا سماع قبول، لما يأتيكم به هذا الرسول ﷺ من الأوامر، والنواهي.

﴿وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْۗ﴾: فأنفق من هذا المال في طاعة الله ﷻ.

وقال: ﴿لِّأَنفُسِكُمْ﴾؛ ليدل على أن ما تنفقه فإنما هو لنفسك، وتجده عند الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾، فهناك عقبة شديدة، فإن نفسك تقف في وجهك، لا تريد منك أن تخرج الزكاة، ولا تريد أن تنفق على أولادك، وزوجك، لا تريد منك أنك تتصدق على الناس، وتنفق في سبيل الله ﷻ، فهي تأمرك بالبخل، وإمساك المال.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، فمن وقاه الله ﷻ شح نفسه، فهو المفلح، ومن تغلبت عليه نفسه، فهو الخاسر.

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٠).

ولهذا كان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يطوف بالبيت، ولا يزيد على قوله: «اللَّهُمَّ قِنِي شُحَّ نَفْسِي»(١)؛ لأن الله تبارك وتعالى قال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، سمى الله الإنفاق في سبيله، وعلى عبيده المحتاجين قرضًا؛ لأنه سبحانه يرده على صاحبه مضاعفًا، والقرض هو: أن تدفع مالًا لمن ينتفع به، ثم يرد عليك بدله. والله يرد عليك خيراً منه وأكثر.

فالإنفاق في سبيل الله تبارك وتعالى مخلوف، قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]، فهو قرض تقرضه الله تبارك وتعالى يرده عليك أضعافًا مضاعفة في الدنيا، والآخرة. ولهذا قال: ﴿يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾، أضعافًا كثيرة، الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة، إلى أضعاف كثيرة لا يعلمها إلا الله، قال تبارك وتعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]، فالحبة الواحدة تصير سبعمائة حبة، هذا مثل المنفق في سبيل الله تبارك وتعالى.

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾، ذنوبكم؛ بسبب ما تنفق في وجوه الخير.

﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾، بمعنى: أنه يعطي الجزاء الجزيل على العمل القليل.

﴿حَلِيمٌ﴾، لا يعاجلهم بالعقوبة، بل يمهلهم، ويحلم عليهم، حتى

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٢٨٦)، وتفسير ابن كثير (٨/ ١٠٢)، وتفسير القرطبي (١٨/ ٣٠).

يتوبوا، ويرجعوا إليه ﷻ، ولا يؤاخذهم بأول مرة، هذا من حلمه ﷻ[1].

﴿عَـٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِۚ﴾ الغيب، هو: ما غاب عنا من الأمور الماضية، والمستقبلة، وما كان، وما يكون.

﴿وَٱلشَّهَـٰدَةِۚ﴾، المشاهد الذي يراه الناس، فالله ﷻ لا يخفى عليه شيء.

﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾، القوي الذي لا يُغلب ﷻ.

﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾، الذي يضع الأمور في مواضعها اللائقة بها، فيضع العذاب، والعقوبة في موضعهما، ويضع الثواب، والجزاء في موضعهما.

وبالله التوفيق وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

---

(١) انظر: تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج (١/ ٤٥)، وتفسير أسماء الله الحسنى للسعدي (١/ ١٨٩).

الدرس الخامس والخمسون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ
لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن
يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١ فَإِذَا بَلَغۡنَ
أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ
ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل
لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ
أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ
فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن
يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ٤ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ
سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ٥﴾ [الطلاق: ١- ٥].

هذه السورة تسمى «سورة الطلاق»(١)؛ لأن الله ﷻ ذكر فيها أحكام الطلاق، وحدوده، وما يترتب عليه.

---

(١) وتسمى أيضًا سورة النساء القصرى. انظر: زاد المسير (٤/ ٢٩٥).

قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾، الخطاب موجه إلى النبي ﷺ، ولأمته؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿إِذَا طَلَّقۡتُمُ﴾، فأوله موجه إلى النبي ﷺ، وبعده موجه إلى الأمة. ويدخل فيها النبي ﷺ، فالحكم عام، ولكنه وجه الخطاب إلى النبي ﷺ من باب التشريف، والتكريم له ﷺ، ولأنه ﷺ هو القدوة للأمة.

﴿ٱلنَّبِيُّ﴾: مأخوذ من «نَبَا»، «يَنبُو»، بمعنى: الارتفاع؛ لرفعة شأنه(١)، وقيل: مأخوذ من النبأ، وهو: الخبر؛ لأنه مخبرٌ عن الله ﷻ.

﴿إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾، الطلاق هو حل عقد النكاح أو بعضه، وشرع الله ﷻ الطلاق عند الحاجة إليه؛ لأن فيه فرجًا لكل من الزوجين، فإذا لم يستقم الحال، والعشرة بينهما، فلابد من الطلاق؛ إزالة للضرر، قال ﷻ: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمٗا ١٣٠﴾ [النساء: ١٣٠].

غير أن الطلاق يكون هو الحل الأخير عند الاختلاف بين الزوجين، فإذا لم يكن هناك حلٌّ إلا الطلاق فإنه يُشرع.

﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾، أمر الله ﷻ أن تطلق المرأة لعدتها، وهذا تنبيه على وقت الطلاق الذي يُشرع فيه، وهو: أن تكون المرأة على طهارة من الحيض، لم يمسسها زوجها، ولا يكون جامعها في هذا الطهر ولم يكن قد تبين حملها.

أي: طاهرات، من غير مسيس، هذا هو طلاق السنة في الوقت، فإن

(١) انظر: زاد المسير (١/ ٧٢)، وتفسير القرطبي (١/ ٤٣١)، ولسان العرب (١٥/ ٣٠٣)، وتاج العروس (٤٠/ ١٣).

طلقها ثلاثًا بكلمة واحدة، فهذا بدعي في العدد، وهي حائض، أو طلقها في طهر جامعها فيه، فهذا طلاق بدعي في الوقت، لكنه يقع الطلاق البدعي بقسميه عند جمهور أهل العلم، ويأثم على ذلك.

والحكمة الظاهرة منها هي: العلم ببراءة الرحم من الحمل إذا كانت ممن يحمل.

وكذلك حمى للزوج الأول، واحترام للنكاح الأول، ففيها مصالح، وحكم عظيمة.

﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾، أي: اهتموا بشأن العدة من حيث البداية، والنهاية، لايقع فيها عقد لغير المطلق، فالمعتدة لا يجوز العقد عليها، بل لا تجوز خطبتها صراحة، ما دامت معتدة.

ثم قال ﷻ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾، بفعل أوامره، وترك نواهيه، ومن ذلك: شأن العدة، اتقوا الله فيها، فلا تتلاعبوا فيها، أو تفرطوا فيها، أو تتصرفوا فيها، وهذا -بلا شك- خطاب للزوج، والزوجة، فكلٌّ منهما عليه أن يحصي العدة، ويعتني بها.

ثم قال ﷻ: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾، من مقتضى تقوى الله ﷻ: ألا تخرج المطلقة من بيت الزوجية مدة العدة؛ إذا كان طلاقها رجعيًا، لأنها مازالت زوجة، ولها السكنى، والنفقة، ولها ما للزوجات، فلا تُحرَم من حقها.

﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾، ولا يخرجن هن منها أضاف ﷻ البيوت إليهن، مع أنها بيوت الأزواج؛ لأن لهن حق السكنى فيها.

ثم قال ﷻ: ﴿وَلَا يَخۡرُجۡنَ﴾، ولأن بقاءها في بيت الزوجية مدة العدة حقٌ للزوج، كما هو حقٌ للزوجة المطلقة، لعله يراجعها.

﴿وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ﴾، الفاحشة هي: ما تناهى قبحه من المعاصي، والأصل أن الفاحشة هي: الزنا، فإذا كانت غير صينة في عرضها، فإن للزوج أن يُخرجها، ولا تبقى في بيته.

ومن الفاحشة المبينة: الفحش باللسان، كأن تكون بذيئة، أو شتامة تؤذي الزوج، أو تؤذي أهل البيت بلسانها، أو بفعلها، بأن تضرب، أو تفسد في البيت بأفعالها، فإن للزوج أن يُخرجها؛ دفعًا للضرر عنه.

ثم قال ﷻ: ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾، أي: محرماته ﷻ، فتطلق حدود الله على منهياته، وتطلق على مباحاته.

فإذا كانت الحدود هي المحرمات، فإن الله ﷻ قال: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فلا تقرب.

وإذا كانت الحدود من المباحات، فإنها لا تتعدى، قال ﷻ: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، لا تتعد الحلال إلى الحرام.

والمراد هنا إخراج المطلقة عن بيتها من غير مبرر شرعي.

ثم بيَّن الله ﷻ جريمة من يتعدى حدود الله، فقال: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ﴾؛ حيث عرضها لعقاب الله ﷻ.

ثم بيَّن الله ﷻ الحكمة من كون المطلقة الرجعية لا تُخرج من بيتها،

ولا تخرج، فقال الله ﷻ: ﴿لَا تَدْرِى﴾، أي: لا تدري أيها المطلق.

﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾، أي: يحدث بعد الطلاق، وذهاب الغضب أمرًا من الندم على الزوجة التي طلقتها، فيكون لك فرصة لمراجعتها، فهذا أسهل، وأقرب مما لو بعدت عنك، فإذا كانت في بيتك، وسكنك، وهي رجعية، فلك الرجعة عليها ما دامت في العدة، قال ﷻ: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَـٰحًا﴾ [البقرة: ٢٢٨].

ثم قال ﷻ: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ﴾، أي: المطلقات، ﴿أَجَلَهُنَّ﴾، أي: قاربن على انتهاء العدة.

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾، وذلك بالرجعة.

وقوله: ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: بقصد حسن، ومعاشرة طيبة، أما من يمسكها من أجل أن تتضرر، فإذا قاربت خروجها من العدة، راجعها، ولا رغبة له فيها، ثم يطلقها ثانية؛ لأجل أن تطول عليها العدة، أو يمسكها؛ لأجل أن تفتدي منه، فهذا منكر، وليس معروفًا، وقال ﷻ: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟﴾ [البقرة: ٢٣١].

وإذا لم تكن لكم فيهن رغبة، ﴿فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾، فإذا انتهت عدتها، حصل الفراق تلقائيًا، بدون إحداث طلاق جديد؛ لأنها تبين منه بينونة صغرى، ويكون هذا الفراق بمعروف من غير انتقام منها، وإضرار بها، أو أنه يطلب منها عوضًا.

ثم قال ﷻ: ﴿وَأَشْهِدُوا۟﴾: أي: أشهدوا على الرجعة، ﴿ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، أي: رجلين عَدْلَين يشهدان على الرجعة، وهذا الأمر للأستحباب.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ﴾، هذا خطاب للشهود أن يؤدوا الشهادة على وجهها، ويقيموها على الصدق، ولا يخافوا أو يحابوا أحدًا لقرابة، أو صداقة، أو جاه، أو غير ذلك.

وقوله: ﴿لِلَّهِ﴾، أي: خالصة لله ﷻ، لا يكون فيها مراعاة لخواطر الناس، أو مراعاة للطمع، أو غير ذلك، قال ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

ثم قال ﷻ: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾، أي: ما تقدم من هذه الأمور، والتشريعات العظيمة، هي في صالحكم، ﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾، إذا تقيد بهذه الأوامر، وانتهى عما يخالفها؛ فهذا علاقة عل إنه يؤمن بالله ﷻ، الذي سيحاسبه، ويناقشه عن تصرفاته في هذا الطلاق، وفي هذه العدة وهذه الأحكام، ويؤمن باليوم الآخر، وأنه سيرجع إلى الله ﷻ، وسيوقف على تصرفاته، وأعماله، فيقوم بهذه الأوامر على الوجه المطلوب، ويتجنب هذه النواهي على الوجه المطلوب؛ من أجل أن يسلم يوم القيامة من التبعات.

ثم قال ﷻ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾، أي: من يتخذ وقاية بينه، وبين غضب الله ﷻ، ووقاية بينه، وبين النار، والعذاب، تقيه من ذلك.

وذلك بفعل ما أمر الله ﷻ به؛ رجاء ثوابه، وترك ما نهى الله عنه؛ خوفًا من عقابه، وثمرة التقوى بينها الله ﷻ: ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾، فكلما ضاقت عليه الأمور، يسر الله ﷻ له المخرج منها؛ بسبب أنه يتقي ربه ﷻ، فهذا من ثمرات التقوى، أن الله يفرج له عند الضيق مخرجًا من كل شدة، أما من

لا يتقي الله، فإن الله ﷻ لا يجعل له مخرجًا إذا وقع في شدة.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ قَالَ: «كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ: «يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»(١).

فليعلق المسلم قلبه بالله ﷻ، ويثق ربه؛ من أجل أن يفرج له عند الكربات، والشدائد.

ثم قال ﷻ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾، يفوض أموره إلى الله، ويعتمد على الله ﷻ دون غيره.

﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، أي: كافيه، فيكفيه كل ما أهمه من أمور دينه، ودنياه.

قال ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

ولا تتوكل على مخلوق، بل توكل على الله ﷻ، والتوكل من أعظم أنواع العبادة، ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾، أي: أن الله ﷻ منفذٌ أقداره على عباده، فلا أحد

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد في المسند (٤/ ٤٠٩، ٤١٠)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٢٣٨).

يرد قضاء الله، وقدره، فالأمور كلها بيد ﷻ، فإذا أمر الله ﷻ، وقدر شيئًا، فإنه لابد أن يقع، لا مرد لقضائه، ولا معقب لحكمه.

﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾، كل شيء فإن الله ﷻ جعل له قدرًا، ومقدارًا في الوقت، ومقدارًا في الكيفية، ليس شيء اعتباطًا، فإن الله ﷻ قد أحصاه، وقدره، ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

قال ﷻ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]: فليس هناك شيء يجري دون تقدير من الله ﷻ.

ومتى ذلك أنه قدر العدة بالنسبة للتي تحيض: ثلاث حيض، قال ﷻ: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]: أي: ثلاث حيض بعد الطلاق.

أما المطلقة التي لا تحيض، إما لصغر سنها؛ حيث زُوجت، وهي صغيرة، وما بلغت سن الحيض، وهنا مسألة، وهي أنه هل يجوز للأب تزويج ابنته الصغيرة إذا كان لها مصلحة في ذلك، لا كما يشاع في هذا الوقت من إنكار تزويج الصغيرة، فالصغيرة لها أن تُزوج بدليل أن الله ﷻ جعل لها عدة.

وكذلك التي لا تحيض لكبر؛ كما قال ﷻ: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ﴾.

ثم قال ﷻ: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، وضع الحمل، سواء وضعته في مدة قصيرة، أو طويلة، فإذا وضعت الحمل بعد الطلاق خرجت من العدة، ولو لم يمض على طلاقها إلا لحظة، وإن تأخر وضع

حملها، فإنها تبقى في عدة إلى أن تضعه.

ثم قال ﷻ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ فإن الله ﷻ ييسر له، وفي الآية الأولى، ﴿يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ [الطلاق: ٢].

فالله يجعل له مخرجًا، ويجعل له يسرًا، وهذا مما يترتب على التقوى من الفوائد العظيمة.

قال ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ﴾، أي: هذا الذي ذكرناه لكم من أول السورة.

﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾، أي: شرعه سبحانه وتعالى.

﴿أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ﴾، بواسطة نبيكم محمد ﷺ.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾، هذه فائدة ثالثة حيث يكفر عنه سيئاته؛ لأن الإنسان لا يسلم من السيئات، ولكنه إن اتقى الله سبحانه وتعالى بفعل أوامره، وترك نواهيه، يكفر الله عنه، والمراد بالتكفير هي: صغائر الذنوب، أما الكبائر فإنها لا تكفر إلا بالتوبة؛ لقوله ﷻ: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ٣١﴾ [النساء: ٣١].

﴿وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾ وهذه فائدة رابعة يجعل الله له الفرج بتقواه من الضيق، ويحصل بها تيسير الأمر، ويحصل بها تكفير السيئات، ويحصل بها إعظام الأجر من الله سبحانه وتعالى.

هذا والحمد لله والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه.

الدرس السادس والخمسون

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ٦- ١٢].

يقول الله ﷻ: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾، أي: المطلقات الرجعيات؛ لأنه قبل ذلك قال ﷻ: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [الطلاق: ١].

ثم بيَّن الله ﷻ في هذه الآية ما هو السكن، والبيت الذي لا تُخرج المطلقة الرجعية منه.

فقال ﷻ: ﴿أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم﴾، أي: اجعلوا لهن سكنًا معكم في بيوتكم، فتسكن مع زوجها في بيته الذي يسكن فيه، فلا يُكَلف الزوج أن يعد لها سكنًا أرفع، وأغلى من سكنه، فإذا ساواها بنفسه، فهذا هو العدل.

﴿مِّن وُجۡدِكُمۡ﴾: الوُجْد هو: الغنى، أي: على حسب غناكم، وفقركم، وتوسطتكم، فسكن المرأة يكون على حسب، وحالة الزوج الاقتصادية.

ثم قال ﷻ: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ﴾، فنهي عن سبب خروج المرأة المطلقة الرجعية من بيتها، وهو: الإضرار بها، فقد يضايقها بالكلام، أو الفعل؛ من أجل أن تخرج، أو تفتدي منه بمال، وتخلص نفسها منه، فنهى الله ﷻ عن ذلك.

ثم ذكر الله ﷻ حكم المطلقة البائنة، فقال ﷻ: ﴿وَإِن كُنَّ﴾، أي: المطلقات، ﴿أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ﴾، فالمطلقة البائن ليس لها نفقة، وليس لها سكنى؛ لأنها ليست زوجة، لأنها قد بانت منه، إلا في حالة واحدة، وهي: إذا كانت حاملًا، فعلى ولي الحمل الذي هو أبوه، أو عصبته، أن ينفق عليها من أجل الحمل الذي في بطنها.

والإنفاق على الحامل إنفاق على حملها؛ لأنه لا يمكن إيصال النفقة إليه إلا بالإنفاق على أمه؛ لأنه يتغذى في بطن أمه من غذائها، فأمر الله ﷻ بالإنفاق عليها؛ من أجل الولد الذي في بطنها.

﴿حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾، فإذا وضعت حملها، انتهت النفقة عليها؛ لأن الولد الذي كان يُنفق عليها من أجله، قد انفصل منها، ويبقى تأمين الرضاع له.

فالمطلقة البائنة إذا أرضعت المولود، فلها نفقة الرضاعة، قال ﷻ: ﴿فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ﴾، أي: بعد الولادة، ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، أي: أجور الإرضاع.

ثم قال ﷻ: ﴿وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ﴾، أي: تشاوروا، بأن يتشاور الزوج، والزوجة على كفالة الطفل، وإرضاعه، بما فيه مصلحة المولود، وعدم الإضرار به، فإذا اتفق المطلق، والمطلقة البائنة التي وضعت حملها فيما بينهما على ما يكفي للمولود، فهذا هو المطلوب.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ﴾، أي: لم تتوصلوا إلى نتيجة فيما بينكما، فالطفل لا فالأب، فيحضر له مرضعة مثل أمه، قال ﷻ: ﴿وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ﴾، فلا تُجبر الأم على إرضاع طفلها إذا كانت بائنًا، إلا في حالة واحدة، وهي: إذا أبى الطفل أن يقبل المرضعات، ويُخشى عليه من الهلاك، فإنها تلزم أمه أن ترضعه؛ إنقاذًا له من الهلاك، وأما إن قبل المرضعات، فإنها لا تُجبر على إرضاعه.

ولما كانت النفقة واجبة على الزوج، لغير المطلقة، أو المطلقة طلاقًا رجعيًا.

وحد النفقة التي تجب على الزوج، بينه الله ﷻ في قوله: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾، فنفقة الزوجة تكون على حسب حالة الزوج، إن كان غنيًا ينفق عليها نفقة غني

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾، أي: ذو غنى ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾، ينفق عليها نفقة غني.

﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾، أي: ضُيق عليه رزقه، وهو: الفقير، ﴿فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾، ينفق نفقة فقير على حسب حاله.

قال ﷻ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾، هذا من تيسره سبحانه وتعالى أنه لا يحمل الإنسان ما لا يطيق، وإنما يحمله على حسب استطاعته؛ كما قال ﷻ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ثم أنه سبحانه وتعالى وعد أن سيكون بعد العسر يسرًا، قال ﷻ: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾، هذا وعدٌ من الله ﷻ في أن المعسر سييسر الله سبحانه وتعالى له، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥].

فالعسر لا يستمر، والله سبحانه وتعالى يزيله باليسر، وهذا وعدٌ منه سبحانه وتعالى؛ لئلا ييأس المعسر من الفرج، بل يترقب الفرج من الله ﷻ، كما قال ﷺ: «واعلم أن النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا»(١).

وهذا فيه تطمين للفقراء، بأن فقرهم لا يستمر، وهذا شيء واضح -ولله الحمد- في أن الله سبحانه وتعالى ييسر على المعسرين، ويرزقهم، ولا يبقون دائمًا في عسر، وفقر.

فينبغي على المؤمن أن يعلق قلبه بالله ﷻ، وينتظر الفرج، ولا يقنط من رحمة الله سبحانه وتعالى، مهما اشتد به الأمر، ومهما اشتد به الفقر، والحاجة،

---

(١) جزء من حديث أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٣٧)، والطبراني في الكبير (١١/ ١٢٣)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٦٢٤)، والبيهقي في الشعب (١٢/ ٣٥٣).

أو اشتد به الكرب، فإنه ينبغي ألا يقطع أمله بالله ﷻ، ويتيقن بأن الفرج مع الكرب، والنصر مع الصبر، وأن مع العسر يسرًا، وهذا وعدٌ من الله ﷻ.

ثم إنه ﷻ في ختام هذه السورة حذر الله ﷻ من مخالفة هذه الأحكام العظيمة التي ذكرها، وتوعد ﷻ كل من خالفها بالعقوبة في العاجل، والآجل.

قال ﷻ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾، أي: كثير من القرى، الفت أمر ربها ﷻ فأنزل الله بها عقوبته، وهذا يدل على وجب الامتثال لأمر الله ﷻ، وعدم مخالفته، وأن من خالفه ﷻ فلينتظر العقوبة، كما حلَّ ذلك بمن قبلنا من أهل القرى.

المراد بالقرية: السكان، فالقرية تُطلق على الاجتماع، وليس المراد بالقرية: المباني، قال ﷻ: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢]، وليس المعنى اسأل البنيان، بل اسأل الناس الذين يسكنون القرية(١).

﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾، أي: عصت أمر الله ﷻ، وخالفته، وتمردت عليه، فالله ﷻ عاقبهم، وهذا شيء واضح فيمن قبلنا ممن قصَّه الله ﷻ علينا عن الأمم السابقة، وكذلك من آثارها الباقية من الديار، والخراب، فآثار الهالكين تدل على عقوبة الله ﷻ.

﴿وَرُسُلِهِۦ﴾، أي: وخالفت الرسل، وعصتهم، كقوم نوح عليه السلام، وعاد، ثمود، وقوم إبراهيم عليه السلام، وأصحاب مدين، والمؤتفكات، وغيرهم من الأمم السابقة إلى الذين خالفوا الرسل، وعصوهم، وخالفوا القرآن

(١) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٣٣٩).

الكريم، ماذا حلَّ بهم، وأين هم؟، ولم يبق إلا من آمن بالله ﷻ، ورسوله، ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

قال ﷻ: ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾، حاسب الله ﷻ أهل القرى على النعم؛ لأن هذه النعم لا تذهب هدرًا، فلابد لها من حساب.

قال ﷻ: ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾، حساباً شديداً في الدنيا والآخرة، وعذابٌ في الدنيا بما أحلَّ الله بهم في الدنيا من العقوبة، والهلاك.

قال ﷻ: ﴿وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾، في الآخرة، وكأن في الكلام تقديمًا، وتأخيرًا -والله أعلم-.

قال ﷻ: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾، لما حاسبها الله ﷻ، وعذبها ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾، وعرفت صنيعها، وكفرانها، واعترفت بذلك، ولكن لا فائدة من اعترافها، وإنما هو التحسر الشديد.

﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾، عاقبة أمرها في الدنيا، والآخرة الخسارة التي لا تحد.

ثم بيَّن الله ﷻ هذا الخسران، فقال ﷻ: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ في الآخرة، وذلك في نار جهنم، -والعياذ بالله-.

ثم أعاد ﷻ التذكير، فقال ﷻ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، اتقوا الله ﷻ، واتخذوا وقاية، تقيكم من غضبه، ومن عقابه.

﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، يا أصحاب العقول، انتفعوا بعقولكم، وحاسبوا أنفسكم، وقدروا نعم الله ﷻ عليكم، واحترموا أوامر الله ﷻ، واحترموا

رسله، واتبعوهم، هذا مقتضى العقول، أما مقتضى السفه، وخفة العقول، فهي كما ذكر الله ﷻ عن هذه الأمم، وهذه القرى.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وهذا تفسير لأولى الألباب، وهم الذين آمنوا، أما الذين كفروا فلا عقول لهم تنفعهم، وتدلهم على الرشاد، والخير، والمستقبل، قال ﷻ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٤].

ثم ذكرنا الله ﷻ بالنعمة العظيمة التي منَّ الله بها علينا، وهي: بعثة هذا الرسول ﷺ، وإنزال هذا الكتاب العظيم، قال ﷻ: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ وهو: القرآن.

﴿رَّسُولًا﴾، وهو: محمد ﷺ، فجاءكم القرآن، وجاءكم الرسول ﷺ، فإياكم أن تسلكوا مسلك من قبلكم من الأمم الكافرة بكتبها، ورسلها.

والحكمة في ذلك، ذكرها لقوله: ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ﴾: أي من ظلمات الكفر والجهل إلى نور العلم والإيمان، كما قال ﷻ: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم: ١].

فالحكمة من إرسال الرسول ﷺ، وإنزال الكتاب: إخراج الناس من الظلمات إلى النور، أما الذين لم يؤمنوا، فإنهم لا يزالون في الظلمات -والعياذ بالله-، ظلمات الكفر، وظلمات الجهالة؛ لأنهم لم يشاءوا ولم يريدوا الخروج، ولم يعبئوا بهذا الكتاب، ويلتفتوا إليه، فبقوا في ظلماتهم، في غيهم يعمهون؛ لأنهم رفضوا التمسك بهذا الكتاب، والانتفاع به،

وجحدوا هذه النعمة، فبقوا في ظلماتهم.

فلا يخرج من هذه الظلمات إلا الذين آمنوا، وعلموا الصالحات، فالإيمان لا يكفي بالقلب، وإنما لابد من العمل؛ ولذلك لا يأتي الإيمان إلا وهو مقرونٌ بالعمل، فالعمل لا ينفع بدون إيمان، والإيمان لا ينفع بدون عمل.

ثم قال ﷻ: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

هذا ما يترتب على الإيمان بالله ﷻ، والعمل الصالح، أن الله ﷻ يُخرج صاحبه من الظلمات إلى النور في الدنيا، ويمشي على برهان، وبصيرة، وأما وفي الآخرة، فإن الله ﷻ يدخله جنات، وليست جنة واحدة، إنما هي جنات، لا يعلمها إلا الله ﷻ، جنات عرضها السماوات، والأرض.

ثم ذكر ﷻ قدرته، وعظمته، وأنه خلق سبع سماوات، وأنه خلق سبع أرضين، قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾، بعضها فوق بعض، فهي سبع طباق من غير عمد ترونها.

﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾، أي: وخلق من الأرض ﴿مِثْلَهُنَّ﴾، أي مثل سبع سماوات، فالأرضون سبع طبقات؛ كما في الحديث: «مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الْأَرْضِ، طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»(١).

﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ﴾، أي: أمر الله ﷻ، ﴿بَيْنَهُنَّ﴾، بين السموات، والأرضين

(١) أخرجه البخاري (٢٤٥٢، ٢٤٥٣، ٣١٩٥)، ومسلم (١٤٢)، واللفظ له من حديث عائشة رضي الله عنها.

الأمر القدري الكوني، والتدبير الرباني، والأمر الشرعي، وهو: الوحي، يتنزل من الله ﷻ، فتتنزل منه الأوامر الكونية، والأوامر الشرعية.

وأخبرنا الله ﷻ بذلك لمعرفة قدرته؛ ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وأنه لا يعجزه شيء، فالذي قدر على خلق السماوات، والأرض، وهي أكبر من خلق الناس، قادر على أن يعيد الناس، وقادر على أن يجعل جنة هذه أوصافها، وقادر على أن يجعل نارًا هذه أوصافها.

قال ﷻ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمَۢا﴾، علمه ﷻ واسع، ففي الآية إحاطة العلم، وإحاطة القدرة.

فهو ﷻ فوق سماواته، مستو على عرشه، ولا يخفى عليه شيء في أي مكان من السماء، أو من الأرض، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾ [آل عمران: ٥].

لا يغيب عنه شيء، وخلق هذه السموات المحكمات، وهذه الأرضين المحكمات، يدل على العلم والقدرة.

فعليكم أن تقدموا لأنفسكم ما تنجون به من غضب الله، وعقابه، ولا تكونوا كالذين عتوا عن أمر ربهم، ورسله، وقد بيَّن الله ﷻ لكم قدرته، ومنَّ عليكم بإنزال الكتاب، وإنزال الرسول ﷺ، وبيَّن لكم ما ينفعكم لكي تفعلوه، وبيَّن لكم ما يضركم، فتجتنبوه، فلم يبق لكم حجة.

هذا وبالله التوفيق، وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه، وسلم.

الدرس السابع والخمسون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾ [التحريم: ١- ٥].

هذه السورة تسمى سورة «التحريم»؛ لأن الله سبحانه وتعالى ذكر في أولها تحريم النبي صلى الله عليه وسلم ما أحلَّ الله سبحانه وتعالى له، ولها علاقة بالسورة التي قبلها -سورة الطلاق- فكل من السورتين فيهما أحكام النساء؛ ولذلك جاءت بعدها.

وقد اختلف العلماء في سبب نزول هذه الآيات، فقيل: السبب أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان في بيت حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، وكانت خارج البيت، فجاءت -جارية- الرسول صلى الله عليه وسلم مارية القبطية، أم إبراهيم بن الرسول صلى الله عليه وسلم، فحصل منه

معها علاقة، كما يحصل بين السيد، وسريته، فلما جاءت حفصة رضي الله عنها وجدت أن الأمر هكذا، فوجدت على الرسول ﷺ، وعاتبته أنه في بيتها، ويحصل منه ذلك، فحرم النبي ﷺ مارية رضي الله عنها على نفسه، فعاتبه الله عز وجل، وشرع له سبحانه وتعالى المخرج من هذا التحريم.

وقيل: إن النبي ﷺ كان يشرب العسل عند بعض نسائه، ويتأخر؛ لأجل شرب العسل، فوجدت بقية النساء عليه في ذلك، فعاتبنه، فحرم على نفسه ﷺ أن يشرب العسل.

وقيل: إن سبب نزول الآيات المرأة التي وهبت نفسها للنبي ﷺ، فوجدت نساء النبي ﷺ من ذلك الأمر غضاضة، فحرمها النبي ﷺ على نفسه[1]، وهذا أضعف الأسباب.

وأما السببان الأولان، فلا تعارض بينهما في، أن يكون ﷺ حرم على نفسه مارية القبطية رضي الله عنها، وحرم على نفسه العسل، فحرم الأمرين كليهما، فلا تنافي بينهما.

﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾، استفهام عتاب، والمعنى-والله أعلم- لأي سبب؟.

﴿تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾، أي: أنك حرمت ما أحلَّ الله سبحانه وتعالى لك؛ من أجل إرضاء أزواجك.

ثم قال عز وجل، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، غفور لما حصل منك، رحيم بك،

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٨ / ١٨٢)، وتفسير القرطبي (١٨/ ١٧٨).

وبعباده، فعفا الله سبحانه وتعالى عن رسوله ﷺ بعد أن عاتبه، ثم بيَّن سبحانه وتعالى المخرج له ﷺ من ذلك، وأفتاه فيما حصل منه.

فقال ﷻ، ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، أي: شرع لكم، ﴿تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾، أي: ما يحل اليمين بعد انعقادها، وهو: الكفارة، وهذا إشارة إلى ما جاء في سورة المائدة من قوله ﷻ: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المائدة، ٨٩]، وفي هذه الآية قال ﷻ، ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾، فأحال سبحانه وتعالى على آية المائدة.

فسماه تحريم يمنيًا، وشرع له الكفارة، أو أراد الحنث فيه، ولقد روى أن الرسول ﷺ كفر عن يمينه، وأصاب جاريته التي حرمها على نفسه.

قال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ يتولى الله ﷻ أموركم، ويشرع لكم ما يصلح شأنكم، وما يحل أيمانكم، فهذا من ولايته سبحانه وتعالى لعباده، فهو الذي يُشَرع لعباده الأحكام بمقتضى ولايته، وربوبيته لهم.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾(١) بما يصلحكم؛ ولهذا يشرع لكم ما يناسب أحوالكم، ويحل مشاكلكم بتشريعاته سبحانه وتعالى، وهذا من مقتضى ولايته لكم، وهذه الولاية خاصة بالمؤمنين، وهناك الولاية العامة لجميع الخلق، قال ﷻ: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ

---

(١) انظر: تفسير أسماء الله للزجاج (١/ ٣٩)، وتفسير أسماء الله الحسنى للسعدي (١/ ١٩٤).

إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنعام: ٦٢].

فهو مولى لجميع الخلق، المؤمنين، والكفار، الولاية العامة، ينفذ ﷻ فيهم أموره القدرية، والكونية، ويرزقهم، ويصلحهم بمقتضى ولايته العامة وربوبيته العامة للخلق.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، الذي يضع الأمور في مواضعها ﷻ.

ثم تتحول الآيات، وتنتقل إلى قضية أخرى ويتجه فيها العتاب من الله ﷻ إلى أزواج النبي ﷺ.

قال ﷻ: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾، وهي: حفصة رضي الله عنها، فقد أسرَّ إليها ﷺ أنه حرم مارية رضي الله عنها، ولم يخبر غيرها بذلك، وأخبر ﷺ أن أبا بكر، وعمر رضي الله عنهما سيتوليان الأمر من بعده، فأسرَّ إليها هذين الأمرين، واستكتمها هذا السر، لكنها رضي الله عنها أخبرت بذلك عائشة رضي الله عنها.

﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾، أي: أخبرت به عائشة رضي الله عنها.

﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾، أطلعه الله ﷻ على ما حصل من حفصة رضي الله عنها مع عائشة رضي الله عنها، مع أن حفصة لم تذكره لأحد غير عائشة، وعائشة -أيضًا- لم تذكره لأحد، ولما وصل إلى الرسول ﷺ. ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾، فإنه ﷺ عاتب حفصة رضي الله عنها؛ لكونها أخبرت بهذا، وتعجبت حفصة رضي الله عنها كيف ظهر الرسول ﷺ على هذا الخبر مع أنه لم يتعد عائشة؟

قال ﷻ: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾ أي: من أخبرك أنني أخبرت بما نبأتني به مع أنه لم يظهر الخبر؟

﴿قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾، أي: الله أخبرني بما حصل.

﴿ٱلْعَلِيمُ﴾، الذي لا يخفى عليه شيء، ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾، بما يحصل من عباده، فهذا يدل على سعة علم الله ﷻ بكل شيء، وما يسرون، وما يعلنون. ثم إن الله ﷻ وجه الخطاب لزوجتي النبي ﷺ حفصة، وعائشة رضي الله عنهما، وعرض عليهما التوبة، وهذا من رحمته ﷻ بعباده.

فقال ﷻ: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾أي: مالت، فحصل منكما ميل، لكن إذا تبتما إلى الله ﷻ عفا عن هذا.

﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾، أي: تتعاونا على النبي ﷺ، ولم تتوبا.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾، ومن كان الله معه، وجبريل عليه السلام، والملائكة، وصالح المؤمنين، لا يصل إليه أحدٌ بسوء.

﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، هما: أبو بكر، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وقيل: الصحابة جميعًا، وقيل: جميع المسلمين يدافعون عن رسول الله ﷺ، فلا يرضون أن يسيء أحد إلى الرسول ﷺ، فدل هذا على أن من آذى الرسول ﷺ، أو تناوله في أي وقت كان، فإنه معرضٌ نفسه لمقاومة الله ﷻ، ومقاومة جبريل، والملائكة، وصالح المؤمنين، ولن يفلح أبدًا.

فالذين يسيئون إلى الرسول ﷺ، وينالون منه، أو يتنقصون من شأنه ﷺ، فإنهم مهزومون خاسرون بإذن الله ﷻ؛ لأن الرسول ﷺ محاطٌ بنصر الله ﷻ، ونصر ملائكته، ونصر عباده المؤمنين.

فيا من تتطاولون على جناب رسول الله ﷺ، فإنكم خاسرون، ومهزومون فإن الرسول ﷺ معه ربه ﷻ، ومعه الملائكة، ومعه صالح المؤمنين، فلن

يصل إليه أحدٌ، ولن يضره أحدٌ، وإنما من تنقص الرسول أو سبه ﷺ، إنما يضر نفسه في كل زمان، ومكان.

ثم إنه سبحانه وتعالى وجه الخطاب مرة ثالثة إلى زوجتي الرسول ﷺ اللتين حصل منهما ما حصل، فقال عز وجل: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ﴾، أي: الرسول ﷺ، وعسى من الله سبحانه وتعالى واجبة، وقال ربه، وهو رب جميع الخلق، لكن ربوبيته للنبي ﷺ خاصة بالنصر.

﴿إِن طَلَّقَكُنَّ﴾، هذا تهديدٌ لهن، في أنهن إن استمررن على عملهن مع الرسول ﷺ، فإنه ﷺ سيطلقهن؛ عقوبة لهن، ويحرمن من شرف كونهن أمهات المؤمنين، ومن كونهن زوجاته في الجنة.

﴿أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾، فهذا من نصره سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ، في أنه يبدله خيرًا من أزواجه اللاتي طلقهن، وأن يعوضه الله سبحانه وتعالى خيرًا منهن، وأن يكن هن الخاسرات.

ثم وصفه الله سبحانه وتعالى الأزواج البديلات بصفات عظيمة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾، ومعلوم أنه إذا ذُكِر الإسلام، والإيمان صار لكل واحد معنى، وإذا ذُكِر واحد منهما دون الآخر، دخل فيه الآخر، فالإسلام هو: الأعمال الظاهرة، كما فسره النبي ﷺ في الحديث الطويل مع جبريل عليه السلام؛ حيث قال: **«الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»**(١).

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (١) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

والإيمان هو : الأعمال الباطنة؛ كما قال ﷺ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[(١)].

ولابد من اجتماعهما، فلا يصح إسلام بدون إيمان، ولا يصح إيمان بدون إسلام، فإن كان إسلام بدون إيمان، فصاحبه هو المنافق، وهو أن يسلم في الظاهر، ولكنه كافرٌ في الباطن - والعياذ بالله -، وكذلك إذا كان الإيمان في القلب، وليس معه إسلام في الظاهر، فهذا إيمان لا يصح، وهذا إيمان المرجئة؛ ولذلك يقول أهل العلم، (الإيمان قولٌ باللسان، واعتقادٌ بالقلب، وعمل بالجوارح، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية).

﴿قَٰنِتَٰتٖ﴾، والمراد به هنا: دوام الطاعة، فالقانت هو: المداوم على الطاعة، ويطلق القنوت - أيضًا - على طول القيام في الصلاة، قال ﷻ، ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، ويطلق القنوت على السكوت، وعدم الكلام، ويطلق على - دعاء القنوت - الذي يكون في صلاة الوتر.

﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾، من الذنوب، يكثرن من التوبة؛ لأن الإنسان دائما عرضة للخطأ، ولكن الله ﷻ جعل التوبة تطهيرًا للمؤمن.

﴿عَٰبِدَٰتٖ﴾، لله، ملازمات لعبادة الله ﷻ، لا يعبدن غيره ﷻ.

﴿سَٰٓئِحَٰتٖ﴾، فُسِر أن المراد به: الصائمات؛ لأن السائح مثل الصائم يترك الطعام، والشراب، والملذات، فهذا هو وجه تسمية الصيام بالسياحة، والسياحة هي: الجولان في الأرض، ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [التوبة، ٢]،

---

(١) سبق تخريجه الصفحة السابقة.

وقيل: ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾، أي: مهاجرات، وهذا فيه فضل الهجرة في سبيل الله ﷻ.

﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾، الثيب هي: التي سبق لها أن تزوجت، وزالت بكارتها بوطء الزوج لها، وأما البكر فهي: التي لم يسبق لها أن تزوجت، وبقيت فيها بكارتها(١).

وفي هذا التنويع من ثيبات وأبكار كرامة للرسول ﷺ، بأن يكون عنده أنواع من الزوجات، وفيه تعويض للرسول ﷺ عن هؤلاء النسوة اللاتي حصل منهن شيء في حقه ﷺ.

فالحاصل أن هذه السورة عظيمة؛ لما فيها من إجلال لرسول الله ﷺ، وفيها: أن من سب الرسول، أو تنقصه، أو آذاه ﷺ، فإنه مهزوم، وخاسر، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ۝٥٧﴾ [الأحزاب، ٥٧]، فأذية رسول الله ﷺ ليست كأذية غيره من البشر والكذب عليه ليس كالكذب على غيره إن كانت أذية غيره محرمة، قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۝٥٨﴾ [الأحزاب، ٥٨].

لكن أذية رسول الله ﷺ فيها وعيد شديد، والذي يستهزئ بالرسول ﷺ، أو يتنقصه، يرتد عن الإسلام، لكن من تاب فإن الله ﷻ يتوب عليه.

وفيها: الفتوى العظيمة وهي: «أن من حرم حلالًا فإن الكفارة تحله،

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٢٣١)، ولسان العرب (١/ ٢٤٨)، وتاج العروس(٢/ ١١٥).

ولا يترك هذا الشيء الذي حرمه، بل يراجعه.

وفيها: أنه لا يجوز للإنسان أن يحرم الحلال على نفسه، قال ﷻ: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ [التحريم، ١].

وفيها ما يكون بين الضرات بعضهن مع بعض وكيف يعالج.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وسلم.

الدرس الثامن والخمسون

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ
غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا
تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً
نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ
يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ
رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ
ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التحريم: ٦-٩].

لما ذكر الله سبحانه وتعالى ما حصل من بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في حقه من الغيرة، وأمرهن الله بالتوبة، أمر سبحانه وتعالى في هذه الآيات سائر المؤمنين، أن يراعوا أهلهم، ومن في بيوتهم من أزواجهم، وأولادهم، ومن يعيش معهم في البيت، أمرهم سبحانه وتعالى أن يقوا أنفسهم أولًا، ومن تحت أيدهم من النار ثانياً، ويتخذوا وقاية تقيهم منها، وذلك بطاعة الله، ورسوله، وترك معصية الله، ورسوله صلى الله عليه وسلم، فلا يقي من النار يوم القيامة إلا هذا.

قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، نداءٌ من الله ﷻ، لهم باسم الإيمان؛ تكريمًا لهم، وتشريفًا، وليعملوا بموجب هذا الإيمان، ومن ذلك: أن يقوا أنفسهم، وأهليهم من النار، فإن هذا من مقتضى الإيمان الذي اتصفوا به.

﴿نَارًا﴾، نكرة؛ لتفخيم هذه النار، أي: نارًا عظيمة، وليست مثل نار الدنيا التي تعهدونها توقد بالحطب، أو بالمواد المشتعلة، فالنار يوم القيامة توقد بشيئين، ﴿ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾.

أي: جثث أهل النار من الكفار، والعصاة، تشتعل بهم النار.

﴿وَٱلْحِجَارَةُ﴾، وهي: حجارة من كبريت، وهي: أشد اشتعالًا، وقيل: المراد بالحجارة الأصنام؛ توقد في نار جهنم مع أصحابها؛ ليروا أن عباداتها باطلة، وأنها لا تغني عن نفسها شيئًا حتى تغني عنهم، قال ﷻ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨ - ٩٩].

والملائكة، والأنبياء، والصالحون، إذا عُبِدوا من دون الله ﷻ، لايدخلون في هذه الآية، بل هم مبعدون عن النار؛ لأنهم لم يرضوا أن يُعبدوا، ولم يأمروا بهذه العبادة، بل كانوا ينهون عنها، ويجاهدون أهلها، فلما ماتوا عبدوهم.

ثم ذكر الله ﷻ من يقوم على هذه النار، ويتولاها، ويتولى تعذيب أهلها فيها، قال ﷻ: ﴿عَلَيْهَا﴾، أي: على النار.

﴿مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾، فهؤلاء هم الموكلون بتعذيب أهلها - والعياذ بالله -؛ كما قال ﷻ: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ [المدثر: ٣٠]، أي: من الملائكة.

﴿مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ﴾، أي: في طباعهم، ليس فيهم رحمة، ولا شفقة على أهل النار، لئلا يطمع أحدٌ أن يستعطفهم، أو يتفاهم معهم؛ ليخلصوه، أو يخففوا عنه من العذاب.

﴿شِدَادٌ﴾، في أجسامهم، أقوياء، لا يعلم خلقتهم إلا الله ﷻ، وفيهم من القوة ما لا تتصورها العقول، فلا يعجزون عن تعذيب أهل النار على كثرتهم.

و﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾، فلا يطمع أحد في أن يتساهلوا معه في أمر الله ﷻ إذا أمرهم بتعذيب أهل النار، بل إنهم يبادرون، ويمتثلون لأمر الله، ولا يتساهلون في تنفيذ أمر الله ﷻ، كما يحصل من بعض الناس في الدنيا، إذا صدرت الأوامر فإنه يتراخى فيها، ويتكاسل عنها، وربما تأخذه العاطفة والطمع.

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي: ينفذونه كما أمر الله ﷻ، فلا مطمع لأهل النار في الملائكة أن يتساهلوا في حقهم، أو يعطفوا عليهم.

وكل هذا تحذير من أجل أن نأخذ حذرنا، وأن نستعد لما أمامنا.

ولما كان الإنسان عرضة للنقص، والخطأ، والتكاسل، والإخلال، فتح الله له باب التوبة؛ لئلا يقنط من رحمة الله، وييأس، فمما يقي من النار التوبة والطاعة، والعمل الصالح.

ثم قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾.

﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾، أي: في الآخرة مما أنتم فيه من العذاب.

﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ﴿مَّا كُنتُمْ﴾، أي: في الماضي، ﴿تَعْمَلُونَ﴾ فهو عملكم أنتم، لم تُعَذبوا بعمل غيركم فارجعوا إلى أنفسكم باللوم، والتوبيخ.

وهذا نصيحة لنا أن نعمل الصالحات، ولا نكون مثل أهل النار في ذاك الموقف المخزي - والعياذ بالله -، وهو نداء للكفار في الدنيا - أيضًا - أن يتوبوا إلى الله ﷻ، ويدخلوا في الإسلام، ويتبعوا هذا الرسول ﷺ، فالفرصة ممكنة، فهذا النداء يشمل نداءهم في الدنيا، وإنه لا يُقبل عذرهم في الآخرة، فعليهم أن يتوبوا في هذه الدنيا.

ثم نادى الله ﷻ المؤمنين مرة ثانية؛ لأن المؤمن يحصل منه خلل، وتقصير، ومعاص، فالله ﷻ فتح له باب التوبة؛ ليستدرك ما يحصل منه.

قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾، إذا حصل منكم ذنوب ومعاص، وإن كانت كبيرة، وإن كانت كفرًا، وشركًا، أو ردة، توبوا إلى الله ﷻ فإنه يقبل توبتكم، والتوبة تجب ما قبلها، كما أنها لا تحدد بذنب خاص، فالله ﷻ يتوب على الكافر، والمشرك، والعاصي إذا تاب، والتوبة هي: الإنابة، والرجوع عن المعصية إلى الطاعة.

﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾، أي: توبة صادقة خالصة، وليست باللسان فقط، وإنما تكون توبة صحيحة خالصة ناصحة، فالناصح هو: الخالص من كل شيء.

والتوبة يشترط لها ثلاثة شروط:

الشرط الأول: ترك الذنب في الحال، ويعبر عنه العلماء بالإقلاع عن الذنب.

الشرط الثاني: العزم ألا يعود إلى هذا الذنب في المستقبل، فإن تاب المرء، وهو مقيم على ذنبه، فهذا كذاب، ولو تاب باللسان، ولكن إذا تاب، وترك العزم، بأن نوى أن يعود لهذا الذنب بعد أيام، أو بعد سنة، أو بعد رمضان، أو إذا انتهى الحج، فإنه يعود إلى الذنب، أي: يتوب توبة مؤقتة ثم يعود إلى الذنب بعد ذلك، فإن مثل هذا لا تقبل توبته، والله ﷻ يعلم ما في القلوب، ويعلم أنك تريد أن تعود إلى هذا الذنب، وإنما تركته مؤقتًا، إما بمناسبة موسم من مواسم الخير، أو خالطت أناسًا طيبين، فتركت المعاصي معهم، وعندما ابتعدت عنهم، وخلصت منهم، فإنك تعود إلى حالك السابق، هذا لا يقبل الله ﷻ توبته.

الشرط الثالث: الندم على ما فات في الماضي، وتستغفر الله ﷻ، وتكثر من الاستغفار، ولا تنس هذه الذنوب، بل دائمًا تتذكرها، وتستغفر منها.

هذا إذا كان الذنب بينك، وبين الله ﷻ، فيشترط هذه الشروط الثلاثة، فإن كان الذنب بينك، وبين الناس، بأن تكون ظلمتهم في أعراضهم، أو في أموالهم، أو في دماءهم، ففي هذه الحالة لابد من شرط رابع، وهو أن تعيد الحقوق إلى أهلها، أو تطلب المسامحة إن كان مالًا ترده.

ثم ذكر ﷻ ثمرات هذه التوبة النصوح، فقال ﷻ: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، «﴿عَسَىٰ﴾» من الله ﷻ واجبة؛ لأن الله ﷻ وعد من تاب إليه أن يتوب عليه، وأن يغفر له، والله ﷻ لا يخلف وعده.

﴿أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، أي: إذا تبتم إليه ﷻ فإنه يكفر عنكم

سيئاتكم مهما كانت هذه السيئات كبيرة، أو صغيرة، فالتوبة تجب ما قبلها، فلا أحد يترك التوبة استعظامًا لذنبه، وجرمه؛ لأن هذا أشد من المعصية؛ لأنه قنوط من رحمة الله سبحانه وتعالى، ويأس من روح الله.

والثمرة الثانية للتوبة النصوح، في قوله: ﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، فمن ثمرات التوبة العظيمة: أن صاحبها يدخل بها الجنة،

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إِنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**».

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ**».

فالمجال مفتوح أمامك، ولا حاجة أن تذهب إلى أحد من أجل أن تتوب عنده مثلما يفعل النصارى من ذهابهم للقساوسة، ليمنحوهم صكوك الغفران.

﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ﴾؛ لأن الناس يوم القيامة يكونون في ظلمة، أما المؤمن فإن الله سبحانه وتعالى يعطيه نورًا؛ لأنه كان مؤمنًا في الدنيا، فهو على نور في الدنيا، فيعطيه الله نورًا يوم القيامة يسير به.

أما الكفار فليس لهم نور، والمنافقون يعطون نورًا في البداية خداعًا لهم، ثم ينطفئ - والعياذ بالله - فيبقون في ظلمة، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

ولذلك ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا﴾، الذي أعطيتنا.

﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَآ﴾، فهم لا يزكون أنفسهم؛ ولذلك يطلبون من الله ﷻ أن يغفرها لهم.

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، ما قالوا، «اغفر لنا إنك أنت الغفور الرحيم»، بل قالوا، ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ والمناسبة هي أن إتمام النور، عليه إتمام النور إلا الله ﷻ، أي: إنك قادرٌ على أن تحفظ علينا هذا النور، وأن تتمه لنا.

ثم قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، هذا هو النداء السادس في هذه السورة.

﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ﴾، الذين كفروا بالله ظاهرًا، وباطنًا، جاهدهم بالسلاح والقتال في سبيل الله ﷻ.

وجاهد ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾، الذين أظهروا الإيمان، وهم كفارٌ في الباطن، فهم مؤمنون في الظاهر، وكفار في الباطن، وجهاد المنافقين يكون باللسان وذلك بدحض شبهاتهم، ورد ترهاتهم، وأباطيلهم، وجدالهم، وهم في كل زمان، ومكان إلى ما شاء الله، يحتاجون إلى جهاد.

﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ أي: لا تتساهل معهم؛ لأنهم لا ينفع فيهم التساهل؛ لأنك إن تساهلت معهم زاد شرهم، فهم لا يعرفون المعروف، أو يؤثر فيهم، فاغلظ عليهم بالجهاد في سبيل الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [التوبة: ١٢٣].

قال ﷻ، ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾، أي: هي المأوى الذي يأوون إليه في الآخرة.

﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾، بئس المنتهى، وبئس الدار - نسأل الله العافية -.

وكما يجب على الإنسان أن يقي نفسه من النار يجب عليه أن يقي منها أهله ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾.

أما تضييع النساء اللاتي تحت ولايتك من زوجات، وبنات تتركهن يخرجن كما يردن، ويذهبن أينما يردن، وتجعل الحبل على الغارب، هذه تربية سيئة، وأنت المسئول عنهم؛ لأنك أنت الراعي عليهم، وأنت ولي أمرهم.

فطهر بيتك من وسائل الشر التي كثرت في هذا الزمان، من الفضائيات، والصور، والانترنت الذي يجلب الشر، طهر بيتك من هذه الأمور.

فأنت تسعى لهم بالطعام، والشراب، والكسوة، وتعالجهم إذا مرضوا، لكن إذا انحرفوا عن الدين فإنك تقول: إن كل الناس على هذا، وإن المصلح هو الله، والهداية بيد الله ﷻ، نعم المصلح هو الله، والهداية بيد الله، لكن افعل السبب، فالهداية لها سبب، والصلاح له سبب، فابذل السبب، وأما القلوب فهي بيد الله ﷻ، لكنك إذا فعلت السبب، فإن الله ﷻ لا يخيب عمل العاملين.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه، وسلم.

الدرس التاسع والخمسون

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ١٠ - ١٢].

لما ذكر الله ﷻ في أول هذه السورة ما حصل من بعض أزواج النبي ﷺ معه من معاتبتهن له في قضية مارية القبطية رضي الله عنها، أو شرب العسل، وأن ذلك أثر على النبي ﷺ، وعاتب الله سبحانه وتعالى عائشة، وحفصة رضي الله عنهما على ما حصل منهما في حق النبي ﷺ، ودعاهما سبحانه وتعالى إلى التوبة.

ذكر الله سبحانه وتعالى في آخر ها السورة، وختمها بهاتين الآيتين في بيان علاقة الكافر بالمسلم في نسب، أو صهر، وأن ذلك لا ينفعه عند الله سبحانه وتعالى، ما دام أنه كافر.

وذكر في المثل الثاني العكس، وهو أن ارتباط المسلم مع الكافر، مع براءته من دينه، وكونه فعل ذلك من باب الضرورة، فإن هذا لا يضر المسلم، فضرب في هاتين الآيتين ثلاثة أمثلة:

المثل الأول: كافرة زوجها مسلم.

المثل الثاني: امرأة مسلمة زوجها كافر.

المثل الثالث: امرأة ليس لها زوج، ولم يضرها ذلك، وهي: مريم ابنة عمران.

ففي الآية الأولى قال ﷻ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أي: لارتباطهم مع المسلمين، وقرابتهم منهم في النسب، أو الزواج.

﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ﴾ فنوح عليه السلام هو: أول الرسل، وامرأته كانت كافرة.

﴿وَٱمْرَأَتَ لُوطٍۖ﴾ كانت كافرة، فلم يغن نوح، ولا لوط، وهما نبيان من أنبياء الله تبارك وتعالى عن زوجتيهما الكافرتين من الله شيئًا، ويقال لهما في الآخرة ﴿ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ نظراً لعملهما الخبيث.

والسبب: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ ولم تتبعانهما أما لو أنهما اتبعتا النبيين لاستفادتا من صحبتهما، لكنهما خانتاهما في الدين، لا في العرض، فالخيانة هنا كانت في الدين، وهذا إجماع العلماء، وليس في العرض، فلم تزينا؛ لأن الله تبارك وتعالى صان فُرش الأنبياء، فلا تكون زوجة نبي خائنة في عرضها أبدًا، حتى ولو كانت كافرة.

﴿فَلَمْ يُغْنِيَا﴾، أي: يرفعا نوح، ولوط عليهما السلام، ﴿عَنْهُمَا﴾، أي: عن امرأتيهما.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ وصارتا من أهل النار مع الكفار، فمن كان مع الكفار فهو معهم في الدنيا، والآخرة.

﴿وَقِيلَ﴾، لهما إما عند الموت، أو أنه سيقال لهما يوم القيامة، وعبر ﷻ عن المستقبل بصيغة الماضي؛ لتحقق وقوعه.

وهذا فيه أن الإنسان لا ينفعه إلا عمله، ولا يضره إلا عمله، ولا يضره عمل غيره، ولا ينفعه عمل غيره، قال ﷻ، ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة: ١٣٤].

ففيه ردٌ على الذين يعتمدون على الصالحين، ويقولون: بأن هؤلاء يشفعون لنا عند الله ﷻ، ونحن مذنبون، وهم ينفعوننا عند الله ﷻ، هذا ردٌ عليهم أن الإنسان لا ينفعه إلا عمله، ولا ينفعه عمل غيره ولا بالشفاعة، ولو كان نبيًا من أنبياء الله، ما دام أنه غير مؤمن فلا تنفعه شفاعة الشافعين.

فمن كان على دين الكفار، أو لا يتبرأ من دين الكفار، ولا يبغضه، ويقول: بأن الناس كلهم سواء، وأحرار في عقائدهم، وكلٌ له قناعته، فهذا قول إلحاد؛ لأنه بذلك يسوي بين المؤمن، والكافر، ويسوي بين عقيدة التوحيد، وعقيدة الشرك، ويقول: كلٌ له قناعته، وكلٌ له رأيه، فالمسالة ليست مسألة رأي، وقناعة، لأن الله لم يكلنا إلى عقولنا، أو آراءنا، وإنما أرسل إلينا الرسل، وأنزل علينا الكتب؛ ليُبيِّن لنا سبيل النجاة، فن حاد عن دين الرسل، فإنه من أهل النار كائنًا من كان.

فقد ذكر الله ﷻ ابن نوح عليه السلام، وما صار بينه وبين أبيه، من المحاورة في حالة الطوفان، وأن الله ﷻ عزل ابن نوح عنه، وصار مع الكفار، وغرق،

فلم ينفعه أنه ابن نبي من أنبياء الله، ورسول من رسل الله ﷻ، لما خالف دين أبيه، دين التوحيد وهو على دين الكفار مع الكفار، ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣].

وبعد ذلك قال نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥]، فردَّ عليه وقال ﷻ: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ﴾ [هود: ٤٦].

فهو ليس من أهلك الناجين المؤمنين بسبب كفره وإن كان من أهلك في النسب.

وهذا إبراهيم عليه السلام خليل الله، لم ينتفع أبوه مع كون إبراهيم عليه السلام ابنه، لما أصر على الكفر، وأبى أن يستجيب لابنه إلى دعوة التوحيد، فصار من أهل النار، ولم ينفعه قرابة النسب، فلا يعتمد الإنسان على قرابته، أو على إصهاره من المؤمنين، وإنما يعتمد على عمله.

ثم قال ﷻ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، في قربهم من الكفار، وأن ذلك لا يضرهم شيئًا إذا تبرءوا من دينهم، وأبغضوهم، ولكن صاروا مع الكفار لظرف من الظروف، التي ألجأتهم وهم ليسوا معهم في العقيدة، والدين، فإن ذلك لا يضر المؤمن.

وهذا المثل ﴿ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾، وهي: آسية بنت مزاحم رضي الله عنها، وفرعون من أكفر خلق الله ﷻ، فقد ادعى الربوبية، وكفر بموسى، وهارون عليهما السلام، وامرأته آمنت بالله ﷻ، وآمنت بموسى عليه السلام، وبهارون، وتبرأت من دين فرعون، وقومه، ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾، فهي

لا تريد فرعون، ولا قصوره، ولا رفاهيته، ولكنها تريد بيتًا في الجنة.

واختارت جوار الله ﷻ، قال العلماء: إنها اختارت الجار قبل الدار.

﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾، فتبرأت من فرعون، ومن دينه، وكفره.

﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، طلبت النجاة من الكفرة والبعد عنهم.

هذه نتيجة الإيمان، والبراءة من المشركين، وإن خالطهم الإنسان لظروف اقتضى مخالطتهم فهو يتبرأ من دينهم، أما من يخالط الكفار، ولا يتبرأ من دينهم، ولا يبغضه، ويزعم أنه مؤمن، فهو ليس بمؤمن.

فالمسلم إذا اضطرته الظروف إلى مخالطة الكفار مؤقتًا، فإنه يتمسك بدينه، ولا يداهن الكفار، ويتنازل عن شيء من دينه، وأما كونه يداري الكفار فهذه رخصة من الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾، فمن تولى الكفار بالمحبة والنصرة دون المؤمنين فقد تبرأ الله ﷻ منه.

فهناك فرق بين المداهنة، والمداراة، أما من يتنازل عن شيء من دينه؛ من أجل إرضاء الكفار ومن أجل طمع فيما عندهم، ولذلك أوجب الله الهجرة على المسلم من ديار الكفار إلى بلاد المسلمين؛ فرارًا بدينه ما أمكنه ذلك.

ثم قال ﷻ: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ﴾، وعمران: عالمٌ من علماء بني إسرائيل، وعبادهم، وبيته بيت صلاح، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: ٣٣].

مريم وقد مات عمران، ومريم صغيرة، فتنازع بنوا إسرائيل في كفالتها،

من بعده من الذي يكفلها بعد أبيها؟ وضربوا القرعة، قال ﷻ: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، وخرجت القرعة لزكريا عليه السلام، وكان زوج خالتها، فكفلها عليه السلام وذلك بتيسير الله لمريم ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٧].

فنشأت عنده، ولما كبرت، وبلغت مبلغ النساء، جعلت بينها، وبينهم ساترًا يسترها عن الرجال، قال ﷻ: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ [مريم: ١٧]، والجواب ما يستر المرأة عن الرجل من جدار أو باب أو نحوه فيه دليل على وجوب الحجاب للمرأة، وتحريم الاختلاط بين الرجال والنساء الذي ينادي به اليوم الأشقياء منا وينادون بخلع الحجاب ليهلكوا قومهم ويجروا مجتمعهم إلى الهاوية كفانا شرهم ورد كيدهم في نحورهم.

فإنهم يقولون: هذه عنصرية ضد المرأة، وهذا ظلم للمرأة، والمرأة إنسان، ولها حق، اجعلوها تختلط مع الرجال من غير حجاب، ولا دليل على منع الاختلاط ولا دليل على وجوب الحجاب وفيه خلاف بين العلماء وما أشبه هذه الترهات الباطلة.

قال الله عن مريم: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾، تستتر من وراءه، وتعبد ربها، ولما اعتزلت الرجال، وصارت من وراء الحجاب، صار يأتيها رزقها من عند الله سبحانه وتعالى يوميًا، وهذا من كرامات الأولياء، قال ﷻ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

قال ﷻ: فيها ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾، وصانت نفسها، فلم يمسسها بشر، ولما بشرت بعيسى ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠]، ما مسها بشر لأنها لم تتزوج فكافأها الله على عفتها، وصلاحها بأن رزقها ابنًا ليس كبقية الأبناء، وهو: نبي الله عيسى عليه السلام، وكان من غير أب معجزة من عند الله لعيسى عليه السلام حيث خلقه الله من أم بلا أب كما خلق آدم من تراب.

فالذي خلق آدم من غير أب، ولا أم، قادر على أن يخلق مخلوقًا من أم بلا أب قال ﷻ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩]، وخلق عيسى من النفخة التي نفخها الملك في مريم، قال تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾، في فرجها فكان عيسى من تلك النفخة.

قال: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾ [مريم، ١٩ - ٢٠]، من أين يأتي غلام، وأنا لم يمسسني بشر، وليس ليِّ زوج، فلم يسمها أحدُ بزواج، ولا بزنا، فمن أين يأتيها الولد، هذا من المعجزات.

قال ﷻ: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم: ٢١]، الله قادر.

وقوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ أي: الروح المخلوقة، أي: من روح الله سبحانه وتعالى المخلوقة، فنفخ جبريل عليه السلام في جيبها، فذهبت النفخة إلى فرجها، فحملت بنبي الله عيسى عليه السلام، وليس عيسى ابن الله، أو بعضًا من الله سبحانه وتعالى، وإنما هو من خلق الله، ومن عباد الله، خلقه سبحانه وتعالى، ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ

ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم: ٣٠].

قال ﷻ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، هذا ما قاله عيسى عليه السلام لبني إسرائيل.

﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾، آمنت مريم بكلمات ربها، وهي: أوامره سبحانه وتعالى ونواهيه الكونية، والشرعية، وآمنت بكتبه سبحانه وتعالى المنزلة على الرسل، فهذا فيه وجوب الإيمان بجميع الكتب السماوية المنزلة على الرسل، ولا يؤمن ببعضها، ويكفر ببعضها، كما فعلت اليهود، والنصارى، وكانت مريم (من القانتين) المداومين على طاعة الله وعبادته هذا ونسأل الله أن يرزق نساء المسلمين العفة والحشمة والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله وينقذهن من دعايات الغرب وأذنابه.

وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

فهرس الجزء الأول

إذن الطباعة ٥
مقدمة الناشر ٧
الدرس الأول: [الحجرات: ١- ٨] ٩
الدرس الثاني: [الحجرات: ٩- ١٢] ٢٥
الدرس الثالث: [الحجرات: ١٣- ١٨] ٤٢
الدرس الرابع: [ق: ١- ٨] ٥٧
الدرس الخامس: [ق: ٩- ١٥] ٧٦
الدرس السادس: [ق: ١٦-٢٩] ٨٨
الدرس السابع: [ق: ٣٠-٣٧] ١٠٠
الدرس الثامن: [ق: ٣٨- ٤٥] ١١٥
الدرس التاسع: [الذاريات: ١- ١٩] ١٢٦
الدرس العاشر: [الذاريات: ٢٠ - ٣٠] ١٤١
الدرس الحادي عشر: [الذاريات: ٣١ - ٤٦] ١٥١
الدرس الثاني عشر: الذاريات: [٤٧ - ٦٠] ١٦٧
الدرس الثالث عشر: [الطور: ١ - ١٦] ١٨٢
الدرس الرابع عشر: [الطور: ١٧ - ٢٨] ١٨٩
الدرس الخامس عشر: [الطور: ٢٩ - ٤٩] ١٩٩

الدرس السادس عشر : [النجم : ١ - ١٨] ٢١٤
الدرس السابع عشر : [النجم : ١٩ - ٣٠] ٢٢٣
الدرس الثامن عشر : [النجم : ٣١ - ٤١] ٢٣٤
الدرس التاسع عشر : [النجم : ٤٢ - ٦٢] ٢٤٢
الدرس العشرون : [القمر : ١ - ١٧] ٢٥١
الدرس الحادي والعشرون : [القمر : ١٨ - ٤٠] ٢٦٢
الدرس الثاني والعشرون : [القمر : ٤١ - ٥٥] ٢٧٠
الدرس الثالث والعشرون : [الرحمن : ١ - ١٦] ٢٨٢
الدرس الرابع والعشرون : [الرحمن : ١٧ - ٣٤] ٢٩٤
الدرس الخامس والعشرون : [الرحمن : ٣٧ - ٦١] ٣٠٥
الدرس السادس والعشرون : [الرحمن : ٦٢ - ٧٨] ٣١٨
الدرس السابع والعشرون : [الواقعة : ١ - ٢٦] ٣٣٠
الدرس الثامن والعشرون : [الواقعة : ٢٧ - ٥٦] ٣٤١
الدرس التاسع والعشرون : الواقعة : ٥٧ - ٧٤] ٣٥١
الدرس الثلاثون : [الواقعة : ٧٥ - ٩٦] ٣٦١
الدرس الحادي والثلاثون : [الحديد : ١ - ٩] ٣٧٠
الدرس الثاني والثلاثون : [الحديد : ٧ - ١١] ٣٨٠
الدرس الثالث والثلاثون : [الحديد : ١٢ - ١٧] ٣٨٨
الدرس الرابع والثلاثون : [الحديد : ١٨ - ٢١] ٣٩٩
الدرس الخامس والثلاثون : [الحديد : ٢٢ - ٢٩] ٤١١

الدرس السادس والثلاثون: [المجادلة: ١ - ٤] ٤٢٥
الدرس السابع والثلاثون: [المجادلة: ٥ - ١١] ٤٣٤
الدرس الثامن والثلاثون: [المجادلة: ١٢ - ١٧] ٤٤٨
الدرس التاسع والثلاثون: [المجادلة: ١٨ - ٢٢] ٤٥٥
الدرس الأربعون: [الحشر: ١ - ٦] ٤٦٤
الدرس الحادي والأربعون: [الحشر: ٧ - ١٠] ٤٧٥
الدرس الثاني والأربعون: [الحشر: ١١ - ١٧] ٤٨٧
الدرس الثالث والأربعون: [الحشر: ١٨ - ٢٤] ٤٩٧
الدرس الرابع والأربعون: [الممتحنة: ١ - ٦] ٥١٠
الدرس الخامس والأربعون: [الممتحنة: ٧ - ١٠] ٥٢٦
الدرس السادس والأربعون: [الممتحنة: ١١ - ١٣] ٥٣٧
الدرس السابع والأربعون: [الصف: ١ - ٦] ٥٤٦
الدرس الثامن والأربعون: [الصف: ٧ - ١٤] ٥٥٩
الدرس التاسع والأربعون: [الجمعة: ١ - ٥] ٥٦٨
الدرس الخمسون: [الجمعة: ٦ - ١١] ٥٧٨
الدرس الحادي والخمسون: [المنافقون: ١ - ٦] ٥٨٨
الدرس الثاني والخمسون: [المنافقون: ٧ - ١١] ٥٩٧
الدرس الثالث والخمسون: [التغابن: ١-٨] ٦٠٨
الدرس الرابع والخمسون: [التغابن: ٩-١٨] ٦٢٠
الدرس الخامس والخمسون: [الطلاق: ١- ٥] ٦٣٥

الدرس السادس والخمسون: [الطلاق: ٦- ١٢] **٦٤٤**
الدرس السابع والخمسون: [التحريم، ١- ٥] **٦٥٣**
الدرس الثامن والخمسون: [التحريم، ٦ - ٩] **٦٦٢**
الدرس التاسع والخمسون: [التحريم، ١٠ - ١٢] **٦٧٠**
فهرس الجزء الأول **٦٧٩**

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة